

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقُرْضَاوِيِّ



المحور الثالث

الفقه وأصوله
(فقه السلوك والأخلاق)



الورع والزهد

الإمام يوسف القرضاوي



من الدستور الإلهي للبشرية

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّاهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ * أُولَٰئِكَ جَزَاءُهم مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهم وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿ هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ * مَن خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلٰمٍ ۗ ذٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿ [ق: ٣٢ - ٣٤].

﴿ اَعْلَمُوا اَنَّما الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْاَمْوَالِ وَالْاَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ اَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنِائِهِ ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرٰنِهٖ مُّصْفَرًا ثُمَّ يَكُوْنُ حُطَمًا ۗ وَفِي الْاٰخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيْدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّٰهِ وَرِضْوَانٌ ۗ وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا اِلَّا مَتَعُ الْغُرُوْرِ ﴿ [الحديد: ٢٠].



من مشكاة النبوة الخاتمة

عن أبي هريرة رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة، كن ورعًا، تكن أعبد الناس، وكن قنعًا، تكن أشكر الناس، وأحب للناس ما تحب لنفسك، تكن مؤمنًا، وأحسن جوار من جاورك، تكن مسلمًا، وأقل الضحك؛ فإن كثرة الضحك تميت القلب». رواه ابن ماجه.

عن عبد الله بن مسعود رضي عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه». وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلًا؛ كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق، فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، فأججوا نارًا، وأنضجوا ما قذفوا فيها. رواه أحمد.

عن أبي ذر رضي عنه، قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين، والذنوب منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرّحم وإن أدبرت، وأمرني ألا أسأل أحدًا شيئًا، وأمرني أن أقول بالحق وإن كان مؤرًا، وأمرني ألا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنهن من كنز تحت العرش. رواه أحمد.

عن أبي هريرة رضي عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة». رواه الترمذي.

عن زيد بن ثابت رضي عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان همّه الآخرة، جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا، فرّق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتبت له». رواه أحمد.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا وإمامنا وأسوتنا ومعلمنا
رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.
(وبعد)

فإنَّ الله تعالى قد خلقنا لنعرفه ونعبده وحده لا شريك له، ونقوم
بخلافته في أرضه، وهي المنزلة التي اشرأبت إليها أعناق الملائكة أن
تُناط بهم، قائلين: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ
بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فخصَّ الإنسان
بالاستخلاف في الأرض، ومكَّن له فيها، وجعل له فيها معاش، وبارك
فيها، وقدر فيها أقواتها، وجعل الإنسان مبتلى فيها، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ
نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢].

ومما ابتلاه به: أمانة التكليف، جمع تكليف، وهو إلزام ما فيه كلفة
ومشقة، وهي الأمانة التي عرضت ﴿عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ
يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٢، ٧٣].

وكان من تمام نعمة الله على الإنسان: أنه أمده بكل ما يُعينه على أداء مهمّة العبادة لله والاستخلاف في الأرض، وبلوغ كماله المقدر له، فمنحه العقل الذي به يفكر، والإرادة التي بها يرجح، والقدرة التي بها ينفذ، وآتاه من المواهب والمَلَكَات النفسية والرُّوحية ما لم يؤت مخلوقاً آخر، وأنزل عليه الكتب، وبعث له الرسل، مبشّرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حُجّة بعد الرسل.

كما كان من تمام الابتلاء للإنسان: أن سلّط عليه نفسه التي بين جنبيه، وهي أمارة بالسوء، تحبُّ العاجلة، وتذرُّ الآخرة، وسلّط عليه عدوّه إبليس اللعين «الشیطان» وجنوده، وقد حلف أمام الله جلّ وعلا: ﴿فِيمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَا تَجِدُنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

ومن يومها والمعركة دائرة بين الشيطان والإنسان، وقد حذر الله منه أشدّ التحذير: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقام الأنبياء وورثتهم من العلماء بمهمّتهم في تنبيه الخلق من غفلتهم، وإمدادهم بالأسلحة التي تُعينهم في معركتهم، حتّى لا يستحوذ عليهم الشيطان فينسيهم ذكر الله، وينضمُّوا إلى حزب الشيطان، المجافي والمعادي لحزب الرحمن وركب الإيمان. وبينوا ما عهد الله إليهم من عبادته وعبادته، ومعاداة عدوّه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

فالله تعالى يريد من عباده أن يعبدوه وحده، ولا يشركوا بعبادته أحداً ولا شيئاً، وذلك باتّباع منهجه الرباني الذي شرعه على ألسنة رسله،

وخاتمهم محمد ﷺ، والشيطان يريدهم أن يتبعوا منهجه، ويدعوا منهج الله، فيدعوا الهدى إلى الضلال، والنور إلى الظلام.

ومن هنا قام الربانيون في كلِّ جيل، متأسين برسول الله، مقتبسين من مشكاة نبوته، ليردوا الناس إلى الله، ويسوقوهم إلى الجنة، مرغبين ومرهبين، وألا تغرهم الحياة الدنيا، ولا يغرهم بالله الغرور، وأن يسيروا في طريق عبادة الله، مخلصين له الدين حنفاء، وعبادة الله هنا تشمل العبادة الظاهرة والعبادة الباطنة.

وإذا كان «علم الفقه» يُعنى «بالعبادات الظاهرة» من الصلاة والزكاة، والذكر والتسبيح والدعاء، فإن «علم السلوك» أو «فقه السلوك» يُعنى «بالعبادات الباطنة» من النية والإخلاص، والتوكل والتوبة إلى الله، والرجاء والخوف، والشكر والصبر، والورع والزهد، والمراقبة والمحاسبة، وغيرها من منازل السائرين، ومدارج السالكين إلى مقامات «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين»، حسب تعبير الإمام الهروي.

ونحن نعلم أنّ القرآن قد جعل النجاة في الآخرة منوطة بسلامة القلب: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، والقلب السليم، هو السليم من الشرك والنفاق، والكبر والحقد والرياء، وأثار البدع والمعاصي.

كما أنّ الجنة لا يدخلها إلاّ مَنْ كان ذا قلب منيب: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٢ - ٣٤]، وفي الحديث المتفق عليه: «ألا إنّ في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله»^(١).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، عن النعمان بن بشير.

هذا، وقد كنتُ أصدرت أربعة كتب في سلسلة «فقه السلوك» أو الطريق إلى الله، حول: الربانية والعلم، النية والإخلاص، التوكل، التوبة إلى الله. واليوم أتبعها بخامس عن «الورع والزهد»، ولعلّه كان ينبغي أن يقدم على بعض ما نُشر، ولكنني جرت عادتي أن أكتب فيما ييسر الله لي الكتابة فيه، ثم أنشره على حاله، وإن لم يكن على الترتيب الذي أحبه. ولعل ذلك يحدث، بعد أن تتم أجزاء السلسلة، فإما أن أرتبها أنا إن قدر الله لي ذلك، أو يرتبها من بعدي من يقوم على جمع تراثي، وكلُّ شيء عند الله بأجل مسمّى.

وهذا الجزء الخامس في «الورع والزهد» من هذه السلسلة المباركة «الطريق إلى الله وعجل»، جعلته في تمهيد وثلاثة أقسام وخاتمة.

أمّا التمهيد، فقد تحدثت فيه عن أهداف الناس في الحياة الدنيا. وأمّا الباب الأول، فقد جعلته في فصلين:

الفصل الأول: في تعريف الورع لغة واصطلاحًا، تكلمت فيه عن الورع.

والفصل الثاني: في حقيقة الورع ومراتبه.

وأمّا الباب الثاني، فقد تكلمت فيه عن الزُّهد، وجعلته في أحد عشر فصلًا.

الفصل الأول: في التحذير من فتنة الدنيا، وأوردت فيه جملة من آيات القرآن وسنة النبي ﷺ.

والفصل الثاني: في المراد بالدنيا المذمومة في القرآن والسنة.

والفصل الثالث: فيما ينكره الإسلام من الدنيا.



والفصل الرابع: تعريف الزُّهد عند علماء السلوك.

والفصل الخامس: حقيقة الزُّهد في الدُّنيا ومقوماته، وهو يقوم على مقومين أساسيين: إرادة الآخرة وإيثارها على الدُّنيا أولاً، والإعراض عن اتباع الشهوات ثانياً.

والفصل السادس: موقف النَّاس من الزُّهد في الحياة الدنيا.

والفصل السابع: عقبات في طريق الزُّهد، وذكرت فيه أربع عقبات: الغفلة، وطول الأمل، وانتشار القيم المادية، وافتقاد القدوة.

والفصل الثامن: بواعث الزُّهد، وذكرت فيه أربعة بواعث: ذكر الموت، والاعتبار بمصاير أهل الدُّنيا، واستحضار الآخرة، ومعرفة قيمة الدنيا.

والفصل التاسع: ما ليس من متطلبات الزُّهد، ذكرت فيه أربعة أمور: الإعراض عن الزواج، والعزلة عن المجتمع، وترك العمل لكسب الدُّنيا، والإعراض عن الحياة الطيبة.

والفصل العاشر: حدود الزُّهد في ضروريات الحياة الدُّنيا في نظر الإمام الغزالي.

والفصل الحادي عشر: وقفات نقدية أمام الغلاة في الزُّهد، وقفت فيه ثلاث وقفات: الأولى: أنّ مصطلح الزُّهد والزهاد ليس قرآنيًا ولا نبويًا. والثانية: زهد العصور الماضية لا يصلح لعصرنا. والوقفة الثالثة: انتقدت فيها منهج الإمام الغزالي.

وأما الباب الثالث من الكتاب، فقد أوردت فيه نماذج من زهد الخلفاء والعلماء وورعهم. وجعلته في خمسة فصول: الأول: في زهد

عمر بن الخطاب وورعه. والثاني: في زهد علي بن أبي طالب وورعه. والثالث: في زهد عمر بن عبد العزيز وورعه. والرابع: في زهد إبراهيم بن أدهم وورعه. والخامس: في زهد عبد الله بن المبارك وورعه. وأمّا الخاتمة فقد استقرت فيها أهم النتائج والاستنباطات والتحقيقات العلمية والوقفات التحليلية.

وقد تميّز هذا الجزء من هذه السلسلة بمزيد من العناية في عدد من الجوانب، منها: قيام الإخوة العاملين في مكتبي العلمي بتوثيق النقول وتخريج الأحاديث على المنهج الذي رسمته في كتبي الأخيرة، وذكرته في عدد من المقدمات. وعُني الأخ الشيخ وليد أبو النجا بمراجعة الكتاب وتدقيقه.

وقد حظي الكتاب كذلك بمراجعة الأخ الشيخ مجد مكي، الذي قام بتصحيح الكتاب والعناية بترقيمه، وأعاد النظر في ترتيبه، وأضاف عددًا من العناوين الجانبية للمباحث الهامة في الكتاب، لتدل القارئ على مضمونها، قبل الدخول في قراءتها، فتكون أوفى فهمًا، وأيسر معرفة إذا أراد الرجوع إليها.

وأرجو الله أن يبارك في الوقت والعمر لإتمام هذه السلسلة المباركة «في الطريق إلى الله»، وسيصدر قريبًا بعون الله: المراقبة والمحاسبة، ويتلوه الصبر والشكر والخوف والرجاء، ثم المراقبة والمحاسبة.

أسأل الله جلّ ثناؤه، وتباركت أسماؤه، أن ينفع بهذه السلسلة من فقه السلوك، وبغيرها من كلّ ما يُقرأ ويُسمع ويُشاهد من عملي، وأن يجعلها نورًا لمن استهدى بها، وطوق نجاته من النار لمن اعتصم بها، وهاديًا إلى الله بإذنه، وأن يجعلنا من عباده المقبولين عنده، المرضيين لديه،

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۗ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨] ، ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۖ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١] .

محرم ١٤٣١هـ - يناير ٢٠١٠م

الفقير إلى الله تعالى

يوسف القرضاوي

تمهيد: أهداف الناس في هذه الدنيا

للناس في هذه الدنيا أهداف شتى، فهم بالنظر إليها أنواع:

منهم مَنْ لا يعرف له غاية يعيش لها، ولا يعرف لحياته معنى، فهذا ميّت وإن عُدَّ في الإحصاء مع الأحياء. فهؤلاء الذين قال عنهم الإمام الغزالي: «يأكلون ليكسبوا، ثم يكسبون ليأكلوا! وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين، ومَنْ ليس له تنعم في الدنيا، ولا قَدَم في الدين. فإنه يتعب نهارًا، ليأكل ليلاً، ويأكل ليلاً ليتعب نهارًا! وذلك كسير السواني^(١) فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت»^(٢).

ومنهم مَنْ يعيش لغاية قريبة، هي أن يتمتع بحياته، ويُشبع شهواته، فهو يأكل ويشرب، ويلهو ويلعب، ويركض وراء اللذات الحسيّة، والمطالب الماديّة الدنيويّة، ثم ينفق كما تنفق الدابة، فهو أشبه بمَنْ قال الله تعالى فيهم: ﴿يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد: ١٢].

(١) السواني جمع سانية، وهي الناقة التي يسقى عليها، وفي المثل: سير السواني سفر لا ينقطع. مختار الصحاح مادة (س. ن. ا).

(٢) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/٢٢٨، ٢٢٩)، نشر دار المعرفة، بيروت.

ومنهم مَنْ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ لْغَايَةٍ، وَأَنَّهُ يَعِيشُ لِرِسَالَةٍ، يَحْيَا بِهَا، وَيَمُوتُ عَلَيْهَا، وَيَعْمَلُ بِهَا، وَيَعْمَلُ لَهَا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْحَيَاةَ فِي الدُّنْيَا، وَالسَّعَادَةَ فِي الْآخِرَةِ.

وهذا النوع أصناف كذلك، ودرجات بعضها فوق بعض، وهم الذين قال فيهم القرآن: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

وهؤلاء الذين يجاهدون أنفسهم في سلوكهم في الطريق إلى الله، ليصلوا إلى جنته ورضوانه في الآخرة، وإلى سكينته النفس والحياة الطيبة في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨]، ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤].

وإلى هذا النوع الأخير بأصنافه ودرجاته نكتب هذه السلسلة في «فقه السلوك»، أو «فقه الطريق إلى الله»، التي ظهر منها أربعة أجزاء منذ سنوات، ثم توقفت لأنشغالي بموضوعات أخرى، منها كتابي في «فقه الجهاد»، الذي أسأل الله تباركت أسماؤه أن ينفع به أمتنا في مسيرتها، ويفقهها به في دينها ورسالتها، ويجمع كلمتها على الهدى، وقلوبها على التقوى، ويؤلف بينها على نصرته دينه بالجهاد الحق، كما بعث الله به رسوله الكريم، وأنزل به كتابه المبين، لا كما يتوهمه الغلاة والمفرطون.

الفرق بين الورع والزهد:

وفي هذا الجزء نتحدّث عن محطّتين مهمّتين من محطّات الطريق إلى الله، وبعبارات رجال السلوك: منزلتين من منازل السائرين إلى الله، وإلى عبادته، وهما: الورع والزهد، فما الفرق بين الورع والزهد؟

قال الإمام أبو الوليد بن رشد القرطبي المالكي (ت: ٥٢٠هـ): الورع هو: اجتناب المحرمات والمتشابهات. قال رسول الله ﷺ: «الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمورٌ متشابهات، فمن اتقى المشتهات استبرأ لدينه وعرضه...» الحديث^(١)، فاجتناب المحرّمات واجب، واجتناب الشُّبهات مستحبّ.

ولا ينطلق اسم الورع إلا على من اجتنب المحرّمات والمشتهات. والزهد هو: ما يبعث على اجتناب المحرّمات والمشتهات، وترك التّنعّم بالمباح من الشهوات. فكلُّ زاهد ورع، وليس كلُّ ورع زاهداً، فالورع أعمُّ من الزهد^(٢) اهـ.

وكذلك الورع يسبق الزُّهد، فهو مقدّمة له.

قال العلامة ابن القيم: سمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: الزهد: ترك ما لا ينفع في الآخرة. والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة. قال ابن القيم: وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزُّهد والورع وأجمعها^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٩، وفيه: «ألا إن في الجسد مُضغَةً».

(٢) المقدمات الممهّدة (٣/٣٩٢، ٣٩٣)، تحقيق د. محمد حجي، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٣) مدارج السالكين (٢/١٠)، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.



أهمية الورع والزهد:

وقال الحسن: مثقال ذرة من الورع؛ خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة^(١)!

وهو يشير إلى أهمية أعمال القلوب، بالنسبة إلى أعمال الجوارح.

وقال سلمان (الفارسي): جلساء الله غداً أهل الورع والزهد^(٢).

وقال أبو واقد الليثي: تابعنا الأعمال، فلم نجد شيئاً أبلغ في طلب الآخرة من الزهد في الدنيا^(٣).

وقال أيضاً: ما وجدنا شيئاً أعون على أخلاق الإيمان من الزهادة^(٤).

وقال ابن المبارك: ما رأيت شيئاً يُتقوى به على العبادة مثل الجوع والزهادة^(٥).

لماذا خلقنا الله وَجَلَّ جَلَلُهُ؟

فمما لا ريب فيه، ومما علّمناه الإسلام في قرآنه العظيم، وسنة نبيه الكريم: أن الله تعالى خلقنا ليمتحننا وابتلينا بالإيمان به، والإسلام له، وتحقيق العبودية له؛ لنعبده وحده لا نتعبد لأحدٍ سواه، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

(١) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين (٢٢/٢).

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه لابن لال (٣٥٩٧)، عن سلمان، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٦٣٢).

(٣) رواه هناد (٥٥٨)، ووكيع (٢)، وابن أبي شيبة (٣٥٧٦٧)، ثلاثتهم في الزهد.

(٤) رواه ابن الأعرابي في الزهد وصفة الزاهدين (٥٨)، تحقيق مجدي فتحي السيد، نشر دار الصحابة للتراث، طنطا، ط ١، ١٤٠٨هـ.

(٥) المصدر السابق (٥٩).

وكذلك لنقوم بخلافته في أرضه، نقيم فيها الحقَّ والعدل والخير والصلاح، ونطارد فيها الباطل والظلم والشرَّ والفساد. كما قال تعالى للملائكة حين أراد خلق آدم ﷺ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

كما خلقنا ﷺ لنعمر أرضه ونصلحها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ومعنى ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ﴾: أي طلب إليكم أن تعمروها ولا تخربوها، وأن تصلحوها ولا تفسدوها، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، أي: بعد أن خلقها الله صالحةً لسكناكم ولمعيشتكم، ولإعانتكم على رسالتكم فيها، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، وقال تباركت آلاؤه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

كيف نحقق العبودية لله سبحانه؟

ولكي نقوم بعبادة الله وخلافته وعمارة أرضه، لا بد لنا أن نتبع منهجه الذي شرعه لنا في كتابه، وعلى لسان رسوله، الذي أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

ومقتضى هذا: أن نتحرر من عبوديتنا لأهوائنا أو أهواء الآخرين، لنعبد الله وحده، ولننقاد لشرعه بكل ما فيه من أوامر ونواهٍ، وعقائد وأحكام. فإنما مهمّة الشرع أن يُخرج الإنسان من اتباع هواه أو هوى سواه، إلى اتباع هدى الله، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٥].



حقيقة الدين:

وهذا هو حقيقة الدين: أن تسلم وجهك إلى الله، وتحسن عملك في رضا الله، ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ابتلاء الله عباده بالتكليف:

والدين قائم على التكليف الذي ابتلى الله به عباده، وهو التزام ما فيه كلفة ومشقة، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]. وهو الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان. إنها أمانة التكليف، وهي مسؤولية ما أثقلها!

وإنما ابتلى الله بني آدم بهذا التكليف، ليصقلهم ويعدهم به في الدنيا للخلود في الآخرة، دار البقاء. وقد هيأهم الله بما آتاهم من نعمة العقل، ونعمة الإرادة، وبما بعث لهم من الرسل، وأنزل عليهم من الكتب.

التكليف فعل وترك:

والتكليف فعل وترك، لأنه أوامر ونواهٍ. فما تُؤمر به مطلوبٌ أن يفعل، وما تُنهى عنه مطلوب أن يُترك، وإن اختلفت مراتب الطلب. وهكذا كلُّ منازل الطريق إلى الله إنما هي فعل وترك.

الورع والزهد يدخلان في جانب الترك:

و«الورع» و«الزهد» يدخلان في باب الترك والاجتناب في أصلهما.

إذ «الورع» في حقيقته هو ترك ما حرم الله، أو ترك ما نهى الله عنه، أو ما لا يحبُّه الله من عباده، وهذا ضربٌ من عبادته سبحانه، فليست كلُّ العبادات شعائرٌ ومناسك يُتقَرَّبُ بها إلى الله سبحانه، بل منها: اتِّقاء ما يغضبه تعالى من الأقوال والأفعال، ظاهرة أو باطنة، كما قال رَجُلٌ: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ^١ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيَجْزُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٠].

وهنا يأتي الحديث القائل: «اتقِ المحارمَ تكنُ عبدَ الناسِ»^(١). فهنا يجعل الحديث عبادة الله مُجسِّدة في ترك المُحرِّمات «اتقِ المحارم». وفي بعض روايات الحديث: «كنْ ورِعًا تكنُ عبدَ الناسِ»^(٢)، فجاء بلفظ «الورع».

وكذلك «الزهد» هو تركٌ أيضًا، لأنَّ حقيقته الإعراض عن متاع الدنيا وزخارفها، رغبةً فيما عند الله جلَّ شأنه، سواء كان زهدًا في الحرام، أم في الشُّبهات، أم في فضول الحلال؟. وبعبارة أخرى: هو ترك كل ما يشغل عن الله سبحانه.

وفي ضوء هذه المُسلِّمات نبحث في حقيقة كلِّ من الورع والزهد، لنعرف ما جاء فيها من هُدى الله تعالى في كتابه، ومن هُدى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سُنَّته وسيرته.

وما قاله علماء السلوك من سلف الأمة، الذين يُقتدى بهم فيهدى، قبل أن تشيع البدع، وتنتشر الضلالات والمحدثات، حتَّى يتبيَّن الحقُّ، وتتضح الغاية، ولا يلتبس الطريق على السائرين.

(١) رواه أحمد (٨٠٩٥)، وقال مخرِّجوه: حديث جيد. والترمذي في الزهد (٢٣٠٥)، وقال: غريب.

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢١٧)، وأبو يعلى (٥٨٦٥)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع.

(٤٥٨٠)، عن أبي هريرة.

الميزان الذي لا يميل والمعيار الذي لا يضلُّ:

على أن كلَّ ما ننقله من أقوال، وما نقضه من قصص، وما نسوقه من مواقف، يلزمنا أن نردهُ إلى الميزان الذي لا يميل، والمعيار الذي لا يضلُّ، وهو المحكمات من كتاب ربِّنا، ومن سنَّة نبينا، ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، لأنَّ أقوال الخلق وأعمالهم - وإن كانوا من الزاهدين الصالحين - ليست حُجَّة في دين الله؛ لأنَّ الخطأ جائز عليهم، ولا معصوم إلا مَنْ لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]، ولا سيما في هذا المقام، فالغلُو فيه متوقَّع، والشطط فيه وارد؛ لأنَّه أمر يتعلق بالوجدان الإنساني، وبخاصَّة أنَّه دخلت عليه مفاهيم وقيم من أمم وديانات وفلسفات أخرى غير الإسلام، فأثرت في طريقه، وفي أهله، شئنا أم أبينا.

لذا كان من المهم هنا: أن نُخلِّص المفهوم الإسلامي المحض من الشوائب التي اختلطت به، لنعيده إسلاميًّا ربانيًّا قرآنيًّا محمديًّا. وهو الذي يلزمنا أن نتبعه، ونسير على هداه.

وسنقسم بحثنا أو كتابنا هذا إلى قسمين: قسم للورع، وآخر للزهد.

الورع سابق على الزهد:

وسنبدأ «بالورع»؛ لأنَّه سابق على الزهد؛ لأنَّه كالمقدمة له، أو لأنَّ الورع يمثل التخلية، والزهد يمثل التخلية، والتخلية تسبق التخلية.

ولذا روى ابن الأعرابي في كتابه «الزهد وصفة الزاهدين»، عن أبي سليمان الداراني - وهو أحد أئمة التربية والسلوك - أنه قال: القناعة من

الرضا بمنزلة الورع من الزهد. قال: فهذا أول الرضا. يعني: القناعة. وهو أول الزهد. يعني: الورع^(١).

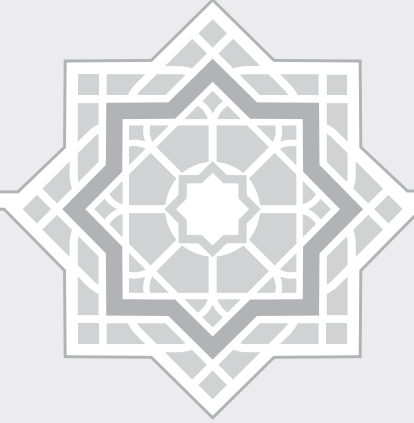
وروى ابن الأعرابي أيضًا، عن عثمان بن عمارة قال: كان يُقال: الوَرَع يبلغ بالعبد إلى الزُّهد في الدُّنيا، والزهد يبلغ به إلى حبِّ الله^(٢)!

* * *

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٤/٩).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٠١)، وابن الأعرابي في الزهد (٦٢).

مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
بُوسَيْفِ الْقُرْظَبَاوِيِّ



الباب الأول

الورع



- الفصل الأول: تعريف الورع وحقيقته.
- الفصل الثاني: درجات الورع ومراتبه.



بُوسَيْفِ الْقُرْظَبَاوِيِّ



الفصل الأول

تعريف الورع وحقيقته

تعريف الورع لغة واصطلاحًا:

الورع لغة: مصدر قولهم: وَرَعَ يَرَعُ وهو مأخوذ من مادة «ورع»، التي تدلُّ على الكف والانقباض.

وقال ابن منظور: الورع: التحرُّج، والورع - بكسر الراء - هو: الرجل التقي المُتحرِّج.

واصطلاحًا: قال المُنَاوِي: قيل في تعريفه: الورع ترك ما يَرِيْبِك، ونفي ما يَعْيبِك، والأخذ بالأوثق، وحمل النفس على الأشق.

وقيل: النظر في المطعم واللباس، وترك ما به باس. وقيل: تجنُّب الشُّبُهَات، ومراقبة الخطرات^(١).

وقال الراغب: الورع عبارة عن ترك التسرُّع إلى تناول أعراض الدنيا^(٢).

(١) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٣٣٦، نشر عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٢٧، تحقيق د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، نشر دار السلام،

القاهرة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

وقيل: ترك ما لا بأس به حذرًا مما به بأس.

وقيل هو: ترك الشُّبهات، وهو الورع المندوب، ويطلق على ترك المحرّمات^(١).

وقالوا: الورع أخذ الحلال الصّرف، وترك كلّ ما فيه شبهة.

من أقوال السلف في تعريف الورع:

قال الفضيل: من عرف ما يدخل جوفه كتب عند الله صديقًا.

وقال سهل التُّستري: من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى، ومن أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى.

وقال يونس بن عُبيد: الورع: الخروج من كلّ شبهة، ومحاسبة النفس كل طرفة عين.

قال الصحابة: كُنّا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام.

والورع ظاهر وباطن: فالظاهر: ألا تتحرّك إلا إلى الله، والباطن: ألا تُدخل قلبك سواه.

(١) دليل الفالحين لابن علان الصديقي (٢٧/٥)، نشر دار المعرفة، بيروت، ط ٤، ١٤٢٥هـ -

الفصل الثاني

درجات الورع ومراتبه

عرفنا حقيقة الورع، وبقي أن نعرف درجاته ومراتبه.

للورع عند علماء السلوك مراتبٌ ودرجات بعضها أعلى من بعض، كمعظم مقامات الدين، ومنازل السالكين إلى الله. فهناك أعلى، وهناك أدنى، وهناك وسط، ولكلٍّ مجتهدٍ نصيبٌ، ومن سار على الدرب وصل. والله تعالى يقول: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقد قسم الراغب الأصفهاني الورع إلى ثلاث مراتب:

- ١ - واجب: وهو الإحجام عن المحارم، وذلك للناس كافة.
- ٢ - مندوب: وهو الوقوف عن الشبهات، وذلك للأواسط.
- ٣ - فضيلة: وهو الكفُّ عن كثير من المباحات، والاقْتِصَارُ عَلَى أَقْلِ الضَّرُورَاتِ، وذلك للنبين والصدّيقين والشهداء والصالحين^(١).

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٢٢٧.

المرتبة الأولى: الورع عن اقتراف الكبائر:

أدنى مراتب الورع: الورع عن ارتكاب الكبائر. وهي التي سمّاها النبي ﷺ: «الموبقات»، أي: المهلكات، هي مهلكات للفرد، وهي مهلكات للجماعة، هي مهلكات في الدنيا، ومهلكات في الآخرة. وفيها جاء الحديث المتفق عليه: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: وما هنّ يا رسول الله؟ قال: «الشُّرْكُ بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التي حَرَّمَ الله، وقذف المُحصنات الغافلات، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف»^(١). يعني الفرار يوم ملاقات العدو. ومن المؤكّد أنّ هذه الموبقات السبع ليست هي كلُّ الكبائر.

تعريف الكبيرة:

وقد اختلف العلماء في تعريف الكبيرة، ما هي؟ وأرجح الأقوال: أنّها كلُّ معصية لله شرع لها حدٌّ في الدنيا، أو جاء فيها وعيد شديد في الآخرة. والمراد بالوعيد الشديد: أن يكون بالعذاب في نار جهنم، أو يتضمّن غضب الله تعالى ولعنته، أو حرمانه من دخول الجنة، أو نحو ذلك. فما شرع له حدٌّ في الدنيا مثل: السرقة والزنى والقذف به للمرأة أو للرجل، وقطع الطريق، وشرب الخمر، وإن كان هناك من العلماء من يرى عقوبة الخمر تعزيراً. والظاهر أنّه مذهب الإمام البخاري^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦)، ومسلم في الإيمان (٨٩)، عن أبي هريرة.
 (٢) قال ابن حجر: وأظن الأول - أي: الرأي الأول، وهو أن النبي ﷺ لم يجعل في شرب الخمر حدًّا معلومًا - رأي البخاري، فإنه لم يترجم بالعدد أصلاً، ولا أخرج هنا في العدد الصريح شيئاً مرفوعاً. فتح الباري (٧٥/١٢)، تحقيق محب الدين الخطيب، نشر دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

على أنّ هذه الذنوب والمعاصي كلّها، جاء فيها وعيد شديد، مثل نفي الإيمان عمّن ارتكبها، كما في الصحيح: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(١). ولا يُتصوّر أن يُنفي الإيمان عمّن اقترف صغيرة من الصغائر.

وقال تعالى في الزنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فنصّ القرآن على أنّ فيهما إثماً كبيراً، وهذا كافٍ في اعتبارهما من الكبائر.

الكبائر التي يغفل عنها كثير من الناس:

وهناك كبائر أخلاقية واجتماعية كثيرًا ما يغفل النَّاس عنها؛ لأنّ أعينهم مرگزة عند ذكر الكبائر على الزنى والسُّكر ونحوهما. وذلك مثل: عقوق الوالدين، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، والمشى بين النَّاس بالنميمة، ومعاصي القلوب: كالكبّر والعُجب، والشحّ والبخل، والرياء، والحسد والبغضاء، وحبّ الدُّنيا، واتباع الهوى.

وقد جاء في الصحيح عن أبي بكر: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله تعالى، وعقوق الوالدين». وكان متكئًا فجلس، فقال: «ألا وشهادة الزور، ألا وقول الزور» فما زال يُردّدها، حتّى قلنا: ليتّه سكت^(٢).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المظالم (٢٤٧٥)، ومسلم في الإيمان (٥٧)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيمان (٨٧).

وقال: «لا يدخل الجنة قاطع»^(١). فُسر بقاطع الرحم، وهو لفظ رواية مسلم.

وقال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴿ [محمد: ٢٢، ٢٣].

وقال عليه السلام: «لا يدخل الجنة قتات»^(٢). أي: نمام. وقال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(٣).

وقال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء برأيه»^(٤).

وقال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، وإياكم والفحش، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح؛ فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»^(٥).

والكبائر تشمل فعل المحذور، مثل: الزنى والسكر. كما تشمل ترك المأمور، ولا سيما إذا كان من الأركان ومهمات الدين، مثل: الصلاة والزكاة، وقد صحَّ في ترك الصلاة ومنع الزكاة وعيد شديد.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٥٩٨٤)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٦)، عن جبير بن مطعم.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٥٦)، ومسلم في الإيمان (١٠٥)، عن حذيفة.

(٣) رواه مسلم في الإيمان (٩١)، وأحمد (٤٣١٠)، عن ابن مسعود.

(٤) رواه البزار (٦٤٩١)، والطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب

(٦٥٤): هو مروى عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال

فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى. وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٣٠٣٩)،

عن أنس بن مالك.

(٥) رواه أحمد (٦٨٣٧)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وابن حبان في الغضب (٥١٧٦)، عن

عبد الله بن عمرو.



اجتناب كبائر الإثم:

والمقصود أن أول مراتب الورع، بالنسبة لمن يسلك الطريق إلى الله: أن يجتنب كبائر الإثم والفواحش، وقد مدح الله بذلك جماعة المؤمنين حين قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وفي موضع آخر قال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

تفسير اللمم:

وفُسر اللمم هنا بأحد معنيين:

الأول: صغائر الذنوب، التي كثيراً ما تكون مقدمات إلى الكبائر، مثل: النظرة بشهوة إلى المرأة، والقبلة، واللمسة، والخلوة.

الثاني: أن يُلمم بالكبيرة مرة أو مرتين، ثم يتوب منها ولا يعود.

ترك الكبائر مكفراً للصغائر:

وقد علم الله جل ثناؤه الذي خلق الإنسان ضعيفاً أنه لا بدّ واقع في صغائر الذنوب، فغفرها له بفضلها ورحمته، إذا اجتنب كبائر الإثم والفواحش.

فإذا ترك الكبيرة - وهو قادرٌ عليها راغبٌ فيها - خوفاً من الله تعالى، ورغبةً في ثوابه، ورهبةً من عقابه، فهذا الترك أو الاجتناب مكفراً لما ارتكب من الصغائر، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكُفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وروى مسلم في صحيحه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم

قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات لما بينهنّ ما اجْتُنِبَت الكبائر»^(١).

كبائر ترك المأمورات أشد من كبائر فعل المحظورات:

في هذه المرتبة من الورع: لا بدّ أن يتورّع عن الكبائر، التي هي ترك المأمورات. بل هذه الكبائر أشدّ وأكبر من الكبائر التي هي فعل المحظورات كترك الصلاة تكاسلاً.

كبيرة ترك الصلاة:

ومن هنا جاء التشديد في شأن الصلاة وتركها، فالقرآن يجعل أداء الصلاة بثقل وتكاسل من صفات المنافقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

فما بالك بمن لا يقوم إلى الصلاة، لا نشيطاً ولا كسلاناً؟

إنّ شأنهم شأن المشركين الذين وصفهم القرآن بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]، كما حدّثنا القرآن عن المجرمين الذين يُعذّبون في سقر، حين يسألهم أهل الجنة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿وَلَمْ نَكُ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٤].

ويتوعّد القرآن من سَهَا عن الصلاة وتشاغل، حتّى فات وقتها، فيقول: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿[الماعون: ٤، ٥].

بل صحّ في الحديث: إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة، وقال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها

(١) رواه مسلم في الطهارة (٢٣٣)، وأحمد (٨٧١٥).

فقد كفر»^(١). وقال: «بين الرجل وبين الشرك - أو الكفر - ترك الصلاة»^(٢).

وكان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون من الأعمال شيئاً تركه كفر غير الصلاة^(٣). ومن العلماء من أخذ بظاهر هذه الأحاديث، وكفر تارك الصلاة، كما هو مشهور عن الإمام أحمد، ومنهم من تأول هذه الأحاديث على من أنكر فرضية الصلاة، أو استخف بها. ولكنهم اعتبروا ترك الصلاة من أكبر الكبائر، التي قد تؤول إلى الكفر.

كبيرة ترك الزكاة:

وإذا كان هذا شأن الصلاة، كان ذلك شأن الزكاة أيضاً، فهي شقيقتها في القرآن والسنة، فقد قرنها القرآن بالصلاة في ثمانية وعشرين موضعاً، وقال سيدنا أبو بكر فيمن امتنعوا عن أداء الزكاة: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»^(٤).

فالصلاة عمود الدين، والزكاة قنطرة الإسلام، يقول القرآن: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ١١]، وقال ﷺ:

(١) رواه أحمد (٢٢٩٣٧)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والترمذي في الإيمان (٢٦٢١)، وقال: حسن صحيح غريب. والنسائي في الصلاة (٤٦٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٧٩)، وصححه الألباني في المشكاة، عن بُريدة.

(٢) رواه مسلم في الإيمان (٨٢)، وأحمد (١٥١٨٣)، عن جابر.

(٣) رواه الترمذي (٢٦٢٢)، والحاكم (٧/١)، كلاهما في الإيمان، وقال الذهبي: لم يتكلم عليه وإسناده صالح. وصححه الألباني في صحيح الترغيب (٥٦٥)، عن عبد الله بن شقيق العقيلي.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٢٨٤)، ومسلم في الإيمان (٢٠)، عن عمر.

«مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مَثَّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ^(١)، يَأْخُذُ بِلِهْزَمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشَدَقِيهِ - يَقُولُ: أَنَا مَالِكٌ، أَنَا كَنْزُكَ». ثم تلا قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]^(٢).

ومثل ذلك ترك صيام رمضان، وترك الحج لمن استطاع إليه سبيلاً، أعني إصراره على الترك.

كباير الإثم والفواحش في عصرنا:

ومن الضروري هنا: أن نُبيِّن للمسلم المعاصر بعض الكباير الموبقة، والفواحش المدمرة، التي تُرَوِّج في عصرنا، وقد تخفى على بعض الناس، الذين كثيراً ما يحصرون الكباير في الزنى وشرب الخمر ونحوها. وهذه كباير فردية، قد تقتصر أضرارها وآثارها على الأفراد، أو على أسرهم. أمَّا كباير العصر، فهي أشد خطراً، وأبعد أثراً، وأوسع ضرراً، من هذه الكباير التقليدية، وهي شائعة ومنتشرة في مجتمعاتنا للأسف الشديد، تفسد الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والتربوية، بل ربّما تدمرها، وتأتي على بنيانها من القواعد.

إنّ تزوير الانتخابات من كباير الإثم في عصرنا، بل من أكبر الكباير. وانتخاب تجّار المخدرات وأمثالهم للمجالس النيابية: من كباير الإثم، بل من أكبر الكباير.

والتسويق للحكّام الظالمين والمفسدين من رجال الإعلام والسياسة والأثرياء: من كباير الإثم، بل من أكبر الكباير.

(١) ثعبان قد تمعط رأسه من كثرة السم.

(٢) رواه البخاري في الزكاة (١٤٠٣)، عن أبي هريرة.



واعتقال النَّاسِ وسَوْقَهُمْ من بيوتهم إلى السجون بغير محاكمة، أو بتهم ملفَّقة، وأمام محاكم لا يجلس فيها قضاة: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

وتغيير الدساتير لتوافق أهواء الحكَّام، وتُحَقِّق مطالبهم: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

واستيراد بعض الكبار والمُقَرَّبِينَ الأغذية الفاسدة أو المُلَوَّثة بالإشعاع، أو التي انتهت صلاحيتها: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر. واستيراد البذور المفسدة للتربة، والمضرة بالزراعة: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

وانتقاص الكميات اللازمة من الحديد والأسمنت في بناء العمارات، مما يؤدي إلى انهيارها على سكَّانها (عمارات الموت): من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

واحتكار المواد الضرورية للشعب من الأغذية والأدوية، أو الملابس، أو مواد البناء، لتستفيد منها طبقة معينة، أو أفراد معينون: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

وإنتاج الأفلام أو المسرحيات أو المسلسلات الهابطة التي تروِّج للخلاعة، وتدعو إلى الإباحية والفجور: من كبائر الإثم، بل من أكبر الكبائر.

المرتبة الثانية: الورع عن ارتكاب الصغائر:

والمرتبة الثانية من مراتب الورع: اجتناب صغائر المُحَرَّمَات المقطوع بتحريمها. مثل مُحَرَّمَات العين والأذن واللسان واليد والرجل وسائر

الجوارح، وهي مُحَرَّمات كثيرة الوقوع في حياة الناس، وكثيرًا ما تراهم يستهينون بها، مثل النظر إلى المرأة الأجنبية بشهوة، وأكثر من النظر لمسها كذلك، أو الخلوة بها.

لغو الحديث والخوض في الباطل:

ومثل ذلك: لغو الحديث، والخوض في الباطل الذي لا يفيد، وقد وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

فاكهة المجالس: الغيبة والاستماع إليها:

وأشدُّ منه خطرًا: الحديث عن النَّاس واتخاذها فاكهة المجالس، وقد يدخل بعض هذا في الكبائر.

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١، ١٢].

وليس المُحَرَّم قول الكلام الخبيث فقط، بل الاستماع إلى ذلك، فالمستمع شريك المتكلم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ؕ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

وهذه الآية تذكر بآية أخرى نزلت في سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ولذا قال العلماء في الغيبة: السامع شريك المغتاب. وقالوا: لعنت النائحة والمستمعة إليها.

الاستماع إلى الأغاني الخليعة:

ومثل ذلك: الاستماع إلى الأغاني الخليعة، التي تنافي العقيدة أو الشريعة أو الأخلاق الإسلامية، أو التي تؤدى بميوعة وتكسُر وخضوع في القول، أو التي تقترن بمحرّم، مثل الخمر أو التبرُّج، أو الرقص الخليع، أو نحو ذلك^(١).

وهذه المرتبة - ترك الصغائر - أعلى من سابقتها، التي هي مرتبة اجتناب الكبائر، ومَن اجتازها فقد قطع في الطريق إلى الله شوطاً مهماً. وهي أصعب في جهاد النفس، لابتلاء النَّاس بها، وإحاطتها بالإنسان من كلِّ جانب.

هل في الصغائر من خطر؟

ربّما يظنُّ بعض النَّاس أنَّ خطر المعاصي يتجسّد في الكبائر وحدها، ولكن أيضاً في الصغائر خطرهما. والخطر في هذه الصغائر يتمثل في عدّة أمور:

(١) انظر كتابنا: فقه الغناء والموسيقى ص ١٨٥ - ١٩٤، فصل: ضوابط الغناء المباح، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

خطورة الإصرار على الصغائر والإكثار منها:

أولاً: في الإصرار عليها، أعني الإكثار منها، والمواظبة عليها، فإن القليل على القليل كثير. ولهذا قالوا: لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار.

وقد جاء في الحديث التحذير من هذه «المُحَقَّرَات» إذا تكاثرت وتفاقت، قال عليه السلام: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهِنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكَنَّهُ». وإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهنَّ مثلاً؛ كمثل قوم نزلوا أرضَ فلاةٍ، فحضر صنيعُ القوم^(١)، فجعل الرجلُ ينطلق، فيجيء بالعود، والرجلُ يجيء بالعود، حتى جمعوا سواداً، فأججوا ناراً، وأنضجوا ما قذفوا فيها^(٢).

وقال: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَلَبًا»^(٣).

ثانياً: إنها يخشى أن تجرَّ إلى كبيرة، لأنَّ الشيطان عدوَّ الإنسان كثيراً ما يسحبه إلى المعاصي خطوة خطوة، ويصعد به في الشرِّ درجة فدرجة، وهي التي سمَّاها القرآن: (خطوات الشيطان) قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ولذا يقول النَّاسُ في أمثالهم: الألف تجرُّ إلى الياء. ويقول الشاعر:

(١) أي صنعهم الطعام.

(٢) رواه أحمد (٣٨١٨)، وقال مخرجه: حسن لغيره. والطبراني في الكبير (٢١٢/١٠)، والأوسط (٢٥٢٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٤٥٩): رواه أحمد والطبراني في الأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان وقد وثق. وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٧٠): صحيح لغيره. عن عبد الله بن مسعود.

(٣) رواه أحمد (٢٤٤١٥)، وقال مخرجه: إسناده قوي. وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٣)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥١٣)، عن عائشة.



كُلُّ الحَوَادِثِ مَبْدَاها مِنَ النَّظْرِ وَمُعْظَمُ النَّارِ مِنْ مُسْتَصَغِرِ الشَّرْرِ^(١)

ولذا يبدأ مروّجو المخدرات والسموم القاتلة مع الشباب «بالسيجارة» أولاً، حتّى إذا ما أدمنها، ألقوه في هُوّة المخدرات.

ثالثاً: إذا أنس المسلم بصغائر الذنوب يُخشى أن يضعف إحساسه بها، ويستخفّ بحرمتها، ويستتهين بنهي الله تعالى عنها، وعقوبته عليها. وفي هذا خطر على قلب المؤمن، أن يفقد الإحساس شيئاً فشيئاً حتّى يموت. وهو ما حذّر منه الحديث النبوي.

وجاء في حديث ابن مسعود: «المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذبابٍ وقع على أنفه، فقال به هكذا وهكذا»^(٢). يعني: أطاره بيده.

وقال بعض السلف: إنّ الذنب الذي يُخشى ألا يُغفر، هو الذي يقول فيه صاحبه: ليت كلّ ذنب فعلته مثل هذا!

إحساس أصحاب القلوب الحية بخطر الذنوب:

وكلّما حيّيت القلوب، أحسّت بخطر الذنوب، وكلّما ضعف حسّها، قلّ انتباهها لخطرها. كما قال أنس رضي الله عنه: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشعر، إن كنّا نعدّها على عهد النبي صلى الله عليه وآله من الموبقات^(٣). وذلك لنقص درجة الرُّوحانية العالية التي كانوا عليها في عهد النبوة.

(١) ذكره ابن أبي حجلة في ديوان الصبابة ص ٦٩، نشر دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، ١٩٨٤م.

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨).

(٣) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٩٢).

ويشير القرآن إلى هذا المعنى، حين تحدّث عن الإفك ومن جاؤوا به، ويلوم بشدة الذين استمعوا إليه وأفاضوا فيه، ولم يردّوه بقوة ويقولوا: هذا إفك مبين. فقال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وقد مرض أحد الصالحين، فزاره بعض أصحابه، فوجدوه يبكي بحرقة، فقالوا له: لم كلُّ هذا البكاء، وما رأينا لك فريضة تركتها، ولا حرمة انتهكتها؟! فقال لهم: والله ما أبكي فريضة تركتها، ولا حرمة انتهكتها، ولكنني أخشى أن أكون قد أتيت ذنباً أحسبه هيناً وهو عند الله عظيم!

الأسباب التي تجعل الصغيرة كبيرة:

رابعاً: ثم إنَّ هناك أسباباً تجعل الصغيرة تكبر، مثل الفرح بها، وكذلك المجاهرة بها، ففي الحديث: «كلُّ أُمَّتِي مَعَايِي إِلَّا الْمَجَاهِرِينَ»^(١). وكذلك أن تصدر من عالم يُقتدى به، فكأنه بمنزلة الذي يُزيّن لغيره المعصية، إلى آخر هذه الأمور، وقد شرحناها في كتابنا عن «التوبة»^(٢).

خطر الغفلة عن المعصية ونسيان الاستغفار:

خامساً: يزداد خطر المعصية، إذا غفل الإنسان عنها، ونسي أن يستغفر الله منها، بل الواجب أن يسارع، فيتذكّر الله تعالى، ويستغفره منها، وإن صغرت، فقد قيل: لا تنظر إلى صغر المعصية، ولكن انظر إلى كبرياء من عصيته^(٣). وقد كان من دعاء النبي ﷺ:

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٩)، ومسلم في الزهد (٢٩٩٠)، عن أبي هريرة.

(٢) التوبة إلى الله ص ١٧٢ - ١٩٠، من سلسلة تيسير فقه السلوك، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٤٥١/٤)، تحقيق د. بشار عواد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

«إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلْمَأ؟!»^(١)

ويقول: «إِنِّي لِأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(٢).

ويُروى عن إبليس اللعين أنه قال: أهلكْتُ بني آدم بالذنوب، فأهلكوني بالاستغفار!

وقد أثنى الله تعالى على عباده «الْمُتَّقِينَ»، الذين أعدَّ لهم جنات عرضها السماوات والأرض، فكان ممَّا مدحهم به: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ وَلَا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ * أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

أبانت لنا الآية الكريمة: أَنَّ الْمُتَّقِينَ ليسوا ملائكة مطهَّرين، ولا أنبياء معصومين، ولكنهم يخطئون ويصيبون، ويطيعون ويعصون، ولكنهم سرعان ما يتذكرون فيذكرون، ويندمون فيتوبون، وإلى ربهم يرجعون، ومن ذنوبهم يستغفرون.

ورع العدول:

ويُسمِّي الإمام الغزالي الورع عن الحرام كبائره وصغائره ورع «العدول»^(٣)، يعني: الذي يتحقَّق به صفة «العدالة»، التي بها تُقبل شهادة

(١) رواه الترمذي في التفسير (٣٢٨٤)، وقال: حسن صحيح غريب، والحاكم في التفسير

(٢/٤٦٩)، وصحَّحه على شرطهما ووافقه الذهبي. وقال ابن كثير في التفسير (٤٦١/٧): في

صحته مرفوعاً نظراً. وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٢٢٧٩). عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٠٢)، وأحمد (١٨٢٩١)، عن الأغر بن يسار المزني.

(٣) إحياء علوم الدين (٩٤/٢).

الشاهد في القضايا، وتُقبل بها رواية الراوي، وكما قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢].

والحرام هنا يُعرف من فتوى أهل الذكر والاختصاص، وهم الفقهاء من علماء الحلال والحرام.

المرتبة الثالثة: الورع عن الشُّبهات (ورع الصالحين):

والمرتبة الثالثة من مراتب الورع: هي ترك الشُّبهات، وهي التي جاء فيها الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان، عن النُّعمان بن بشير رضي الله عنه، أَنَّهُ رضي الله عنه قَالَ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمَهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

فبيّن الرسول الكريم بهذا الحديث مراتب ثلاثاً:

١ - مرتبة الحلال البيّن الذي لا احتمال فيه، والإذن فيه واضح من الشرع.

٢ - ومرتبة الحرام البيّن الذي لا احتمال فيه، والمنع فيه واضح من الشرع.

(١) سبق تخريجه ص ٩.

٣ - ومرتبة المشتبه فيه عند كثير من النَّاس، وهذا يُلحقه المؤمن بالنوع الثاني، وإن لم يكن تحريمه جليًّا لا شكَّ فيه، بل هو يتَّقيه ويتجنَّبه طلبًا للبراءة لدينه وعرضه، أي: يصون دينه أن يُخدش، وعرضه أن يمَسَّ. فهو من باب: «دع ما يَرِيْبُكَ إلى ما لا يَرِيْبُكَ»^(١)، كما في الحديث الشريف.

وخصوصًا إذا كانت الشبهة قوية، وحاكت في صدره، كما جاء في الحديث: «الإثم ما حاك في الصِّدر، وكرهت أن يَطَّلِعَ عليه النَّاسُ»^(٢).

من أين تأتي الشبهة؟

والشُّبهة قد تأتي من احتمال دليلها، وعدم الجزم به، فهو يحتمل وجهين أو أكثر، لمن يتأمل فيه، ويحاول أن يستنبط منه الحكم.

وقد تأتي من اختلاف العلماء في فهمه، فمنهم من يُحرِّم، ومنهم من يُكرِّه، ومنهم من يُحلِّل، ووفقًا لمشرب كلِّ منهم، أو لفهمه أو لمدرسته. فمدرسة الأثر غير مدرسة الرأي، ومدرسة الظاهر غير مدرسة المقاصد.

وقد تأتي الشبهة من تطبيق الحكم على الواقعة: أتدخل فيه أم لا تدخل؟ فنحن متفقون على أن لحم الخنزير حرام، ولكن هذا اللحم في هذا المطعم لحم خنزير أم لا؟ وهل الإناء الذي يُغرف فيه كان فيه خنزير ولم يطهر بعد أو لا؟ وكذلك نحن متفقون على أن الخمر حرام، بل من الكبائر. ولكن هل هذا الشراب فيه خمر أو لا؟

(١) رواه أحمد (١٧٢٣)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والترمذي في صفة القيامة والرفائق (٢٥١٨)، وقال: حديث صحيح. والنسائي في الأشربة (٥٧١١)، وصحح إسناده الحافظ في التخليق (٢١١/٣)، عن الحسن بن علي.

(٢) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٥٣)، وأحمد (١٧٦٣١)، عن النواس بن سمعان.

ونحن متفقون على أنّ الثوب النجس لا يُصلّى فيه، ولكن هل هذا الماء الذي أصاب الثوب نجس أو لا؟ إلى غير ذلك من الصور. وهنا مجال الدخول في بعض الشطط والتشدد عند بعض الناس إلى حد الوسوسة، أو التساهل عند آخرين إلى حد التفريط. والورع عن الشبهات يسمّيه الغزالي «ورع الصالحين»^(١).

التورع عن المكروه التحريمي:

ويدخل إلى هذه المرتبة من الورع: ما يُسمّيه الفقهاء «المكروه تحريمًا»، وهو ما كان إلى الحرام أقرب، بخلاف «المكروه تنزيهًا»، وهو ما كان إلى الحلال أقرب.

وبخاصّة أنّ بعض السلف كانوا يتورعون من إطلاق كلمة «الحرام»، إلا على ما علم تحريمه جزمًا. ولهذا كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون أن يُنزل الله تعالى بيانًا شافيًا في تحريم الخمر، رغم نزول قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، ولم يطمئئوا إلى التحريم إلا بعد نزول آية المائدة: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

ومعلوم أنّ الحنفية يتشدّدون في إثبات الفرضية وإثبات التحريم، فلا يقولون: هذا الأمر فرض من الله، إلا إذا ثبت بدليل قطعي لا شبهة فيه، كما لا يقولون: هذا الأمر حرام إلا بمثل ذلك.

(١) إحياء علوم الدين (١/١٨١).

وما كان من الأدلة دون القطعية في الأوامر، يقولون فيه: واجب، وما كان كذلك في المنهيات، يقولون عنه: مكروه، أي: تحريمًا.

من أقوال السلف في اجتناب الشبهات:

قال يونس بن عُبيد: الورع: الخروج من كلِّ شبهة، ومحاسبة النفس في كلِّ طُرْفَة عين^(١).

وقال سفيان الثوري: ما رأيتُ أسهل من الورع، ما حاك في نفسك فاتركه^(٢)!

وهذا الأمر الذي لا يرى الإمام الثوري أسهل منه، كم هو صعب على الناس؟!!

وقال إبراهيم بن أدهم: الورع ترك كل شبهة. وترك ما لا يعينك، هو ترك الفضلات^(٣). أي: الفضول.

الورع عن بعض الحلال:

والمرتبة الرابعة من مراتب الورع، وهي المرتبة العليا، والتي سمّاها الإمام الغزالي «مرتبة المُتَّقِينَ»^(٤): هي ترك بعض الحلال، كما قال سيدنا عمر: تركنا تسعة أعشار الحلال مخافة الربا^(٥)!

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٨٤٠)، تحقيق عامر حيدر، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط ٣، ١٩٩٦م.

(٢) مدارج السالكين (٢٢/٢). وقد اقتبس سفيان هذا المعنى من مشكاة النبوة، ففي حديث البر والإثم: «والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس».

(٣) مدارج السالكين (٢١/٢).

(٤) إحياء علوم الدين (٩٥/٢).

(٥) رواه عبد الرزاق في البيوع (١٤٦٨٣)، وإسناده منقطع بين الشعبي وعمر.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي: «لا يبلغ العبد أن يكون من المُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ ما لا بأسَ به حذرًا لِمَا به البأسُ»^(١).

الورع عن المكروهات التنزيهية:

ويدخل في هذه المرتبة من باب أولى «المكروهات التنزيهية»، وهي ما كان إلى الحلال أقرب، بخلاف «المكروهات التحريمية»، وهي ما كان إلى الحرام أقرب، كما ذكرنا في المرتبة السابقة. فهذه يمكن أن تلحق بمرتبة الورع عن الصغائر لقربها من الحرام، أو بمرتبة الورع عن الشُّبهات؛ لأنها ليست حلالاً صِرْفًا، ولعل هذا أرجح وأولى.

كما يدخل في هذه المرتبة، مرتبة الورع عن بعض الحلال، ما يُسمِّيه الفقهاء «خلاف الأولى».

لذا فإنَّ ميمون بن مهران يقول كما ذكر عنه الإمام أحمد في كتاب الورع: لا يتم للرجل الحلال حَتَّى يجعل بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال. ولهذا السبب كان الصحابة يتركون أبوابًا كثيرة من الحلال خوفًا من الوقوع في شيء من الحرام.

ونقل العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غُدة، في تعليقاته النفيسة على «رسالة المسترشدين»: «قول العلامة زين الدِّين ابن المُنير في شرحه على «صحيح البخاري» عند رواية البخاري: «ومن وقع في الشُّبهات وقع في الحرام»: إنَّ شيخه القدوة الزاهد الشيخ أبا القاسم بن منصور القُبَّاري

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٢١٥)، والحاكم في الرقاق (٣١٩/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عطية السعدي.

الإسكندراني كان يقول: المباح عقبه بين العبد وبين المكروه، فمن استكثر من المباح تطرَّق إلى المكروه! والمكروه عقبه بين العبد وبين الحرام، فمن استكثر من المكروه تطرَّق إلى الحرام!

قال الحافظ ابن حجر بعد نقله في «فتح الباري»: وهو مَنْزَعٌ حسن، ويؤيده رواية ابن حبان من طريق ذكر مسلم إسناده، ولم يَسُقْ لفظها، فيها من الزيادة: «اجعلوا بينكم وبين الحرام سُتْرَةً من الحلال، من فعل ذلك فقد استبرأ لِعَرْضِهِ وِدِينِهِ، وَمَنْ أَرْتَعَ فِيهِ كَانَ كَالْمُرْتِعِ إِلَى جَنْبِ الْحِمَى يَوْشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ»^(١).

ثم قال الحافظ ابن حجر: ومعنى الحديث: أَنَّ الحلال حيث يُخشى أن يؤول فعله مطلقاً إلى مكروه أو محرم ينبغي اجتنابه، كالإكثار مثلاً من الطيبات، فَإِنَّهُ يُخْجِجُ إِلَى كَثْرَةِ الْاِكْتِسَابِ الْمَوْقِعِ فِي أَخْذِ مَا لَا يَسْتَحَقُّ، أَوْ يُفْضِي إِلَى بَطْرِ النَّفْسِ، وَأَقْلَ مَا فِيهِ الْاِسْتِغَالُ عَنْ مَوَاقِفِ الْعِبُودِيَّةِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالْعَادَةِ، مَشَاهِدٌ بِالْعِيَانِ. ويختلف ذلك باختلاف الناس:

فالعالم الفَطِنُ: لَا يَخْفَى عَلَيْهِ تَمْيِيزُ الْحَكْمِ، فَلَا يَقَعُ لَهُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْاِسْتِكْثَارِ مِنَ الْمَبَاحِ أَوْ الْمَكْرُوهِ كَمَا تَقَرَّرَ قَبْلَ.

وَمَنْ دُونَهُ: تَقَعُ لَهُ الشَّبْهَةُ فِي جَمِيعِ مَا ذُكِرَ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ.

وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْمَسْتَكْثِرَ مِنَ الْمَكْرُوهِ تَصْيِيرُ فِيهِ جَرَأَةً عَلَى ارْتِكَابِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ فِي الْجُمْلَةِ، أَوْ يَحْمَلُهُ اعْتِيَادُهُ ارْتِكَابَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ غَيْرَ

(١) فتح الباري (١/١٢٧).

المحرّم على ارتكاب المنهيّ عنه المحرّم إذا كان من جنسه، أو يكون ذلك لشبهة، وهو أن من تعاطى ما يُنهى عنه يصيرُ مظلماً القلب لفقدان نور الورع! فيقع في الحرام ولو لم يختر الوقوع فيه^(١)!

نماذج من ورع المتقدمين:

ونقل الشيخ أبو غدة عن العلامة القسطلاني في «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» عند هذا الحديث: بالله عليك ما لم تعلم حلّه يقيناً: اتركه، كتركه ﷺ تمرّة خشية أن تكون من تمر الصدقة، وأعلى الورع ترك الحلال مخافة الحرام، كترك إبراهيم بن أدهم أجرته لشكّه في وفاء عمله، وطوى عن جوع شديد.

ورع أخت بشر الحافي:

وقالت أختُ بشر الحافي لأحمد بن حنبل: إنّنا نغزلُ على سطوحنا فيمُرُّ بنا مشاعلُ الظاهرية (الحرس) ويقع الشعاع علينا، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها؟ فقال: من أنت عافاك الله؟ قالت: أخت بشر الحافي. فبكى وقال: من بيتكم يخرج الورعُ الصادق، لا تغزلي في شعاعها.

ورع السيدة بديعة الإيجية ووالدها:

وأقامت السيدة بديعة الإيجية من أهل عصرنا هذا (القرن العاشر) بمكة أكثر من ثلاثين سنة لم تأكل من اللحوم والثمار وغيرها المجلوبة من «بجيلة»، لمّا قيل إنهم لا يُورثون البنات. وامتنع أبوها نور الدين من

(١) فتح الباري (١/١٢٧، ١٢٨).

تناول ثمر المدينة لما ذكر أنّهم لا يُزكّون. ومن ترخّص ندم، والأورعُ أسرع على الصراط يوم القيامة^(١).

ورع والد الحافظ ابن عقدة:

وحكى الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد في ترجمة الحافظ ابن عقدة أنّ والده محمد بن سعيد الملقب بعقدة، وكان ورعًا ناسكًا: سقطت منه دنائيرٌ على باب دار أبي ذرّ الخزّاز، فجاء بنخالٍ ليطلبها، قال عقدة: فوجدتها، ثم فكرتُ فقلتُ: ليس في الدنيا غيرُ دنائيرك؟! فقلتُ للنخال: هي في ذمتك، ومضيتُ وتركته^(٢).

ورع الإمام أبي إسحاق الشيرازي:

وحصل مثلُ هذا للإمام أبي إسحاق الشيرازي شيخ الشافعية في عصره، وصاحب «المُهذب في المذهب»، وكان على خشونة شديدة من الفقر والإملاق، وفي غاية من الورع والصلاح، دخل المسجد يومًا ليأكل فيه شيئًا فنسي دينارًا! فذكره في الطريق، فرجع، فلما وجدته تركه ولم يمسه، وقال: ربما وقع من غيري ولا يكون ديناري. ذكره النووي في «تهذيب الأسماء»^(٣).

وانظر باب الورع في «الرسالة القشيرية» تقف على العجائب المشرقة المدهشة. وللإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: «كتاب الورع»، وهو كتاب نفيس فيه الآيات البينات من ورع السلف، يُخيّل لقارئه أنّ الإمام أحمد دخل

(١) إرشاد الساري (١٤٣/١، ١٤٤)، نشر المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، ط ٧، ١٣٢٣هـ.

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٤٧/٦).

(٣) تهذيب الأسماء واللغات (١٧٣/٢)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

الجنة، ثم جعل يتحدث عن أخلاق أهلها، فعليك بمطالعتة فإنك منتفع به ولا ريب»^(١) انتهى.

المرتبة الخامسة: ترك كل ما يشغل عن الله والآخرة:

وهناك مرتبة ذكرها الغزالي في «إحيائه»، وهي تختلف عن المرتبة السابقة، وهي ترك ما لا بأس به خوفاً ممّا به بأس، فهذه لا يخاف منها بأساً، ولكن فيها شغل عن الآخرة، وعن الله جلّ جلاله، وهو شغل مباح لا شائبة فيه، فهذه مرتبة أعلى مما قبلها، وهي أشبه بما قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين. وسماها الغزالي «ورع الصديقين»^(٢). وهي الإعراض عن كل ما يشغل عن الله تعالى والدار الآخرة.

وبهذا تتجلى أمامنا درجات الورع تصاعدياً بيّنة واضحة.

- ورع عن الكبائر.
- ورع عن الصغائر.
- ورع عن الشبهات والمكروهات التحريمية.
- ورع عن المكروهات التنزيهية، وبعض الحلال.
- ورع عن خلاف الأولى.
- ورع عن الحلال الذي يُخاف منه بأس.
- ورع عن الحلال الذي لا يُخاف منه بأس، ولكنه يشغل عن الله تعالى.

(١) رسالة المسترشدين للمحاسب ص ٤٢ - ٤٤، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، نشر مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط ٢، ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

(٢) إحياء علوم الدين (٩٧/٢).



أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدا:

عُني الإمام الغزالي في كتاب «الحلال والحرام»^(١) من «ربع العادات» من «الإحياء» بالحديث عن الورع ودرجاته، من ورع العدول، إلى ورع الصالحين، إلى ورع المُتَّقِينَ، إلى ورع الصديقين. ثم عقد فصلاً لإيراد الأمثلة والشواهد التاريخية والعملية على الورع، فحكى فيها وقائع عن الصحابة والتابعين وسلف الأمة تُمثل درجات الورع التي ذكرها وأمثلتها.

ورع العدول:

«أما الدرجة الأولى، وهي ورع العدول: فكل ما تقتضي الفتوى تحريمه ممّا يدخل في المداخل الستة التي ذكرناها من مداخل الحرام»^(٢)،

(١) إحياء علوم الدين (٨٨/٢).

(٢) قسم الغزالي طرق أخذ المال والشروط لكونه حلالاً، التي إن فُقدت صار حراماً وهي: الأول: ما يؤخذ من غير مالك، كنيْل المعادن وإحياء الموات والاصطياد والاحتطاب والاستقاء من الأنهار والاحتشاش، فهذا حلال بشرط ألا يكون المأخوذ مختصاً بذي حرمة من الأدميين، فإذا انفك من الاختصاصات ملكها آخذها.

الثاني: المأخوذة قهراً ممن لا حرمة له، وهو الفياء والغنيمه وسائر أموال الكفار والمحاربين، وذلك حلال للمسلمين إذا أخرجوا منها الخمس، وقسموها بين المستحقين بالعدل، ولم يأخذوها من كافر له حرمة وأمان وعهد.

الثالث: ما يؤخذ قهراً باستحقاق عند امتناع من وجب عليه، فيؤخذ دون رضاه، وذلك حلال إذا تم سبب الاستحقاق، وتم وصف المستحق الذي به استحقاقه، واقتصر على القدر المستحق، واستوفاه ممن يملك الاستيفاء من قاضٍ أو سلطان أو مستحق.

الرابع: ما يؤخذ تراضياً بمعاوضة، وذلك حلال إذا روعي شرط العوضين وشرط العاقدين وشرط اللفظين أعني الإيجاب والقبول مع ما تعبد الشرع به من اجتناب الشروط المفسدة.

الخامس: ما يؤخذ عن رضا من غير عوض، وهو حلال إذا روعي فيه شرط المعقود عليه، وشرط العاقدين، وشرط العقد، ولم يؤدّ إلى ضرر بوارث، أو غيره وذلك مذكور في كتاب الهبات والوصايا والصدقات.

=

لفقد شرط من الشروط، فهو الحرام المطلق الذي ينسب مقتحمه إلى الفسق والمعصية، وهو الذي نريده بالحرام المطلق، ولا يحتاج إلى أمثلة وشواهد.

ورع الصالحين:

وأما الدرجة الثانية، فأمثلتها: كلُّ شبهة لا يجب اجتنابها، ولكن يستحبُّ اجتنابها، كما سيأتي في باب الشُّبهات، إذ من الشُّبهات ما يجب اجتنابها فتلحق بالحرام.

ومنها: ما لا يُكره اجتنابها، فالورع عنها ورع الموسوسين، كمن يمتنع من الاصطياد خوفاً من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملكه، وهذا وسواس.

ومنها: ما يُستحبُّ اجتنابها ولا يجب، وهو الذي ينزل عليه قوله ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ»^(١).

يُحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم؛ لأنه حاك في قلبه شيء. مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به. فأمثلة هذه الدرجة نذكرها في التعرُّض لدرجات الشبهة، فكلُّ ما هو شبهة لا يجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة.

= السادس: ما يحصل بغير اختيار كالميراث، وهو حلال إذا كان الموروث قد اكتسب المال من بعض الجهات الخمس على وجه حلال، ثم كان ذلك بعد قضاء الدين وتنفيذ الوصايا، وتعديل القسمة بين الورثة، وإخراج الزكاة والحج والكفارة إن كان واجباً. انظر: إحياء علوم الدين (٢/٩٣، ٩٤).

(١) سبق تخريجه ص ٤٣.



ورع المُتَّقِين:

أَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّلَاثَةُ، وَهِيَ وَرَعُ الْمُتَّقِينَ، فَيَشْهَدُ لَهَا قَوْلُهُ ﷺ: «لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ دَرَجَةَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ مَخَافَةً مَا بِهِ بَأْسٌ»^(١). وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا نَدْعُ تِسْعَةَ أَعْشَارِ الْحَلَالِ مَخَافَةً أَنْ نَقَعَ فِي الْحَرَامِ^(٢). وَقِيلَ: إِنَّ هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: إِنَّ مَنْ تَمَّامَ التَّقْوَى أَنْ يَتَّقِيَ الْعَبْدُ فِي مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، حَتَّى يَتْرَكَ بَعْضَ مَا يَرَى أَنَّهُ حَلَالٌ، خَشْيَةً أَنْ يَكُونَ حَرَامًا، حَتَّى يَكُونَ حِجَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ^(٣). وَلِهَذَا كَانَ لِبَعْضِهِمْ مِائَةُ دِرْهَمٍ عَلَى إِنْسَانٍ، فَحَمَلَهَا إِلَيْهِ، فَأَخَذَ تِسْعَةَ وَتِسْعِينَ، وَتَوَرَّعَ عَنِ اسْتِيفَاءِ الْكُلِّ، خِيفَةَ الزِّيَادَةِ.

وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَتَحَرَّزُ، فَكُلُّ مَا يَسْتَوْفِيهِ يَأْخُذُهُ بِنَقْصَانِ حَبَّةٍ، وَمَا يُعْطِيهِ يُوْفِيهِ بِزِيَادَةِ حَبَّةٍ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ حَاجِزًا مِنَ النَّارِ.

الاحتراز عما يتسامح به الناس:

وَمِنْ هَذِهِ الدَّرَجَةِ: الْإِحْتِرَازُ عَمَّا يَتَسَامَحُ بِهِ النَّاسُ، فَإِنَّ ذَلِكَ حَلَالٌ فِي الْفِتْوَى، وَلَكِنْ يُخَافُ مِنْ فَتْحِ بَابِهِ أَنْ يَنْجَرَّ إِلَى غَيْرِهِ، وَتَأَلَّفَ النَّفْسِ الْإِسْتِرْسَالِ، وَتَتْرَكَ الْوَرَعَ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا رُوِيَ: أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَصَلَهُ مِسْكٌ مِنَ الْبَحْرَيْنِ، فَقَالَ:

(١) سبق تخريجه ص ٤٦.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٥.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد (٧٩)، وأحمد في الورع ص ٥٧، تحقيق سمير بن أمين الزهيري، نشر دار الصميعي، الرياض، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

وددتُ لو أن امرأة وزنت، حتّى أقسمه بين المسلمين، فقالت امرأته عاتكة: أنا أجيد الوزن. فسكت عنها، ثم أعاد القول، فأعادت الجواب، فقال: لا، أحببت أن تضعيه بكفّة، ثم تقولين: فيها أثر الغبار، فتمسحين بها عنقك، فأصيب بذلك فضلاً على المسلمين^(١).

وكان يوزن بين يدي عمر بن عبد العزيز مسك للمسلمين، فأخذ بأنفه حتّى لا تصيبه الرائحة، وقال: وهل ينتفع منه إلا بريحه^(٢)؟ لمّا استبعد ذلك منه.

وأخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تمرّة من تمر الصدقة، وكان صغيراً، فقال النّبي صلى الله عليه وآله: «كخ كخ»^(٣). أي ألقها.

ومن ذلك ما روى بعضهم، أنّه كان عند محتضر فمات ليلاً، فقال: أطفئوا السراج، قد حدث للورثة حقّ في الدّهن (يعني زيت السراج).

وروى سليمان التّيمي، عن نعيمة العطارّة قالت: كان عمر رضي الله عنه يدفع إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين لتبيعه، فباعتهني طيباً، فجعلت تقوم وتزيد وتنقص، وتكسر بأسنانها، فتعلق بأصبعها شيء منه، فقالت به هكذا بأصبعها، ثم مسحت به خمارها، فدخل عمر رضي الله عنه فقال: ما هذه الرائحة؟ فأخبرته فقال: طيب المسلمين تأخذينه! فانتزع الخمار من رأسها، وأخذ جرّة من الماء، فجعل يصبُّ على الخمار، ثم يدلّكه في

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٤٦٠/٢)، تحقيق د. عاصم إبراهيم الكيالي، نشر

دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٢) المصدر السابق نفسه (٤٦٠/٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٩)، كلاهما في الزكاة، عن أبي هريرة.

التراب، ثم يشمّه، ثم يصبُّ الماء ثم يدلّكه في التراب ويشمّه، حتّى لم يبقَ له ريح. قالت: ثم أتيتها مرّةً أخرى، فلما وزنت علق منه شيء بأصبعها، فأدخلت أصبعها في فيها، ثم مسّحت به التراب.

فهذا من عمر رضي الله عنه ورع التقوى، لخوف أداء ذلك إلى غيره، وإلا فغسل الخمار ما كان يعيد الطيب إلى المسلمين، ولكن أتلفه عليها زجرًا وردعًا، واتّقاءً من أن يتعدّى الأمر إلى غيره.

ومن ذلك: لما سئل أحمد بن حنبل رحمته الله، عن رجل يكون في المسجد يحمل مجمرة لبعض السلاطين، ويبخر المسجد بالعود، فقال: ينبغي أن يخرج من المسجد، فإنّه لا يُنتفع من العود إلا برائحته! وهذا قد يقارب الحرام، فإن القدر الذي يعبق بثوبه من رائحة الطيب قد يُقصد، وقد يبخل به، فلا يدري أنه يتسامح به أم لا؟

وسئل أحمد بن حنبل عمّن سقطت منه ورقة فيها أحاديث، فهل لمن وجدها أن يكتب منها ثم يردّها؟ فقال: لا، بل يستأذن ثم يكتب^(١). وهذا أيضًا قد يشكُّ في أنّ صاحبها هل يرضى به أم لا؟ فما هو في محلّ الشكِّ والأصل تحريمه، فهو حرام، وتركه من الدرجة الأولى (من درجات الورع، وهو ورع العدول).

التورّع عن الزينة خشية أن تدعو إلى غيرها:

ومن ذلك: التورّع عن الزينة؛ لأنّه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها، وإن كانت الزينة مباحة في نفسها. وقد سئل أحمد بن حنبل عن النعال

(١) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٤٦٦/٢).

السَّبْتِيَّة، فقال: أَمَّا أَنَا فَلَا أَسْتَعْمَلُهَا، وَلَكِنْ إِنْ كَانَ لِلطَّيْنِ فَأَرْجُو، وَأَمَّا مَنْ أَرَادَ الزَّيْنَةَ فَلَا^(١).

وَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّ عَمْرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمَّا وَوَلِيَ الْخِلَافَةَ كَانَ لَهُ زَوْجَةٌ يَحِبُّهَا فَطَلَّقَهَا، خِيفَةَ أَنْ تُشِيرَ عَلَيْهِ بِشَفَاعَةٍ فِي بَاطِلٍ فَيُعْطِيهَا، وَيَطْلُبُ رِضَاهَا^(٢). وَهَذَا مِنْ تَرْكِ مَا لَا بَأْسَ بِهِ، مَخَافَةَ مِمَّا بِهِ الْبَأْسُ، أَي: مَخَافَةَ مَنْ أَنْ يَفْضِيَ إِلَيْهِ، وَأَكْثَرَ الْمَبَاحَاتِ دَاعِيَةً إِلَى الْمَحْظُورَاتِ، حَتَّى اسْتَكْثَرَ الْأَكْلَ، وَاسْتَعْمَلَ الطَّيْبَ لِلْمَتَعَزِّبِ، فَإِنَّهُ يَحْرُكُ الشَّهْوَةَ، ثُمَّ الشَّهْوَةُ تَدْعُو إِلَى الْفِكْرِ، وَالْفِكْرُ يَدْعُو إِلَى النَّظْرِ، وَالنَّظْرُ يَدْعُو إِلَى غَيْرِهِ.

كَذَلِكَ النَّظْرُ إِلَى دُورِ الْأَغْنِيَاءِ وَتَجَمُّلِهِمْ مَبَاحٌ فِي نَفْسِهِ، وَلَكِنْ يُهَيِّجُ الْحَرَصَ، وَيَدْعُو إِلَى طَلْبِ مِثْلِهِ، وَيَلْزِمُ مِنْهُ ارْتِكَابَ مَا لَا يَحِلُّ فِي تَحْصِيلِهِ.

الأخذ من المباحات قدر الحاجة:

وَهَكَذَا الْمَبَاحَاتُ كُلُّهَا إِذَا لَمْ تُؤْخَذْ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ، فِي وَقْتِ الْحَاجَةِ، مَعَ التَّحَرُّزِ مِنْ غَوَائِلِهَا، بِالْمَعْرِفَةِ أَوَّلًا، ثُمَّ بِالْحَذَرِ ثَانِيًا، فَقَلَّمَا تَخَلُّوْا عَاقِبَتَهَا عَنْ خَطَرِ.

وَكَذَا كُلُّ مَا أَخَذَ بِالشَّهْوَةِ، فَقَلَّمَا يَخْلُو عَنْ خَطَرِ، حَتَّى كَرِهَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ تَجْصِيصَ الْحَيْطَانِ، وَقَالَ: أَمَّا تَجْصِيصُ الْأَرْضِ، فَيَمْنَعُ التَّرَابَ،

(١) ذكره ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم (٢٧٣/١)، تحقيق ناصر عبد الكريم العقل، نشر دار عالم الكتب، بيروت، ط ٧، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(٢) لم أقف لهذه الرواية على سند، وهي غير مقبولة بموازين الشرع؛ لأنَّ هذا الورع جَارَ عَلَى حَقِّ الْمَرْأَةِ، فَمَا ذَنْبُهَا حَتَّى يَكْسِرَ قَلْبَهَا بِالطَّلَاقِ، مِنْ أَجْلِ خَشْيَةِ شَفَاعَةِ قَدِّ لَا تَحْدُثُ، إِلَّا إِذَا رَضِيَتْ الْمَرْأَةُ بِالطَّلَاقِ.

وأما تجصيص الحيطان فزينة لا فائدة فيه، حتّى أنكر تجصيص المساجد وتزيينها^(١). واستدلّ بما رُوي عن النبي ﷺ، أنه سُئل أن يُكحلّ المسجد - أي يُطلى بشيءٍ مثل الكحل - فقال: «لا، عريشٌ كعريشِ موسى!»^(٢). وإنما هو شيءٌ مثل الكحلّ يُطلى به، فلم يرخص رسول الله ﷺ فيه.

وكره السلف الثوب الرقيق، وقالوا: من رقّ ثوبه رقّ دينه^(٣)! وكلُّ ذلك خوفاً من سرّيان اتّباع الشهوات في المباحات إلى غيرها، فإن المحظور والمباح تشتهيها النفس بشهوة واحدة، وإذا تعودت الشهوة المسامحة استرسلت، فاقتضى خوف التقوى الورع عن هذا كله، فكلُّ حلال انفكّ عن مثل هذه المخافة، فهو الحلال الطيب في الدرجة الثالثة، وهو كلُّ ما لا يخاف أداؤه إلى معصية البتة.

ورع الصّديقين:

أما الدرجة الرابعة، فورع الصّديقين، ومن أمثلته: ما رُوي عن ذي النون المصري أنّه كان جائعاً محبوباً، فبعثت إليه امرأة صالحاً طعاماً على يد السجّان، فلم يأكل، ثم اعتذر، وقال: جاءني على طبقٍ ظالم^(٤). يعني أنّ اليد التي أوصلت الطعام إليّ لم تكن طيّبة، وهذه الغاية القصوى في الورع.

(١) ذكره أحمد في الورع ص ١٩٤.

(٢) رواه عبد الرزاق في الصلاة (٥١٣٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٠٠٧)، عن أبي بن كعب وأبي الدرداء.

(٣) رواه الدولابي في الكنى والأسماء (١٩٨/٢)، عن أبي الغدير المليكي، تحقيق نظر بن محمد الفريابي، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٤) ذكره أبو طالب المكي في قوت القلوب (٣٢١/٢).

ومن ذلك أن بِشْرًا (الحافي) رحمته الله تعالى، كان لا يشرب الماء من الأنهار التي حفرها الأمراء. فإن النهر سبب لجريان الماء ووصوله إليه، وإن كان الماء مباحًا في نفسه، فيكون كالمنتفع بالنهر المحفور بأعمال الأجراء، وقد أعطوا الأجرة من الحرام.

ولذلك امتنع بعضهم من العنب الحلال من كرم حلال، وقال لصاحبه: أفسدته إذ سقيته من الماء الذي يجري في النهر الذي حفرته الظلمة! وهذا أبعد عن الظلم من شرب نفس الماء؛ لأنه احتراز من استمداد العنب من ذلك الماء.

دقائق الورع عند الصديقين:

وكان بعضهم إذا مرَّ في طريق الحجِّ لم يشرب من المصانع التي عملتها الظلمة! مع أن الماء مباح، ولكنَّه بقي محفوظًا بالمصنع الذي عمَّل به بمال حرام، فكأنَّه انتفاعٌ به. وامتناع ذي النون من تناول الطعام من يد السجان أعظم من هذا كله؛ لأنَّ يد السجان لا توصف بأنها حرام، بخلاف الطبق المغصوب إذا حُمِلَ عليه، ولكنه وصل إليه بقوة اكتسبت بالغذاء الحرام.

ولذلك تقياً الصديق رحمته الله تعالى، من اللبن خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوَّة، مع أنه شرَّبه عن جهل^(١). وكان لا يجب إخراجه، ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصديقين.

ومن ذلك: التورُّع من كسب حلال اكتسبه خياط يخيِّط في المسجد، فإن أحمد رحمته الله تعالى، كره جلوس الخياط في المسجد.

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٨٤٢)، عن عائشة.



وأطفأ بعضهم سراجًا أسرجه غلامه من قوم يكره مالهم.

وامتنع من تسجير تنور للخبز، وقد بقي فيه جمر من حطب مكروه.

وامتنع بعضهم من أن يُحکم شئع نعله في مشعل السلطان.

فهذه دقائق الورع عند سالكي طريق الآخرة.

أول الورع وغايته:

والتحقيق فيه: أن الورع له أول: وهو الامتناع عما حرّمته الفتوى، وهو ورع العدول. وله غاية، وهو ورع الصديقين، وذلك هو الامتناع من كل ما ليس له، ممّا أخذ بشهوة، أو توصل إليه بمكروه، أو اتّصل بسببه مكروه. وبينهما درجات في الاحتياط، فكلما كان العبد أشدّ تشديدًا على نفسه، كان أخفّ ظهرًا يوم القيامة، وأسرع جوازًا على الصّراط، وأبعد عن أن تترجّح كفة سيئاته على كفة حسناته.

وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع، كما تتفاوت درجات النار في حقّ الظلمة، بحسب تفاوت درجات الحرام في الخُبث.

وإذا علمت حقيقة الأمر، فإليك الخيار، فإن شئت فاستكثّر من الاحتياط، وإن شئت فرخّص، فلنفسك تحتاط، وعلى نفسك ترخّص، والسلام»^(١).

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٢/٩٥ - ٩٨).

معالجة الورع صعوبة ويُسرًا:

هذا، ومما يتصل بالتحقق بالورع: أنَّ حسان بن أبي سنان البصري، أحد العبَّاد في زمن التابعين، وتلميذ الحسن البصري رضي الله عنه، قال: ما رأيتُ شيئًا أهون من الورع، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك. علَّقه البخاري في صحيحه، أول كتاب البيوع، في «باب تفسير المشبهات»^(١).

قال شارحه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: روى أبو نعيم في «الحلية»، من طريق زهير بن نعيم البابي السلولي البصري أحد الزهاد العباد المتقشفين: أنه اجتمع يونس بن عبيد (العبدي البصري وتلميذ الحسن البصري، المتوفى ١٣٩هـ) وحسان بن أبي سنان، فقال يونس: ما عالجتُ شيئًا أشدَّ عليَّ من الورع. فقال حسان: لكنِّي ما عالجتُ شيئًا أهون عليَّ من الورع. قال: كيف؟ قال حسان: تركتُ ما يريني إلى ما لا يريني، فاسترحتُ^(٢).

قال بعض العلماء: تكلم حسان على قدر مقامه. والترك الذي أشار إليه، أشد على كثير من الناس، من تحمل كثير من المشاق الفعلية^{(٣)(٤)}.

كمال الورع في تحقيق ابن تيمية:

قال ابن تيمية رضي الله عنه: تمام الورع أن يَعْلَم الإنسان خير الخيِّرين، وشر الشرِّين، ويعلم أنَّ الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها،

(١) صحيح البخاري (٥٣/٣).

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (١١٦/٣).

(٣) رسالة المسترشدين ص ١٤٠، ١٤١، وقال الشيخ عبد الفتاح، بعد أن أورد طريقة حسان في معالجة الورع: فهنيئًا لمن علت همته، إلى مقام حسان بن سنان، فاستراح في الدنيا والآخرة.

(٤) فتح الباري (٢٩٢/٤، ٢٩٣).

وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يُوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية، والمفسدة الشرعية، فقد يدع واجبات ويفعل محرمات، ويرى ذلك من الورع، كمن يدع الجهاد مع الأمراء الظلمة ويرى ذلك ورعاً، ويدع الجُمُعة والجماعة خلف الأئمة الذين فيهم بدعة، أو فجور، ويرى ذلك من الورع، ويمتنع عن قبول شهادة العباد، وأخذ علم العالم لما في صاحبه من بدعة خفية، ويرى ترك قبول سماع هذا الحق الذي يجب سماعه من الورع^(١).

القدوات يُعلمون الورع:

وانظر - رعاك الله - إلى هذه المرأة - التي أوردنا قصتها من قبل - التي بلغت من الورع أقصى المراتب، تسأل الإمام أحمد: إنا نغزل على سطوحنا فيمر بنا مشاعل الظاهرية (الحرس) أفيجوز لنا أن نغزل في شعاعها؟ فسألها الإمام أحمد: من أنت عافاك الله؟ قالت: أخت بشر الحافي! فبكى وقال: من بيتكم يخرج الورع الصادق!

إنها أخت بشر الحافي الذي كان يقول: أشتهي شواء منذ ثلاثين سنة، ولكن لم يصف لي درهمه!

وهاك مثلاً في التربية الفذة على الورع، فعن حماد بن زيد قال: كنت مع أبي، فأخذت من حائط تبنة، فقال لي: لم أخذتها؟ قلت: إنما هي تبنة! قال: لو أن كل واحد من الناس أخذ تبنة هل كان يبقى في الحائط تبين؟! يُعلم ولده عدم استصغار التبنة؛ حتى لا يستصغر في المستقبل ما هو أكبر منها.

(١) مجموع الفتاوى (٥١٢/١٠)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

وهذا الحسن بن عبد العزيز الجَرَوِي، شيخ البخاري، لم يقبل من إرث أبيه شيئاً لشبهة خالطته.

قال عبد المجيد بن عثمان صاحب تاريخ تَنِيْس: كان صالحاً ناسكاً، وكان أبوه مَلِكاً على تَنِيْس، ثم أخوه عليّ، ولم يقبل الحسن من إرث أبيه شيئاً، وكان يُقارن بقارون في اليَسار! أي: الغنى.

ولله دُرُ الإمام أبي حنيفة ما أورعه! وما أرعاه لسلامة نفسه! فقد أرسل لشريكه متاعاً فيه ثوب معيب، يبيعه ويبين ما فيه من العيب، فباعه، ولم يبيّن العيب نسياناً، وجهل المشتري، فلما علم أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع كله، وكان ثلاثين ألف درهم، وفاصل شريكه. أي: فارقه^(١).

وأما ابن المبارك الإمام، فقد سافر من بلاد مَرَوَ بِخُرَاسان إلى الشام، ليردَّ قَلَمًا كان قد استعاره من رجل هناك، فلما عاد إلى مروٍ وجد القلم معه، فعاد مرّة أخرى إلى الشام ليردَّ القلم^(٢).

وهذا الإمام شمس الدّين محمد عبد الرحيم المقدسي الحنبلي الدمشقي، المتوفّى سنة ٦٨٨هـ، رحمته الله، كان يحفر مكاناً في جبل الصالحية لبعض شأنه، فوجد جرة مملوءة دنائير، وكانت زوجته معه تعينه على الحفر، فاسترجع «أي قال: إنا لله وإنا إليه راجعون»، إذ عد ذلك فتنة له ومحنة، وطمّ المكان كما كان أولاً، وقال لزوجته: هذه فتنة، ولعلّ لها مستحقين لا نعرفهم، وعاهدها على أنها لا تُشعر بذلك أحداً،

(١) تاريخ بغداد للخطيب (٤٨٧/١٥).

(٢) سيأتي الحديث عن ورع ابن المبارك وزهده في آخر الكتاب.



ولا تتعرض إليه، وكانت صالحة مثله، فتركنا ذلك تورعاً، مع فقرهما وحاجتهما. وهذا غاية في الورع والزهد^(١).

فهل هناك أمل أن نحاول أن نسير على طريق الورع، حتى نلحق بالرجال الورعين^(٢)، ونعيد لأمتنا سالف مجدها.. هذا الطريق واضح فأين السالكون!؟

* * *



(١) شذرات الذهب (٧/٧٠٩)، تحقيق محمود الأرناؤوط، نشر دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

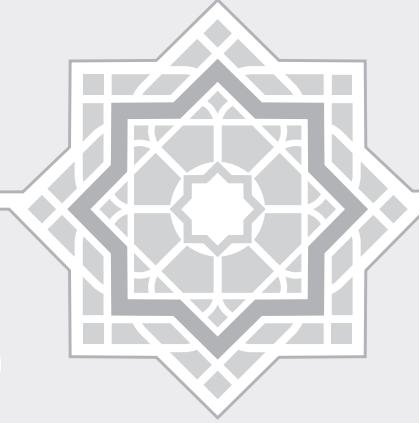
(٢) ولعلك تستغرب هذه الأفكار وتستبعدها، نعم، هي مستغربة في زماننا، بمقاييس حياتنا وحياتنا أمثالنا، ومجتمعاتنا، ولكن حياة الناس، قبل أكثر من ألف ومائة عام، تختلف عن حياتنا اليوم، بمثل هذا البعد الزمني بيننا وبينهم، فضلاً وسمواً وصلاً وورعاً وزهداً.



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ

لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ

بُيُوتِ الْقُرْطُبِيِّ



الباب الثاني

الزهد



٦ - مشاهد الزاهدين في

تمهيد

الدنيا.

١ - التحذير من فتنة الدنيا.

٧ - عقبات في طريق الزهد.

٢ - المراد بالدنيا المذمومة

٨ - بواعث الزهد.

في القرآن والسنة.

٩ - ليس من متطلبات الزهد.

٣ - ما ينكره الإسلام من

١٠ - حدود الزهد في ضروريات

الدنيا.

الحياة الدنيا، في نظر

٤ - تعريف الزهد عند علماء

الإمام الغزالي.

السلوك.

١١ - وقفات نقدية أمام الغلاة

٥ - حقيقة الزهد في الدنيا

في الزهد.

ومكوناته.



تمهيد

كلمة الزُّهد في القرآن والسُّنة:

لم تجئ في القرآن الكريم كلمة «الزهد»، ولا مشتقاتها إلا مرة واحدة في قصة يوسف الصِّدِّيقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حين باعه السيَّارة الذين التقطوه من الجُبِّ^(١)، ﴿وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ﴾ [يوسف: ١٩]، فقال تعالى واصفاً حالهم: ﴿وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]، أي: باعوه.

وجاءت هذه الكلمة في السُّنة النبوية في أكثر من حديث، بعضها من طرق صحيحة، وبعضها من طرق ضعيفة، ومنها الحديث المشهور في الزُّهد، الذي اجتهد بعض العلماء أن يرقى به إلى درجة الحديث الحسن لغيره، وذلك هو الذي رواه ابن ماجه، والحاكم، والطبراني، والبيهقي، وأبو نعيم، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن رجلاً سأله: يا رسول الله، ذلني على عمل إذا عملته أحبني الله، وأحبنى الناس؟ قال: «ازهد في الدنيا يحبك الله،

(١) هذا هو الصحيح، وليس إخوة يوسف كما قال عدد من المفسرين، بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ [يوسف: ٢١]، إذ لا يمكن لإخوة يوسف أن يذهبوا إلى مصر ويبعوه هناك.

وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس»^(١)، وهو من أحاديث «الأربعين النووية» الشهيرة.

وأضعف منه حديث أبي ذر، عن النبي ﷺ قال: «الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا: ألا تكون بما في يديك أوثق منك بما في يدي الله، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك»^(٢). والأصوب أن يكون من كلام بعض التابعين.

ومن الأحاديث الصحيحة: حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحْدٍ، جَعَلَ اللَّهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خَضِرٍ، تَرُدُّ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مَعْلَقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طَيْبَ مَا كُلُّهُمْ وَمَشْرَبَهُمْ وَمَقِيلَهُمْ، قَالُوا: مَنْ يَبْلُغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا أَنَا أَحْيَاءُ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ، لَوْلَا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكَلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ؟ فَقَالَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ: أَنَا أَبْلَغُهُمْ عَنْكُمْ» قال: فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله، ما لنا إذا كنا عندك رقت

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٠٢)، والطبراني (١٩٣/٦)، والحاكم في الرقاق (٣٤٨/٤)، وصححه إسناده، وقال الذهبي: خالد بن عمرو القرشي وضاع. وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٣١٠)، عن سهل بن سعد الساعدي.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٠)، وقال: هذا حديث غريب، وعمرو بن واقد منكر الحديث. وابن ماجه (٤١٠)، كلاهما في الزهد، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٠٥)، عن أبي ذر.

(٣) رواه أحمد (٢٣٨٨)، وقال مخرجه: حسن. وأبو داود (٢٥٢٠)، والحاكم (٩٧/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما في الجهاد، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢١٩٩)، عن ابن عباس.

قلوبنا، وزهدنا في الدنيا، وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك، فأنسنا أهالينا، وشممنا أولادنا، أنكرنا أنفسنا. فقال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك، لزارتكم الملائكة في بيوتكم، ولو لم تُذنبوا ل جاء الله بخلقٍ جديد، كي يذنبوا، فيغفر لهم...»^(١).

وكذلك حديث ابن مسعود رضي عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تُزهد في الدنيا وتُذكر الآخرة»^(٢).

عن أبي تميم، عن رجل من قومه، أتى رجلاً رسول الله ﷺ، فقال: أوصني. قال: «لا تسبَّ أحدًا، ولا تزهد في معروف»^(٣).

عن أبي خلاد - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الرجل قد أُعطي زهدًا في الدنيا، وقلة منطوق، فاقربوا منه، فإنه يُلقى الحكمة»^(٤).

عن الربيع قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالموت مَزهدًا في الدنيا، ومُرغبًا في الآخرة»^(٥).

(١) رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٥٢٦)، وقال: ليس إسناده بذلك القوي، وليس هو عندي بمتصل. والطبراني في الأوسط (٧١١١)، وصحَّحه الألباني في ضعيف الترمذي (٤٥٤)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن ماجه في الجنائز (١٥٧١)، وابن جبان في الرقائق (٩٨١)، وقال الأرنؤوط: إسناده ضعيف. والحاكم في الجنائز (٥٣١/١)، وضعَّفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٣٤٣).

(٣) رواه أحمد (٢٠٦٣٦)، وقال مخرَّجوه: حديث صحيح. والنسائي في الكبرى في الزينة (٩٦١٥).

(٤) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٠١)، والطبراني (٣٩٢/٢٢)، وضعَّفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٨٩٤).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٤٧٠)، وقال عوامه: الإسناد في دائرة الحسن. والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠٧٠)، وقال: هذا مرسل. عن الربيع.

شيوخ مصطلح الزُّهد والكتب المؤلفة فيه:

اشتهرت كلمة الزُّهد فيما بعد، حتَّى أصبحت «مصطلحًا» على اتجاه في السلوك، يقوم على الإعراض عن ملذَّات الدُّنيا، وألَّفَت فيه كتب تحمل هذا العنوان «الزهد»، مثل: «الزهد والرقائق» للإمام ابن المبارك (ت: ١٨٠هـ)، و«الزهد» للمعافى بن عمران الموصلي (ت: ١٨٥هـ)، ولوكيع (ت: ١٩٧هـ)، ولأسد بن موسى (ت: ٢١٢هـ)، ولأحمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ)، ولأبي داود السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، ولأبي حاتم الرازي (ت: ٢٧٧هـ)، ولابن أبي الدُّنيا (ت: ٢٨١هـ)، ولابن أبي عاصم (ت: ٢٨٧هـ)، ولهثاد بن السَّرِي (ت: ٢٤٣هـ)، و«الزهد وصفة الزاهدين» لأحمد بن بشر المعروف بابن الأعرابي (ت: ٣٤٠هـ)، و«الفوائد والزهد والرقائق والمراثي» لجعفر الخُلدي (ت: ٣٤٠هـ)، و«الزهد الكبير والصغير» للحافظ البيهقي (ت: ٤٥٨هـ).

إطلاق وصف الزُّهاد على جماعة من السلف:

واشتهر بهذا الوصف «الزهد» أناس من السلف أطلق عليهم «الزُّهاد»، قبل أن يعرف النَّاس مصطلح «الصوفية»، وقد بدأ ذلك من عصر الصحابة رضي الله عنهم، حيث اشتهر بالزهد منهم جماعة مثل: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبي ذرَّ الغفاري، وسلمان الفارسي، وأبي الدَّرْداء. واشتهر بعدهم مثل: أويس القرني، والحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، ومالك بن دينار، وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك، وغيرهم^(١).

(١) راجع: الزهد الأوائل للدكتور مصطفى حلمي، نشر دار الدعوة، الإسكندرية، ط ١، ١٤٠٠هـ -



هل يجوز استخدام كلمة «الزهد»؟

وإذا كانت كلمة «الزهد» لم ترد في القرآن الكريم، بمعناها المعروف في علم السلوك، ولم ترد في السُّنَّة إلا في ذلك الحديث الواحد على ما فيه، فليس معنى ذلك أن مضمونها غير وارد في القرآن أو الحديث، كلاً، فإنَّ القرآن والسُّنَّة حافلان بالتزهد في الدُّنيا، والترغيب في الآخرة، كما سُبِّين ذلك.

التحذير من التجاوزات والتطرفات:

ولهذا لا مانع من استخدام المصطلح «الزهد»، على أن يفسَّر معناه، ويحدَّد مضمونه، فلا نفع في التجاوزات والتطرفات التي وقع فيها الغلاة من الأمم والأفراد، قبل الإسلام وبعده، من الذين ناصبوا الحياة، وناصبوا البدن الإنساني العداء، واعتبروا أنَّ العناية بالجسم سبب لتعاسة الرُّوح، وأنه إذا ارتقي الجسم انتكست الرُّوح، والعكس بالعكس، وأن الاهتمام بالدنيا نقص في الدين، وعدوان على الآخرة.

لقد رأينا ذلك جليًّا في الفلسفة البرهمية في الهند، والبوذية في الصين، والمانوية في فارس، والرواقية في اليونان، والرهبانية في الديانة النصرانية.

كانت فلسفة هؤلاء جميعًا تقوم على مقاومة الجسد أو تعذيبه، فكلما حوَّصر الجسد بالحرمان والإيذاء صفت الرُّوح، وترقَّت في مدارج الكمال.

حكم الزهد:

قال الإمام أبو الوليد بن رشد القرطبي المالكي (ت: ٥٢٠هـ): الزُّهد نافلة مستحبة لا فريضة، يستوجب الزاهد بها، رضا الله ﷻ عنه، ورفع

الدرجات في جنة المأوى، وإن كانت الواجبات كلها لا تكون إلا بالزهد، فلا يسمى بشيء منها زاهدا، إذ قد اختصت من الأسماء بما هو أليق بها من الزُّهد ألا ترى الإيمان لا يكون إلا بالزهد في كل معبود سواه، والصلاة لا تكون إلا بالزهد في الاشتغال بما يصد عنها، ويمنع منها؟ وكذلك سائر الفرائض والطاعات^(١)

مكونات حقيقة الزهد^(٢):

الزهد مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل السائرين إلى مقامات «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين»، كما سمّاها العلامة الهروي، وكلُّ مقام من مقامات الدين، يتكوّن عند الإمام الغزالي من معجون مرّكّب من ثلاثة عناصر، يسمّيها: العلم والحال والعمل.

وإذا أردنا أن نتحدّث عن هذا التعريف أو نُعبّر عنه بعبارة معاصرة، قلنا: إنّه يتكون من عنصر عقلي معرفي إدراكي، وعنصر وجداني انفعالي شعوري، وعنصر حركي عملي سلوكي.

والزهد في الحقيقة هو الحال أو الوجدان أو الشعور الذي يخطُّ أغواره في النفس الإنسانية، بحيث تشعر معه أن الدنيا متاع قليل، ومتاع الغرور، ومتاع زائل، وأنها دار ممر إلى دار مقرّ، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية، وأنّ إليها المنتهى، وأنها خيرٌ وأبقى، وأنّ الفوز فيها هو الفوز العظيم، والخسران فيها هو الخسران المبين، وأنّ الخير كلّ الخير في إثارة الآخرة على الدنيا، وأن يزرع المرء هنا ليحصد هناك،

(١) المقدمات الممهّدة (٣/٣٩٦).

(٢) سيأتي الحديث عن حقيقة الزهد ومقوماته في الفصل الخامس من هذا الباب.



وتعيش النفس في هذا الوجدان المُعرض عن الدُّنيا الراغب في الآخرة.

وهذا الحال، أو هذا العنصر الوجداني أو الشعوري، مبدؤه ومنشؤه معرفة عميقة، وعلم راسخ بحقيقة الدُّنيا، وصغر منزلتها، وهوانها على الله، وأن الله جعلها دار ابتلاء لأنبياؤه ورسله وعباده الصالحين، وأن أشدَّ النَّاسِ بلاءً فيها هم الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل^(١)، وأنَّ المفلح في الدُّنيا هو المتزوّد منها للآخرة، وخير الزاد التقوى، وأن الخاسر في الدُّنيا هو مَنْ عاش لدنياه وحدها، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية عند ذوي البصيرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

أثر العنصر الوجداني الشعوري في العنصر العملي السلوكي:

وإذا كانت الحال الوجدانية أثرًا للعنصر المعرفي، فإنَّها تؤثر في العنصر العملي والسلوكي، الذي يتجلَّى في الإعراض عن الدُّنيا، والإقبال على الآخرة، والاجتهاد في عمل الصالحات، واجتناب السيئات، والحذر من المحرّمات والشُّبهات والمكروهات، بل من التوسُّع في المباحات، خشية أن تُغرِّي بغيرها، وتفضي إلى ما به بأس.

* * *

(١) إشارة إلى الحديث الذي رواه أحمد (١٤٨١)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٩٨)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٣)، عن سعد بن أبي وقاص بلفظ: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل».

الفصل الأول

التحذير من فتنة الدنيا

أولاً: تحذير القرآن من الدنيا

مَنْ قرأ القرآن من أوله إلى آخره، مكَّيه ومدنيّه: أيقن أن من مقاصده الأصلية: أن يُزهد النَّاسَ في الدنيا، ويُعرِّفهم بخسستها، وقلتها، وانقطاعها، وسرعة فنائها، وحقارة متاعها، وأن يرغبهم في الآخرة، ويخبرهم بشرفها، ودوامها، وأنها عند الله خير وأبقى، فإذا أراد بعبد خيراً، أقام في قلبه شاهداً، يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويؤثر منهما ما هو أحقُّ بالإيثار.

وحسبنا هذه الآيات: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتْرَهُ مُمْصَفًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿الحديد: ٢٠﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْنَهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿يونس: ٢٤﴾.

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدِرًا ﴾ * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

﴿ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ انْقَى وَلَا نُظْمُونَ فَنِيلاً ﴾ * أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨].

وقال: ﴿ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه: ١٣١].

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ﴾ [الكهف: ٧، ٨].

﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ * وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لَبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرًّا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴾ * وَزُخْرَفًا وَإِن كُُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن

﴿ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾
[آل عمران: ١٨٥].

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [الشورى: ٢٠].

وذكر القرآن في آيات كثيرة عن الذين كفروا بآيات الله، وكذبوا رسوله: أنهم غرَّتهم الحياة الدنيا، كالذين ذمهم الله بقوله: ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَائِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٥١].

وقال سبحانه: ﴿ يَمَعَشِرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٢].

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].



إيثار الدنيا على الآخرة من أسباب الانحراف عن الحق:

والقرآن يرى أن من أسباب الانحراف عن الحق إلى الباطل، وعن الدين إلى الهوى، إنما هو إيثار الدنيا على الآخرة، وقد ذم القرآن بني إسرائيل على تحريفهم دينهم، وتلاعبهم بأحكامه بسبب انهماكهم في حب الدنيا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْدُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤ - ٨٦].

الدنيا ثمن قليل:

والقرآن يسمي الدنيا كلها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، ويذم أولئك الذين باعوا بهذا الثمن القليل آيات الله ودينه وعهده وإيمانه، وكل القيم الدينية والأخلاقية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]، كما مدح القرآن قومًا من أهل الكتاب رفضوا مثل هذا السلوك، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وبين القرآن أن التحذير من الدنيا هو طريق الأنبياء والمؤمنين، كما عرض موعظة مؤمن آل فرعون، الذي وقف يعظ قومه ويحذّرهم قائلاً: ﴿يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِيكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٨، ٣٩].

التحذير من الانخداع بغرور الدنيا والشيطان:

ولهذا كرّر القرآن تحذيره من غرور الدنيا، فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

ونلاحظ في الآيتين السابقتين: أن الخطاب نهى الناس كافة، مؤمنهم وكافرهم، أن تغرّبهم الحياة الدنيا، وتخدعهم ببريقها وفتنتها وزينتها، فتحول بين الكافرين والإيمان، وتحوّل بين المسلمين وطاعة الرحمن.

كما نلاحظ أنّهما تنهيان عن الغرور والانخداع بالحياة الدنيا، وبالغرور الذي هو الشيطان، عدو الإنسان، فكلاهما يقوم بدور الإضلال للإنسان.

عَرَضُ الدُّنْيَا:

وقد لام القرآن على الصحابة في قضية أسارى بدر قبولهم فداء أسرى المشركين في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧].



كما لام على الذين يرفضون قبول إسلام من يتلفظ بالشهادة في بعض الغزوات، من أجل الدنيا، فقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِن قَبْلُ فَمَنْ أَلَّهَ عَلَيْكُم فَتَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤].

* * *



ثانيًا: التحذير من الدنيا في السنة النبوية

والسُّنَّة النبوية حافلة بالأحاديث الوفيرة في التحذير من الغرور بالدنيا وزينتها، والفتنة بمتاعها الأدنى، والترغيب في الدار الآخرة، وهي خير وأبقى، وسنكتفي هنا بما ذكره الحافظ المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب»، مقتصرين على الصُّحاح والحسان، مما انتقينا في كتابنا «المنتقى من الترغيب والترهيب» وعلّقنا عليه، وزدنا في تخريجه. وهو كمّ كبير:

١ - عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قالت: قلتُ له: ما لك لا تطلب ما يطلب فلان وفلان؟ قال: إني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّ وراءكم عقبةً كؤودًا لا يجوزها المُثقلون». فأنا أحبُّ أن أتخفّف لتلك العقبة. رواه الطَّبْراني بإسناد صحيح^(١).

٢ - وعن أبي أسماء، أنّه دخل على أبي ذر وهو بالرَّبْدَة وعنده امرأة سوداء مُشَنّعة ليس عليها أثر المحاسن، ولا الخُلُوق، فقال: ألا تنظرون إلى ما تأمرني هذه السُّويداء؟ تأمرني أن آتي العراق، فإذا أتيتُ العراق مالوا عليّ بدنياهم، وإن خليلي صلى الله عليه وسلم، عهد إليّ أن دون جسرِ جهنم طريقًا ذا دَحْض ومَزَلَّة، وأنا أن نأتي عليه وفي أحمالنا اقتِدار

(١) رواه الحاكم في الأهوال (٥٧٣/٤، ٥٧٤)، وصحّح إسناده، ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية (٢٢٦/١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٥٣٠): رواه الطَّبْراني في الكبير ورجاله ثقات. «الكؤود» بفتح الكاف، وبعدها همزة مضمومة: هي العقبة الصعبة. و«المُثقلون»: ذوو الحمل الثقيل.

واضطمار أحرى أن ننجو، من أن نأتي عليه ونحن مَوَاقِير^(١).
رواه أحمد، ورواه رواية الصحيح^(٢).

«الدَّحْض» - بفتح الدال وسكون الحاء المهملتين وبفتح الحاء أيضاً
وآخره ضاد معجمة - هو الزَّلَق.

٣ - وعن أبي سعيد الخُدْرِي رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ وَجَلَّ لِيحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يَحُبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ». رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد^(٣).

٤ - وعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ وَجَلَّ عَبْدًا حِمَاهُ الدُّنْيَا، كَمَا يَظُلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءَ». رواه الطبراني، بإسناد حسن^(٤)، ورواه ابن جِبَّان في صحيحه، والحاكم بلفظه من حديث قتادة^(٥)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد^(٦).

٥ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَجَلَّ؟». قالوا: الله

(١) مُشْتَعَّة: أي متفرقة الشعر، ويروى (مُسْتَفَّعة) - بالسین مهملة بعدها فاء - أي مسودة اللون قليلاً. والخلوق: الطيب. والمزلة: الزلل. والافتقار: القدرة على احتمالنا. والاضطمار: أصله الضمور والهزال، وأراد الخفة. وأحرى: أي أولى. ومواقير: أي مثقلون.

(٢) رواه أحمد (٢١٤١٦)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) رواه الحاكم في الطب (٢٠٨/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٤) رواه الطبراني في الكبير (٢٥٢/٤). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٠٥٣): إسناده حسن.

(٥) في الترغيب: أبي قتادة، والتصويب من صحيح ابن جِبَّان والمستدرک، وهو قتادة بن النعمان.

(٦) رواه ابن جِبَّان في الرقائق (٦٦٩)، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. والحاكم في الرقاق (٣٠٩/٤)، ووافقه الذهبي على تصحيحه. وفاته العزو للترمذي في الطب (٢٠٣٦)، وقال: حسن غريب.

ورسوله أعلم. قال: «الفقراء المهاجرون، الذين تُسَدُّ بهم الثُّغُور، وتُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله ﷻ لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيُّوهم. فتقول الملائكة: ربَّنَا نحن سُكَّانُ سَمَائِكَ، وخَيْرُكَ من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إِنَّهم كانوا عبادًا يعبدوني، ولا يشركون بي شيئًا، وتُسَدُّ بهم الثُّغُور، وتُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء». قال: «فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كلِّ باب: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]». رواه أحمد والبخاري، ورواهما ثقات، وابن حبان في صحيحه^(١).

٦ - وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ حَوْضِي ما بين عَدَنَ إلى عَمَّانَ، أَكْوَابُهُ عدد النجوم، ماؤه أشدُّ بياضًا من الثلج، وأحلى من العسل، وأكثر النَّاسِ ورودًا عليه فقراء المهاجرين». قلنا: يا رسول الله، صِفْهم لنا؟ قال: «شُعْتُ الرُّؤُوسِ، دُنُسُ الثِّيَابِ، الَّذِينَ لا يَنكحُونَ الْمُتَنَعِّماتِ، ولا تُفْتَحُ لَهُمُ السُّدَدُ، الَّذِينَ يُعْطُونَ ما عَلَيْهِم، ولا يُعْطُونَ ما لَهُم». رواه الطبراني، ورواه رواية الصحيح، وهو في الترمذي، وابن ماجه بنحوه^(٢).

السُّدَدُ هنا: هي الأبواب [والمراد: أبواب الأمراء والكبراء].

٧ - وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول:

(١) رواه أحمد (٦٥٧٠)، وقال مخرجه: إسناده جيد. والبخاري (٢٤٥٧)، وابن حبان في مناقب

الصحابة (٧٤٢١)، قال الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٤)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٣)،

والطبراني (٩٩/٢).

«يدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفًا». فقيل: صنفهم لنا؟ قال: «الدنسة ثيابهم، الشعثة رؤوسهم، الذين لا يؤذن لهم على السدات، ولا ينكحون المنعمات، توكل بهم مشارق الأرض ومغاربها، يُعطون كل الذي عليهم، ولا يُعطون كل الذي لهم»^(١). رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورواه ثقات^(٢).

ورواه مسلم مختصرًا: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء أمتي المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفًا». ورواه ابن حبان في صحيحه مختصرًا أيضًا، وقال: «بأربعين عامًا»^(٣).

٨ - وعن أسامة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قمت على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجدد محبسون»^(٤)، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار، فإذا عامة من دخلها النساء». رواه البخاري ومسلم^(٥).

الجد بفتح الجيم هو: الحظ والغنى.

(١) الحديث وما قبله يصور أناسًا مشغولين بغيرهم عن أنفسهم، وبمخبرهم عن مظهرهم، وبواجباتهم عن حقوقهم. ولهذا وصفوا بأنهم «يُعطون كل الذي عليهم، ولا يُعطون كل الذي لهم» كما جاء في حديث البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٦، ٢٨٨٧)، عن أبي هريرة: «طوبى لعبدٍ أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه». فقد شغله الجهاد عن تجميل الشعر ونظافة القدمين، ولا يفهم من هذه الأحاديث بحال أن السنة ضد النظافة والتجميل.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٣١٥/١٢)، والأوسط (٣٤٧٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨٩٢): رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات.

(٣) رواه مسلم في الزهد (٢٩٧٩)، وابن حبان في الرقائق (٦٧٧)، عن عبد الله بن عمرو.

(٤) محبسون: أي لم يؤذن لهم بعد في دخول الجنة.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٩٦)، ومسلم في الرقاق (٢٧٣٦).

٩ - وعن أبي سعيد الخُدري رضي عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهمَّ أحييني مسكينًا، وتوفني مسكينًا، واحشرنني في زمرة المساكين»^(١). رواه ابن ماجه^(٢).

١٠ - وعن عائذ بن عمرو، أنَّ أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكر رضي عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأجاره، فقال: «يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك». فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخواناه، أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي. رواه مسلم وغيره^(٣).

١١ - وعن أبي ذر رضي عنه قال: أوصاني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بخصالٍ من الخير: أوصاني ألا أنظرَ إلى مَنْ هو فوقِي، وأنظرَ إلى مَنْ هو دوني، وأوصاني بحبِّ المساكين، والدنوِّ منهم، وأوصاني أن أصلَ رحمي وإن أدبرت... الحديث. رواه الطبراني، وابن حبان في صحيحه^(٤).

(١) المسكنة هنا لا تعني الفقر، فقد استعاذ بالله من شره في أكثر من حديث. وإنما تعني التواضع والبعد عن بريق المظاهر المادية.

(٢) رواه ابن ماجه في الزهد (٤١٢٦)، والحاكم في الرقاق (٣٥٨/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وأسرف ابن الجوزي فذكره في الموضوعات (١٤٠/٣)، قال ابن حجر: وليس كذلك، فقد صحَّحه الضياء في المختارة. وقال مرة أخرى: وكأنه أقدم عليه لما رآه مباينًا للحال التي مات عليها المصطفى صلى الله عليه وسلم، لأنه كان مكفئًا. كذا في الفيض (١٠٢/٢)، وصحح الألباني في صحيح الجامع (١٢٦١)، ولعل من صحَّحه صحَّحه لشواهد، عن أنس وعائشة وعبادة بن الصامت.

(٣) رواه مسلم في الفضائل (٢٥٠٤)، وأحمد (٢٠٦٤٠).

(٤) رواه أحمد (٢١٤١٥)، وقال مخرجه: حديث صحيح. والطبراني في الكبير (١٥٦/٢)، والأوسط (٧٧٣٩)، والصغير (٧٥٨)، وابن حبان في البر والإحسان (٤٤٩).

١٢ - وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ألا أُخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيفٍ مُستضعفٍ، لو يقسم على الله لأبره. ألا أُخبركم بأهل النار؟ كلُّ عُتْلٍ جَوَّازٍ مُستكبرٍ». رواه البخاري، ومسلم، وابن ماجه ^(١).

«العُتْلُ» بضم العين والتاء وتشديد اللام هو: الجافي الغليظ. و«الجَوَّازُ» بفتح الجيم وتشديد الواو وآخره ظاء معجمة هو: الضخم المختال في مشيته. وقيل: القصير البطين. وقيل: الجَمُوع المَنُوع.

١٣ - وعن أبي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «احتجبت الجنة والنار، فقالت النار: فيَّ الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: فيَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم. ففضى الله بينهما: إنك الجنة رَحْمَتِي، أرحمُ بكِ من أشاء، وإنك النارُ عذابِي، أعذبُ بكِ من أشاء، ولكليكما عليَّ ملؤها». رواه مسلم ^(٢).

١٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنه ليأتي الرجلُ العظيمُ السَّمِينُ يومَ القيامة، لا يزنُ عندَ الله جناحَ بعوضة». رواه البخاري ومسلم ^(٣).

١٥ - وعن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه قال: مرَّ رجلٌ على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟». قال: رجلٌ من أشرف النَّاسِ،

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩١٨)، ومسلم في الجنة وصفتها (٢٨٥٣)، كما رواه ابن ماجه في الزهد (٤١١٦).

(٢) لم يذكر مسلم لفظه، بل روى حديث أبي هريرة قبله، ثم ذكر عن أبي سعيد بسنده إلى أبي صالح، وفي أوله: «احتجبت الجنة والنار». قال: فذكر نحو حديث أبي هريرة. إلى قوله: «ولكليكما عليَّ ملؤها» الحديث (٢٨٤٧). ومقتضى القواعد: «ولكليكما» ولعل التأويل أنهما مكانان النعيم والعذاب، وتأنيتهما مجازي.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٧٢٩)، ومسلم في صفة القيامة (٢٧٨٥).

هذا والله، حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يَشْفَعَ. فسكت رسول الله ﷺ، ثم مرَّ رجل فقال رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟». فقال: يا رسول الله، هذا رجلٌ من فقراء المسلمين، هذا أحرى^(١) إِنْ خَطَبَ أَلَّا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَلَّا يُشْفَعَ، وَإِنْ قَالَ أَلَّا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا»^(٢). رواه البخاري وابن ماجه^(٣).

١٦ - وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «انظر أرفع رجلٍ في المسجد». قال: فنظرتُ، فإذا رجل عليه حُلَّةٌ، قلتُ: هذا. قال: قال لي: «انظر أوضع رجلٍ في المسجد». قال: فنظرتُ فإذا رجلٌ عليه أخلاق^(٤). قال: قلتُ: هذا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لهذا عند الله خيرٌ يوم القيامة من ملء الأرض مثل هذا». رواه أحمد، بأسانيد رواها محتجٌّ بهم في الصحيح، وابن حبان في صحيحه^(٥).

(١) أحرى: أجدر وأحق، يعني أنه ليس أهلاً لأن يزوج ويشفع... إلخ.
(٢) الإسلام لا يقيس الناس بأموالهم أو بجاههم، فإن الله لا ينظر إلى الصور، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال، ولهذا حرص النبي ﷺ، أن يؤكد هذه الحقيقة، في أكثر من حديث بهذا الأسلوب التربوي العملي، تثبيتها له في الأذهان والضمائر.

(٣) رواه البخاري في النكاح (٥٠٩١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٠).

(٤) أخلاق: ثياب رثة خلقة.

(٥) رواه أحمد (٢١٣٩٥)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. ويرقم (٢١٣٩٦)، وقال

مخرجه: صحيح على شرط الشيخين. وابن حبان في الرقائق (٦٨١)، وقال الهيثمي في

مجمع الزوائد (١٧٨٨١): رواه أحمد بأسانيد ورجالها رجال الصحيح. وقال في موضع آخر

(١٧٩٢٧): رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط بأسانيد ورجال أحمد وأحد إسنادي

البزار والطبراني رجال الصحيح.

١٧ - وعن مصعب بن سعد قال: رأى سعد رضي الله عنه، أن له فضلاً على من دونه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم؟»^(١) رواه البخاري^(٢)، والنسائي وعنده: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما تُنصر هذه الأمة بضعيفها: بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم»^(٣).

١٨ - وعن محمود بن لبيد رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اثنان يكرههما ابن آدم: الموت، والموت خير من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب». رواه أحمد، بإسنادين رواة أحدهما محتج بهم في الصحيح، ومحمود له رؤية، ولم يصح له سماع فيما أرى^(٤).

١٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره». رواه مسلم^(٥).

(١) يشير الحديث إلى قضية اجتماعية مهمة، وهي أن الفئات الضعيفة من العمال والفلاحين والحرفيين ونحوهم، هم عدة النصر في الحرب، وعدة الإنتاج في السلم. وهذا بعض ما يفهم من: «تُنصرون وتُرزقون». وانظر كتابنا: فقه الجهاد (١/٦٤٧ - ٦٥٠)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٣، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

(٢) قال النووي: رواه البخاري هكذا مرسلًا، فإن مصعب بن سعد تابعي، ورواه الحافظ أبو بكر البرقاني في صحيحه متصلًا عن مصعب عن أبيه. اهـ. انظر: رياض الصالحين ص ١١٨، تحقيق شعيب الأرنؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٣، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م. وكذلك رواه النسائي موصولًا وسنده صحيح. قال ابن حجر في الفتح (١/٣٦٢): قال الدارقطني: وهذا مرسل، قلت: صورته صورة المرسل، إلا أنه موصول في الأصل معروف من رواية مصعب بن سعد عن أبيه، وقد اعتمد البخاري كثيرًا من أمثال هذا السياق، فأخرجه على أنه موصول إذا كان الراوي معروفًا بالرواية عن ذكره.

(٣) رواه البخاري (٢٨٩٦)، والنسائي (٣١٧٨)، كلاهما في الجهاد.

(٤) رواه أحمد (٢٣٦٢٥، ٢٣٦٢٦)، وقال مخرجه في كليهما: إسناده جيد. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٠٤): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٥) رواه مسلم في البر والصلة (٢٦٢٢).

٢٠ - وعن ثوبان رضي عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ جَاءَ أَحَدَكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَارًا لَمْ يَعْطِهِ، وَلَوْ سَأَلَهُ دَرَهْمًا لَمْ يَعْطِهِ، وَلَوْ سَأَلَهُ فَلْسًا لَمْ يَعْطِهِ، فَلَوْ سَأَلَ اللَّهُ الْجَنَّةَ أَعْطَاهَا إِيَّاهُ: ذِي ^(١) طَمْرِينٍ، لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ». رواه الطبراني، ورواه محتج بهم في الصحيح ^(٢).

٢١ - وعن أبي سعيد الخدري رضي عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، اتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ» ^(٣). رواه مسلم والنسائي ^(٤) وزاد: «فَمَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» ^(٥).

٢٢ - وعن عمرة بنت الحارث رضي عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَضِرَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِي مَالِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَهُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه الطبراني بإسناد حسن ^(٦).

٢٣ - وعن عبد الله بن عمرو رضي عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَضِرَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ

(١) كذا، والجادة: ذو.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط (٧٥٤٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٩٢٠): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(٣) والتحذير من الدنيا ومن النساء لا يعني ترك الدنيا أو النساء، فالدنيا مزرعة الآخرة، والنساء شقائق الرجال، وإنما يعني اجتناب الافتتان بهما، والاشتغال بهما عن طاعة الله ونصرة دينه، والوقوف عند حدوده.

(٤) رواه مسلم في الرقاق (٢٧٤٢)، والنسائي في الكبرى في عشرة النساء (٩٢٢٤).

(٥) وهذه الزيادة غير موجودة في رواية النسائي. وهي متفق عليها: رواها البخاري في النكاح (٥٠٩٦)، ومسلم في الرقاق (٢٧٤٠)، عن أسامة بن زيد.

(٦) رواه الطبراني (٣٤٠/٢٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨١٢): رواه الطبراني وإسناده حسن.

فيما اشتتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار». رواه الطبراني في الكبير، ورواته ثقات^(١).

٢٤ - وعن أبي عبد الرحمن الحُبلي قال: سمعتُ عبد الله بن عمرو بن العاصي وسأله رجل فقال: ألسْتُ من فقراء المهاجرين؟ فقال له عبد الله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. قال: فإنَّ لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك. رواه مسلم موقوفًا^(٢).

٢٥ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ ما يُحاسبُ به العبدُ يومَ القيامةِ أن يُقالَ له: ألمْ أُصِحَّ لك جسْمَكَ وأزوك من الماءِ البارد؟». رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد^(٣).

٢٦ - وعن أنس رضي الله عنه قال: اشتكى سلمانُ، فعاده سعدٌ، فرآه يبكي، فقال له سعدٌ: ما يُبكيك يا أخي؟ أليس قد صحبتَ رسولَ الله ﷺ، أليس... أليس...؟ قال سلمان: ما أبكي واحدةً من اثنتين: ما أبكي ضنًا على الدنيا، ولا كراهية الآخرة، ولكن رسولَ الله ﷺ عهدَ إلينا عهدًا ما أراني إلا قد تعدّيتُ. قال: وما عهدَ إليك؟ قال: عهدَ إلينا أنه يكفي أحدكم مثلُ زاد الراكب. ولا أراني إلا قد تعدّيتُ، وأمّا أنت يا سعد، فاتقِ الله عند حكمك إذا حكمت، وعند قسَمِك إذا قسَمت، وعند هممك إذا هممت. قال ثابت: فبلغني أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهمًا مع

(١) رواه الطبراني (٤١٧/١٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨٠٥): رجاله ثقات.

(٢) رواه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٩).

(٣) رواه ابن حبان في مناقب الصحابة (٧٣٦٤)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح. والحاكم في الأشربة (١٣٨/٤)، وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

نُفَيْقَةٌ كَانَتْ عِنْدَهُ. رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ، وَرَوَاتُهُ ثِقَاتٌ اِحْتَجَّ بِهِمُ الشَّيْخَانُ، إِلَّا جَعْفَرَ بْنَ سَلِيمَانَ فَاحْتَجَّ بِهِ مُسْلِمٌ وَحْدَهُ^(١).

قَالَ الْحَافِظُ الْمُنْذِرِيُّ: وَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ ابْنِ حِبَّانَ، أَنَّ مَالَ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جُمِعَ، فَبَلَغَ خَمْسَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا^(٢)، وَفِي الطَّبْرَانِيِّ: أَنَّ مَتَاعَ سَلْمَانَ بَاعَ فَبَلَغَ أَرْبَعَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا^(٣).

٢٧ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا^(٤).
الكِفَافُ: الَّذِي لَيْسَ فِيهِ فَضْلٌ عَنِ الْكِفَايَةِ.

٢٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا». وَفِي رِوَايَةٍ: «كَفَافًا». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهَ^(٥).

٢٩ - وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يَتَّبِعُ الْمَيْتَ ثَلَاثًا: أَهْلَهُ، وَمَالَهُ، وَعَمَلَهُ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ؛ يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ». رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ^(٦).

(١) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ فِي الزَّهْدِ (٤١٠٤)، وَقَالَ الْبُوصَيْرِيُّ فِي مَصْبَاحِ الزَّجَاجَةِ (٢١١/٤): هَذَا إِسْنَادٌ فِيهِ مَقَالٌ. وَقَالَ ابْنُ حَجْرٍ فِي التَّقْرِيبِ (٩٤٢): صَدُوقٌ زَاهِدٌ لَكِنَّهُ يَتَشَبَّهُ.

(٢) رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الرِّقَاقِ (٧٠٦)، وَقَالَ الْأَرْنَؤُوطُ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ.

(٣) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ (٢١٤/٦)، عَنْ عَلِيِّ بْنِ بَدِيمَةَ، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ (١٧٨٥٧): رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ إِلَّا أَنَّ عَلِيَّ بْنَ بَدِيمَةَ لَمْ يَدْرِكْ سَلْمَانَ، فَإِنْ كَانَتْ تَرْكْتُهُ تَأَخَّرَتْ فَهُوَ مُتَّصِلٌ.

(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الزَّكَاةِ (١٠٥٤)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٣٤٩)، وَابْنُ مَاجَهَ (٤١٣٨)، كِلَاهُمَا فِي الزَّهْدِ.

(٥) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الرِّقَاقِ (٦٤٦٠)، وَمُسْلِمٌ (١٠٥٥)، كَمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٣٦١)، وَابْنُ مَاجَهَ (٤١٣٩)، ثَلَاثْتُهُمْ فِي الزَّهْدِ.

(٦) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الرِّقَاقِ (٦٥١٤)، وَمُسْلِمٌ فِي الزَّهْدِ (٢٩٦٠).

٣٠ - وعن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من عبدٍ ولا أمةٍ إلا وله ثلاثة^(١) أخلاء: فخليلٌ يقول: أنا معك، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فذلك ماله. و خليل يقول: أنا معك، فإذا أتيتَ بابَ المَلِكِ تركتُك، فذلك خَدَمُه وأهلُه. و خليل يقول: أنا معك، حيث دخلتَ وحيث خرجت، فذلك عملُه». رواه الطَّبْرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ، بِأَسَانِيدِ أَحَدِهَا صَحِيحٌ^(٢).

٣١ - وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «يقول العبدُ: مالي مالي! وإنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فأقنى. ما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركُه للناس». رواه مسلم^(٣).

٣٢ - وعن عبد الله بن الشَّخِيرِ رضي الله عنه قال: أتيتُ النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: ﴿الْهَكْمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]^(٤)، قال: «يقول ابنُ آدم: مالي مالي! وهل لك يا ابنَ آدم من مالِكٍ إلا ما أكلتَ فأفنىتَ، أو لبستَ فأبليتَ، أو تصدقتَ فأمضيتَ». رواه مسلم والترمذي والنسائي^(٥).

٣٣ - وعن جَابِرٍ رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بالسُّوقِ والنَّاسِ كَنَفَتِيهِ، فَمَرَّ بِجَدِّي أَسْكَ مَيْتٍ، فَتَنَاوَلَهُ بِأُذُنِهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَيْكُمْ يَحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بَدْرَهُمْ؟». فَقَالُوا: مَا نَحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتَحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟».

(١) في مطبوعة الترغيب والترهيب (ثلاث)، والصواب المثبت، وهو الموافق لقواعد اللغة، إذ المعدود مذكَّر، وكما جاء في مجمع الزوائد (١٧٨٤٤).

(٢) رواه الطَّبْرَانِيُّ (١١٩/٢١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨٤٤): رواه الطَّبْرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ، بِأَسَانِيدِ أَحَدِهَا صَحِيحٌ.

(٣) رواه مسلم في الزهد (٢٩٥٩).

(٤) ومعنى التكاثر: التفاخر بكثرة المال والمتاع، وإلهاكم: أي: شغلکم.

(٥) رواه مسلم (٢٩٥٨)، والترمذي (٢٣٤٢)، كلاهما في الزهد، والنسائي في الوصايا (٣٦١٣).

قالوا: والله، لو كان حيًّا لكان عيبًا فيه؛ لأنَّه أسكُّ، فكيف وهو ميت؟ فقال: «والله، للدُّنيا أهونُ على الله وعَجَلٌ من هذا عليكم». رواه مسلم^(١).

قوله: «كَنَفَتِيه» أي عن جانيه. و«الأسكُّ» بفتح الهمزة والسين المهملة أيضًا وتشديد الكاف هو: الصغير الأذن.

٣٤ - وعن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «لو كانت الدُّنيا تعدُّ عند الله جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافرًا منها شربةَ ماء». رواه ابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح^(٢).

٣٥ - وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا، وَإِنْ قَرَّحَهُ وَمَلَّحَهُ، فَاَنْظُرْ إِلَى مَا يَصِيرُ». رواه عبد الله بن أحمد وابن حبان في صحيحه^(٣).

قوله: «قَرَّحَهُ» بتشديد الزاي هو: من القَرَح، وهو التابل، يقال: قَرَّحْتُ القِدْرَ؛ إذا طرحتَ فيها الأبخار. و«مَلَّحَهُ» بتخفيف اللام معروف.

٣٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ^(٤)، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالَمٌ أَوْ مَتَعَلِّمٌ». رواه ابن ماجه والبيهقي والترمذي، وقال: حديث حسن^(٥).

(١) رواه مسلم في الزهد (٢٩٥٧)، والحديث يجسد جانبًا من الطريقة النبوية في التربية.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠)، كلاهما في الزهد.

(٣) رواه عبد الله في زوائد المسند (٢١٢٣٩)، وقال مخرجه: حسن لغيره. وابن حبان في الرقاق (٧٠٢).

(٤) المراد باللعن هنا: الدم، فالدنيا مذمومة مبعوضة، لا من حيث ذاتها، بل من حيث إنها تُلهي عن ذكر الله والدار الآخرة، بدليل الاستثناء في الحديث.

(٥) رواه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، كلاهما في الزهد، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٦٠٩).

٣٧ - وعن المُسْتَوْرِدِ أَخِي بَنِي فَهْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أَصْبَعَهُ هَذِهِ فِي اليَمِّ - وَأَشَارَ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى بِالسَّبَابَةِ - فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ!». رواه مسلم^(١).

٣٨ - وعن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْأَشْعَرِيِّينَ، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «حُلُوَّةُ الدُّنْيَا مُرَّةُ الآخِرَةِ، وَمُرَّةُ الدُّنْيَا حُلُوَّةُ الآخِرَةِ» رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد^(٢).

٣٩ - وعن كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا ذُبَّانٌ جَائِعَانِ أَرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حَرَصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»^(٣). رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وابن حبان في صحيحه^(٤).

٤٠ - وعن كَعْبِ بْنِ عِيَاضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ». رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح. وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد^(٥).

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٨).

(٢) رواه الحاكم في الرقاق (٣١٠/٤)، ووافقه الذهبي، وقد رواه أحمد (٢٢٨٩٩)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف لانقطاعه. والطبراني (٢٩١/٣)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨٢٦): رواه أحمد والطبراني ورجاله ثقات.

(٣) يقصد بالشرف: الجاه والعلو والظهور. ولهذا قيل: حب الظهور كم قصم الظهور! فإذا اجتمع إلى حب الجاه حب المال والحرص عليه كان الفساد العريض لدين المرء المسلم كما قال الحديث الشريف، وقد أفرد ابن رجب بالشرح فأجاد.

(٤) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٧٦)، وابن حبان في الزكاة (٣٢٢٨)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح. وكذا رواه أحمد (١٥٧٩٤)، وقال مخرجه: إسناده صحيح.

(٥) رواه الترمذي في الزهد (٢٣٣٦)، وابن حبان في الزكاة (٣٢٢٣)، وقال الأرنؤوط: إسناده قوي. والحاكم في الرقاق (٣١٨/٤)، ووافقه الذهبي.

٤١ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيَا دَارٌ مِّنْ لَا دَارَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَن لَّا عَقْلَ لَهُ». رواه أحمد والبيهقي وزاد: «ومالٌ مِّنْ لَا مَالَ لَهُ». وإسنادهما جيّد ^(١).

٤٢ - وعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه، أنّ رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيّتها، فقدم بمالٍ من البحرين، فسمعت الأنصارُ بقُدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاةَ الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرّضوا له، فتبسّم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدّم بشيءٍ من البحرين؟». قالوا: أجل، يا رسول الله. قال: «أبشروا وأمّلوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقرُ أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تُبسّطَ الدُّنيا عليكم كما بسّطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتُهلككم كما أهلكتهم». رواه البخاري ومسلم ^(٢).

٤٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكن أخشى عليكم التعمّد». رواه أحمد، ورواته مُحتجّ بهم في الصحيح، وابن جبان في صحيحه، والحاكم وقال: صحيحٌ على شرط مسلم ^(٣).

(١) رواه أحمد (٢٤٤١٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠١٥٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٠٧٨): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير دُوَيْد وهو ثقة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الجزية (٣١٥٨)، ومسلم في الزهد (٢٩٦١).

(٣) رواه أحمد (٨٠٧٤)، وابن جبان في الزكاة (٣٢٢٢)، وقال الأرنؤوط: إسناده حسن. والحاكم في التفسير (٥٣٤/٢)، ووافقه الذهبي في تصحيحه، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٦٧٣): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

٤٤ - وعن عبد الرحمن بن عَوْفٍ رضي عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الشيطان لعنه الله: لن يسلم مني صاحب المال من إحدى ثلاثٍ أغدو عليه بهنٍّ وأروح: أخذه من غير حِلِّه، وإنفاقه في غير حقِّه، وأحبَّبه إليه فيمنعه من حقِّه». رواه الطَّبْراني بإسنادٍ حسن^(١).

٤٥ - وعن ابن مسعودٍ رضي عنه: أنه كان يعطي النَّاسَ عطاءهم، فجاءه رجل فأعطاه ألف درهم، ثم قال: فإنِّي سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنَّما أهلك من كان قبلكم الدينارُ والدرهمُ، وهما مُهلِكَاكم» رواه البزارُ بإسنادٍ جيِّد^(٢).

٤٦ - وعن أبي سعيدٍ الخُدْري رضي عنه قال: جلس رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على المنبر وجلسنا حوله، فقال: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزَيْتَيْهَا». رواه البخاري ومسلم في حديث^(٣).

٤٧ - وعن أبي سِنَانِ الدُّوْلِيِّ: أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رضي عنه، وعنده نفر من المهاجرين الأوَّلِينَ، فأرسل عمر إلى سَفْطِ أُتَيْ بِهِ مِنْ قَلْعَةِ الْعِرَاقِ، فَكَانَ فِيهِ خَاتَمٌ، فَأَخَذَهُ بَعْضُ بَنِيهِ، فَأَدْخَلَهُ فِي فِيهِ، فَانْتَزَعَهُ عَمْرٌ مِنْهُ، ثُمَّ بَكَى عَمْرٌ رضي عنه، فَقَالَ لَهُ مَنْ عِنْدَهُ: لِمَ تَبْكِي، وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَأَظْهَرَكَ عَلَى عَدُوِّكَ، وَأَقَرَّ عَيْنَكَ؟ فَقَالَ عَمْرٌ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لَا تُفْتَحُ الدُّنْيَا عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَلْقَى اللَّهُ عز وجل بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». وَأَنَا أَشْفِقُ مِنْ ذَلِكَ. رواه أحمد بإسناد حسن، والبزار وأبو يعلى^(٤).

(١) رواه الطَّبْراني (١٣٦/١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٧٩٧): رواه الطَّبْراني وإسناده حسن.

(٢) رواه البزار (١٦١٢)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٧٤٦): رواه البزار وإسناده جيد.

(٣) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢)، كلاهما في الزكاة.

(٤) رواه أحمد (٩٣)، والبزار (٣١١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٧٤١): رواه أحمد، والبزار، وأبو يعلى في الكبير، وإسناده حسن.

«السَّفَط» بسين مهملة وفاء مفتوحتين هو: شيء كالقُفَّة أو كالجُوالِق.

٤٨ - وعن أبي ذرٍّ رضي عنه قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم جالسٌ، إذ قام أعرابيٌّ فيه جَفَاء، فقال: يا رسولَ الله، أكلتُنا الضَّبْع! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «غير ذلك أخوفٌ عليكم، حين تُصَبُّ عليكم الدنيا صبًّا، فيا ليت أمّتي لا تلبس الذهب». رواه أحمد والبزار، ورواهُ أحمد رواةُ الصحيح^(١).

«الضَّبْع» بضاد معجمة مفتوحة وباء موحدة مضمومة هي: السَّنَّة المُجْدبة.

٤٩ - وعن أبي ذرٍّ رضي عنه قال: كنتُ أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم، في حَرَّة بالمدينة، فاستقبلنا أحدٌ، فقال: «يا أبا ذرٍّ». قلتُ: لبيك، يا رسولَ الله. قال: «ما يسُرُّني أنَّ عندي مثلُ أحدٍ هذا ذهبًا تمضي عليه ثالثةٌ وعندي منه دينار، إلَّا شيءٌ أرصدهُ لدينٍ، إلَّا أن أقول في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا» عن يمينه، وعن شماله، وعن خلفه. ثم سار فقال: «إنَّ الأكثرين هم الأقلُّون يوم القيامة، إلَّا مَنْ قال هكذا وهكذا وهكذا - عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه - وقليلٌ ما هم». ثم قال لي: «مكانك لا تبرح حتَّى آتيك». الحديث رواه البخاري واللفظ له، ومسلم^(٢).

وفي لفظٍ لمسلم^(٣) قال: انتهيتُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظلِّ الكعبة، فلما رأني قال: «هم الأَخسرون، وربَّ الكعبة». قال: فجئتُ حتَّى

(١) رواه أحمد (٢١٣٥٣)، والبزار (٣٩٨٤)، والطبراني في الأوسط (٣٩٦٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٧٤٤): رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٤)، ومسلم في الزكاة (٩٤).

(٣) رواه مسلم في الزكاة (٩٩٠).



جلستُ، فلم أتقارَّ أن قمتُ، فقلتُ: يا رسولَ الله، فداك أبي وأمي، من هم؟ قال: «هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا - من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله - وقليل ما هم...» الحديث.

ورواه ابن ماجه مختصراً: «الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا، وكسبه من طيب»^(١) انتهى.

٥٠ - وقال عمر: دخلتُ على رسولِ الله ﷺ، وهو مضطجعٌ على حصير، فجلستُ، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرتُ ببصري في خزانة رسولِ الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعيرٍ نحو الصاع ومثلها قرظاً في ناحية الغرفة، وإذا أفيقٌ - جلد لم يُدبغ - معلق. قال: فابتدرتُ عيناى. قال: «ما يُبكيك، يا ابن الخطاب؟». قلتُ: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي، وهذا الحصيرُ قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى؟ وذاك قيصرٌ وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسولُ الله ﷺ وصفوته، وهذه خزانتك. فقال: «يا ابنَ الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟»^(٢).

٥١ - وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يوشكُ الأممُ أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها». فقال قائلٌ: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنكم غثاءٌ كغثاءِ السَّيل، ولينزعنَّ

(١) رواه ابن ماجه الزهد (٤١٣٠)، وقال البوصيري في مصباح الزجاجة (٤/٢٢٠): إسناده صحيح ورجاله ثقات.

(٢) رواه مسلم في الطلاق (١٤٧٩).

الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»^(١).
فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «حبُّ الدُّنيا وكرهية الموت»^(٢).

والأحاديث في ذمِّ الدُّنيا وحقارتها عند الله كثيرة جدًّا.

* * *

(١) الوهن بسكون الهاء وتُحرَّك: الضعف في العمل أو في الأمر أو في العظم.

(٢) رواه أحمد (٢٢٣٩٧)، وقال مخرجه: إسناده حسن. وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وصحَّحه

الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٥٨)، عن ثوبان.

الفصل الثاني

المراد بالدنيا المذمومة في القرآن والسنة

قبل أن نبين حقيقة الزُّهد الذي يريده الإسلام، يلزمنا أن نحرر المراد بـ «الدُّنيا المذمومة» في القرآن والسنة.

ليس المذموم زمان الدنيا:

فقد قرّر علماء السلوك: أن ذلك لا يرجع إلى «زمان الدنيا»، سواء كان زمانها العام من يوم خلقها الله إلى أن تقوم الساعة، أم زمانها الخاص لكل فرد، وهو الليل والنهار المتعاقبان إلى يوم القيامة، وتعاقبهما واختلافهما آية من آيات الله في الكون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

تعاقب الليل والنهار من نعم الله على الإنسان:

وهما كذلك من نعم الله الكبرى على الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

كما جعلهما الله خِلفَةً لِمَن أراد أن يذَّكر أو أراد شكورًا، كما قال

تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنۢ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]، أي: يخلف الليل النهار، ويخلف النهار الليل، فمن فاتته عمل بالليل تداركه بالنهار، ومن فاتته عمل بالنهار تداركه بالليل.

وقال عمر بن عبد العزيز: إنَّ الليل والنهار يعملان فيك، فاعمل فيهما^(١).

وقال بعض السلف: ما من يوم ينشق فجره، إلا وينادي: يا ابن آدم، أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فنزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

ويروى عن عيسى عليه السلام، أنه قال: إن هذا الليل والنهار خزانتان، فانظروا ما تضعون فيهما. وكان يقول: اعملوا بالليل لما خلق له، والنهار لما خلق له^(٢).

وقال مجاهد: ما من يوم إلا يقول: ابن آدم، قد دخلت عليك اليوم، ولن أرجع إليك بعد اليوم، فانظر ماذا تعمل في. فإذا انقضى طوي، ثم يُختم عليه، فلا يُفك، حتى يكون الله هو الذي يفضّه يوم القيامة، ولا ليلة إلا تقول كذلك^(٣)، وقد أنشد بعض السلف:

إنَّما الدُّنيا إلى الجَنَّةِ والنَّارِ طريقٌ واللَّيالي متجر الإنسان والأَيَّام سُوقٌ^(٤)

(١) ذكره ابن أبي الدنيا بقوله: قال بعض الحكماء. انظر: مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا ص ٤٧، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الزهد (٤٢٣)، عن مالك بن دينار، قال: كان عيسى عليه السلام يقول.

(٣) المصدر السابق (٤١١).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٠٢).

ليس المذموم مكان الدنيا ولا ما فيها:

وليس الذمُّ راجعًا إلى مكان الدنيا، الذي هو الأرض التي جعلها الله لبني آدم مهادًا وسكنًا، وبساطًا وفراشًا، ومستقرًا ومتاعًا إلى حين، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِيَتَسَلَّكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠]، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبا: ٦، ٧]، ﴿وَلَكُمُ فِي الْأَرْضِ مَسْنَعٌ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، ولا إلى ما أودعه الله فيها من الجبال والبحار والأنهار والمعادن، ولا إلى ما أنبته فيها من الشجر والزرع، ولا إلى ما بثَّ فيها من كلِّ دابة في البر، أو طائر يطير بجناحيه في الجو، أو أحياء وحليّة في البحر، أو غير ذلك، فإن ذلك كله من نعمة الله على عباده، بما لهم فيه من المنافع، ولهم به من الاعتبار والاستدلال على وحدانيّة صانعه وقدرته وعظمتِهِ، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَءَاتَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢ - ٣٤]. فهذه كلها عناصر من الدنيا، ونعم من الله بها على خلقه، وسخرها لمنفعتهم، فكيف يذمُّها وهو يَمُنُّ بها عليهم؟!!

وفي سورة النحل كثير من هذه الأشياء، وهي جزء من الدنيا، أحسن الله بها إلى عباده، ولذلك سمّاها بعض الصحابة: سورة النعم، مثل الأنعام، والنباتات، والشمس والقمر والنجوم، والبحر، واللبن والعسل، والأزواج والبنين والحفدة، وغيرها من نعم الله.

وإنّما الذمُّ راجعٌ إلى أفعال بني آدم الواقعة في الدنيا؛ لأن غالبها

واقع على غير الوجه الذي تُحمد عاقبته، بل يقع على ما تضرُّ عاقبته، أو لا تنفع، كما قال **عَجَلٌ**: ﴿ **أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ** ﴾ [الحديد: ٢٠].

ليس من الدنيا المذمومة:

ومن المهم أن يعلم المسلم: أنَّ «الدنيا» وإن اعتُبرت متاعاً قليلاً وزائلاً، ومتاع الغرور، فإنها دار لها أهمية عظيمة باعتبارها «مزرعة الآخرة»، فهي الفرصة الوحيدة للإنسان، ليصنع فيها مصيره، ويُحقق فيها أمله الكبير في الخلود والسعادة الأبدية. لهذا كان عمر الإنسان في الدنيا في غاية النفاسة والغلاء؛ لأنه ليس له إلا عمر واحد، هو هذه الأيام التي يقضيها من المهد إلى اللحد.

تمييز أهل البصيرة بين ما يُذمُّ من الدنيا وما يُمدح فيها:

وهذه ناحية مهمّة قد يغفل عنها الكثيرون، ولا يقدرونها حق قدرها. ولكن أهل المعرفة والبصيرة لا تخفى عليهم هذه الحقيقة النيرة. ولهذا ميّزوا بوضوح بين ما يُذمُّ من الدنيا وما يُمدح فيها، وبين ما يُحبُّ فيها وما يُكره.

«قال الحسن: ليس من حُبِّك للدنيا طلبك ما يُصلحك فيها، ومن زهدك فيها: ترك الحاجة يسدُّها عنك تركها، ومن أحبَّ الدنيا وسرَّته، ذهب خوف الآخرة من قلبه»^(١).

وقال سعيد بن جبير: متاع الغرور ما يُلهيك عن طلب الآخرة، وما لم يُلهك فليس بمتاع الغرور، ولكنه متاعٌ بلاغٍ إلى ما هو خير منه^(٢).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٦٢).

(٢) رواه نعيم بن حماد في زوائده على الزهد لابن المبارك (١٤٠).

وقال يحيى بن مُعَاذِ الرَّازِي: كَيْفَ لَا أَحِبُّ دُنْيَا قُدِّرَ لِي فِيهَا قُوَّةٌ،
أَكْتَسِبَ بِهَا حَيَاةً، أُدْرِكُ بِهَا طَاعَةَ، أَنْالُ بِهَا الْآخِرَةَ.

وَسُئِلَ أَبُو صَفْوَانَ الرَّعَيْنِي - وَكَانَ مِنَ الْعَارِفِينَ -: مَا هِيَ الدُّنْيَا الَّتِي
ذَمَّهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ، الَّتِي يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَجْتَنِبَهَا؟ فَقَالَ: كُلُّ مَا أَصَبْتَ
فِي الدُّنْيَا تَرِيدُ بِهِ الدُّنْيَا، فَهُوَ مَذْمُومٌ، وَكُلُّ مَا أَصَبْتَ فِيهَا تَرِيدُ بِهِ الْآخِرَةَ،
فَلَيْسَ مِنْهَا^(١).

وقال الحسن: نِعْمَتِ الدَّارِ كَانَتِ الدُّنْيَا لِلْمُؤْمِنِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ عَمِلَ فِيهَا
قَلِيلًا، وَأَخَذَ زَادَهُ مِنْهَا إِلَى الْجَنَّةِ، وَبِئْسَتِ الدَّارُ كَانَتِ لِلْكَافِرِ وَالْمُنَافِقِ،
وَذَلِكَ أَنَّهُ ضَيَّعَ لِيَالِيهِ، وَكَانَ زَادَهُ مِنْهَا إِلَى النَّارِ^(٢).

وقال أَيْفَعُ بْنُ عَبْدِ الْكَلَّاعِيِّ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ
الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، قَالَ اللَّهُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عِدَّةَ
سِنِينَ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. قَالَ: نَعَمْ مَا أَتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ
بَعْضِ يَوْمٍ رَحْمَتِي وَرِضْوَانِي وَجَنَّتِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ. ثُمَّ
يَقُولُ لِأَهْلِ النَّارِ: كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عِدَّةَ سِنِينَ؟ قَالُوا: لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ
بَعْضَ يَوْمٍ. فَيَقُولُ: بئس ما أَتَّجَرْتُمْ فِي يَوْمٍ أَوْ بَعْضِ يَوْمٍ سَخَطِي
وَمَعْصِيَتِي وَنَارِي، امْكُثُوا فِيهَا خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ»^(٣).

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «نِعْمَتِ الدَّارِ الدُّنْيَا لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا
لِآخِرَتِهِ حَتَّى يُرْضِيَ رَبَّهُ، وَبِئْسَتِ الدَّارُ لِمَنْ صَدَّتْهُ عَنِ آخِرَتِهِ،

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٣٥)، والبيهقي في الزهد الكبير (٤٤٨).

(٢) رواه أحمد في الزهد ص ٢٣٠، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١٤٠٦٠)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٢/٥)، وقال الحافظ في
الإصابة (٢٦٢/١): رجال إسناده ثقات إلا أنه مرسل أو معضل لا يصح لأيفع سماع من صحابي.

وقصّرت به عن رضا ربّه. وإذا قال العبد: قَبَّحَ اللهُ الدُّنْيَا، قالت الدنيا: قَبَّحَ اللهُ أعصانا لربّه»^(١).

من كلام عليّ في وصف الدنيا:

وقول عليّ خرّجه ابن أبي الدنيا عنه، بإسناد فيه نظر: أنّ عليّاً سمع رجلاً يسبُّ الدُّنْيَا، فقال: إنّها لدارٌ صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، مسجداً أحبّاء الله، ومهبط وحيه، ومُصلّى ملائكته، ومتجرٌ أوليائه، اكتسبوا فيها الرّحمة، وربحوا فيها الجنّة، فمن ذا يذمُّ الدُّنْيَا وقد آذنت بفراقها، ونادت بعيبها، ونعت نفسها وأهلها، فمثّلت ببلائها البلاء، وشوّقت بسرورها إلى السرور، فذمّها قومٌ عند الندامة، وحمدها آخرون، حدّثتهم فصدّقوا، وذكّرتهم فذكروا، فيا أيّها المُغتترُّ بالدنيا، المُغتترُّ بغرورها، متى استهوتك إليك الدنيا؟ بل متى غرّتك؟ أَمْضاجعِ آبائك من الثرى؟ أم بمصارعِ أمّهاتك من البلى؟ كم قد قلبت بكفّيك، ومرّضت بيديك تطلب له الشفاء، وتساءل له الأطباء، فلم تظفر بحاجتك، ولم تُسعف بطلبتك، قد مثّلت لك الدنيا بمصرعه مصرعك غداً، ولا يُغني عنك بكاؤك، ولا ينفَعك أحباؤك^(٢).

فبيّن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّ الدُّنْيَا لا تُذمُّ مطلقاً، وأنها تحمد بالنسبة إلى من تزوّد منها الأعمال الصالحة، وأن فيها مساجد الأنبياء، ومهبط الوحي، وهي دار التجارة للمؤمنين، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا بها

(١) رواه الحاكم في الرقائق (٣١٢/٤)، وصحّحه، وقال الذهبي: منكر. وابن عدي في الكامل (٢٤٨/٣)، والعقيلي في الضعفاء (٨٩/٣)، وقال: عبد الجبار بن وهب مجهول وحديثه غير محفوظ، وهذا الكلام يُروى عن عليّ من قوله، عن طارق بن أشيم.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٤٧).



الجنة، فهي نعم الدار لمن كانت هذه صفته. وأمّا ما ذكر من أنّها تُعزُّ وتخدع، فإنّها تنادي بمواعظها، وتنصح بعبرها، وتبدي عيوبها بما تُري أهلها من مصارع الهلكى، وتقلّب الأحوال من الصّحة إلى السقم، ومن الشبيبة إلى الهرم، ومن الغنى إلى الفقر، ومن العزّ إلى الذلّ، لكن محبّها قد أصمّه وأعماه حبّها، فهو لا يسمع نداءها، كما قيل:

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان في العالم من يسمع
كم واثق بالعمر أفئته وجامع بددت ما يجمع^(١)

غير مرخصة للطباعة

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١٨٧/٢ - ١٩٥)، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، نشر

مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٧، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

والبيتان الأخيران من قول جحظة البرمكي كما في تاريخ بغداد (١٠٥/٥).

الفصل الثالث

ما ينكره الإسلام من الدنيا

حُبُّ الدُّنْيَا وَالْحِرْصُ عَلَيْهَا:

ينكر الإسلام على المسلم أن يحبَّ الإنسانُ الدُّنْيَا حُبًّا جَمًّا، بحيث يجعلها أكبر همِّه، ومبلغ علمه، ومناط آماله، ومحور أحلامه، عليها وحدها يحرص، ولها وحدها يسعى، وفيها وحدها يرغب، ومن أجلها يصادق ويخاصم، ويسالم ويحارب.

وهذا فضلاً عما فيه من ضياع الآخرة، فهو كارثة على صاحبه في الدُّنْيَا، فيه قلق لنفسه، وتعب لقلبه، وבלبلة لخاطره، وتقليل لأحبابه، وتكثير لأعدائه، وفقدان لسكينة نفسه.

تقديم الدين على الدنيا عند تعارضهما:

ينكر الإسلام على المسلم أن يتشبَّث بالحياة تشبُّثاً يهون بإزائه واجب الدين والتضحية في سبيله بكلِّ شيء حتَّى الحياة، وهنا يبدو الزُّهْدُ الحَقُّ، وتبدو القوَّة الحقيقية، حين تتعارض الدُّنْيَا والدين، وحياة الفرد وحياة الرسالة والأمة.

فأمَّا أبناء الدُّنْيَا فيتعلَّقون بأهداب الحياة، ويعصُّون عليها بالنواجذ،

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُنِبَ عَلَيْهِمُ
الْفِتْنَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُنِبَتْ عَلَيْنَا
الْفِتْنَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَّعْتُ الدُّنْيَا قَلِيلًا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا
تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ
انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَىٰ الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ
الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعْتُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقد ذمَّ القرآن أقوامًا باعوا دينهم بدنياهم، وآثروا الحياة الدنيا على
الآخرة، فما أغنت عنهم من الله شيئًا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ
يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ
فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

الزهد الحقيقي والقوة الحقيقية حين يستهين المرء بحياته في سبيل
ما يؤمن به، وهذا ما كان يتَّصف به الصحابة، حتى كان أحدهم يلاقي
الأعداء، وهم أكثر عددًا، وأقوى عُدة، ولا يبالي أوقع على الموت، أم
وقع الموت عليه.

حقيقة الضعف في الأمة ومنابعه:

وقد كشف لنا رسول الله ﷺ عن حقيقة الضعف في الأمة ومنابعه
البعيدة، فلم يكن من قلة العدد، ولا ضالة العدة، إنما هو شيء آخر
ذكره ﷺ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»^(١).

ينكر الإسلام أن تكون الدنيا هي أساس تقويم الناس، ومعيار

(١) سبق تخريجه ص ٩٨.

التفاضل بينهم، فبمقدار ما يملكون من متاعها، تثقل في الميزان كفتهم، وترفع في الأسواق قيمتهم، وتنحني الناس رغبة ورهبة لهم.

إنما يريد الإسلام أن يكون تقدير الناس بالعلم النافع، والإيمان الصادق، والخلق الفاضل، والعمل الصالح: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١]، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَكُمُ﴾ [الحجرات: ١٣]، «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى»^(١).

ولكن الناس إذا تعلقوا بالدنيا قلبوا هذه الموازين، كما نرى في قصة قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

وكما نرى في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥].

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ ۗ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

﴿لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۗ مَتَعُ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۗ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا...﴾ [الكهف: ٣٢ - ٤٤].

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد

(٥٦٢٢): رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، عن سمع خطبة النبي ﷺ.

وكما نرى في الحديث الصحيح: «هذا خيرٌ من ملء الأرض مثلَ هذا»^(١).

هذا هو ميزان الرجال عند محمد رسول الله ﷺ، ميزان مَنْ يقيس النَّاسَ بما في قلوبهم من معاني الحياة العُلَيَا، لا بما على أبدانهم من مظاهر الحياة الدُّنْيَا، «رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طَمْرِينٍ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»^(٢).

بين عبادة الدُّنْيَا وعبادة الله:

ويكشف لنا الرسول الكريم عن صِنْفَيْنِ مِنَ النَّاسِ، أولهما: عبد الدُّنْيَا، وعبد المظهر. والثاني: عبد الله وحده، يعمل حيث وُضِعَ جنديًّا مجهولًا أو معلومًا.

«تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهِمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ، طَوْبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبِرَّةٌ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»^(٣).

اتخاذ أعمال الآخرة وسيلة لكسب الدنيا:

وينكر الإسلام على المسلم أن يتَّخذ أعمال الآخرة، من علم ديني، أو هجرة دينية، أو جهاد ديني: وسيلة لكسب الدُّنْيَا من مال أو منصب أو منزلة في قلوب الناس، وذلك لما فيه من قلب الحقائق، وعكس

(١) سبق تخريجه ص ٨٦.

(٢) سبق تخريجه ص ٨٧.

(٣) سبق تخريجه ص ٨٣.

الأوضاع، فإن الله جعل الدنيا وسيلة للآخرة، فكيف نجعل الغاية وسيلة،
والوسيلة غاية؟!

«إنَّما الأعمالُ بالنيَّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِن قَاتَلْتَ لِأَن يُقَالَ: هُوَ جَرِيءٌ؛ فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ...»^(٢).

عن كعب بن مالك قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ لِيُجَارِيَ بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ يَصْرِفَ بِهِ وَجْهَهُ النَّاسَ إِلَيْهِ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ النَّارَ»^(٣).

* * *

- (١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر.
(٢) رواه مسلم في الإمارة (١٩٠٥)، وأحمد (٨٢٧٧)، عن أبي هريرة.
(٣) رواه الترمذي في العلم (٢٦٥٤)، واستغربه، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٣٨٣)، عن كعب بن مالك.

الفصل الرابع

تعريف الزُّهْد عند علماء السلوك

عناية علماء السلوك بالزهد:

عُنِيَ علماء السلوك والتربية الإيمانية «بالزهد» وحقيقته وآثاره، أكثر مما عنوا بغيره، وذلك باعتباره منزلة من منازل السائرين، ومحطة مهمّة في الطريق إلى الله. كما نظروا إليه من وجهة نظر أخرى، وهو أنّهم يعتبرونه أحياناً عنواناً على طريقهم الذي ارتضوه، واتخذوه سبيلاً للوصول إلى مرضاة الله، وكأنّهم حين يتحدّثون عن الزُّهد، يتحدّثون عن «التقوى»، أو «الصلاح»، أو «الاستقامة»، ونحو ذلك.

ومن أجل هذا أُلِّفَتْ فيه الكتب من السلف رضوان الله عليهم، بهذا الاسم «الزهد»، مثل الزُّهد للإمام ابن المبارك، والإمام أحمد، وغيرهما مما سبق ذكره.

الاختلاف في تعريف الزُّهد وتحديد مفهومه:

وقد اختلفوا كثيراً في تعريف «الزهد» وتحديد مفهومه تحديداً دقيقاً، أو كما يقول علماء المنطق: جامعاً مانعاً. ومعظم هذا الاختلاف مما يسمّيه العلماء: اختلاف تنوع، وليس اختلاف تضاد أو تناقض.

فكلُّ واحد منهم يلتفت إلى معنى مهم في الزُّهد، فيركز عليه ما لا يركز عليه غيره من المُربِّين والمُرشدين، وهذا طبيعي بين البشر. وأحياناً يعبرُ أحدهم عن حالته في وقته، وما يشعر هو به أو يعيشه، أي يُعبّر عن تجربته الروحية الخاصة.

وقد تعدّدت عبارات علماء السلوك في تعريف «الزهد» واختلفت اختلافًا كثيرًا، قد يقف أمامه بعض الباحثين متحيرًا، والحقيقة أنهم لم يكونوا يقصدون أن يُعرّفوه تعريفًا منطقيًا جامعًا مانعًا، بل كلُّ منهم يعبرُ عن تجربته الخاصة كما قلنا، فقد يُعبّر عن حقيقته، وقد يُعبّر عن باعته، وقد يُعبّر عن أثره، وقد يُعبّر عن علاقته.

وسنذكر هنا بعض هذه التعريفات، التي يُؤخذ من مجموعها: ما الزُّهد الذي يريده القوم ويتحدّثون عنه، ويدعون إليه. وكثيرًا ما يعبرُ كلُّ منهم عن عنصر من عناصر الزُّهد، تتكوّن من مجموعها الحقيقة الإيمانية المنشودة.

الزهد في الدنيا بثلاثة أشياء من أعمال القلوب:

من هذه التعريفات: ما قاله يونس بن ميسرة، أو أبو مسلم الخولاني: «ليس الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال، ولا بإضاعة المال، ولكن الزهادة في الدنيا: أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن يكون حالك في المصيبة وحالك إذا لم تصب بها سواء، وأن يكون ذامُّك ومادحك في الحقِّ سواء^(١).

(وقد روي هذا المعنى مرفوعًا ولا يصح).

(١) رواه أحمد في الزهد ص ١٨، عن أبي مسلم الخولاني.

وهذا تعريف مهم؛ لأنه ينفي الوهم الذي يتصور أن الزُّهد هو التَّجُرُّد من الدُّنيا تمامًا، أو ترك المال الذي جعله الله للنَّاس قِيَامًا، والذي قال فيه الرسول الكريم: «نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ»^(١). كما ينفي توهم أنه ترك الطيبات من الرزق، كما في الرهبانية التي تُحرِّم الزواج وأكل الطيبات والتجمل بالثياب، وغيرها.

شرح الحافظ ابن رجب لمعنى هذا الأثر:

وقد قال العلامة ابن رجب في شرح هذا الأثر: «ففسَّر الزُّهد في الدُّنيا بثلاثة أشياء كُلُّها من أعمال القلوب، لا من أعمال الجوارح، ولهذا كان أبو سليمان يقول: لا تَشْهَدُ لِأَحَدٍ بِالزُّهْدِ، فَإِنَّ الزُّهْدَ فِي الْقَلْبِ.

الثقة بما عند الله:

أحدها: أن يكون العبد بما في يد الله أوثق منه بما في يد نفسه، وهذا ينشأ من صحَّة اليقين وقوَّته، فإنَّ الله ضَمِنَ أرزاق عباده، وتكفَّلَ بها، كما قال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٥]، وقال: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]، وقال: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].

قال الحسن: إنَّ مِنْ ضَعْفٍ يَقِينِكَ أَنْ تَكُونَ بِمَا فِي يَدِكَ أَوْثَقَ مِنْكَ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ وَعَجَلًا^(٢).

(١) رواه أحمد (١٧٧٦٣)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والحاكم في البيوع (٢/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في تخريج مشكلة الفقر (١٩)، عن عمرو بن العاص.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في اليقين (٣٣)، تحقيق ياسين محمد، نشر دار البشائر الإسلامية.

وروي عن ابن مسعود قال: إنَّ أرحى ما أكون للرزق إذا قالوا: ليس في البيت دقيق.

وقال مسروق: إنَّ أحسن ما أكون ظنًّا حين يقول الخادم: ليس في البيت قفيزٌ من قمحٍ ولا درهمٌ^(١).

وقال الإمام أحمد: أسرُّ أيامي إليَّ يوم أُصْبِحُ وليس عندي شيء.

وقيل لأبي حازم الزاهد: ما مالك؟ قال: لي مالان لا أخشى معهما الفقر: الثَّقةُ بالله، واليأسُ ممَّا في أيدي الناس^(٢).

وقيل له: أمَّا تخافُ الفقر؟ فقال: أنا أخاف الفقر، ومولاي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى^(٣)!

وقال الفضيلُ بن عياض: أصلُ الزُّهد الرِّضا عن الله وَعَلَى^(٤). وقال: القُنع هو الزُّهد، وهو الغنى^(٥).

فَمَنْ حَقَّقَ اليقين، وثق بالله في أموره كلِّها، ورضي بتدبيره له، وانقطع عن التعلُّق بالمخلوقين رجاءً وخوفًا، ومنعه ذلك من طلب الدنيا بالأسباب المكروهة، ومن كان كذلك، كان زاهدًا في الدنيا حقيقة، وكان من أغنى الناس، وإن لم يكن له شيء من الدنيا، كما قال عمَّار: كفى بالموت واعظًا، وكفى باليقين غنيًّا، وكفى بالعبادة شغلًا^(٦).

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٦٠١٨).

(٢) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (٩٦٣)، تحقيق مشهور بن حسن آل سلمان، نشر دار ابن حزم، بيروت، ١٤١٩هـ.

(٣) المصدر السابق (٢٧٤٣).

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩٩/٤٨)، نشر دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٩١).

(٦) رواه أحمد في الزهد ص ١٤٥، وصحح إسناده الألباني في الضعيفة (٥٠٢).

وقال ابن مسعود: اليقين: ألا تُرضي النَّاسَ بسخطِ الله، ولا تحمد أحداً على رزق الله، ولا تلم أحداً على ما لم يؤتِكَ الله، فإنَّ الرِّزقَ لا يسوقُه حرصٌ حريصٍ، ولا يرُدُّه كراهة كارهٍ، فإنَّ الله تبارك وتعالى بقسطه وعلمه وحكمه، جعل الرُّوحَ والفرحَ في اليقين والرضا، وجعل الهمَّ والحزنَ في الشكِّ والسخطِ^(١).

الرغبة في ثواب الله:

والثاني: أن يكون العبد إذا أُصيبَ بمصيبةٍ في دُنياه من ذهابِ مالٍ، أو ولدٍ، أو غير ذلك، أرغَبَ في ثواب ذلك ممَّا ذهبَ منه من الدُّنيا أن يبقى له، وهذا أيضًا ينشأ من كمالِ اليقين.

وقد روي عن ابن عمر: أن النَّبِيَّ ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم اقسِمْ لنا من خشيتك ما تحولُ به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنَّتك، ومن اليقين ما تهوَّنُ به علينا مصائبَ الدُّنيا»^(٢). وهو من علامات الزُّهد في الدُّنيا، وقلة الرِّغبة فيها، كما قال عليٌّ رضي الله عنه: من زهد في الدُّنيا هانت عليه المصائبُ^(٣).

استواء الحمد والذم في الحق:

والثالث: أن يستوي عند العبد حامدُه وذامُّه في الحقِّ، وهذا من علامات الزُّهد في الدُّنيا، واحتقارها، وقلة الرِّغبة فيها، فإنَّ من عظمت

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢٠٥).

(٢) رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢)، وقال: حسن غريب. والنسائي في الكبرى في عمل اليوم الليلة (١٠١٦٢)، والحاكم في الدعاء (٥٢٨/١)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح (٢٤٩٢)، في التحقيق الثاني.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠١٣٩).

الدُّنيا عنده أحبُّ المدحِ وكرهِ الذَّمِّ، فربما حمّله ذلك على تركِ كثيرٍ مِنَ الحقِّ خشيةَ الذَّمِّ، وعلى فعلِ كثيرٍ مِنَ الباطلِ رجاءَ المدحِ، فمَنْ استوى عنده حامدُه وذامُّه في الحقِّ، دلَّ على سُقوطِ منزلةِ المخلوقين من قلبه، وامتلأته مِنْ محبَّةِ الحقِّ، وما فيه رضا مولاة، كما قال ابن مسعود: اليقين ألا تُرضي النَّاسَ بسخطِ الله. وقد مدح الله الذين يُجاهدون في سبيلِ الله، ولا يخافون لومة لائم»^(١).

لا فرح بالوجود ولا أسى على المفقود:

قال الإمام ابن المبارك في تعريف الزاهد: هو الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح، وإن فاتته لم يحزن^(٢).

وقال وهيب المكي: الزُّهد في الدنيا ألا تأسى على ما فاتك منها، ولا تفرح بما أتاك منها^(٣). وإليه يشير قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

قصر الأمل في الحياة:

وقال سفيان الثوري: الزُّهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباء^(٤). (يعني الخشن).

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ أَذَلَّةً عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةً عَلَى الْكٰفِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]. انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢/١٨٠ - ١٨٣).

(٢) كما في ترجمته في ترتيب المدارك للقاضي عياض (٣/٤٠)، نشر مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط ١.

(٣) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٧)، وأبو نعيم في الحلية (٨/١٤٠).

(٤) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٨).

وقال: كان من دعائهم: اللهم زهّدنا في الدُّنيا، ووسّع علينا منها، ولا تزوّها عنا، فترغبنا فيها^(١).

وجاء ذلك عن أحمد بن حنبل: الزُّهد في الدُّنيا قصر الأمل^(٢).

وقال مرّة: قصر الأمل، واليأس ممّا في أيدي النَّاس^(٣).

التواضع للخلق:

وذكر عند الحسن البصري الزُّهد، فقال بعضهم: اللُّبّاس (أي الزُّهد في الناعم والنفيس منه). وقال بعضهم: المطعم. وقال بعضهم: كذا. فقال الحسن: لستم في شيء، الزاهد الذي إذا رأى أحدًا، قال: هذا أفضل مني^(٤).

قال أبو سعيد ابن الأعرابي: هذا داخلٌ في باب التواضع، وإسقاط الجاه. وقال ابن رجب: هذا يرجع إلى أنّ الزاهد حقيقة هو الزاهد في مدح نفسه وتعظيمها. ولهذا يقال: الزُّهد في الرياسة أشدُّ منه في الذهب والفضة، فمن أخرج من قلبه حبّ الدُّنيا، والترفُّع منها على الناس، فهو الزاهد حقًّا^(٥).

الصبر عن الحرام والشكر على الحلال:

وعن سفيان بن عُيينة قال: قالوا للزهري: ما الزهد؟ قال: مَنْ لم يغلب الحرام صبره، ولم يغلب الحلال شكره^(٦).

قال ابن الأعرابي: معناه: الصبر عن الحرام، والشكر على الحلال.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٧٢).

(٢) الزهد الكبير للبيهقي (٧٣).

(٣) جامع العلوم والحكم (١٨٤/٢).

(٤) ابن الأعرابي في الزهد (٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٨٩٩).

(٥) انظر: جامع العلوم والحكم (١٨٣/٢).

(٦) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤، ٥).

الشكر في الرخاء والصبر في البلاء:

وعن علي بن المَدِينِي قال: قيل لسفيان بن عُيَيْنَةَ: ما حد الزهد؟ قال: أن تكون شاكراً في الرخاء، صابراً في البلاء، فإذا كان كذلك، فهو زاهد. قيل لسفيان: ما الشكر؟ قال: أن تجتنب ما نهى الله عنه^(١).

(وكأنه يقول: استخدام النعمة في طاعة لا في معصية، وثمره ذلك: اجتناب ما نهى الله عنه).

وروى ابن الأعرابي بسنده، عن أحمد بن أبي الحواري قال: قلت لسفيان بن عُيَيْنَةَ: ما الزُّهْدُ في الدنيا؟ قال: مَنْ إذا أُنْعِمَ عليه شكر، وإذا ابْتُلِيَ صبر. قلت: يا أبا محمد، قد أُنْعِمَ عليه فشكر، وابتلي وصبر، وهو جليس النعمة، كيف يكون هذا؟ فضربني بيده وقال: مَنْ لم تمنعه النعماء من الشكر، ولا البلوى من الصبر، فذلك الزاهد^(٢)!

زهد الفرض والفضل والسلامة:

وقال إبراهيم بن أدهم: الزُّهْدُ ثلاثة أصناف، فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة. فزهد الفرض: الزُّهْدُ في الحرام، وزهد الفضل: الزُّهْدُ في الحلال، وزهد السلامة: الزُّهْدُ في الشُّبُهَاتِ^(٣).

الزهد في النَّاسِ وفي النَّفْسِ:

وعن فضيل بن عياض قال: علامة الزُّهْدِ في الدنيا: الزُّهْدُ في النَّاسِ^(٤).

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (١٣).

(٢) المصدر السابق (١٤).

(٣) المصدر السابق (١٢)، وأبو نعيم في الحلية (١٣٧/١٠).

(٤) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٢٣).

وقال بشر بن الحارث (الحافي): حُبُّ الدنيا: حُبُّ لقاء الناس،
والزهد في الدنيا: الزُّهد في لقاء الناس^(١).

ومعنى هذا: الزُّهد في الجاه والشهرة عند الناس، والعمل في صمت.
وقال أبو سليمان الداراني: اختلفوا علينا في الزُّهد، فمنهم مَنْ قال:
لقاء الناس. ومنهم مَنْ قال ترك الشهوات. قال أبو سليمان: وقولهم
قريب، بعضه من بعض^(٢). وعلّق ابن الأعرابي قائلًا: مَنْ ترك لقاء الناس،
فهو للشهوات أترك.

وقريب منه قول أبي عمّار القسملبي: الدُّنيا هي النفس^(٣). وعلّق ابن
الأعرابي بقوله: فكأنه يقول: الزُّهد في الدنيا: الزُّهد في النفس، ومعناه:
في شهواتها ومحبوبتها، كأنه إذا كان يشغل عن الله.

الإسلام دين اجتماعي:

وأحبُّ هنا أن أوضح أمرًا قد يلتبس على الكثيرين، وهو: أن الزُّهد
في الناس، وفي لقاء الناس، لا يعني العزلة عنهم، والعيش وحده، كما
يفعل الرهبان في النصرانية. فالإسلام دين اجتماعي، يربّي المسلم على
أن يحيا في جماعة، ويعمل في جماعة، ولهذا شرع صلاة الجماعة،
واعتبرها أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، وعلم المسلم أن
يقول في صلاته وإن كان وحده: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ * أَهْدِنَا الصِّرَاطَ
الْمُسْتَقِيمَ ﴿[الفاتحة: ٥، ٦]، هكذا بصيغة الجمع؛ لأنّه يستحضر الجماعة دائمًا
في ضميره.

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣٤٣/٨).

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٢٤).

(٣) المصدر السابق (٣١).

ويخاطب القرآن بالأحكام والتكاليف دائماً الجماعة، فيقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، ولم يقل: «يا أيها المؤمن»؛ لأنَّ تنفيذ التكاليف مسؤولية الجماعة أو الأمة المسلمة كلها.

وإنَّما بعث الله رسله وأنبياءه ليخاطبوا الناس، ويدعوهم إلى صراط الله المستقيم، ويعلموهم ما لم يكونوا يعلمون. وكذلك ورثة الأنبياء وأتباعهم حثهم أن يقتدوا بهم، ويخالطوا الناس، ليعلِّموا جاهلهم، وينبِّهوا غافلهم، ويردُّوا شاردهم، وسيصيبهم - لا محالة - ما يصيبهم من الأذى، ولكن هذه طبيعة مهمتهم. ولهم في ذلك أجرهم عند الله. وفي الحديث الصحيح: «المؤمنُ الذي يخالطُ النَّاسَ ويصبرُ على أذاهم؛ خيرٌ من الذي لا يُخالطُ الناسَ ولا يصبرُ على أذاهم»^(١).

العمل لنصرة الإسلام:

ومن المعلوم الآن: أن العمل لنصرة الإسلام، ونشر دعوته، وإعلاء كلمته، وتحكيم شريعته، وإحياء أمته، ومقاومة أعدائه، والذود عن كيانه، وتصحيح الفهم له، وتجديد الإيمان به، والوقوف في وجه التيارات الهدامة، التي تريد أن تقتلع جذوره، أو على الأقل تهدد وجوده، وتشوّه وجهه. هذا العمل لا يمكن أن يؤتي أكله، ويحقق أهدافه، إلا إذا كان عملاً جماعياً، يقوم على أساس من قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]، وقوله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، وقوله ﷺ:

(١) رواه أحمد (٥٠٢٢)، وقال مخرجه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين. والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٧)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٣٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٣٩)، عن ابن عمر.

«يُدُّ اللهُ مَعَ الْجَمَاعَةِ»^(١)، «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»^(٢)، وقوله: «الشَّيْطَانُ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ»^(٣)، «فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ»^(٤)، «الْمُؤْمِنُ مِرَاةُ أَخِيهِ»^(٥)، بِالإِضَافَةِ إِلَى أَحَادِيثِ الْحُبِّ فِي اللَّهِ، وَالتَّزَاوُرِ فِي اللَّهِ، وَالتَّجَالِسِ فِي اللَّهِ، وَبَعْضِهَا فِي الصَّحِيحِ وَمِنِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ.

المقصود بالزهد في الناس:

فالمقصود - إذن - بالزهد في الناس: الزُّهْدُ فِي الْجَاهِ، وَالشَّهْرَةِ وَالثَّنَاءِ وَالْمَدْحِ مِنْهُمْ. وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ أَهَمُّ مِنَ الزُّهْدِ فِي الْمَالِ، وَأَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ مِنْهَا. وَلِهَذَا قَالَ السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ وَهُوَ مَنْ هُوَ: مَارَسَتْ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الزُّهْدِ فَفَلْتِ مِنْهُ مَا أُرِيدُ، إِلَّا الزُّهْدُ فِي النَّاسِ، فَإِنِّي لَمْ أَبْلُغْهُ، وَلَمْ أُطِقْهُ^(٦).

(١) رواه الترمذي في الفتن (٢١٦٦)، وقال: حسن غريب. وصحَّحه الألباني في إصلاح المساجد (٦١)، عن ابن عباس.

(٢) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٦)، ومسلم في البر والصلوة (٢٥٨٥)، عن أبي موسى الأشعري.

(٣) رواه أحمد (١١٤)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والترمذي في الفتن (٢١٦٥)، وقال: حسن صحيح غريب. عن ابن عمر.

(٤) رواه أحمد (٢٧٥١٣)، وقال مخرجه: حسن. أبو داود في الصلاة (٥٤٧)، والنسائي في الإمامة (٨٤٧)، وابن جِبَّانٍ فِي الصَّلَاةِ (٢١٠١)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ (٥١١)، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ.

(٥) رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٣٨)، والبيهقي في قتال أهل البغي (١٦٧/٨)، وحسن إسناده الحافظ في بلوغ المرام (٣٠٩/١)، وحسن إسناده الألباني في الأدب المفرد (١٧٧)، عن أبي هريرة.

(٦) انظر: إحياء علوم الدين (٢٤٢/٤).

الورع أول الزهد:

ومن أقوال أبي سليمان: القناعة من الرضا، بمنزلة الورع من الزهد. قال: فهذا أول الرضا - يعني: القناعة - وهو أول الزهد. يعني: الورع^(١)! ولا ريب أن الورع تحريّ الحلال في كسب العيش، وهو ما أجاب به ربعة الرأي حين سُئل: يا أبا عثمان، ما رأس الزهادة؟ قال: جمع الأشياء من حلّها، ووضعها في حقّها^(٢).

أهمية الحرص على الحلال الطيب:

وعن يوسف بن أسباط قال: من صبر على الأذى، وتَرَكَ الشهوات، وأكل الخبز الحلال، فقد أخذ بأصل الزهد^(٣). وأكل الخبز الحلال: إنّما هو من الورع، وهو أول الزهد. يؤكّد هذا ما جاء عن أبي أمية قال: أزهد النَّاس في الدُّنيا - وإن كان مُكَبَّاً عليها حريصاً - من لم يرضَ فيها إلا بكسب الحلال الطيب، وأرغب النَّاس فيها - وإن كان مُعرضاً عنها - من لم يبالِ بما كسب منها، حلال أم حرام^(٤).

وقال بعضهم في الزهد: هو الذي لم ينل في الدُّنيا حراماً^(٥). وهذا كلّهُ يؤكّد أهمية الحرص على الحلال الطيب، وهو داخل في حقيقة الورع، وهو بهذا مقدّمة ضرورية للزهد، فلا زهد بلا ورع.

(١) سبق تخريجه ص ٢٢.

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٢٩).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٤١٧)، وابن الأعرابي في الزهد (٣٠).

(٤) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٣٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٨١).

(٥) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤٠).



الزهد إنما هو في الحلال:

على أن من علماء السلوك مَنْ لم يرَ ترك الحرام، وتحري الحلال، كافيًا في اكتساب منزلة الزُّهد، بل لا بدَّ من الزُّهد في الحلال.

وقد سُئل يوسف بن أسباط نفسه - الذي رُوي عنه ما ذكرناه - عن الزهد: ما هو؟ فقال: أن تزهد فيما أحلَّ الله، فأما ما حرَّم الله، فإن ارتكبته عذَّبك الله^(١). يعني: أن تركه فرض.

ترك فضول الدنيا:

وبعضهم يعبر عن ذلك بقوله: ترك «فضول الدنيا»، ويعنون به: ما لا ضرورة للإنسان، ولا حاجة شديدة إليه، أو ما يمكن الاستغناء عنه، فالشغل به ينافي الزُّهد عند هؤلاء.

روى ابن الأعرابي، حدثنا الدَّقِيقِي، حدثنا الحارث بن منصور، حدثنا سفيان الثوري قال: فضول الدنيا رجس عند الله يوم القيامة. قال أبو منصور: فأخبرني سعدان بن خميس أن رجلاً سأله، فقال: يا أبا عبد الله، ما فضول الدنيا؟ قال: أن يكون عندك رداء وأخوك عار، ويكون عندك فضل حذاء وأخوك حاف^(٢).

فسر الفضول بما زاد عن حاجة الإنسان وفي المجتمع مَنْ هو في حاجة إليه، ليكتسي من عُري، أو يتعل من حفاء.

ولعل ذلك يدخل في دائرة الحديث الذي يقول: «مَنْ كان معه فَضْلٌ

(١) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤٢).

(٢) المصدر السابق (١١٣).

ظَهْرٍ، فَلْيَعُدُّ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ زَادٍ فَلْيَعُدُّ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ». وقال راوي الحديث: فما زال يعدد من أصناف المال، حتى ظننا أن لا حقَّ لأحد منَّا في فضل^(١).

يؤكد ذلك: أن من قلَّ ماله، قلَّ حسابه، ومن كثر ماله طال حسابه يوم القيامة.

تقلُّ زهاد الصحابة من الدنيا:

ولهذا كان زهاد الصحابة يحبون التقلُّ في الدنيا، ليخفف عنهم الحساب يوم القيامة. قالت أم الدرداء لزوجها أبي الدرداء: ألا تبتغي لأضيافك ما يبتغيه الرجال لأضيافهم؟ فقال: إنني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةٌ كَوْودًا، لَا يَجُوزُهَا الْمُثْقَلُونَ». فأحِبُّ أَنْ أَتَخَفَّفَ لَتِلْكَ الْعَقَبَةِ^(٢). يعني هذه العقبة لا يجوزها ويتخطاها بيسر وسهولة: إلا من كان حمله خفيفاً من الدنيا، أو كان لا حمل له منها أصلاً، أمَّا من ثقل حمله من متاعها، فما أشقَّ وما أصعب اجتيازها عليه!

وروى أحمد وغيره عن سعد بن أبي وقاص: أنه دخل على سلمان، فقال: أبشر أبا عبد الله! مات رسول الله وهو عنك راضٍ! قال: كيف يا سعد، وقد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «وَلْيَكُنْ بُلْغَةُ أَحَدِكُمْ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّابِعِ، حَتَّى يَلْقَانِي»^(٣)؟ وكأنه يقول: ومن منَّا اكتفى بزاد الراكب يا سعد؟!

(١) رواه مسلم في اللقطة (١٧٢٨)، وأبو داود في الزكاة (١٦٦٣)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) سبق تخريجه ص ٨٠.

(٣) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٨٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩١١).

الإعراض عن حبِّ الدرهم والدينار:

ومن علامات الزهد: الإعراض عن حبِّ الدينار والدرهم، اللذين استعبدا الكثيرين، حتَّى أصبحا صنمين يعبدهما مَنْ يعبدهما، وإن لم يسمِّ ذلك عبادة، ولكن حبَّهما وتعظيمهما أشبه بعبادة العابدين لآلهتهم. وفي الحديث الصحيح: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ، تَعَسَّ عَبْدُ القَطِيفَةِ، تَعَسَّ وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»^(١). فجعله الرسول الكريم عبداً.

علّق الإمام الغزالي على دعاء خليل الله إبراهيم الذي ذكره القرآن: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فقال: «عنى بها هذين الحجرين: الذهب والفضة؛ إذ مرتبة النبوة أجلُّ من أن يُخشى عليها أن تعتقد الإلهية في شيء من هذه الحجارة؛ إذ قد كُفِيَ ذلك قبل النبوة مع الصغر. وإنَّما معنى عبادتهما: حبُّهما والاعتزاز بهما والركون إليهما. قال رسولُ الله ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ...» الحديث. فبيَّن أن محبَّتهما عابدهما، ومَنْ عبد حجراً فهو عابد صنم، بل كلُّ من كان عبداً لغير الله فهو عابد صنم. أي: قطعه ذلك عن الله تعالى، وعن أداء حقِّه، فهو كعابد صنم!»^(٢).

وقال سُمَيْطُ بن عَجْلان: إِنَّ الدِراهِمَ والدِنَانِيرَ أَرْمَمَةَ المُنَافِقِينَ^(٣)، يقادون بها إلى النار^(٤)!

(١) سبق تخريجه ص ٨٣.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٢٣٥/٣).

(٣) الأرممة: جمع زمام، وهو الخيط الذي يشد في البرة - وهي: حلقة في أحد جانبي أنف البعير للتذليل - أو في الخشاش - وهو عود يجعل في أنف البعير يشد به الزمام - ثم يشد إلى طرف المقود، والقائد.

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (١٢٨/٣).

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تحسن رُقيته فلا تأخذه، فإنه إن لدغك قتلك بسُمَّه! قيل: وما رُقيته؟ قال: أخذه من حلّه، ووضعه في حقّه^(١).

وقال العلاء بن زياد: تمثّلت لى الدنيا، وعليها من كلّ زينة. فقلت: أعود بالله من شرّك! فقالت: إن سرّك أن يعيدك الله منّي، فأبغض الدرهم والدينار.

قال الغزالي معلقاً: وذلك لأنّ الدرهم والدينار هما الدُّنيا كلّها، إذ يتوصّل بهما إلى جميع أصنافها، فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا. وفي ذلك قال الشاعر:

إني وجدتُ فلا تظنُّوا غيره أنّ التورّع عند هذا الدرهم!
فإذا قدرتَ عليه ثم تركته فاعلم بأن تقواك تقوى المسلم^(٢)!

وقال آخر:

لا يغرّنك من المرء قميص رقعته
أو إزار فوق عظم السِّ ساق منه رفعه
أو جبين لاح في به أثر قد خلعه
أره الدرهم تع عرف حرصه أو ورعه^(٣)

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٦٩/١٠).

(٢) البيتان لسفيان الثوري، كما في معجم الأدباء لياقوت الحموي (٣٦/١)، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

(٣) من شعر أبي القاسم الدمشقي علي بن أبي المكارم بن فتیان، كما في العقد المذهب في طبقات حملة المذهب لابن المُلَقَّن ص١٣٩، تحقيق أيمن نصر الأزهري وسيد مهني، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.



تَحَرِّي رِضَا اللَّهِ فِي كُلِّ مَا يَعْمَلُ:

سُئِلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ عَنِ الزُّهْدِ فَقَالَ: مِنْ أَدْنَى الزُّهْدِ أَنْ يَقْعُدَ أَحَدُكُمْ فِي مَنْزِلِهِ، فَإِنْ كَانَ قَعُودَهُ لِلَّهِ رِضًا، وَإِلَّا خَرَجَ، وَيُخْرَجُ، فَإِنْ كَانَ خُرُوجُهُ لِلَّهِ رِضًا، وَإِلَّا رَجَعَ، فَإِذَا كَانَ رَجُوعُهُ لِلَّهِ، وَإِلَّا سَاحَ، وَيُخْرَجُ دَرَاهِمَهُ، فَإِنْ كَانَ إِخْرَاجُهُ لِلَّهِ رِضًا، وَإِلَّا حَبَسَهُ، وَيُحْبَسُهُ، فَإِنْ كَانَ حَبْسُهُ لِلَّهِ رِضًا، وَإِلَّا رَمَى بِهِ، وَيَتَكَلَّمُ، فَإِنْ كَانَ كَلَامُهُ لِلَّهِ رِضًا، وَإِلَّا سَكَتَ، فَإِنْ كَانَ سَكُوتُهُ لِلَّهِ رِضًا، وَإِلَّا تَكَلَّمَ.

فَقِيلَ: هَذَا صَعْبٌ.

فَقَالَ: هَذَا الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَّا فَلَا تَتَعَبُوا^(١) أَنْتَهَى.

يُؤَيِّدُ هَذَا حَدِيثٌ: «أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ هِيَ الْجَنَّةُ»^(٢).

تَرَكَ مَا لَا يَعْنِي:

وَقَالَ عَالِمٌ آخَرٌ: الزُّهْدُ تَرَكَ مَا لَا يَعْنِي مِنَ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَاسْتِعْمَالَ مَا يَعْنِي، وَالَّذِي أَمْرُهُ (أَيُّ شَأْنِهِ) مَا أَمَرَ اللَّهُ أَوْ نَهَى عَنْهُ، أَوْ رَغِبَ أَوْ زَهَّدَ فِيهِ، أَوْ ذَمَّهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَخِدْمَةٍ، فَكَلَّمَا كَانَ مِنْ غَيْرِ ذَلِكَ، فَهُوَ مِمَّا لَا يَعْنِي، وَالزُّهْدُ تَرَكَهُ.

فَإِذَا عَرَضَ لَهُ أَمْرَانِ مَا كَانَا، عَمَلٌ أَوْ لَاهِمَا فِي وَقْتِهِ مِنْ كَلَامٍ أَوْ سَكُوتٍ، أَوْ حَرَكَةٍ أَوْ سَكُونٍ، فِي الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ. وَجُمْلَةٌ ذَلِكَ: تَرَكَ مَا لَا يَعْنِي، وَإِنْ كَانَ مَبَاحًا قَبْلَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ^(٣).

(١) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي ذَمِّ الدُّنْيَا (٤١٨).

(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي صِفَةِ الْقِيَامَةِ (٢٤٥٠)، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَالْحَاكِمُ فِي الرِّقَائِقِ (٣٠٧/٤)، وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ (٢٣٣٥)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

(٣) انظُرْ: الزُّهْدُ لابْنِ الْأَعْرَابِيِّ ص ٣٠.

ولعلّ مما يؤيد ذلك حديث: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ»^(١)، وهو من أحاديث الأربعين النووية.

وقال ابن أبي الحَوَارِي: قلتُ لأبي صَفْوَانَ الرُّعَيْنِي: ما الدُّنْيَا التي ذَمَّهَا اللهُ فِي الْقُرْآنِ، التي يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَجَنَّبَهَا؟ قَالَ: كُلُّ مَا عَمَلْتَهُ فِي الدُّنْيَا تَرِيدُ بِهِ الدُّنْيَا فَهُوَ مَذْمُومٌ، وَكُلُّ مَا احْتَسَبْتَهُ تَرِيدُ بِهِ الْآخِرَةَ فَلَيْسَ مِنْهَا. قَالَ: فَحَدَّثْتُ بِهِ مَرَوَانَ، فَقَالَ: الْفَقْهُ عَلَى مَا قَالَ أَبُو صَفْوَانَ^(٢). فَجَعَلَ الْمَدَارَ عَلَى الْقَصْدِ وَالْإِرَادَةِ.

الزهد استصغار الدنيا:

ومما قالوه في الزُّهْدِ، ما رواه ابن الأعرابيِّ، عن أبي سليمان قال: سألتُ أبا صفوان - يعني الرُّعَيْنِيَّ - أيُّ شيءٍ أوَّلُ حدودِ الزُّهْدِ؟ قال له أبو صفوان: استصغارُ الدُّنْيَا. فقال له أبو سليمان: إذا كان هذا عندك أوَّلَ الحدودِ، وهو عندي آخر حدودِ الزُّهْدِ أن تستصغرها. وقام عنه وتركه^(٣).

جعل الهموم المتشعبة همًّا واحدًا:

ومن رجال السلوك: مَنْ ارتقى بالزهد إلى منزلة رفيعة، وهي أن يجمع همومه المتفرقة للنفس مادية ومعنوية إلى همٍّ واحد، هو إرضاء الله سبحانه. وبهذا يستريح القلب، ويطمئن إلى غايته، ولا تتشعب به الهموم بين يمين وشمال، ومشرق ومغرب.

(١) رواه الترمذي في الزهد (٢٣١٧) واستغربه. وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦)، وصحَّحه الألباني

في صحيح الجامع (٥٩١١)، وحسنه النووي في الأربعين (١٢)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه ص ١٠٣.

(٣) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤٥)، وابن عساكر في تاريخه (٣٠٤/٦٦، ٣٠٥).

قال الإمام المُحَاسِبِي فِي «رِسَالَةِ الْمُسْتَرَشِدِينَ»: وَاعْلَمْ أَنَّ أَرْوَاحَ النَّاسِ أَبْدَانًا - أَي: أَكْثَرُهُمْ رَاحَةً لِأَبْدَانِهِمْ - هُمْ: أَهْلُ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَتَعَبَ النَّاسِ قُلُوبًا وَأَكْثَرُهُمْ شُغْلًا: هُمْ أَهْلُ الْإِهْتِمَامِ بِالدُّنْيَا^(١).
رَوَوْا عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ قَيْسٍ قَالَ: لَوْ اسْتَطَعْتُ لِأَجْعَلَنَّ الْهَمَّ هَمًّا وَاحِدًا! فَقَالَ الْحَسَنُ: فَفَعَلَ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ^(٢).

وَرَوَى عَنْهُ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ، أَنَّهُ جَزَّأَ الدُّنْيَا أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ: الْمَالُ وَالنِّسَاءُ وَالنُّومُ وَالطَّعَامُ. فَقَالَ: أَمَّا الْمَالُ وَالنِّسَاءُ فَلَا حَاجَةَ لِي بِهِمَا، وَإِنَّمَا الْآخِرَانِ (أَيِ النَّوْمِ وَالطَّعَامِ) وَإِيْمَ اللَّهِ لِأَضْرَرَنَّ بِهِمَا. وَقَالَ: لِأَجْعَلَنَّ الْهَمَّ هَمًّا وَاحِدًا^(٣).

قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: وَهَذَا عَلَى مَا قِيلَ فِي الزُّهْدِ: أَنْ يَكُونَ الْهَمُّ هَمًّا وَاحِدًا، لِلَّهِ وَحْدَهُ، لَيْسَ ذِكْرُ دُنْيَا وَلَا آخِرَةٍ، وَهُوَ غَايَةُ الزُّهْدِ، وَهُوَ خُرُوجُ قَدْرِ الدُّنْيَا (أَيِ مِنْ قَلْبِهِ) وَقَلْبِهَا (أَيِ بَغْضِهَا) أَنْ تَزْهَدَ فِيهَا، وَخُرُوجُ قَدْرِ غَيْرِهَا... إِذَا كَانَ دُونَ اللَّهِ. هَذَا لَمَنْ كَانَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحْدَهُ خَالِصًا^(٤).

وَفِي هَذَا الْكَلَامِ مَا هُوَ مُسَلَّمٌ. وَمِنْهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَى تَمْحِيطٍ.

أَمَّا الْمُسَلَّمُ، فَهُوَ أَنْ يَكُونَ هَمُّهُ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَهَذَا مِنْ أُمُورِ الْقَلْبِ، فَلَا يَعْلُقُ قَلْبَهُ إِلَّا بِاللَّهِ تَعَالَى وَرِضَاةٍ وَمُحِبَّةٍ وَطَاعَتِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:
﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

(١) رسالة المسترشدين للمحاسب ص ١٦١، وقال الذهبي: قال رجل لمحمد بن واسع: أوصني. قال: أوصيك أن تكون ملكًا في الدنيا والآخرة، قال: كيف هذا؟ قال: ازهد في الدنيا. انظر: تاريخ الإسلام (٥٢٦/٣)، تحقيق أ. د. بشار عواد معروف، نشر دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٣ م.

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٥٠).

(٣) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤٨)، وابن عساكر في تاريخه (١٩/٢٦).

(٤) الزهد لابن الأعرابي ص ٣٧، عقب الأثر رقم (٥٠).

وقوله ﷺ: «من كانت الدنيا همّه، فرّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره. وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(١). فمن جعل رضوان الله تعالى غاية غايته، فقد استمسك بالعروة الوثقى، واستراح من تعدد الغايات وتنازعها: أيشرق أم يغرب؟ وقد ذكر لنا القرآن مثلاً حين قال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فمثل المشرك المقسم قلبه، بعبد له عدة مئالك وسادة، فهم شركاء في ملكيته، ولكنهم ليسوا متفقين في شأنه، بل هم مختلفون متشاكسون، فهذا يأمره، وهذا ينهاه، وهذا يسيّره إلى اليمين، وآخر يشدّه إلى الشمال، فهّمه مشاع، وقلبه أوزاع. أمّا العبد الآخر، فهو ملك خالص لسيد واحد، عرف مطالبه، وما يرضيه وما يسخطه، فهو يعرف سيده ولا ينازعه أحد فيه. فما أعظم الفرق بين الرجلين!

مناقشة قول عامر بن عبد قيس بعدم الحاجة إلى المال والنساء:

وأما ما يحتاج إلى نقاش وتمحيص، فقول عامر: إنه لا حاجة له إلى المال والنساء، وأي بأس في هذا؟! فهذا موجب الفطرة البشرية. فنعم المال الصالح للمرء الصالح^(٢)، وقد منّ الله على رسوله فقال: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، وقال الرسول ﷺ في حديثه: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ

(١) رواه أحمد (٢١٥٩٠)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤١٠٥)، وصحّحه الألباني في الصحيحة (٥٩٠)، عن زيد بن ثابت.

(٢) سبق تخريجه ص ١١٣.

دنياكم النساء والطيب»^(١). وقال: «الدُّنيا متاعٌ، وخيرُ متاعِ الدُّنيا المرأةُ الصالحة»^(٢).

ترك كل ما يشغل عن الله:

وعبر بعضهم عن هذا المعنى فقال: ترك كل ما يشغل عن الله. روى ابن الأعرابي، عن أبي عبد الله الرازي، قال: قال لي بعض الحكماء: الزُّهد ترك ما يشغلك عن الله^(٣). ونقل ابن الأعرابي عن مضاء (ابن عيسى الشامي) قوله: إنما أرادوا بالزهد أن تفرغ قلوبهم للآخرة^(٤). وعلق على ذلك ابن الأعرابي في كتابه «الزهد» فقال: وهذا يدلُّ على أن الزهد: في كل ما يشغل عن الله **وَعَلَّكَ**^(٥).

وقال أبو سليمان الداراني: سمعنا في الزُّهد كلامًا كثيرًا، والزهد عندنا: ترك كل شيء يشغلك عن الله **وَعَلَّكَ**^(٦). وقد فصل مرة، فقال: من تزوج أو سافر في طلب المعيشة، أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا^(٧)!

(١) رواه أحمد (١٢٢٩٣)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والنسائي في عشرة النساء (٣٩٣٩)، وصحح إسناده ابن الملقن في البدر المنير (٥٠١/١)، وحسنه ابن حجر في التلخيص (١١٦/٣)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٢٩١)، عن أنس.

(٢) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٧)، وأحمد (٦٥٦٧)، والنسائي (٣٢٣٢)، وابن ماجه (١٨٥٥)، كلاهما في النكاح، عن عبد الله بن عمرو.

(٣) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٣٧).

(٤) رواه ابن الأعرابي في الزهد (١٦)، وابن عساكر في تاريخه (٢٨٤/٥٨).

(٥) عقب الأثر رقم (١٦).

(٦) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٣٨)، وانظر: قوت القلوب لأبي طالب المكي (٤١٩/١).

(٧) انظر: قوت القلوب (٤٢٠/١).

فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿ [المزمل: ٢٠]، فقرن السفر في طلب المعيشة بالجهاد في سبيل الله.

ومن كتب الحديث ليتفقه في الدين، ثم يفقه غيره، فيتعلم ويعمل ويعلم، فهو يعمل عملاً صالحاً، وليس من الركون إلى الدنيا.

الزهد عند ابن الأعرابي:

وممن تكلم في «الزهد» فأحسن: الإمام المحدث أبو سعيد ابن الأعرابي في كتابه «الزهد وصفة الزاهدين» وقد نقل فيه أمثلة وافرة في تعريف الزهد عن أهل الاختصاص من الرجال الربانيين والزاهدين، ثم شرح هو الزهد كما يراه، فقال عن الزهد:

«هو ترك المحذور كله، وترك الحلال والمباح قبل الحاجة والضرورة إليه.

قالوا: فإن أكل قبل أن يجوع، أو شرب قبل أن يعطش، أو رقد قبل أن ينعس، أو جامع قبل حلول الحاجة إليه، فقد مال إلى التلذذ، والتلذذ من الدنيا، ثم الزهد في الراحة لتكون كل أوقاته مستغرقة الشغل بالعبادة والذكر، فإن لم يكن كذلك، فقد بقي عليه بقية من الزهد، وكذلك في معاشرة الناس، والحديث والكلام، وكل ما فعل من ذلك قبل وجوبه عليه، أو حاجته إليه، فهو ميل إلى الدنيا، وهو من الفضول، والدنيا بأسرها من الفضول، إلا ما استعين به منها على الآخرة.

قالوا: كيف ذلك لو تنفل بشيء من أعمال البر وغيرها؟! إذ لا بد منها في الوقت، كرجل عليه دين يمكنه قضاؤه فيؤخره إلى وقت يأتي، أو صلاة قد وجب فرضها بدخول الوقت، أو حج قد وجب للاستطاعة.

واختلفوا فيه إذا تعالج من علة، فقال قائلون: إنما ذلك رغبة في الصحة والحياة الدنيا.

وقال آخرون: ذلك على قدر نيته، إن نوى به حب البقاء والصحة وزوال الألم، فهو من حب الدنيا، وإن كان فعل ذلك ليتقوى على أمر الله وطاعته فذلك على قدر نيته.

وقالوا: لو أن رجلاً طلب الدنيا ليأكل ويشرب ويلبس ويتمتع فيها، وآخر تركها لراحة قلبه وجسمه، وتلذذ بالفراغ والراحة كانا جميعاً غير زاهدين، حتى ينوي التارك لها بنية غير هذه، إمّا ليفرغ منها؛ لأنها تشغله عن الآخرة، وإمّا لأن الله وَعَلَىٰ رَبِّكَ ذمها وزهد فيها، فذلك على قدر نيته أيضاً.

وقالوا: لو تركها وجانبها ولها في قلبه قدر وموضع، كان بذلك فاضلاً معاملاً مجاهداً، ولم يكن بالترك زاهداً، وإنما الزهد عندهم خروج قدرها، إذ هي لا شيء. قالوا: فذلك الزهد.

ومن الزهد أيضاً: الزهد في الرئاسة والمحاسنة والمحاذثة والمعاشرة.

أعلى مراتب الزهد:

وأول الزهد: الزهد في الحرام، ثم الزهد في المباح، وأعلى مراتب الزهد: أن تزهد في الفضول، والفضول كل ما لك عنه غنى. فكأنك تزهد في كل شيء، إلا فيما أمرك الله أو فيما ندبك إليه مما يقربك إليه أو ما لا بد منه. وكل ما كان سوى ذلك، فهو من الفضول، وهو ترك ما لا يعنى.

وقال قوم: التارك هذه الأشياء، وإن كان يحبها ويريدها، إذا تركها مجاهداً لنفسه، صابراً عنها، إنه زاهد.



وقال آخرون: لا يسمّى زاهدًا حتّى يكون مع تركه لها غير مرید لها، وذلك خروج قدرها من القلب.

واختلفوا إذا خرج قدرها من القلب ولم تحبها النفس، فتناول منها شيئًا على جهة المباح.

فقال قوم: قد تمّ زهده بخروج قدرها من قلبه، وإن تناول منها.

وقال آخرون: إذا خرج قدرها، فتناول منها شيئًا فهو ناقص، إلا أن يكون المتناول منها يعين على طاعة أو ما لا بد منه، مما لو تركه لم يأمن نفسه الخروج إلى غيره، مثل من يكف به طبعه وبشريته من الغذاء والنوم واللباس والنساء إذ كانت البشرية مطبوعة على ذلك. وإنما المذموم أن يتعاطى الإنسان الزيادة على ما يحتاج إليه من ذلك بعد تسكين البشرية متلذذًا متمتعًا وإن كان مباحًا.

وقال آخرون: لا يكون خارجًا من الزهد من يتناول مباحًا، كما لا يكون زاهدًا من تناول محظورًا.

وقال آخرون: كل ما يتناوله أو يدخل فيه لا بدّ من أن يكون محرّمًا منهياً عنه أو محللاً مأمورًا به أو مباحًا مسكوتًا عنه.

فأمّا الحرام، فلا معنى للكلام فيه، وأمّا الحلال والمباح، فلا يدخل فيه إلا بنية، ولا تخلو النية من أن تكون محمودة يراد بها الطاعة، أو مذمومة تؤول إلى المعصية، أو مسكوتًا عنها.

فمن دخل الأشياء بلا نية لم يطلق عليه اسم حمد ولا ذم، وما دخل فيها بنية رُدّ إلى نيته. وقد قال قوم: إذا دخل بلا نية فهو ناقص؛ لأنّه عبد

مأمور منهي، فكل ما دخل فيه مما لا يوافق أمرًا ولا نهياً فهو فضول لا يعنى، وتركه أفضل، وإن كان تركه أفضل فتناوله أنقص»^(١).

الزهد عند الإمام أحمد:

وقال الإمام أحمد بن حنبل: الزُّهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام، والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص، والثالث: ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين.

قال ابن القيم معلقاً: وهذا الكلام من الإمام أحمد يأتي على جميع ما تقدم من كلام المشايخ، مع زيادة تفصيله، وتبيين درجاته، وهو من أجمع الكلام، وهو يدل على أنه رضي الله عنه من هذا العلم بالمحل الأعلى. وقد شهد الشافعي رحمته الله بإمامته في ثمانية أشياء، أحدها «الزهد».

الزهد سفر القلب من الدنيا إلى الآخرة:

والذي أجمع عليه العارفون: أنَّ الزُّهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة، وعلى هذا صَنَّفَ المتقدِّمون كتب الزُّهد، كالزهد لعبد الله بن المبارك، ولالإمام أحمد، ولوكيع، ولهنّاد بن السّري، ولغيرهم، ومتعلّقه ستة أشياء: لا يستحق العبد اسم الزُّهد حتّى يزهد فيها، وهي: المال، والصُّور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله.

وليس المراد رفضها من المَلِك، فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والمُلْك والنساء ما لهما. وكان نبينا

(١) انظر: الزهد وصفة الزاهدين لابن الأعرابي ص ٣٨ - ٤١.

من أزهد البشر على الإطلاق، وله تسع نسوة، وكان علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان رضي الله عنهم من الزهاد، مع ما كان لهم من الأموال. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأئمة محبة للنساء، ونكاحاً لهن، وأغناهم، وكان عبد الله بن المبارك من أئمة الزهاد مع مال كثير، وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد، وكان له رأس مال يقول: لولا هو لتمندل بنا هؤلاء^(١). (ومعنى تمندل: أي جعلونا كالمناديل في أيديهم).

هل الزُّهْد ممكن في هذه الأزمنة؟

وهنا سؤال طرحه أهل السلوك، وهو: هل الزُّهْد ممكن في هذه الأزمنة أو لا؟ أي: أزمتهم في القرن الرابع أو الخامس الهجري وما بعدها، ومن باب أولى يكون السؤال وارداً في زمننا، ولا سيما إذا عرفنا سببه.

وقال يوسف بن أسباط: لو بلغني أن رجلاً بلغ في الزُّهْد منزلة أبي ذر وأبي الدرداء وسلمان والمقداد وأشباههم من الصحابة رضي الله عنهم، ما قلت له: زاهد؛ لأن الزُّهْد لا يكون إلا في الحلال المحض. والحلال المحض لا يوجد في زماننا هذا. وأمّا الحرام فإن ارتكبه عذّبك الله وعجل^(٢).

وقال أبو حفص: الزُّهْد لا يكون إلا في الحلال، ولا حلال في الدنيا اليوم، فلا زهد إذن^(٣).

(١) مدارج السالكين (١٢/٢، ١٣).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٣٨/٨).

(٣) الرسالة القشيرية (٢٤٢/١)، تحقيق الإمام الأكبر عبد الحليم محمود، ود. محمود بن الشريف،

نشر دار المعارف، القاهرة.

تحقيق ابن القيم في وجود الحلال في الدنيا:

قال ابن القيم: وخالفه النَّاس في هذا، وقالوا: بل الحلال موجود فيها، وفيها الحرام كثير، معناه: أنَّ الأرض لا تخلو من الحلال.

قالوا: وعلى تقدير ألا يكون فيها الحلال، فهذا أدعى إلى الزُّهد فيها، ويتناول ما يتناوله منها، كتناوله الميتة والدم ولحم الخنزير.

قال ابن القيم: ثم اختلف هؤلاء - أي الذين قالوا بوجود الحلال في الدنيا - فيما يتعلق بالزهد. فقالت طائفة: الزُّهد إنَّما هو في الحلال؛ لأن ترك الحرام فريضة.

وقالت فرقة: بل الزُّهد لا يكون إلا في الحرام. وأمَّا الحلال فنعمة من الله تعالى على عبده. والله يحبُّ أن يرى نعمته على عبده، فشكره على نعمه، والاستعانة بها على طاعته، واتخاذها طريقًا إلى جنته: أفضل من الزُّهد فيها، والتخلِّي عنها ومجانبة أسبابها.

قال ابن القيم: «والتحقيق: أنَّها إن شغلته عن الله، فالزهد فيها أفضل، وإن لم تشغله عن الله، بل كان شاكرًا لله فيها، فحاله أفضل. والزهد فيها تجريد القلب عن التعلق بها، والطمأنينة إليها، والله أعلم»^(١).

وهذا التحقيق يخالف ما جاء عن الحسن البصري أن أحدهم سأله: يا أبا سعيد، رجلان: طلب أحدهما الدنيا بحلالها (أي فأدركها) فوصل بها رَحْمَه، وقَدَّم فيها لنفسه، ورجل رفض الدنيا؟ قال: أحبهما إليَّ الرجل الذي رفض الدنيا! قال: يا أبا سعيد، هذا طلبها بحلالها، فأصابها، فوصل بها رحمه، وقَدَّم فيها لنفسه! قال: أحبهما إليَّ الذي جانبها^(٢).

(١) مدارج السالكين (١٣/٢، ١٤)، ببعض تصرف.

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٩٠).

ويبدو أن الإمام الحسن هنا يرى رفضها أحوط وأسلم، مع أنهم يروون أنه كان له مال استغنى به عن أمراء زمنه، ولهذا لما سأل الحجاج عن سر قوته وصلابته في الحق، قيل له: احتاج الناس إلى دينه، واستغنى عن دنياهم! وقد رويت عنه كلمات تخالف ما هنا.

ومن رجع إلى كتاب الله، وصحيح سنة رسوله ﷺ: يتبين له أن تحقيق ابن القيم هو الصواب.

ذم قارون لعدم قيامه بحق الله في المال:

فالقُرآن لم يذم قارون على غناه وامتلاكه الدنيا وكنوزها، بل ذمّه؛ لأنّه لم يقيم بحق الله فيها، ولم ينتصح بنصيحة قومه التي ذكرها القرآن: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٨].

فنصحه قومه بخمس نصائح^(١)، ولكنه لم يستجب لها، وركبه الغرور الذي يركب أكثر الرأسماليين وأرباب الثروات، حين قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، فعمي عن الحقيقة الكبيرة: أن المال إنما هو مال الله، وإنما هو مستخلف فيه. فكانت عاقبته أن خسف الله به وبداره وكنوزه الأرض.

(١) انظر الوصايا الخمس على لسان المؤمنين من قوم موسى لقارون، في الفصل التاسع من هذا الباب.

ثناء الله تعالى على يوسف وداود وسليمان:

على حين أتى الله يوسف وداود وسليمان من الملك ما آتاهم، ووسّع عليهم نعمه، وكانوا من الشاكرين، وأثنى الله عليهم، فقال عن سليمان: ﴿وَأَنَّ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وقال عن كلٍّ من داود وسليمان: ﴿وَأَنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥ و ٤٠]. فالمدار يقوم على شكر النعمة أو كفرانها، فمن شكرها بارك الله له فيها، وزاده منها، ومن كفرها سخط الله عليه وسلبها منه كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [ابراهيم: ٧].

قوم سباً بين الشكر والكفر:

وحدّثنا القرآن عن قوم «سباً» في حال الشكر وفي حال الكفران، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، فهذا في حالة الشكران.

وفي الحالة الأخرى: ﴿فَاعْرَضُوا فَأرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦].

أحاديث لها دلالة:

ومن الأحاديث التي لها دلالة هنا: ما رواه الشيخان: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، فسَلَّطه على هلكته في الحقّ، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها وَيُعَلِّمُهَا»^(١)، ومثله ما رواه الترمذي عن

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧٣)، ومسلم في صلاة المسافرين (٨١٦)، عن ابن مسعود.

أبي كَبْشَةَ الأَنَمَارِيِّ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةٍ نَفَرٍ: عَبْدُ رِزْقِهِ اللهُ وَعَجَلُ مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ اللهُ وَعَجَلُ فِيهِ حَقَّهُ» قَالَ: «فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ». قَالَ: «وَعَبْدُ رِزْقِهِ اللهُ وَعَجَلُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا». قَالَ: «فَهُوَ يَقُولُ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ». قَالَ: «فَأَجْرُهُمَا سُوءٌ». قَالَ: «وَعَبْدُ رِزْقِهِ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، فَهُوَ يَخْطِ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَعَجَلُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ اللهُ فِيهِ حَقَّهُ، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ». قَالَ: «وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ». قَالَ: «فَهُوَ بَيْنَيْتَهُ، فَوَزُرُهُمَا سُوءٌ»^(١).

وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ كُلَّ امْرِئٍ سُيَسْأَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ أَرْبَعَةِ أَسْئَلَةٍ رَّئِيسَةٍ، مِنْهَا سَوَّالٌ عَنْ مَالِهِ، وَهُوَ سَوَّالُ ذَوِّ شِقَاقَيْنِ: مَنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ^(٢)؟

فَمَنْ اكْتَسَبَ مَالَهُ مِنْ حَلَالٍ لَا شَبْهَةَ فِيهِ، وَأَنْفَقَهُ فِي حَقٍّ لَا بَاطِلَ فِيهِ، فَقَدْ نَجَا.

وَهَذَا مَا قَالَهُ كَثِيرٌ مِنْ شُيُوخِ الطَّرِيقِ، كَمَا نَقَلْنَاهُ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ فَسَّرَ الزُّهْدَ بِأَخْذِ الدُّنْيَا مِنْ حِلِّهَا، وَوَضْعِهَا فِي حَقِّهَا.

وَقَدْ قَالَ الثَّوْرِيُّ: كَانَ مِنْ دَعَائِهِمْ: اللَّهُمَّ زَهِّدْنَا فِي الدُّنْيَا، وَوَسِّعْ عَلَيْنَا مِنْهَا^(٣).

* * *

(١) رواه أحمد (١٨٠٣١)، وقال مخرجه: حديث حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٢٥)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٣٥).

(٢) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٧)، وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٣٢٥٦).

(٣) سبق تخريجه ص ١١٧.

الفصل الخامس

حقيقة الزُّهْدِ في الدُّنْيَا ومكوناته

بعد نقل هذه الأقوال عن رجال السلوك من الزاهدين والعارفين الذين يتحدثون عن ممارسة وتجربة، نستطيع أن نلقي هنا بعض الضوء على لبِّ الزُّهْدِ وحقيقته وجوهره، فنقول: حقيقة الزُّهْدِ في الدُّنْيَا، يجب أن تؤخذ من القرآن العظيم، ثم من سنَّة الرسول الكريم، ففيهما الجواب الكافي، والدواء الشافي، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقد رأينا القرآن يقرّر بوضوح حلَّ الأكل من طيبات ما رزق الله، وينهى عن تحريم ما أحلَّ الله، ولا يمنع من الكسب وامتلاك المال وتزوّج النساء، فما المراد بالزهد إذن؟

نستطيع أن نجمل هنا حقيقة الزُّهْدِ في أمرين أساسيين:

الأول: إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا:

الزهد المطلوب في القرآن يتعلّق بالإرادة، أو بالقلب، فالناس في نظر القرآن صنفان متقابلان: أحدهما يريد الدنيا وهو المذموم. والثاني: يريد الآخرة وهو المحمود، وهو أيضاً الذي يسمّى «الزاهد».

وقد يُسمّى القرآن الدنيا: العاجلة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ [الإسراء: ١٨]، وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١]. فليس المحذور أن تكون الدنيا في يدك، ولكن المحذور أن تكون في قلبك.

ولهذا نجد القرآن يركّز على قضية «إرادة الدنيا»، و«إرادة الآخرة» فتراه في سورة الإسراء يقسم الناس إلى صنفين متباينين بجلاء: أهل الدنيا، وأهل الآخرة. فيقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴿١﴾، أَي الدُّنْيَا ﴿٢﴾ عَجَّلْنَا لَهُ، فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّيهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ١٨].

فالمدار في جزاء الصنفين الاثنيين على الإرادة: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴿١﴾، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿٢﴾﴾ [الإسراء: ١٩].

وهذا المعنى تكرر في أكثر من سورة، يقول تعالى في سورة هود: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦]، فهذا الوعيد الهائل كلّه مؤسس على سبب واحد، عبّرت عنه الآية بقولها: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴿١﴾﴾ [هود: ١٥].

وفي سورة الشورى يقابل القرآن بين صنفين - كما في سورة الإسراء - فيقول: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وفي سورة آل عمران جاء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وفي الحديث عن غزوة أحد خاطب القرآن الصحابة بقوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما كنت أحسب أن فينا من يريد الدنيا، حتى نزلت هذه الآية ^(١).

ولكن إرادة الدنيا هنا إرادة جزئية مؤقتة، أي: حين اشتهاوا الغنائم، فتركوا مواقعهم في الجبل، ونزلوا ليأخذوا حظهم منها، ولم يكن هذا خطأ أو اتجاهًا أصيلاً في حياتهم، ولهذا قال بعدها: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

قد تريد الدنيا، وتتعلق بها، وتصبح أسير أطماعها وزخارفها، وأنت لا تملك شيئاً. وقد تملك الدنيا، وتحوز دراهمها ودنانيرها، وحرثها وأنعامها، ولكنها لا تملك قلبك، ولا توجه إرادتك، وبعبارة أخرى: ليست أكبر همك، ولا مبلغ علمك، ولذلك روي في بعض الأدعية المأثورة: «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا» ^(٢).

(١) رواه أحمد (٤٤١٤)، وقال مخرجه: حسن لغيره. وابن أبي شيبة في المغازي (٣٧٩٣٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٠٧٢): فيه عطاء بن السائب؛ وقد اختلط.

(٢) سبق تخريجه ص ١١٥.

وعبارة: «مبلغ علمنا»، مقتبسة من القرآن، حيث يقول الله تعالى:
﴿ فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [النجم: ٢٩].

وهذا التعبير القرآني في هذه الآية: ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾، مهمم في تحديد المراد من إرادة الحياة الدنيا في الآيات الأخرى، وهو حصر إرادته فيها، بحيث لا يريد غيرها، وإن أراد شيئاً غيرها فهو تابع لها، وعلى هامشها، ولذا قال: ﴿ وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾، بأسلوب القصر.

وأحيانا يعبر القرآن عن إرادة الدنيا بكلمة «الإيثارة»، التي تعني التقديم والتفضيل والترجيح عند المفاضلة والموازنة، فإذا عرض له أمران، أحدهما للآخرة، والآخر للدنيا: أثر الزاهد الآخرة على الدنيا، وأثر محب الدنيا دنياه. وفي هذا جاء قوله تعالى في بيان مواقف الناس في القيامة: ﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ * فَمَا مَنَ طَغَىٰ * وَءَاثَرَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا * إِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٣٥ - ٤٠].

فهنا عبر عن إرادة الحياة الدنيا بإيثارها، أي: إيثارها على الآخرة، وهذا هو الضلال والخسران، وقد قال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

قال الفضيل بن عياض: لو كانت الدنيا ذهباً يفتنى، والآخرة خزفاً يبقى، لاخترت الخزف الباقي، على الذهب الفاني^(١)!

فكيف والعكس هو الصحيح، بل الواقع أن الآخرة أكثر وأغلى من ذهب، والدنيا أقل وأرخص من خزف؟!!

(١) انظر: المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي ص ٥١٢، نشر عالم الكتب، بيروت، ط ١،

وقد يعبر القرآن عن معنى الإيثار بلفظ الاستحباب، كقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٢، ٣].

وفي مقام آخر، قال تعالى في شأن قوم استحقوا غضب الله وعذابه العظيم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ أُسْتَحِبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧].

وهو المعنى نفسه الذي جاء في الآية الأخرى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١]، فالمراد: حبُّ الدنيا الذي يُغلبها على الآخرة، ويقدمها عليها.

وهو ما عاب به القرآن أهل الجاهلية حين قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠]، وهو: الحبُّ الذي جعلهم يهينون اليتيم، ولا يتحاضون على طعام المسكين.

ولهذا جاء التحذير من حبِّ الدنيا، كما في حديث ثوبان، في تداعي الأمم على أمة الإسلام، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، رغم كثرة عددها، ولكنها أصابها الوهن، فلما سئل عن الوهن قال: «حبُّ الدنيا، وكراهية الآخرة»^(١).

قال جندب بن عبد الله الصحابي رضي الله عنه: حبُّ الدنيا رأس كلِّ خطيئة. ورؤى مرفوعاً^(٢)، وعن الحسن مرسلًا^(٣).

(١) سبق تخريجه ص ٩٨.

(٢) قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (١٢٣/١٨): هذا معروف عن جندب بن عبد الله البجلي، وأما عن النبي ﷺ فليس له إسناد معروف.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٩)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٠١٩)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٦٨٢)، وقال المناوي في فيض القدير (٤٨٧/٣): ثم قال البيهقي: ولا =

وقال الحسن: مَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَمَسَّرَتْهَا، خَرَجَ حُبُّ الآخِرَةِ مِنْ قَلْبِهِ^(١).

وقال عون بن عبد الله: الدُّنْيَا والآخرة في القلب ككفتي الميزان، بقدر ما ترجح إحداهما تخفُّ الأخرى^(٢).

وقال وهب: إِنَّمَا الدُّنْيَا والآخرة كرجل له امرأتان: إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى^(٣).

وبهذا يتضح لنا معنى «إرادة الآخرة» و«إيثارها» على الأولى، ومعنى «حب الدنيا»، الذي به يرجح كفتها على الآخرة، ويرضيها ويسير في هواها، وإن أسخط ضررتها وجار عليها.

الآثار الخطيرة لحب الدنيا وإيثارها على الآخرة:

ولحب الدنيا آثار خطيرة على الفرد وعلى المجتمع، نذكر منها أمرين:

اضطراب المعايير:

إنَّ من آثار إرادة الحياة الدنيا، والتهافت عليها: أنَّها تطمس نور

= أصل له من حديث النبي ﷺ. قال الحافظ الزين العراقي: ومراسيل الحسن عندهم شبه الريح، ومثل به في شرح الألفية للموضوع من كلام الحكماء، وقال: هو من كلام مالك بن دينار، كما رواه ابن أبي الدنيا، أو من كلام عيسى عليه السلام، كما رواه البيهقي في الزهد وأبو نعيم في الحلية، وعد ابن الجوزي الحديث في الموضوعات، وتعقبه الحافظ ابن حجر بأن ابن المديني أثنى على مراسيل الحسن، والإسناد إليه حسن، وأورده الديلمي من حديث عليّ وبيّض لسنده.

(١) سبق تخريجه ص ١٠٢.

(٢) المصدر السابق (٢٩٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢٥١/٤).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١١٩).

البصيرة، وتقلب موازين الحقّ في تقييم الناس، فيصبح مقياس الرفعة والضعة الدينار والدرهم، ومعيار الكرامة والهوان هو الغنى والفقر. فقيمة ربّ الألف ألف وزدّ تزُدْ وقيمة ربّ الدرهم الفردِ درهمٌ، أمّا الدّين واليقين، والخلق المتين، والعلم النافع، والعمل الصالح، فما أكثر ما يغطّي عليها غبار الفقر، ويخفيها عن عيون عُشّاق الدُّنيا، ومن هنا شكّا الشاعر:

فصاحة حَسَّانٍ، وخطُّ ابنِ مُثَلَّةٍ وحكمةُ لُقْمَانٍ، وزهدُ ابنِ أدهمِ
إذا اجتمعت في المرء والمرءِ مفلسٌ ونُودِي عليه لا يُباع بدرهمِ^(١)

أرأيتَ إلى قارون، وقد خرج في موكبه الفخم، وحوله الخدم والحشَم، وعليه الفضة والذهب، ماذا كان موقف أصحاب الدنيا؟ ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۗ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

أمّا أرباب البصائر النيرة والفطر السليمة، فماذا قالوا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

مدح رجل عبد الملك بن مروان فقال:

يَأْتِلِقُ التَّاجُ فَوْقَ مِفْرَقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ
فقال: وأيّ فضل في هذا؟ هلاً قلت ما قلت في الآخر (مصعب بن الزبير):

إِنَّمَا مِصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّهِ تَجَلَّتْ بُنُورُهُ الظُّلْمَاءِ

(١) ذكرهما الشرواني في نفحة اليمن ص ١٢٥، نشر مطبعة التقدم العلمية، مصر، ط ١، ١٣٢٤هـ.

حُكْمُهُ حُكْمٌ قُوَّةٌ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبْرِيَاءٌ^(١)

وهجا الحُطَيْئَةَ الزَّبْرَقَانَ بن بدر، فلم يزدْ على أن قال له:

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَلْ لِبُغْيَتِهَا واقعدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي!

فلما سمعه غضب لذلك غضبًا شديدًا، وشكاه إلى عمر، فحبسه من أجل ذلك^(٢)، ولو سمع ما قيل في عبد الملك أميرٍ عصري أو شعر الحُطَيْئَةَ متمدَّنٌ عصري، لسرَّ لذلك، فضلًا عن أن يثور.

وقال شاعر آخر:

لَحَى اللَّهُ صُعْلُوگًا مُنَاهُ وَهَمُّهُ من العَيْشِ أَنْ يَلْقَى لُبُوسًا وَمَطْعَمًا^(٣)!

حُبُّ الدُّنْيَا وَأَثَرُهُ فِي ضَعْفِ الْأُمَّةِ وَإِدْخَالِ الْوَهْنِ عَلَيْهَا:

على أَنَّ حَبَّ الدُّنْيَا لَيْسَ خَطَرًا عَلَى سَالِكِ طَرِيقِ الْآخِرَةِ، يَصْرِفُهُ عَنِ اللَّهِ، وَعَنِ طَاعَتِهِ وَتَقْوَاهُ، بِامْتِثَالِ مَا أَمَرَ، وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى، فَحَسَبَ. وَهُوَ لَيْسَ بِالْأَمْرِ الْهَيِّنِ.

ولكن حَبَّ الدُّنْيَا إِذَا شَاعَ بَيْنَ النَّاسِ، وَأَصْبَحَ ظَاهِرَةً فِي الْمَجْتَمَعِ، لَهُ آثَارُهُ الْخَطِيرَةُ فِي إِضْعَافِ مَقَاوِمَةِ الْأُمَّةِ، وَإِدْخَالِ الْوَهْنِ عَلَى نَفُوسِ أِبْنَائِهَا، فَتَرَاخِي عَزَائِمَهُمْ، وَتَتَهَاوَى إِرَادَاتِهِمْ أَمَامَ مَغْرِيَّاتِ الْحَيَاةِ وَشَهَوَاتِهَا، مِنَ الْجِنْسِ وَالْكَأْسِ لَدَى بَعْضِ النَّاسِ، وَمِنَ الْمَنْصَبِ

(١) الكامل في اللغة والأدب (٢٠٠/٢)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٣، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م. والشاعر هو عبد الله بن قيس الرقيات.

(٢) انظر: تاريخ دمشق (٦٦/٧٢).

(٣) هو حاتم الطائي الشاعر والجنود المعروف الذي يضرب به المثل في الكرم. انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة (٣٣٧/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

والشهرة لدى آخرين، ومن المال والثروة لدى صنف آخر، وهكذا يسيطر عليهم حبُّ الدُّنيا وباعث الدُّنيا، وينهزم أمام حبِّ الدُّنيا حبُّ الله تعالى وحبُّ الآخرة، ويضعف باعث الدِّين في مواجهة باعث الهوى، وهذه مقدمات لضعف حزب الله أمام حزب الشيطان.

وهذا هو الذي حذّر منه النبي ﷺ أمته في آخر الزمان، من تأمر الأمم عليها، وضعفها عن التصدي لهم، على رغم كثرة عددها، ولكنهم كمّ بلا كيف، أو كثرة كغُثاء السيل.

وهذا هو الحديث الذي رواه ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، وهو ينبئ بغيب يصف واقع أمتنا، كأنما يراه رأي عين، يقول: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم من كلِّ أفق، كما تتداعى الأكلة على قصعتها». قالوا: أمن قلة نحن يومئذ، يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغُثاء السيل، ولينزعنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفنَّ في قلوبكم الوهن». قالوا: وما الوهن، يا رسول الله؟ قال: «حبُّ الدُّنيا وكراهية الموت»^(١).

هذا هو حال أمتنا في هذا الزمان الكئيب: كثرة بلغت أكثر من المليار ونصف المليار من البشر^(٢)، ولكنها كثرة لا يهابها عدو، ولا ينتصر بها صديق، كما رأينا في مأساة إخوتنا في فلسطين؛ لأنَّ الأمة الآن في «المرحلة الغُثائية» أمة واهنة خائرة. ووهنها من داخلها لا من خارجها.

(١) سبق تخريجه ص ٩٨.

(٢) أحدث إحصاء للأمة المسلمة هو مليار وخمسمائة وسبعون مليوناً. انظر: جريدة العرب القطرية العدد (٧٧٩٢)، الاثنين ١٢ أكتوبر ٢٠٠٩م الموافق ٢٣ شوال ١٤٣٠هـ، وقد نشر دراسة أقامها مركز أبحاث (بيو) الأميركي.

كما بيّن الحديث الشريف، وَهَنْ دَبَّ فِي قلوبها قبل أن يدبَّ إليها أعداؤها.

ولقد سأل الصحابة عن الوهن الذي يقذف في القلوب ما هو؟ إنهم لا يسألون عن معناه اللغوي، فهو معروف معلوم، إنّما يسألون عن سرّه وعلّته، وقد جاء الجواب موضّحاً ومعلّماً: «حُبُّ الدُّنيا وكرهية الموت».

كان الرسول ﷺ وصحابته يُنصرون بالرُّعب يُلقى في قلوب أعدائهم من مسيرة شهر؛ لأنهم باعوا الدُّنيا بالآخرة، واشتروا الجنة بأنفسهم وأموالهم، وكان خالد يدعو قادة الفرس والروم إلى الإسلام أو السلام، ثم يقول: وإلا غزوتكم بقومٍ يحبُّون الموت كما تحبُّون الحياة^(١).

فإذا أردنا أن تنتصر أمتنا، فلنغير ما بأنفسها، ولنحرّر قلوبها من الوهن، أي: من حُبِّ الدُّنيا وكرهية الموت، وبعبارة أخرى: لنخرجها من «المرحلة الغثائية» التي أشار إليها الحديث بـ «غثاء السيل».

وغثاء السيل: ما يجمعه السيل من أشياء متناثرة من هنا وهناك، من حطب وورق وأعواد وخشب، وأشياء مختلفة، يجمعها عدّة أوصاف:

١ - أنها خفيفة سطحية، تطفو على السطح ولا ترسب في الأعماق.

٢ - أنها غير متجانسة.

٣ - أنها لا هدف لها، فليس لها مصبّ معلوم تنتهي إليه.

٤ - أنها ليس لها مجرى مرسوم، ولا طريق معلوم، وإنّما تسير حيثما

(١) رواه ابن أبي شيبة في التاريخ (٣٤٤١٧)، وأبو يعلى (٧١٩٠)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٣٨٨): رواه أبو يعلى وفيه مجالد وهو ضعيف وقد وثق، عن الشعبي مرسلًا.

اتفق لها. فهذا شأن السيل، بخلاف النهر، فإن له مصبًا وهدفًا معلومًا ومجرى مرسومًا.

وهذه الأوصاف كلها هي أوصاف الأمة في مرحلة الغناء أو مرحلة الوهن.

فمن أراد أن يحرر الأمة من هذه الحالة، فليبدأ بالطريق الصحيح، طريق التربية والتزكية، حتى تنتصر على حب الدنيا، وتزهد في متاعها الأدنى، وترغب فيما عند الله، وفي مثوبة الله، فتنتصر على ضعفها، وبالتالي تنتصر على عدوها.

الثاني: الإعراض عن اتباع الشهوات^(١):

الأمر الثاني من مقومات الزهد المشروع: الإعراض عن اتباع شهوات الدنيا، كما ذم الله تعالى قومًا فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وفي مقام آخر قال: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]. ومعنى «اتباع الشهوات»: أن يكون تابعًا لها، تأمره فيطيع، وتسوقه فينساق، فهو أسير لها. فهذا معنى اتباعها.

وليس معنى الإعراض عنها: رفضها بالكلية، فهذا ضد الفطرة التي فطر الله الخلق عليها، وضد ما يطلبه الإسلام من عمارة الأرض، وهذا ما يقتضيه تقدم المجتمع المسلم، وتستوجبه قوة الأمة المسلمة وتفوقها في شؤون الدين والدنيا، وارتقاؤها في سلم الحضارة.

(١) تقدم الأمر الأول: وهو إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا.

ولكن المراد هنا: ألا تكون شهوات الدنيا أكبر همّه، ومبلغ علمه، فتسيّره الغرائز، وتستعبده شهوة البطن، أو شهوة الفرج، أو شهوة الزينة والتجمل، أو شهوة المَحْمَدة والشهرة، أو شهوة الجاه والنفوذ، بحيث لا يقف عندما ينبغي، بل يفعل ما يشتهي، ويترسل في الاستجابة لداعي الغريزة، وباعث الهوى، حتّى يُمسى عبداً لها، كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ القَطِيفَةِ، تَعَسَّ وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»^(١).

فهذه العبودية هي المذمومة؛ لأنها تنافي التوحيد الخالص لله، الذي يريد من المؤمن أن يكون كله لله، وليس نصفه له، ونصفه لغيره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

تزيين الشهوات للناس:

ومن المعروف أنّ هذه الشهوات قد زُيّنت للإنسان، وأُغري بها، والموفق أو الزاهد حقاً من لم توقعه في شراكها، وآثر النعيم الأعلى على المتاع الأدنى، كما قال الله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَابْنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبَادِ﴾ ﴿١﴾ ﴿قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ

(١) سبق تخريجه ص ٨٣.

رَبِّنَا إِنَّا ءَامِنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ
وَالْقَنِينِ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿ [آل عمران: ١٤ - ١٧].

التحذير من شهوات الدنيا الحسية والمعنوية:

وشهوات الدنيا التي يحذر اتباعها نوعان: حسية ومعنوية، وعوامُ
النَّاسِ يُخْشَى عَلَيْهِمْ مِنَ الشَّهَوَاتِ الْحَسِيَّةِ، وَخَوَاصُّهُمْ يَخْشَى عَلَيْهِمْ مِنَ
الشَّهَوَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ.

التحذير من شهوتي البطن والفرج:

ومن هنا حذَّر القرآن وحذَّرت السنة من شهوة البطن بأكل الحرام، أو
شهوة الفرج، باقتراف فاحشة الزنى، وعمل قوم لوط، قال تعالى:
﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ
تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ
الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ
وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّمَا كَانَ فَرْحَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]،
﴿ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ *
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾
[الأعراف: ٨٠، ٨١].

وقال ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحيته (يعني الفم) وما بين رجليه
(يعني الفرج)، أضمن له الجنة»^(١).

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٧٤)، عن سهل بن سعد.

وقال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»^(١).

ولا يكتفي الإسلام بتحريم الزنى، بل يُجرّم كل ما يؤدّي إليه، أو يساعد عليه من الخلوة والقبلة واللمسة والنظرة، ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٢٩، ٣٠].

وفي الحديث: «لا يخلون رجلٌ بامرأةٍ إلا مع ذي محرم»^(٢).

ومن الشهوات الحسيّة: الولوج بالخمر والمسكرات، التي كثيراً ما يصاب من يتناولونها بـ «الإدمان»، الذي يصبح مرضاً عضالاً، ينفق على علاجه عشرات المليارات.

ولا عجب أن حرم الإسلام الخمر، واعتبرها «أم الخبائث»، وعدّها مع الميسر رجساً من عمل الشيطان، وكبيرة من أكبر الكبائر، ولذا لعن فيها عشرة: شاربها وساقياها، وصانعها والمتّجر فيها، وحاملها حتّى عاصرها، أي: الذي يعصر العنب، ليصير بعد ذلك خمراً، ملعون على لسان محمد ﷺ^(٣).

ومثل الخمر - وربّما كان أسوأ - المخدرات، التي غدت في نظر العالم سموماً قاتلة، ولهذا يحاول الأعداء أن يهزّبوها وينشروها في الأمّة المعادية لهم، ليقضوا على مقوّمات القوة فيها.

(١) سبق تخريجه ص ٢٩.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٢٣٣)، ومسلم في الحج (١٣٤١)، عن ابن عباس.

(٣) رواه الترمذي في البيوع (١٢٩٥)، وقال: حديث غريب. وابن ماجه في الأشربة (٣٣٨١)، وصحّحه الألباني في غاية المرام (٦٠)، عن أنس.

والشهوات الجنسية هي التي تهدد الحضارة المعاصرة (الحضارة الغربية) بالهلاك والانحلال، إذا لم تتدارك نفسها.

ولا حرج على المسلم من شهوة الفرج إذا كانت حلالاً، وسنعرض لذلك عند حديثنا عن الزواج، وأنه لا ينافي الزُّهد، فقد مات سيد الزاهدين عن تسع نسوة.

أخطر الشهوات المعنوية:

وأخطر الشهوات المعنوية: حبُّ المال والثراء، وحبُّ الجاه والظهور، وحبُّ التظاهر بالعبادة، الذي يسمُّيه الدِّين «الرياء»، فهذه - كما سمّاها الإمام الغزالي - مهلكات، أي: مهلكات للفرد في دينه، ومهلكات للأمة إذا انتشرت فيها.

الفصل السادس

موقف الناس من الحياة الدنيا

إذا عرفنا حقيقة الزُّهد في الدنيا، وأنَّ جوهره ومحوره وأساسه يتعلَّق بـ «الإرادة» للأخرة، وإيثارها على الدنيا: عرفنا بذلك أنَّ الدنيا ليست مذمومة في ذاتها، وليس كلُّ ما فيها مذمومًا لذاته، كيف وقد خلقها الله للإنسان ليعمرها ويقوم بخلافته فيها؟ وقد قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿الْمَرْتُونَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ﴾ [لقمان: ٢٠]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

فكيف يخلقها لهم ويسخرها لمنفعتهم، ثم يحرمها عليهم أو يحرمهم من طبيباتها؟ وهذه الآيات وأمثالها هي التي استدلت بها الفقهاء على أنَّ الأصل في الأشياء والمنافع الحِلُّ والإباحة، ثم إنه تبارك وتعالى قد طلب إلى عباده أن يعمروا الأرض، كما قال على لسان نبي الله صالح: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، ومعنى ﴿وَأَسْتَعْمَرَكُمْ﴾، أي: طلب إليكم أن تعمروها، فكيف يطلب منهم أن يعمروها، ويدمُّ من سعى في خرابها، ثم يدم من سعى في عمارتها؟

ما الذي يُدمُّ في الدنيا؟

لا بدَّ من تحرير المراد هنا، حتَّى يتبيَّن الحقُّ من الباطل، ولا يلتبس

الرشد بالغبي. وقد بينا فيما سبق أن الذي يُدْم من الدنيا هو تعلق القلب بها تعلقًا يجور على حق الله تعالى وحق الآخرة، وهو أمر يرجع إلى «الإرادة» قبل كل شيء لا إلى امتلاك الدنيا، ولا إلى الاستمتاع بطيباتها. وقد ذكرت الآيات الكثيرة الموضحة لذلك: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

فمحور الهلاك أو النجاة هو الإرادة، أراد الدنيا، أو أراد الآخرة، وهذا يعني أن معنى إرادة الدنيا أن يجعل همّه فيها، بحيث تكون أكبر همّه، ومبلغ علمه، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴿٣٠﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

طوائف أهل الدنيا الغافلون عن الآخرة:

عدّد الإمام الغزالي في «الإحياء» طوائف الناس في العالم الذين تفاوتت وجهاتهم، ومواقفهم من الدنيا، فانقسموا إلى طوائف شتى:

الحريصون على كسب القوت والأكل:

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة، فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم، فقالوا: المقصود أن نعيش أيامًا في الدنيا، فنجتهد حتى نكسب القوت، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب، ثم نكسب حتى نأكل، فيأكلون ليكسبوا، ثم يكسبون ليأكلوا! وهذا مذهب الفلاحين والمحترفين، ومن ليس له تنعم في الدنيا، ولا قدم في الدين، فإنه يتعب نهارًا ليأكل ليلاً، ويأكل ليلاً ليتعب نهارًا، وذلك كسير السَّوَّاني، فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت.



الحريصون على شهوتي البطن والفرج:

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفتنوا الأمر، وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل، ولا يتنعم في الدنيا، بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا، وهي شهوة البطن والفرج، فهؤلاء نسوا أنفسهم، وصرفوا همهم إلى اتباع النسوان، وجمع لذائد الأطعمة، يأكلون كما تأكل الأنعام، ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك، فقد أدركوا غاية السعادة، فشغلهم ذلك عن الله تعالى، وعن اليوم الآخر.

الحريصون على الاستكثار من المال:

وطائفة ظنوا أن السعادة في كثرة المال، والاستغناء بكثرة الكنوز، فأسهروا ليلهم، وأتعبوا نهارهم، في الجمع. فهم يتعبون في الأسفار، طول الليل والنهار، ويترددون في الأعمال الشاقة، ويكتسبون ويجمعون، ولا يأكلون إلا قدر الضرورة، شحًا وبخلًا عليها أن تنقص، وهذه لذتهم، وفي ذلك دأبهم وحركتهم، إلى أن يدركهم الموت فيبقى تحت الأرض، أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات، فيكون للجامع تعب ووباله، وللأكل لذته، ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون.

الحريصون على الثناء والمدح:

وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم، وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة، فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش، ويضيّقون على أنفسهم في المطعم والمشرب، ويصرفون جميع مالهم إلى الملابس الحسنة، والدوابّ النفيسة، ويزخرفون أبواب الدور، وما يقع عليه أبصار

الناس، حتّى يُقال: إنه غني، وإنه ذو ثروة. ويظنّون أن ذلك هو السعادة، فهَمَّتْهم في نهارهم وليلهم في تعهّد موقع نظر الناس.

الحريصون على الجاه والمكانة:

وطائفة أخرى ظنّوا أنّ السعادة في الجاه والكرامة بين الناس، وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة، لطلب الولايات، وتقلّد الأعمال السلطانية، لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس، ويرون أنهم إذا اتّسعت ولايتهم، وانقادت لهم رعاياهم، فقد سعدوا سعادة عظيمة، وأنّ ذلك غاية المطلب. وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس، فهؤلاء شغلهم حبّ تواضع الناس لهم عن التواضع لله، وعن عبادته، وعن التفكّر في آخرتهم ومعادهم.

المقصود من المطعم والملبس والمسكن:

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها، تزيد على نيّف وسبعين فرقة، كلّهم قد ضلّوا وأضلّوا عن سواء السبيل. وإنّما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن، ونسّوا ما تُراد له هذه الأمور الثلاثة، والقدر الذي يكفي منها، وانجرت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها، وتداعى بهم ذلك إلى مهاوٍ لم يمكنهم الرقي منها. فمن عرّف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال، وعرّف غاية المقصود منها، فلا يخوض في شغل وحرقة وعمل، إلا وهو عالم بمقصوده، وعالم بحظّه ونصيبه منه، وأنّ غاية مقصوده تعهّد بدنه بالقوت والكسوة حتّى لا يهلك. وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه، وفرغ القلب، وغلب عليه ذكر الآخرة، وانصرفت الهمة إلى الاستعداد لها. وإن

تعدّى به قدرَ الضرورة كثرت الأشغال، وتداعى البعض إلى البعض، وتسلسل إلى غير نهاية، فتشعب به الهموم، ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا، فلا يبالي الله في أيّ وادٍ أهلكه منها. فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا.

طوائف المعرضين عن الدنيا:

وتنبّه لذلك طائفة، فأعرضوا عن الدنيا، فحسدهم الشيطان، ولم يتركهم، وأضلّهم في الإعراض أيضًا حتّى انقسموا إلى طوائف:

القاتلون أنفسهم:

أ - فظنت طائفة أنّ الدنيا دار بلاء ومحنة، والآخرة دار سعادة لكلّ من وصل إليها، سواء تعبّد في الدنيا أو لم يتعبّد، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا. وإليه ذهب طوائف من العباد من أهل الهند، فهم يتهجّمون على النار، ويقتلون أنفسهم بالإحراق، ويظنّون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا!

المشدّدون على أنفسهم:

ب - وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يُخلص، بل لا بدّ أولاً من إماتة الصفات البشرية، وقطعها عن النفس بالكلية، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب، ثم أقبلوا على المجاهدة، وشدّدوا على أنفسهم، حتّى هلك بعضهم بشدّة الرياضة، وبعضهم فسد عقله وجنّ، وبعضهم مرض وانسدّ عليه الطريق في العبادة، وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية، فظنّ أن ما كلفه الشرع محال، وأن الشرع تلبس لا أصل له، فوقع في الإلحاد. وظهر لبعضهم أن هذا التعب كلّهُ لله، وأن الله تعالى مستغن عن

عبادة العباد، لا ينقصه عصيان عاصٍ، ولا تزيده عبادة متعبّد، فعادوا إلى الشهوات، وسلكوا مسلك الإباحة، وطوّروا بساط الشرع والأحكام، وزعموا أنّ ذلك من صفاء توحيدهم، حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد.

تاركوا العبادة:

ج - وظنّ طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة، حتّى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة، وزعموا أنه ارتفع محلّهم في معرفة الله سبحانه عن أن يُمتهنوا بالتكاليف، وإنّما التكليف على عوامّ الخلق.

د - ووراء هذا مذاهب باطلة، وضلالات هائلة، يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيّفًا وسبعين فرقة.

موقف الفرقة الناجية في التعامل مع الدنيا والشهوات:

وإنّما الناجي منها فرقة واحدة، وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو ألاّ يترك الدنيا بالكلية، ولا يجمع الشهوات بالكلية. أمّا الدنيا، فيأخذ منها قدر الزاد، وأمّا الشهوات فيجمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتّبع كلّ شهوة، ولا يترك كلّ شهوة، بل يتّبع العدل، ولا يترك كلّ شيء من الدنيا، ولا يطلب كلّ شيء من الدنيا، بل يعلم مقصود كلّ ما خلق من الدنيا، ويحفظه على حدّ مقصوده، فيأخذ من القوت ما يقوّي به البدن على العبادة، ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحرّ والبرد، ومن الكسوة كذلك، حتّى إذا فرغ

القلب من شغل البدن، أقبل على الله تعالى بكنهه همته، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر، وبقي ملازمًا لسياسة الشهوات ومراقبًا لها، حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى.

منهج الصحابة الوسط:

ولا يُعلم تفصيل ذلك إلا بالاعتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة، فإنه عليه السلام لَمَّا قَالَ: «الناجي منها واحدة»، قالوا: يا رسول الله، ومن هي؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»^(١).

وقد كانوا على النهج القصد، وعلى السبيل الواضح، الذي فصلناه من قبل، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا، بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قوامًا، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين، وهو أحبُّ الأمور إلى الله تعالى. والله أعلم^(٢). اهـ.

قال الحافظ ابن رجب: وانقسم بنو آدم في الدنيا إلى قسمين:

أحدهما: منكر الآخرة:

مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ لِلْعِبَادِ بَعْدَ الدُّنْيَا دَارٌ لِلثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ نَارٌ بِمَا كَانُوا

(١) رواه الترمذي في الإيمان (٢٦٤١)، وقال: مُفَسَّرٌ غَرِيبٌ. عن عبد الله بن عمرو. وانظر تخريج الحديث والكلام عليه في كتابنا: الصحوة بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم ص ٣٤ - ٣٩، نشر دار الشروق، القاهرة، ط ٣، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م.

(٢) إحياء علوم الدين (٢٢٨/٣ - ٢٣٠)، ربع المهلكات، كتاب ذم الدنيا.

يَكْسِبُونَ ﴿ [يونس: ٧، ٨]، وهؤلاء همُّهم التمتع بالدنيا، واغتنام لذاتها قبل الموت، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

ومن هؤلاء مَنْ كان يأمر بالزُّهد في الدنيا؛ لأنَّه يرى أن الاستكثار منها يُوجب الهمَّ والغمَّ، ويقول: كلما كثر التعلُّق بها، تألَّمت النفس بمفارقتها عند الموت. فكان هذا غاية زهدهم في الدنيا.

تفاوت المؤمنين في فهم حقيقة الدنيا:

والقسم الثاني: المؤمنون بالآخرة، وهم متفاوتون:

مَنْ يقرُّ بدار بعد الموت للشواب والعقاب، وهم المنتسبون إلى شرائع المرسلين، وهم منقسمون إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله.

١ - الظالم لنفسه:

فالظالم لنفسه: هم الأكثرون منهم، وأكثرهم وقف مع زهرة الدنيا وزينتها، فأخذها من غير وجهها، واستعملها في غير وجهها، وصارت الدنيا أكبر همِّه، لها يغضب، وبها يرضى، ولها يُوالي، وعليها يُعادي، وهؤلاء هم أهل اللهو واللعب والزينة والتفاخر والتكاثر، وكلُّهم لم يعرف المقصود من الدنيا، ولا أنها منزل سفر يتزوَّد منها لما بعدها من دار الإقامة، وإن كان أحدهم يؤمن بذلك إيماناً مجملاً، فهو لا يعرفه مفصلاً، ولا ذاق ما ذاقه أهل المعرفة بالله في الدنيا، مما هو أنموذج ما أدخر لهم في الآخرة.



٢ - المقتصد:

و«المقتصد» منهم أخذ الدنيا من وجوها المباحة، وأدى واجباتها، وأمسك لنفسه الزائد على الواجب، يتوسّع به في التمتع بشهوات الدنيا، وهؤلاء قد اختلف في دخولهم في اسم الزهادة في الدنيا. ولا عقاب عليهم في ذلك، إلا أنه ينقص من درجاتهم من الآخرة بقدر توسّعهم في الدنيا. قال ابن عمر: لا يصيب عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله، وإن كان عليه كريماً^(١). أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيّد. وروى مرفوعاً من حديث عائشة بإسنادٍ فيه نظر^(٢).

وروى الإمام أحمد في كتاب «الزهد» بإسناده: أن رجلاً دخل على معاوية، فكساه، فخرج فمرّ على أبي مسعود الأنصاري ورجلٍ آخر من الصحابة، فقال أحدهما له: خذها من حسناتك. وقال الآخر: من طيباتك^(٣).

وإسناده عن عمر قال: لولا أن تنقص حسناتي لخالطتكم في لين عيشكم، ولكني سمعتُ الله عيّر قومًا، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الاحقاف: ٢٠]^(٤).

وقال الفضيل بن عياض: إن شئت استقلّ من الدنيا، وإن شئت استكثر منها، فإنما تأخذ من كيسك.

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣١١).

(٢) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٧٧/٤): رواه ابن أبي الدنيا وإسناده جيد، وروى عن عائشة مرفوعاً، والموقوف أصح.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٠٩/٤٠).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٣٥٦)، ولم يذكر الآية.

ويشهد لهذا أَنَّ اللَّهَ وَجَّكَ حَرَّمَ عَلَى عِبَادِهِ أَشْيَاءَ مِنْ فَضُولِ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَبَهْجَتِهَا، حَيْثُ لَمْ يَكُونُوا مُحْتَاجِينَ إِلَيْهِ، وَادَّخَرَهُ لَهُمْ عِنْدَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَقَدْ وَقَعَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا بِقَوْلِهِ وَجَّكَ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ * وَبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وصحَّ عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا، لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ»^(١)، و«مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَشْرُبْهَا فِي الْآخِرَةِ»^(٢). وقال: «لا تلبسوا الحريرَ ولا الدِّبَاجَ، ولا تشربوا في آنيةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، ولا تأكلوا في صحافها؛ فإنها لهم في الدُّنْيَا، ولكم في الْآخِرَةِ»^(٣).

قال وهب: إِنَّ اللَّهَ وَجَّكَ قَالَ لِمُوسَى ﷺ: إِنِّي لَأَذُودُ أَوْلِيَائِي عَنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَرِخَائِهَا، كَمَا يَذُودُ الرَّاعِي الشَّفِيقُ إِبْلَهُ عَنِ مَبَارِكِ الْعُرَّةِ، وَمَا ذَلِكَ لَهُوَ أَنَّهُمْ عَلَيَّ، وَلَكِنْ لَيْسَتْ كَمَلُوا نَصِيبَهُمْ مِنْ كِرَامَتِي سَالِمًا مَوْفَرًا لَمْ تَكَلِّمَهُ الدُّنْيَا»^(٤).

ويشهد لهذا ما خرَّجه الترمذي، عن قتادة بن النُّعْمَانِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَمَاهُ عَنِ الدُّنْيَا، كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءِ»^(٥). وَخَرَّجَهُ الْحَاكِمُ، وَلَفْظُهُ: «إِنَّ اللَّهَ لِيَحْمِي عَبْدَهُ الدُّنْيَا

(١) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٨٣٤)، وَمُسْلِمٌ (٢٠٦٩)، كِلَاهُمَا فِي اللَّبَاسِ، عَنْ عُمَرَ.

(٢) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٥٧٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٠٠٣)، كِلَاهُمَا فِي الْأَشْرِبَةِ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ.

(٣) متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَطْعَمَةِ (٥٤٢٦)، وَمُسْلِمٌ فِي اللَّبَاسِ وَالزَّيْنَةِ (٢٠٦٧)، عَنْ حَذِيفَةَ.

(٤) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي التَّوَاضُعِ (٩)، وَالدِّينُورِيُّ فِي الْمَجَالِسَةِ (١٨٩٤).

(٥) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ فِي الطَّبِّ (٢٠٣٦)، وَقَالَ: حَسَنٌ غَرِيبٌ. وَابْنُ جَبَّانٍ فِي الرِّقَائِقِ (٦٦٩)، وَقَالَ =

وهو يحبُّه، كما تحمُّون مريضكم الطعامَ والشَّرَابَ، تخافون عليه»^(١).

وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»^(٢).

٣ - السابق بالخيرات:

وأما «السابق بالخيرات» بإذن الله، فهم الذين فهموا المراد من الدُّنْيَا، وعملوا بمقتضى ذلك، فعلموا أن الله إنما أسكن عباده في هذه الدار، ليلوهم أيهم أحسن عملاً، كما قال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]، وقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

قال بعض السلف: أيهم أزهد في الدُّنْيَا، وأرغب في الآخرة، وجعل ما في الدُّنْيَا مِنَ البهجة والنَّصرة محنة، لينظر مَنْ يقف منهم معه، ويركن إليه، ومَنْ ليس كذلك، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، ثم بيَّن انقطاعه ونفاده، فقال: ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: ٨]، فلما فهموا أن هذا هو المقصود من الدُّنْيَا، جعلوا همهم التزوُّد منها للآخرة التي هي دار القرار، واكتفوا من الدُّنْيَا بما يكتفي به المسافر في سفره، كما كان النبي ﷺ يقول:

= الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم. وصحَّحه الألباني في مشكاة المصابيح (٥٢٥٠)، التحقيق الثاني، عن قتادة بن النعمان.

(١) رواه الحاكم في الطب (٢٠٨/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه مسلم في الزهد (٢٩٥٦)، وأحمد (٨٢٨٩)، عن أبي هريرة.

«ما لي وللدُّنيا؟ إنَّما مَثلي ومَثَلُ الدُّنيا كراكب قال (نام القيلولة) في ظلِّ شجرة، في يومِ صيف، فراح وتركها»^(١).

ووصَّى ﷺ جماعةً من الصحابة أن يكون بلاغٌ أحدهم من الدُّنيا كزاد الراكب، منهم: سلمان^(٢)، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو ذرٍّ، وعائشة^(٣)، ووصَّى ابن عمر أن يكون في الدُّنيا كأنه غريب أو عابر سبيل^(٤).

السابقون صنفان:

وأهل هذه الدرجة على قسمين: منهم من يقتصر من الدُّنيا على قدر ما يسدُّ الرَّمق فقط، وهو حال كثير من الزُّهاد. ومنهم من يفسح لنفسه أحياناً في تناول بعض شهواتها المباحة، لتقوى النفس بذلك، وتنشط للعمل، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ من دنياكم النساءُ والطَّيب، وجُعِلَتْ قُرَّةَ عيني في الصَّلَاة». خرَّجه الإمام أحمد والنسائي من حديث أنس^(٥).

وقال وهب: مكتوبٌ في حكمة آل داود عليه السلام: ينبغي للعاقل ألا يغفل

(١) رواه أحمد (٣٧٠٩)، وقال مخرجه: صحيح. والترمذي في الزهد (٢٣٧٧)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤١٠٩)، عن ابن مسعود.

(٢) رواه أحمد (٢٣٧١١)، وقال مخرجه: حديث صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤١٠٤)، وابن جبَّان في الرقائق (٧٠٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٧١٦).

(٣) رواه الترمذي في اللباس (١٧٨٠)، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان، وسمعت محمداً - يعني البخاري - يقول: صالح بن حسان منكر الحديث، وصالح بن حسان - الذي روى عنه ابن أبي ذئب - ثقة، لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان. والحاكم في الرقاق (٣١٢/٤)، وصحَّحه، وقال الذهبي: سعيد بن محمد الوراق عدم، أي: ساقط الحديث.

(٤) رواه البخاري في الرقائق (٦٤١٦)، عن ابن عمر.

(٥) سبق تخريجه ص ١٣١.



عن أربع ساعات: ساعة يُحاسب فيها نفسه، وساعة يُناجي فيها ربّه، وساعة يلقي فيها إخوانه الذين يُخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلّي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحلّ ويجمل، فإن في هذه الساعة عَوْنًا على تلك الساعات، وَفَضْلَ بُلْغَةٍ واستجمامًا للقلوب^(١).
يعني: ترويحًا لها.

ومتى نوى المؤمن بتناول شهواته المباحة التقوي على الطاعة، كانت شهواته له طاعة يُثاب عليها، كما قال معاذ بن جبل: إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي^(٢). يعني: أنه ينوي بنومه التقوي على القيام في آخر الليل، فيحتسبُ ثواب نومه، كما يحتسب ثواب قيامه. وكان بعضهم إذا تناول شيئًا من شهواته المباحة وَاسَى منها إخوانه، كما رُوِيَ عن ابن المبارك: أنه كان إذا اشتهى شيئًا لم يأكله حتّى يشتهي بعض أصحابه، فيأكله معهم، وكان إذا اشتهى شيئًا، دعا ضيفًا له ليأكل معه.

وكان يُذكر عن الأوزاعي أنه قال: ثلاثة لا حساب عليهم في مطعمهم: المتسحر، والصائم حين يفطر، وطعام الضيف^(٣).^(٤) اهـ من كلام الحافظ ابن رجب.

تنوع مشاهد الزاهدين للزهد:

والزاهدون في الدنيا بقلوبهم لهم ملاحظ ومشاهد يشهدونها - كما قال العلامة ابن رجب رحمته الله تعالى :-

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٣١٣).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢٣)، ومسلم في الإمارة (١٧٣٣).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٧٢/٦).

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١٨٦/٢ - ١٩٣)، بتصرف.

- ١ - «فمنهم مَنْ يشهد كثرة التعب بالسعي في تحصيلها، فهو يزهد فيها قصدًا لراحة نفسه. قال الحسن: الزُّهد في الدُّنيا يريح القلب والبدن.
- ٢ - ومنهم مَنْ يخاف أن ينقص حظُّه من الآخرة بأخذ فضولِ الدنيا.
- ٣ - ومنهم مَنْ يخاف من طول الحساب عليها، قال بعضهم: مَنْ سأل الله الدُّنيا، فإنَّما يسأل طول الوقوف للحساب^(١).
- ٤ - ومنهم مَنْ يشهد كثرة عيوب الدُّنيا، وسرعة تقلُّبها وفنائها، ومزاحمة الأراذل في طلبها. كما قيل لبعضهم: ما الذي زهَّدك في الدنيا؟ قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسَّة شركائها.
- ٥ - ومنهم مَنْ كان ينظر إلى حقارة الدُّنيا عند الله، فيقدرها، كما قال الفضيل: لو أنَّ الدُّنيا بحذافيرها عُرِضت عليَّ حلالًا لا أُحاسب بها في الآخرة، لكنت أتقدَّرها كما يتقدَّر الرجلُ الجيفةَ إذا مرَّ بها أن تصيب ثوبه^(٢).
- ٦ - ومنهم مَنْ كان يخاف أن تشغله عن الاستعداد للآخرة والتزوُّد لها، قال الحسن: إن كان أحدهم ليعيش عمره مجهودًا شديد الجهد، والمال الحلال إلى جنبه، يقال له: ألا تأتي هذا فتُصيب منه؟ فيقول: لا والله، لا أفعل، إني أخافُ أن آتية، فأصيب منه، فيكونَ فسادَ قلبي وعملي^(٣).
- وُبعث إلى عمر بن المنكدر بمال، فبكى واشتدَّ بكاءه، وقال:

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٦١)، عن بشر الحافي.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٩/٨)، وابن عساكر في تاريخه (٤١٤/٤٨).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٦٩/٦).

خشيتُ أن تغلب الدنيا على قلبي، فلا يكون للآخرة فيه نصيب، فذلك الذي أبكاني. ثم أمر به، فتُصَدِّقَ به على فقراء أهل المدينة^(١).

خشية الزهاد من الاشتغال بالدنيا عن الله:

وخواصُّ هؤلاء يخشى أحدهم أن يشتغل بها عن الله، كما قالت رابعة: ما أحبُّ أن لي الدنيا كلَّها من أوَّلها إلى آخرها حلالاً، وأن أنفقها في سبيل الله، وأنها شغلتني عن الله طرفة عين.

وقال أبو سليمان: الزُّهد ترك ما يشغل عن الله^(٢). وقال: كلُّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد، فهو مشؤوم^(٣).

وقال: أهل الزُّهد في الدنيا على طبقتين: منهم من يزهد في الدنيا، فلا يُفْتَح له فيها رُوح الآخرة، ومنهم من إذا زهد فيها، فُتِح له فيها رُوح الآخرة، فليس شيء أحبَّ إليه من البقاء ليطيع الله^(٤).

وقال: ليس الزاهد من ألقى هموم الدنيا، واستراح منها، إنّما الزاهد من زهد في الدنيا، وتعب فيها للآخرة^(٥).

فالزهد في الدنيا يُراد به تفرّغ القلب من الاشتغال بها، ليتفرَّغ لطلب الله ومعرفته والقرب منه، والأنس به، والشوق إلى لقائه، وهذه الأمور ليست من الدنيا، كما كان النبي ﷺ يقول: «حُبِّبَ إِلَيَّ من دنياكم: النساءُ

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء (٦٣)، تحقيق محمد خير رمضان يوسف، نشر دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٥٨/٩).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٦٤/٩).

(٤) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٤٧)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٤/٩).

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٧٣/٩).

والطَّيِّب، وجُعِلت قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١). ولم يجعل الصلاة ممَّا حُبِّبَ إليه من الدُّنْيَا، كذا في المسند والنَّسَائِي. وروى بلفظ: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ»^(٢)، فأدخل الصلاة في الدُّنْيَا، ويشهدُ لذلك حديث: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالَمًا أَوْ مَتَعَلَّمًا»^(٣). خرَّجه ابن ماجه والترمذي وحسنه، من حديث أبي هريرة مرفوعًا، وروى نحوه من غير وجه مرسلًا ومتصلاً^(٤).

وخرَّج الطبراني، من حديث أبي الدرداء مرفوعًا قال: «الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا ابْتِغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ»^(٥)، وخرَّجه ابن أبي الدنيا موقوفًا^(٦)، وخرَّجه أيضًا من رواية شهر بن حوشب، عن عبادة، أراه رفعه، قال: «يُؤْتَى بِالدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: مَيِّزُوا مِنْهَا مَا كَانَ لِلَّهِ وَرَجَلًا، وَأَلْقُوا سَائِرَهَا فِي النَّارِ»^(٧).

المقصود من الدُّنْيَا الملعونة:

فالدنيا وكلُّ ما فيها ملعونة، أي: مُبْعَدَةٌ عَنِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهَا تَشْغُلُ عَنْهُ، إِلَّا الْعِلْمَ النَّافِعَ الدَّالَّ عَلَى اللَّهِ، وَعَلَى مَعْرِفَتِهِ، وَطَلَبَ قُرْبِهِ وَرِضَاهُ، وَذَكَرَ اللَّهَ

(١) سبق تخريجه ص ١٣١.

(٢) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية (٤٣١/٨): وليس بمحفوظ بهذا، فإن الصلاة ليست من أمور الدنيا، وإنما هي من أهم شؤون الآخرة. قال المناوي في فيض القدير (٤٨٩/٣): من زاد كالزمخشري والقاضي - لفظ ثلاث - فقد وهم.

(٣) سبق تخريجه ٩٢.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط (٤٠٧٢)، عن أبي مسعود الأنصاري.

(٥) رواه الطبراني في مسند الشاميين (٦١٢)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢٤/١): رواه الطبراني بإسناد لا بأس به. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦٥٩): وفيه خدش بن المهاجر ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات.

(٦) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (١٨٥).

(٧) المصدر السابق (٦).



وما والاه مما يقرب من الله، فهذا هو المقصود من الدنيا، فإن الله إنما أمر عباده بأن يتقوه ويطيعوه، ولازم ذلك دوام ذكره، كما قال ابن مسعود: «تقوى الله حقّ تقواه أن يُذكر فلا يُنسى»^(١)، وإنما شرع الله إقام الصلاة لذكره، وكذلك الحجّ والطواف. وأفضل أهل العبادات أكثرهم ذكراً لله فيها، فهذا كله ليس من الدنيا المذمومة، وهو المقصود من إيجاد الدنيا وأهلها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]»^(٢) انتهى.

* * *



(١) رواه الطبراني (٩٢/٩)، والحاكم في التفسير (٢٩٤/٢)، وصحح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٨٩٣): رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح والآخر ضعيف.

(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب (١٩٦/٢ - ٢٠٠).

الفصل السابع

عقبات في طريق الزهد

ما الذي يمنع الإنسان المسلم من الزُّهد في الدُّنيا، ويجعله مشغولاً بزخارفها وزينتها ومتاعها الأدنى، وينسى الآخرة التي هي دار البقاء والخلود؟

إننا ننظر إلى النَّاس في الدُّنيا، فنراهم فيها راغبين، وإليها جانحين، وعليها مكبِّين، وعلى حُطامها متنافسين، بل متسابقين، وعن الآخرة غافلين، ما سرُّ هذا؟ وما العوائق أو العقبات التي تحُول بين المُكَلَّفين، وبين الإقبال على الآخرة الباقية، والزهد في الدُّنيا الفانية؟

الحقُّ أنَّ هناك عقباتٍ شتَّى في هذا الطريق، يجب على مُريد الآخرة أن يعرفها، ليجتهد في تجاوزها والتغلب عليها.

وهذه العقبات التي سنتحدث عنها في هذا الفصل:

١ - الغفلة.

٢ - طول الأمل.

٣ - انتشار القيم المادية.

٤ - افتقاد القدوة.

وإليك تفصيل هذه العوائق لتجنبها وتخلي عنها.



أولاً: الغفلة:

أول هذه العوائق والعقبات هو: الغفلة التي تصيب بعض الناس، فتتعطل عقولهم عن الفهم، وحواسهم عن الإدراك، وكأنهم مخدرون! فهم في غفلة عن «الله» جلّ شأنه، وهو الذي خلقهم ورزقهم، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

الغفلة عن الموت:

وهم في غفلة عن «الموت» هاذم اللذات، الذي يتنظروهم، وهو أصدق غائب يُنتظر، وسواء طال العمر أم قصر، فإنّ الموت آتٍ لا محالة، لا بدّ من يوم يقال فيه: فلان مات! فيصبح مجرد خبر يذاع في الناس، كما قال الشاعر:

حُكْمُ الْمَنِيَةِ فِي الْبَرِيَّةِ جَارٍ مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بَدَارٍ قَرَارٍ!
بَيْنَا يُرَى الْإِنْسَانُ فِيهَا مُخْبِرًا حَتَّى يُرَى خَبْرًا مِنَ الْأَخْبَارِ^(١)

الغفلة عما بعد الموت:

ثم الغفلة عما بعد الموت، والموت أشدّ ما قبله، وأهون ما بعده، فبعد الموت يكون القبر، يوضع المرء في حفرة من تراب الأرض، متر في مترين أو أقل، يدخل المرء هذه الحفرة وحده، ليس معه أهل ولا مال، ولا أنيس له إلا عمله.

وقد كان عثمان رضي الله عنه إذا رأى القبر اشتدّ بكاءه حتّى تبلّ دموعه

(١) من شعر أبي الحسن علي بن محمد التهامي في مطلع مرثيته الشهيرة لولده، كما في دمية القصر لأبي الحسن البخارزي (١٤٠/١)، نشر دار الجيل، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ.

لحيته. فقيل له: تذكر الجنة والنار، فلا تبكي مثل هذا البكاء! فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «القبرُ أوَّلُ منازلِ الآخرة»^(١).

وبعد القبر هناك البعث وأهوال يوم القيامة، من الموقف والحشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار، وكما يقول الشاعر:

ولو أننا إذا متنا تُرِكْنَا لكان الموتُ راحةً كلَّ حيٍّ
ولكنَّا إذا متنا بُعِثْنَا لِنُسْأَلَ بعدها عن كلِّ شيءٍ^(٢)

الغفلة عن مصائر الغابرين:

والغفلة عن مصائر الغابرين من حولنا، ومن قبلنا، ممَّن نعرفهم ونحبُّهم، ومَن لا نعرفهم، وكذلك مصائر الأمم من قبلنا، ممن أثاروا الأرض وعمروها، تمتَّعوا فيها سنين، ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿ [الشعراء: ٢٠٦، ٢٠٧].

الغفلة حجاب كثيف:

هذه «الغفلة» تمثِّل حجابًا كثيفًا تحول دون رؤية الحياة الدُّنيا على حقيقتها، فهي تصغرُ أمر الآخرة، وتُعظِّمُ أمر الدُّنيا، وتبعِّدُ الأمر القريب، وتقربُ الأمر البعيد، وبهذا تلبس الأمور، وتتغبَّس الرؤية، ولهذا ذمَّ القرآن الغفلة، وجعلها وراء كلِّ شرٍّ، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

- (١) رواه أحمد (٤٥٤)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والترمذي (٢٣٠٨)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه (٤٢٦٧)، كلاهما في الزهد، والحاكم في الرقائق (٣٣٠/٤)، وصحَّحه ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٦٤)، عن عثمان بن عفان.
- (٢) البيتان لدلف بن أبي دلف في رؤيا رآها، رواهما الخطيب في تاريخ بغداد (٤٠٧/١٤).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

ولا غَرُّوْا أَنْ وَجَّهَ اللهُ تَعَالَى رَسُوْلَهُ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وَقَالَ: ﴿وَلَا تُطْعَمَنَّ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبُهُ، عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنُهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

أهمية يقظة القلب وبصيرته:

والمطلوب من السالك في منازل السائرين في الطريق إلى الله: أن يستبدل بالغفلة «اليقظة»، أعني يقظة القلب وبصيرته، بحيث يُزيح الغفلة عنه، لينتبه إلى ما يجب الانتباه إليه من ذكر الله والدار الآخرة.

ولا يُغني عن هذه اليقظة: تحصيل العلوم والمعارف، التي تزيد خبرته بالحياة الدنيا، وكيفية الاستمتاع بما فيها، وهو ليس مذموماً ما دام في الحدود المشروعة، ولكنه لا يبصره بالغاية التي خُلق لها، والرسالة التي يجب أن يؤدّيها. ولهذا لا يكفي هنا هذا العلم وحده؛ لأنه علمٌ بـ «ظاهر الحياة الدنيا» كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧].

ثانياً: طول الأمل:

ومن العوائق والعقبات في طريق الزهد والإقبال على الآخرة: «طول الأمل».

ومعنى طول الأمل: أن يعيش المرء في الدنيا وكأنّه مُخلد فيها، يستبعد الموت، فلا يكاد يخطر له على بال. وإذا كان ينسب إلى بعض

الصحابة قولهم: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً^(١). فأهل الدنيا يأخذون بالشقّ الأول من هذه الوصية، ولا يذكرون الشقّ الثاني منها.

من علامات الشقاوة:

رووا عن الزاهد المعروف مالك بن دينار قال: أربعة من علم (علامة) الشقاوة: قسوة القلب، وجمود العين، وطول الأمل، والحرص على الدنيا^(٢).

ولهذا قال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز: إنكم خلقتم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار^(٣)!

المهم في هذا المقام أن تكون الآخرة أكبر همّه، وأن يتذكّر أنه في هذه الدنيا ضيف مصيره إلى الرحيل، ولهذا كانت وصية الرسول ﷺ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ». وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك^(٤).

ولا يعني التحذير من طول الأمل، عدم اتخاذ الأسباب لعمارة الأرض، وترك التخطيط للنهوض بالمجتمعات.

(١) رواه الحارث في مسنده (١٠٩٣) البغية، موقوفاً على عبد الله بن عمرو. ولا يصح رفعه للنبي ﷺ، وللمحدث السيد أحمد بن الصديق الغماري رسالة: سبل الهدى في إبطال حديث اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً. أبطل فيه الحديث سنداً وامتناً، وإن كان الشطر الثاني فيه، تؤيده الأحاديث الكثيرة الصحيحة.

(٢) رواه ابن الأعرابي في الزهد (٧١).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣٤)، في خطبة طويلة.

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٤١٦)، عن ابن عمر.

العناية بالتخطيط واستشراف المستقبل:

ومن هنا ذكر القرآن عن سيدنا يوسف، وقد مكّنه الله في الأرض، وأصبح عزيزها والمُتصرّف الأول فيها، وقد جمع الله شمله بأبويه وإخوته، حين استقبلهم وقال: ﴿أَدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]، ثم ذكر القرآن مناجاته لربه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ يعني تعبير الرؤى ﴿فَاطْرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

فها هو يوسف يفسّر رؤيا الملك، وفي تفسيره وضع خطة لخمس عشرة عامًا للخروج بمصر وما حولها من أزمة المجاعة بسلام، ومع هذا يقول: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

تخطيط الرسول ﷺ لتأسيس الدولة:

وكان الرسول ﷺ يُخَطِّطُ للقيام برسالته، ولتأسيس دولته، كما خَطَّطَ للهجرة وللغزوات المختلفة، ومع هذا كان لا يشغله عن ربه شيء، ولا يلهيه عن الآخرة أمر، بل كان محياهم ومماتهم لله، كما علّمه الله أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

أهمية الأمل والتخطيط للمستقبل:

إنَّ الأمل مطلوب لكلِّ حيٍّ، لكي تستمرَّ الحياة، ويقوم المجتمع، وتعمّر الأرض، ولولا الأمل ما غرس غارس غرسًا، ولا بنى بنى بنيانًا، ولا فكّر أحد في خطة لغد، وخصوصًا إذا نظرنا إلى الأمر في إطار أمة صاحبة رسالة.

وفي عصرنا أصبحت هناك دراسات مستقبلية، وأصبح استشراف المستقبل، والتخطيط للمستقبل، جزءاً من البناء الحضاري للأمم، حتى تستطيع أن تعيش، وأن يكون لها دور في عالم يتقدم ويتطور من يوم لآخر، وقد تقارب وتقارب حتى أصبح كقرية صغيرة، فمن عاش ليومه، وأغفل غده، داسته أقدام الأقوياء، الذين يعملون ويخططون.

هذا ما نوَّكده بالنظر إلى الأمة، بل هو ما ينبغي للفرد المسلم ألا يغفل عنه، ولا يطرحه وراء ظهره، وقد كان النبي ﷺ يحبس (يدخر) لأهله قوت سنة^(١).

والناس في عصرنا يخططون لحياتهم، بحيث يتم أحدهم مراحل تعليمه، من الابتدائي إلى الجامعة. ثم يفكر أحدهم كيف يتزوج، ثم كيف يبني لنفسه وأهله مسكناً يعيش فيه. وإذا كان من الأذكيا والنوابغ، فإنه يفكر في الدراسات العليا. وأعتقد أن التفكير في مثل هذه الأمور ليس ممنوعاً شرعاً، بل هو مطلوب للمسلم المعاصر. فما المقصود من «طول الأمل»، والمقصود من مقابله «قصر الأمل» إذن؟

سياسة الأمم تقوم على طول الأمل:

ونقول هنا بكل وضوح: إن سياسة الأمم تقوم على طول الأمل، وهو ما أشار إليه القرآن، حين قال عن هزيمة الروم أمام الفرس: ﴿ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ ﴿ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: ٣، ٤]، أي: أن الدنيا دُول، والأمم لا يحكم على مستقبلها بخسارة معركة. وقد علم الله أنهم سيغلبون، بعد أن غلبوا، في حدود بضعة سنين. وقال تعالى

(١) متفق عليه: رواه البخاري في النفقات (٥٣٥٧)، ومسلم في الجهاد (١٧٥٧)، بلفظ: أن النبي ﷺ كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم، عن عمر بن الخطاب.

معزياً للمؤمنين بعد غزوة أحد، التي فقدوا فيها سبعين شهيداً: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فبين هذه السنة من سنن الله، تداول الأيام بين الناس، فالدهر يومان: يوم عليك، ويوم لك. وكم من مهزوم انتصر، وكم من مغلوب غلب، وإن مع اليوم غداً، وإن غداً لناظره قريب.

وقال في أول البعثة في سورة المزمل، في تعليل تخفيفه عن الصحابة فرضية قيام الليل: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضِيًّا وَعَاخِرُونَ يَصْرِفُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَاخِرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وقال أيضاً في سورة القمر وهي مكية: ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ﴾ [القمر: ٤٥]، إشارة إلى ما سيحدث للمشركين من هزيمة في بدر وغيرها.

تربية الأفراد تربية إيمانية متوازنة:

ولكن الكلام هنا في تربية الأفراد تربية إيمانية ربانية، فهنا يلزم الفرد أن يوازن بين ما يجب عمله، لتحقيق مطالبه المشروعة لتحسين حياته وحياته من يعولهم، وواجبه نحو آخرته، وما يجب أن يقوم به للإعداد لآخرته، التي هي دار القرار، وإليها المنتهى، والفوز فيها هو الفوز الحقيقي، ﴿فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وهذا يقتضيه ألا يستبعد الموت، بل يذكره أبداً، ويقصر أمله في الدنيا، كما قال الشاعر:

تزوّد من التقوى فإنك لا تدري إذا جنّ الليل هل تعيش إلى الفجر؟
فكم من سليم مات من غير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر!

ولهذا جاء عن غير واحد من السلف تفسير الزهد بأنه: قصر الأمل.

قال الإمام الحارث المُحَاسِبِي في «رسالة المسترشدين»: «وأعونُ الأخلاق على الزُّهدِ قِصْرَ الأملِ»^(١).

قال ابن رجب: «ووجه هذا: أن قِصْرَ الأملِ يوجب محبّة لقاء الله، بالخروج من الدنيا. وطول الأمل يقتضي محبّة البقاء فيها، فمن قصر أمله فقد كره البقاء في الدنيا. وهذا نهاية الزُّهدِ فيها والإعراض عنها»^(٢).

ثالثاً: سيادة القيم المادية:

ومن العوائق في طريق الزهد: انتشار القيم المادية وسيادتها في الحياة، واتساع الثقافة الدنيوية، التي لا تكاد ترى لله مكاناً، ولا للآخرة موضعاً، ولا للروح موقعاً في حياتنا.

هذه الثقافة التي يشبُّ عليها الصغير، ويَهْرَم عليها الكبير، وتغرس في عقول الجميع وفي قلوبهم: التعلُّق بالدنيا، واعتبار المال هو كلُّ شيء. لا يُقَوِّم النَّاسُ بالإيمان، ولا بالعلم، ولا بالأخلاق، ولا بالإنجاز، ولكن بما يملكون من متاع الدنيا.

فقيمة ربِّ الألف ألفٌ وزدُّ تزدُ وقيمة ربِّ الدرهم الفرد درهم!

فالدنيا هي أكبر همِّهم، ومبلغ علمهم، ومدار اهتمامهم، ومحور

(١) رسالة المسترشدين ص ١٦١، ونقل العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقاته النفيسة على الرسالة: وجاء منسوباً إلى سيدنا عليٍّ عليه السلام: الزهد كله بين كلمتين من القرآن: قول الله سبحانه: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] ومن لم يأس - أي يحزن - على الماضي، ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزهد بطرفيه. انظر: شرح نهج البلاغة (٨٧/٢٠)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، مصر.

(٢) جامع العلوم والحكم (١٨٤/٢).

تفكيرهم. إليها يركضون، وعليها يحرصون، ولها يجمعون، وفي سبيلها يتزاحمون ويتنافسون، بل يتصارعون ويتقاتلون. من أجلها يعادي الأخ أخاه، والابن أباه، ويَجْفُو القريب قريبه، ويبيع الصديق صديقه، بل قد يبيع أهله ووطنه ودينه. وهي «الفتن» التي حذر الحديث الصحيح منها، ومن خطرها: «بادروا بالأعمالِ فتناً كقطع الليلِ المظلمِ، يصبح الرجلُ مؤمناً ويمسي كافراً، أو يُمسي مؤمناً ويصبحُ كافراً، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا»^(١).

تحذير النبي ﷺ من فتنة الدنيا:

إنَّها الدُّنيا التي حذر النبيُّ الكريمُ الأُمَّةَ من فتنها، حين قال: «فوالله ما الفقرُ أخشى عليكم، ولكنْ أخشى أن تُبسطَ عليكم الدنيا، كما بُسِطَتْ على مَنْ كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»^(٢).

وعن أبي سعيد الخُدريِّ قال: جلس رسولُ اللهِ ﷺ على المنبر، وجلسنا حوله، فقال: «إنَّ ممَّا أخافُ عليكم بعدي: ما يفتح اللهُ عليكم من زهرةِ الدُّنيا وزينتها»^(٣).

وعنه، أنه ﷺ قال: «إنَّ الدُّنيا حلوةٌ خَصِرةٌ، وإنَّ اللهَ تعالى مُسْتَخْلِفُكُمْ فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدُّنيا، واتَّقوا النِّساء»^(٤).

(١) رواه مسلم في الإيمان (١١٨)، وأحمد (٨٠٣٠)، عن أبي هريرة.

(٢) سبق تخريجه ص ٩٤.

(٣) سبق تخريجه ص ٩٥.

(٤) سبق تخريجه ص ٨٦.

المراد باتِّقاء الدُّنيا:

واتِّقاء الدُّنيا هنا مثل اتِّقاء النِّساء، المراد به: التنبُّه لفتنتها، والحذر من إغرائها وزخرفها، وليس اعتزالها؛ إذ لا تبُّتل، ولا رهبانية في الإسلام. وعن أنس: أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»^(١).

التحذير من فتنة المال:

ويحذّر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ مِنْ أَعْظَمِ فِتْنَةٍ فِي الدُّنْيَا، وَهِيَ فِتْنَةُ الْمَالِ الَّذِي أَغْوَى الْكَثِيرِينَ حُبُّهُ وَالْحَرَصُ عَلَيْهِ، فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ، وَفِي هَذَا يَقُولُ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»^(٢).

المراد بفتنة المال:

وفتنة المال ليست في جمعه وكسبه من وجوهه المشروعة، إنّما هي في حبه حبًّا جمًّا يلهيه عن طاعة الله، والحرص عليه حرصًا يجعله لا يبالي أن يكسبه من غير حلّه، وينفقه في غير محلّه، ويبخل به عن حقّه، والشّرُّ كُلُّهُ مِنْ هَذَا نَبْع. وَهَذَا مَا حَذَّرَ مِنْهُ الْحَدِيثُ: «مَا ذُبَّانَ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ، بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حَرَصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرْفِ لِدِينِهِ»^(٣). يعني بالشرف: الجاه والمنزلة.

الثروة التي لا تنفذ والكنوز التي لا تفنى:

من أجل ذلك يعلم الإسلام أبناءه: أنّ المال ليس هو كلُّ شيء في الحياة، بحيث يحصر الإنسان كلَّ همّه فيه، وكلَّ سعيه له، وكلَّ حماسه ونشاطه في

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٥)، ومسلم في الجهاد (١٨٠٥).

(٢) سبق تخريجه ص ٩٣.

(٣) سبق تخريجه ص ٩٣.

طلبه وجمعه، بحيث لا يدع في عقله وقلبه مكاناً للرجائب الكبيرة والمثل العليا، التي يجب أن ترنو إليها الأبصار، وتشرئب نحوها الأعناق.

إن المثل الأخلاقية العليا، والقيم الروحية الرفيعة، من الإيمان والعمل الصالح والخلق الكريم، هي الثروة التي لا تنفد، والكنوز التي لا تفتنى، والباقيات الصالحات على مرّ الأعوام والأعصار، ولهذا يوجه القرآن إليها همم المؤمنين وآمالهم، بمثل قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: ٤٦]، وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُوهَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، وقوله في قصة قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقِّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠]. وقوله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]، فرزق ربّه هنا ليس هو الموعود به في الجنة فحسب، بل ما أنعم الله به عليه في الدنيا من معاني الإيمان، ومنازل التقوى، ومكارم الأخلاق، وبعد ذلك ما ينتظره من نعيم مقيم، في دار الخلود، ويقول تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ ﴿قُلْ أُوْنِيْتُمْ خَيْرٌ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥] (١).

(١) انظر كتابنا: دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي ص ١٠٤ - ١٠٧، نشر مكتبة وهبة،

القاهرة، ط ٣، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

رابعًا: افتقاد القدوة:

ومن العقبات في سبيل الزهد: افتقاد «القدوة». أعني الإنسان الصالح، الذي يقتبس الناس منه معنى الزُّهد، يأخذونه من حاله قبل مقاله، ومن سلوكه قبل دعاويه، وقد قيل: حال رجل في ألف رجل، أبلغ من مقال ألف رجل في رجل.

المثل الأعلى في الزهد:

لهذا كان محمد ﷺ أسوة للمؤمنين بأخلاقه وأفعاله، قبل أن يكون معلّمًا لهم بأقواله. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وسنة محمد ﷺ تتضمن أقواله وأفعاله وتقريراته، وأفعاله ﷺ هي التي تمثل الجانب العملي، الذي هو موضع الأسوة والافتداء. وقد كان هو المثل الأعلى في كل خلق، وكل قيمة إيمانية أو ربانية أو إنسانية.

وهو في الزُّهد إمام الأمة بلا ريب، كان أول من يجوع، وآخر من يشبع^(١)، وكانت تمرُّ الأشهر ولا يوقد في بيته نار^(٢)، وكان يشد الحجر على بطنه من الجوع^(٣)، وكان ينام على وسادة حشوها ليف. وبكى عمر

(١) يدل على ذلك حديث أبي هريرة في شدة جوعه، وشربه وشبعه ورِيّه، ثم شرب النبي ﷺ بعده، وفيه: فحمد الله وسمى وشرب الفضلة. رواه البخاري في الرقاق (٦٤٥٢).

(٢) عن عائشة قالت: إنا كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقد في بيت رسول الله نار. متفق عليه: رواه البخاري في الهبة (٢٥٦٧)، ومسلم في الزهد (٢٩٧٢).

(٣) عن جابر قال: لما كان يوم الخندق نظرت إلى رسول الله ﷺ، فوجدته قد وضع حجرًا بينه وبين إزاره، يقيم به صلبه من الجوع. رواه أبو يعلى (٢٠٠٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨٢٤٧): رواه أبو يعلى ورجاله وثقوا على ضعف في إسماعيل بن عبد الملك.

حين دخل عليه، ووجده ينام على حصيرٍ أثرٍ في جنبه^(١)، إلى آخر ما هو معروف من سيرته.

أصحاب النبي ﷺ نماذج مشرفة في الزهد:

وبعده كان في أصحابه نماذج مشرقة، ممّن سار على دربه في الإعراض عن متاع الدنيا، والإقبال على الآخرة، منهم أبو بكر وعمر وعليّ وأبو ذر وسلمان وأبو الدّزداء والمقداد، وغيرهم من الصحابة الكرام، وجمهورهم كان من أهل الآخرة. ولهذا هان عليهم أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

وهؤلاء الصحابة هم الذين هدى الله بهم الأمم إلى الإسلام، فلم يكونوا كالفاتحين الذين إذا انتصروا على بلد استحلّوها، ونهبوا كنوزها، واغتصبوا نساءها، وعاشوا - أو عاثوا - في نعيم أهلها. بل كانوا زهادًا في الدنيا، متحرّين لحلالها، خائفين من حرامها.

يقول ابن مسعود لأصحابه: أنتم أكثر صومًا وصلاةً وجهادًا من أصحاب محمد ﷺ! وهم كانوا خيرًا منكم! قالوا: كيف ذلك؟ قال: كانوا أزهد منكم في الدنيا، وأرغب منكم في الآخرة^(٢).

وقال عمرو بن العاص فاتح مصر لأصحابه: ما أبعد هديكم من هدي نبيكم ﷺ، إنّه كان أزهد النّاس في الدنيا، وأنتم أرغب النّاس فيها^(٣).

(١) عن ابن عباس قال: مكثت سنةً أريد أن أسأل عمر عن آية... وإنه لعلى حصير، ما بينه وبينه شيء، وتحت رأسه وسادة من آدم حشوها ليف، وإن عند رجله قرطًا مصبوبًا، وعند رأسه أهْبٌ معلقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه، فبكيت... متفق عليه: رواه البخاري في التفسير (٤٩١٣)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٩٢)، والحاكم في الرقاق (٣١٥/٤)، وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٣) رواه أحمد (١٧٨١٠)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. وابن عساكر في المعجم (١٦١٩)، وصحّحه.

ولا يوجد في أصحاب نبي من الأنبياء مثل أصحاب محمد، في بذلهم وجهادهم وزهدهم في حطام الدنيا.

وسنتحدث في خواتيم هذا الكتاب عن عدد من النماذج الورعة الزاهدة، منهم من الصحابة عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

تلاميذ الصحابة من التابعين:

وبعد الصحابة كان تلاميذهم الذين اتبعوهم بإحسان، والذين قال القرآن عنهم: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وكان من هؤلاء أئمة الهدى، ومصابيح الدُّجى، ساروا على نهج شيوخهم من الصحابة.

وفي كلِّ عصر كان يوجد من هؤلاء المُربِّين الربانيين مَنْ يُقتدى به فيُهدى، مَنْ إذا رأته ذكرت الآخرة، وإذا سمعته ذكرت الله، وإذا عايشته زهدت في الدنيا.

أثر صحبة الزاهدين:

وصحبة هؤلاء، والتلمذ على أيديهم، والتأسي بسلوكهم؛ هي المدرسة الحقيقية لتعلم الزُّهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة. ولا يُغني عن ذلك كتاب يُقرأ، أو شريط يُسمع أو يُرى، وإن لم يخلُ ذلك من أثر، ولا سيما إذا كان مؤلف الكتاب أو المتحدث بالشريط ممَّن يرجون الله والدار الآخرة، ويخافون يوم الحساب، فإن من المعروف أن تأثير الحال أقوى من تأثير المقال، وإنما يؤثر أهل الزُّهد بأحوالهم لا بأقوالهم.



استمرار الخير في هذه الأمة:

ولا ريب أن هؤلاء المرّيين والربانيين موجودون في دنيانا، ولا يُخلي الله الأرض من بعضهم، فهم أوتاد الأرض ودعائمها. سنة الله الذي يُبقي أبداً في هذه الأمة طائفة تقوم على الحق، لا يضرّها من خالفها، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، وهم الذين يسمّيهم العلماء «الطائفة المنصورة»، وفيهم وفي فضلهم استفاضت الأحاديث^(١)، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١].

ولكن يطغى على هؤلاء الربانيين مع قلتهم: صخب عشاق الدنيا، وعبيد الظهور والأضواء، وغيرهم ممن ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت بِتَجَرَّتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦]، الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧].

* * *

(١) منها الحديث المتفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧)، عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس». واللفظ لمسلم.

الفصل الثامن

بواعث الزهد

إذا عرفنا العوائق التي تقف في طريق الزُّهد في الدُّنيا، فأعتقد أن هذا ييسِّر علينا معرفة البواعث التي تُحفِّز على الزُّهد في الدُّنيا، والإقبال على الآخرة. فكلُّ ما هو عائق أو عقبة في طريق الزُّهد يكون عكسه وضده باعثاً على الزهد.

ومعنى هذا، أنه إذا كان من العقبات الغفلة عن الموت، يكون عكسه هو ذكر الموت، وكذلك الغفلة عن الآخرة يكون عكسه كذلك استحضار الآخرة، وهكذا كلُّ العقبات.

وعلى هذا الأساس نتحدَّث عن البواعث المؤدِّية إلى الزُّهد في الدنيا. وسأقتصر على أربعة بواعث وهي:

١ - ذكر الموت.

٢ - الاعتبار بمصاير أهل الدنيا.

٣ - استحضار الآخرة.

٤ - معرفة قيمة الدنيا.

أولاً: ذكر الموت:

وأول هذه البواعث القوية والمؤثِّرة في الإغراء بالزهد، هو «ذكر

الموت». فإذا كان من عوائق الزهد: طول الأمل في الدنيا، فلا غرو أن يكون من بواعث الزهد فيها، هو تذکر الموت دائماً، وعدم نسيان المصير الحتمي، الذي ينتظر كلَّ حيٍّ، فهذا مما يقصّر أمله، ويجعله يعيش في الدنيا بقلب أهل الآخرة، ويعيش في الدنيا كأنه غريب، أو عابر سبيل، كما نصحه الرسول الكريم.

ومن هنا كان الإرشاد النبوي للأمة: «أكثرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَاتِ: الموت»^(١).

كيف ننتفع بذكر الموت؟

ولكي ننتفع بذكر الموت، يجب أن نذكر هنا عدّة حقائق عن الموت:

الأولى: شمول الموت وعمومه، فهو نهاية كلِّ حيٍّ، أيًا كانت منزلته الدينية أو الدنيوية، وفي هذا يقول القرآن: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ويُخاطب الله تعالى خاتم رسله محمداً، فيقول: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ويقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ * ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

(١) رواه أحمد (٧٩٢٥)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والترمذي في الزهد (٢٣٠٧)، وقال: حسن غريب. والنسائي في الجنائز (١٨٢٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٨)، وابن حبان في الجنائز (٢٩٩٢)، والحاكم في الرقاق (٣٢١/٤)، وصححه ووافقه الذهبي، عن أبي هريرة.

وفي الحديث الشريف: «عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَأَحِبِّ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مَفَارِقُهُ، وَاَعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ عَنْهُ»^(١).

الثانية: أن الموت يأتي بعد أجل مسمّى للإنسان، لا يزيد ولا ينقص، فهو مسجّل عند الله في كتاب لا تغيير فيه ولا تبديل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْمَرُ مِنَ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]، ومعنى ﴿يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾، أي: يموت في شبابه قبل أن يعمر. وعند انتهاء أجله يموت لا محالة، لا يملك أحد أن يستأخر عن أجله ساعة، أي: لحظة، كما لا يستقدم عن أجله لحظة، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، وهذه الآية، وإن جاءت في شأن الأمم، فهي أيضاً تنطبق على الأفراد؛ لأن القدر الذي يجري على الأمم، هو نفسه الذي يجري على الأفراد، وسنن الله في الجميع واحدة. يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

الثالثة: أن الموت إذا جاء الأجل لا يمكن الفرار منه بحيلة من الحيل، ولو أمكن ذلك، لاستطاع الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والتابعة، وملوك العرب والعجم أن يتحصّنوا من الموت أو يهربوا منه، ولكنهم جميعاً خضعوا لحكمه، ودانوا لقهره، وفي هذا يقول القرآن: ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، كما قال القرآن في مخاطبة اليهود: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

(١) رواه الطبراني في الأوسط (٤٢٧٨)، والحاكم في الرقائق (٣٢٤/٤)، وصحّحه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٦٤٤): رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٣)، عن سهل بن سعد.

وقد ذكر ابن عبد ربه في «العقد الفريد» أنّ وباءً نزل ببعض الأعراب، وبدأ يحصد منهم جماعة، فعزم أحد الشباب أن يرحل من منطقته الموبوءة إلى منطقة أخرى، لعله يسلم مما أصاب غيره من الأعراب، وحاول أبوه أن يمنعه من الرحيل، وأن يبقى مع قومه، يجري عليه ما يجري عليهم، فلم يستجب لدعوة أبيه. وأصرَّ على الخروج، وفعلاً خرج وسافر، وفي طريقه نام تحت شجرة، فجاءت حيّة ولدغته فمات، وعلم أبوه بما وقع له، فأنشد يقول:

طاف يبغى نجوةً من هلاك فهلک
والمنايا رصداً للفتى حيث سلك
ليت شعري ضلّة أي شيء قتلك؟
كل شيء قاتل حين تلقى أجلك^(١)

ثانياً: الاعتبار بمصاير أهل الدنيا:

ومن البواعث على الزهد: الاعتبار بمصاير أهل الدنيا، عُشاق الدنيا، عبّاد الدنيا، الذين عاشوا للدنيا وحدها، ولم يفكروا في أمر الآخرة.

لقد ذكر لنا القرآن نماذج من عبّاد الدنيا وسدنتها، الذين رضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بها، وركنوا إليها، وعاشوا كأنهم مخلّدون فيها، يرفلون في النعيم، ويمرحون في الزينة، ويتمتّعون بالجاه، ويبغون على الضعفاء، ولا يرون لأحد حقاً فيما بأيديهم من مال، فالمال مالهم وحدهم، جمعوه بكدهم وذكائهم، ونمّوه بعبقريتهم وحسن إدارتهم، وليس لأحد فيه حقٌّ يطالبون به من أحد من الناس. فكيف كانت عاقبة هؤلاء؟ وإلام انتهى أمرهم؟

(١) العقد الفريد (٣/٢١٨)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.

قصة قارون:

نختار قصة من قصص القرآن تتحدث عن نموذج يُضرب به المثل في الغنى والثروة، وهو قارون الذي آتاه الله من «الكنوز» ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، فإذا كانت مفاتيح الأبواب التي تضم مجموع الكنوز النفيسة التي يملكها قارون تنوء بالعصبة أولي القوة، وتضعف عن حملها، فما بالك بالكنوز نفسها؟

لنقرأ القصة كما ذكرها القرآن: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِصِينَ *

[القصص: ٧٦ - ٨٣].



وقفات ونظرات في قصة قارون:

ولنا في هذه القصة وقفات تستحقُّ النظر والاعتبار:

أولاًها: أنّ الرجل لم يبيع آخرته بديناه فقط، بل باع قومه، وبغى عليهم، وانضمَّ إلى عدوهم فرعون، فكان هو وهامان ذراعين له: هذا من الناحية الاقتصادية، وهامان من الناحية السياسية، فاجتمع ثلوث الطغيان والفساد: الملكية المتألّهة المتكبّرة، والرأسمالية المتعجرفة المتجبّرة، والمهارة السياسية التي تضع نفسها في خدمة الفرعونية والقارونية.

ثانيها: أنّ قوم قارون - وهم قوم موسى - نصحوه بخمس نصائح مهمّة، يجب أن تكون مصابيح مضيئة لكلّ ذي ثروة، وهي:

- ١ - عدم الفرح، ومعنى الفرح هنا: البطر والغرور بالثروة.
- ٢ - ابتغاء الدار الآخرة بالمال الذي آتاه الله، فلا يكون كلُّ همّه الدنيا.
- ٣ - وليس معنى ابتغاء الآخرة أن يحرم نفسه من طيبات الدنيا، بل لا ينسى نصيبه من الدنيا.

٤ - أن يُحسن إلى غيره كما أحسن الله إليه، ففي هذا المال حقٌّ لله الذي آتاه إياه، وحقٌّ للمجتمع الذي ساهم في تكوين هذه الثروة بصورة أو بأخرى.

٥ - ألا يتخذ الثروة الكبيرة التي بيديه وسيلة للإفساد في الأرض، بشراء الذمم، وإشاعة الفاحشة، وجحد حقوق الفقراء، والتعاون مع الأقوياء على الإثم والعدوان.

ولكن قارون لم ينتصح، ولم يأبه لما قاله قومه، وقال في زهو وكبر:

﴿ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ! فلم يعترف بفضل الله تعالى، ولا بفضل المجتمع عليه.

وثالثها: أن قارون أراد أن يستعرض قوّته وسلطانه، ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾، في موكب يبهر الأبصار، ويُغري الطامعين، ويرهب المناوئين، وهنا قال الذين يقيسون الأمور بمظاهرها: ﴿ يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾، وردّ عليهم أولو البصائر الذين لا يخدعهم السراب أن ما عند الله للصالحين خير وأبقى مما عند قارون.

ورابعها: هو المشهد الأخير، وهو ما أنزله الله بدنيا قارون، وهو أن خسف به وبداره الأرض، فلم تُغن عنه كنوزه، ولا من حوله من الأتباع والمطبّلين. وهنا تجلّت الحقيقة للذين خُدعوا بالأمس، وتمنّوا أن يكون لهم مثل ما أُوتي قارون، حين عرّفوا أن العاقبة للمتقين، وأنه لا يفلح الكافرون بالله، وبنعم الله، وبحقوق عباده.

وهنا جاء التعليق القرآني على القصة بهذه الآية: ﴿ تِلْكَ أَلْدَارُ الْأَخِرَّةِ الَّتِي لَا يَرْيَدُونَ عُلْوًا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣]، فالمفلحون عند الله حقًا ليسوا أصحاب الملايين ولا البلايين، ولكنهم المخلصون الصادقون، الذين صحّت نيّاتهم، وسَمّت غاياتهم، واستقامت أهدافهم، فلا يريدون علوًا في الأرض كالمملوك، ولا فسادًا كاللصوص وقطّاع الطريق.

نماذج من مصاير الذين غرتهم الدنيا:

هذا وقد ذكر القرآن مصاير عدد من هؤلاء الذين غرتهم الحياة الدنيا، ونسّوا ما عند الله، وبغوا على الضعفاء من الناس، فأخذهم الله أخذًا أليماً

شديدًا، مثل صاحب الجنين في سورة الكهف، وأصحاب الجنة في سورة القلم، ومثل الذين كذبوا رسل الله، واغترُّوا بديانهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

ثالثًا: استحضار الآخرة:

وإذا كانت الغفلة عن الآخرة وأهوالها من الآفات العائقة عن الزُّهد في الدُّنيا، فقد تبين لنا بحكم التقابل أن استحضار معاني الآخرة وما يتصل بها من البواعث المهمة التي تدعو إلى الزُّهد في الدُّنيا، وإيثار الآخرة عليها.

ومن يقرأ القرآن الكريم والسُّنة النبوية، يجد أن النصوص المتكاثرة من آيات القرآن، ومن أحاديث الرسول ﷺ تتحدث عن الآخرة، وتذكر بها، وبما فيها من هول الحشر، وطول الموقف، وشدة الحساب، وقراءة الكتاب، ودقة الميزان، تملأ القلب يقينًا بأن لا نجاة يوم القيامة، إلا لمن كانت الآخرة محور تفكيره وإرادته، وغاية سعيه وجهده، ولم تكن الدُّنيا أكبر همّه ولا مبلغ علمه.

يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

وهذا المعنى تصوّره سورة أخرى تقول: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ * وَأَبِيهِ * وَصَاحِبِنِهِ * وَبَنِيهِ * لِكُلِّ أُمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].
 ويصوّر ذلك الرسول ﷺ بحديثه الذي روته عائشة زوجته: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا». قلت: يا رسول الله، النساءُ والرجالُ جميعًا، ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال ﷺ: «يا عائشة، الأمرُ أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض»^(١). ﴿لِكُلِّ أُمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].
 وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

وفي موضع آخر يقول تعالى مبينًا طول الموقف يوم القيامة: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤].

وضع الكتب:

وفي وضع الكتاب يقول تعالى: ﴿وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوبِلُنَّا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].
 ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ * وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

الميزان:

وتحدّث القرآن عن الميزان وموقف الناس منه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٥٩)، عن عائشة.

لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أُنِينًا
بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿ [الأنبياء: ٤٧].

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ
مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ ﴿
[المؤمنون: ١٠١ - ١٠٤].

محكمة العدل الإلهية:

وهكذا نرى في هذا اليوم «محكمة عادلة» تقوم على محاكمة كل مكلف
وفق «كتابه»، الذي سُجِّلت فيه أعماله كلها، خيرا وشرًا، وسرًا وجهرًا، ﴿ هَذَا
كُنْبُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩]، ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا
لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

كما يقوم على «الميزان» الذي تُوزن به أعمال المكلف، حسناتها
وسيئاتها، فلا تُظلم نفس شيئًا، وإن كان مثقال حبة من خردل لا تضيع،
بل يأتي الله بها، فلا يخاف أحد ظلماً ولا هضمًا.

شهادة الجوارح:

وشهود الإنسان عليه من داخله: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤]، ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا
أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥]، ﴿ الْيَوْمَ نُحْزِي كُلَّ نَفْسٍ
بِمَا كَسَبَتْ لَّا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧].

فإذا كانت الدنيا دارًا تضيع فيها الحقوق، ويفلت منها الظالمون من
العقاب، ويُحرم كثيرون من الأخيار الصالحين من ثمرات صلاحهم،

فلا يُجْزَوْنَ إِلَّا شَرًّا، ففي الدار الآخرة يأخذ كلُّ ذي حقِّ حَقَّهُ، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ * ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

عدل الله وحكمته:

وفي الآخرة يتجلَّى عدل الله تعالى وحكمته، فلا يسوِّي بين برِّ وفاجر، وعادل وظالم، وخيرٍ وشرير، وهذا هو الباطل الذي يتنزّه الله أن يوصف به، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ * ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨].

ولهذا كان الذين يتصوِّرون الوجود الإنساني ينتهي بالموت، يجهلون أو يجحدون أن هناك عدلاً إلهياً يقوم على إثابة المحسن وعقوبة المسيء، وهذه هي الحكمة من وجود الدار الآخرة، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

ولولا ذلك لكان من حقِّ الناس أن يسألوا: أين خالق هذا العالم ومدبر أمره؟ لماذا ترك الجبابرة والأشرار يفسدون في الأرض، ويقتلون ويظلمون، ولا ينالون جزاءهم؟ ولماذا ترك الأبرار والشهداء والمظلومين يعملون الخير، ولا يلقون إلا الشرَّ في حياتهم؟

تكامل حلقات الوجود الإنساني:

لقد كانت الآخرة هي المجال لتصفية الحساب، وعقوبة الذين أفلتوا في الدنيا من يد العدل في الأرض، ومثوبة الذين حُرِّموا في الدنيا من أيِّ جزاء على ما قدّموا من خير، ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ

بَعَثَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * [الجاثية: ٢١، ٢٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وبهذا تتكامل حلقات الوجود الإنساني، حلقة بعد حلقة: وجوده الجنيني قبل أن يُولد، ووجوده الدنيوي بعد أن يُولد إلى أن يموت، ووجوده البرزخي في القبر إلى أن يُبعث، ووجوده الآخروي بعد البعث ليحاسب، ويواجه مصيره إلى الجنة أو النار.

مراحل الوجود الإنساني:

وهذه المراحل حدّثنا عنها القرآن بالتفصيل في سورة «المؤمنون» حين قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٦].

ولخصت سورة عبس هذه المراحل والحلقات، فقالت: ﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ * ثُمَّ أَمَانَهُ * فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢].

أثر استحضر الآخرة:

فمن استحضر هذه المعاني المتعلقة بالآخرة، وجعلها نصب عينيه، وبصّر بها عقله، وذكّر بها نفسه، كان جديرًا أن يُبادر إلى الصالحات، وأن يكفّ عن السيئات، وأن يبذل الخير لعباد الله ما استطاع، كما حدّثنا

الله تعالى عن الأبرار بقوله: ﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ * وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا * ﴿[الإنسان: ٧ - ١٠]. هذا الخوف من هذا اليوم العبوس دفعهم إلى البذل والإحسان وإطعام الطعام - على حبه - لهؤلاء الضعفاء من الناس، من المسكين واليتيم والأسير.

ويصف الله رواد مساجده بقوله: ﴿رَجَالٌ لَا نُلْهِيمُمْ تِجْرَةً وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ * ﴿[النور: ٣٧].

ويخاطب الله رسوله، فيقول: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ * مَن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ، وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * ﴿[الأنعام: ١٥، ١٦].

رابعًا: معرفة قيمة الدنيا:

ومن أهم البواعث على الزهد: أن يعرف الإنسان قيمة الدنيا، هذه الدنيا التي يتهافت عليها الناس تهافت الذباب، ويتهاوشون من أجلها تهاوش الذئب، الدنيا التي في سبيلها يعقُّ الابن أباه، ويخاصم الأخ أخاه، ويعادي الصديق صديقه، ويبيع المرء أهله ووطنه، ويضحّي بعض الناس بدينه، ويتقاتل في سبيلها أهل البلد الواحد، والدين الواحد، والمصير الواحد. هذه الدنيا ما قيمتها الحقيقية؟ وهل تستحقُّ كلَّ هذا التطاحن والتعادي والصراع؟

الواقع أنَّ هذه الدنيا عند التأمل لا تستحقُّ أبدًا هذا كله، فهي أقلُّ شأنًا، وأهون قدرًا، وأوضع مقامًا، من أن يُسْفَكَ من أجلها قطرة دم واحدة، أو يضحّي من أجلها بشيء من الدين أو الوطن أو الأسرة أو الأمة.



صفات الدنيا الأساسية:

فهذه الدنيا عند تحليلها نجدها موصوفة بهذه الصفات الأساسية، كما وصفها خالقها:

الدنيا متاع قليل:

١ - فهي «متاع قليل» كما سمّاه الله، قال تعالى في ذمّ قوم: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، فيصفها الله بأنها «متاع»، وكلمة «متاع» نفسها تفيد خسّتها؛ لأن المتاع ما يُعدّ للمسافر، وإنّما يُعدّ للمسافر الشيء الهين اللائق بالسفر وضروراته. ثم هو نكرها حين قال: «متاع»، والتنكير يفيد التحقير، كأنه قال: متاع حقير. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ انْقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَنِيلاً﴾ [النساء: ٧٧]، وفي سورة أخرى قال: ﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقتلتها تتجلى بالنظر إلى أمور ثلاثة:

أولها: بالنسبة إلى الكون، فإذا كانت الدنيا هي الأرض وما عليها، فإنّ الأرض بالنسبة إلى الكون الكبير شيء ضئيل، فهي جزء صغير من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية جزء ضئيل من المجرة التي تعيش فيها، ومجرتنا واحدة من ملايين من المجرات الموجودة في الفضاء الكوني.

ثانيها: هي متاع قليل، بالنسبة لما يأخذه الإنسان منها، فهو - وإن ملك الملايين أو البلايين - لا يستطيع أن يأكل أكثر من ملء معدته،

ومعدته شبر في شبر أو أقل. فأغنى الأغنياء من الناس، وأفقر الفقراء في هذا سواء. وربما حُرِمَ الغني من كثير من الأطعمة، نتيجة لما يعانیه من أمراض، عوفي منها المساكين ومحدودو الدخل.

ثالثها: هي متاع قليل بالنسبة لمدّة بقاء الإنسان فيها، فما قيمة عمر الإنسان بالنسبة لعمر الأرض أو الكون؟ ونحن نرى الجيولوجيين والبيولوجيين وغيرهم يقدرونها بالملايين ومئات الملايين وآلاف الملايين؟! ثم هي عن قريب محكوم عليها بالفناء، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: ٧، ٨]. وهذا الفناء يمكن أن يحدث في أي وقت، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النحل: ٧٧]، وقال تعالى عن الساعة: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْنَةً ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

الدنيا متاع زائل:

٢ - وهي متاع زائل؛ لأنّ عمر الإنسان فيها محدود، ثم يدع كل شيء ويرحل، فإن لم تزل عنه الدنيا، فهو لا محالة زائل عنها. فإنّ الموت آت، طال عمر الإنسان أو قصر، وهو أمر مقدر على كل حي، شرب كأسه الأنبياء والصّديقون، كما شرّبه العصاة والفاسقون، قال تعالى لرسوله: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَمِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَّايُنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

وكذلك ورد حوضه الملوك والأباطرة والمستكبرون، كما ذاقه العوام والمحكومون. عندما حضرت الوفاة هارون الرشيد، أعظم ملوك الأرض

في زمنه، كان ينجي ربّه ويقول: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴾
[الحاقّة: ٢٨، ٢٩] (١)!

وكان ابنه الخليفة المأمون يقول عند اقتراب موته: يا مَنْ لا يزول ملكه، أرحم مَنْ زال ملكه (٢)!

وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَسٌّ مِنَ الْعُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال الشاعر:

وَإِذَا كَانَ آخِرَ الْعَمْرِ مَوْتًا فَسَوَاءٌ قَصِيرُهُ وَالطَّوِيلُ (٣)

ومهما يطّل عمر المرء في الدنيا، فعند الموت ينكمش العمر المديد، ويقصر الزمن الطويل، ويمسي وكأنّه لحظات قصار، ولذا يتمنى الإنسان عند احتضاره لو يمهل بعض الوقت، حتّى يستدرك بعض ما فاتته من العمل الصالح، وهيئات.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِمَّنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَقْتُ وَأَكُنُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

(١) ذكره عبد الحق الإشبيلي في العاقبة في ذكر الموت صـ ١٢٨، تحقيق خضر محمد خضر،

نشر مكتبة دار الأقصى، الكويت، ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٣٥١/٥).

(٣) هو الشاعر العراقي بهاء الدين الرواس.

وقد قيل: إِنَّ نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ حينما أتاه ملك الموت ليقبض رُوحه بعد أكثر من ألف سنة، فسأله: يا أطول الأنبياء عمراً، كيف وجدت الدنيا؟ قال: وجدتُها كدار لها بابان، دخلتُ من أحدهما، وخرجتُ من الآخر^(١)! ولأنها متاع زائل شُبِّهت بحلم النائم، وبالظلّ السريع الزوال، كما قال الشاعر:

أحلام نوم أو كظلّ زائل إن اللبيب بمثلها لا يُخدع^(٢)!

كما شَبَّهها القرآن بالزرع الأخضر الذي سرعان ما يزوي ويصبح هشيمًا تذرّوه الرياح، كما قال تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ، ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

الدنيا سريعة التقلب:

ج - ومن أوصاف الدنيا التي عرّفها بها الناس: سرعة التقلب من حال إلى حال، من يُسر إلى عسر، ومن غنى إلى فقر، ومن عزّ إلى ذلّ، ومن صحّة إلى سقم، ومن شباب إلى هَرَم، ومن نصر إلى هزيمة، ومن كثرة إلى قلّة، ومن حياة إلى موت، ومن عمران إلى خراب.

وكلُّ امرئٍ معرّض في كلِّ يومٍ إلى نعمة زائلة، أو بليّة نازلة، أو منية قاتلة، أو فقد حبيب، أو حرمان نصيب، أو جفاء قريب، أو علاج طبيب، أو هجوم مشيب، أو حدوث أمر غريب.

(١) رواه ابن عساكر في تاريخه (٢٧٥/٦٢)، عن سفيان بن عُيينة.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٣)، عن الحسن البصري.

ومن هنا قالوا: الزمان قُلِّبَ. وقالوا: الدهر يومان: يوم لك ويوم عليك. وقالوا: دوام الحال من المحال. وقال الله تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقال الشاعر:

وَعَوَارٍ مُسْتَرْدَّةٍ إِنَّمَا الدُّنْيَا هِبَات
ورخاء بعد شدة^(١) شدة بعد رخاء

وقال آخر:

دار الردى وقرارة الأكدار يا خاطب الدنيا الدنيّة إنها
أبكت غداً، تبّاً لها من دار^(٢)! دار إذا ما أضحكت في يومها

وقالت بنت النعمان بن المنذر، بعد زوال ملك أبيها، وباتت تسأل الناس ما يكفيها:

إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سَوْقَةٌ نَتَكَفَّفُ! فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرَ أَمْرُنَا
تقلّب ساعات بنا وتصرف فأفّ لدنيا لا يدوم نعيمها

ويقول شاعر آخر:

وَلَا تَبَيْتَنَّ إِلَّا خَالِي الْبَالِ دَعِ الْمَقَادِيرَ تَجْرِي فِي أَعْتَتِهَا
إِلَى السَّمَاءِ وَيَوْمًا تَخْفِضُ الْعَالِي^(٣) يَوْمًا تَرِيشُ خَسِيسَ الْحَالِ تَرْفَعُهُ

(١) من شعر أبي العتاهية، انظر: الفرّج بعد الشدة للتونخي (١٩/٥)، تحقيق عبود الشالجي، نشر دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٢) من شعر الحريري في المقامات ص ٢٢٣، نشر مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٧٣م.

(٣) البيتان للوائق بالله، انظر: الفرّج بعد الشدة للتونخي (٦٤/٥).

ويقول أبو البقاء الرندي في قصيدته الشهيرة في رثائه لآخر مدينة سقطت في الأندلس:

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نَقْصَانُ
هِيَ الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدْتُهَا دُولُ
أَيْنَ الْمُلُوكِ ذُووِ التَّيْجَانِ مِنْ يَمَنِ
وَأَيْنَ مَا حَازَهُ قَارُونَ مِنْ ذَهَبِ
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمْرٌ لَا مَرَدَّ لَهُ
حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا^(١)!

فَلَا يُغَرُّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانٌ
مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَرْزَانُ!
وَأَيْنَ عَادَ وَشَدَّادٌ وَقِحْطَانُ؟
وَأَيْنَ مَا سَاسَهُ فِي الْفَرَسِ سَاسَانُ؟
حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا^(١)!

حذر الزاهدين من غرور الدنيا:

من أجل هذا، حرص العقلاء على الحذر من غرور الدنيا، وأن يتخذوها مزرعة الآخرة، ولا يعيشوا فيها كأنهم مخلدون.

قال يحيى بن معاذ الرازي: العقلاء ثلاثة: من ترك الدنيا قبل أن تتركه، وبني قبره قبل أن يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه^(٢).

وقال بكر بن عبد الله: من أراد أن يستغني عن الدنيا بالدنيا، كان كمطفئ النار بالتبن^(٣)!

وقال يزيد بن ميسرة: كان أصحابنا يسمون الدنيا خنزيرة، فيقولون: إليك عني يا خنزيرة! فلو وجدوا لها اسمًا أقبح من هذا لسموها به^(٤).

(١) انظر: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٤/٤٨٧)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٧م.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء (٦٨/١٠).

(٣) رواه الدينوري في المجالسة (٥٤٨).

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٣٤٧).



وقال الحسن البصري: أدركتُ أقوامًا، وصحبتُ طوائف، ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت في أعينهم أهون من التراب! فإذا كان الليل فقيام على أقدامهم، يفترشون وجوههم، تجري دموعهم على خدودهم، ينجون ربهم في فكاك رقابهم. وكانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم، وسألوا الله أن يغفرها لهم، فلم يزالوا على ذلك، ووالله ما سلموا من الذنوب، ولا نجوا إلا بالمغفرة^(١).

الدنيا دار عناء ومتاعب:

د - وهي مع ذلك، دار عناء ومتاعب. قال أحدهم لسيدنا علي رضي الله عنه: صِف لنا الدنيا. فقال: وماذا أصف لك من دار أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء^(٢)!

أولها بكاء:

يريد بقوله: أولها بكاء: أنَّ الطفل أول ما ينزل من بطن أمه يبكي. وقد عبّر عن ذلك أحد الشعراء فقال:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأفسح مما كان فيه وأرغد^(٣)!

أوسطها عناء:

وأما أنَّ «أوسطها عناء»؛ فلأنَّها مبنية على الابتلاء الذي قام عليه أمر

(١) رواه أحمد في الزهد (١٦٤٣).

(٢) رواه القالي في الأمالي في لغة العرب (١٢٠/٢)، نشر دار الكتب المصرية، ط ٢، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦م.

(٣) من شعر ابن الرومي، انظر: الإعجاز والإيجاز ص ٢٢٠، نشر مكتبة القرآن، القاهرة.

الإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، أي: في مكابدة للمشقات طوال حياته منذ وُلد، وإلى أن يموت.

فهو يكابد منذ طفولته الآلام والأوجاع، وبعد ذلك يكابد طلب الرزق، ومزاحمة الخلق، ومتاعب التعلم، ومقاساته من أهل الدنيا ومكايدهم وعداواتهم، حتى قال أحد الصالحين: زهدني في الدنيا: قلة غنائها، وكثرة عنائها، وسرعة فنائها، وخسّة شركائها! وكان الثوري يقول: الدنيا دار التواء، لا دار استواء، ودار ترح، لا دار فرح، من عرفها لم يفرح برجاء، ولم يحزن على شقاء^(١).

ولهذا شبّهها الحكماء والأدباء بجيفة الميتة التي يتنافس على لحمها الكلاب.

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]: قال علماؤنا: أول ما يكابد قطع سرّته، ثم إذا قمت قماطاً، وشد رباطاً، يكابد الضيق والتعب، ثم يكابد الارتضاع، ولو فاته لضاع، ثم يكابد نبت أسنانه، وتحرك لسانه، ثم يكابد الفطام، الذي هو أشد من اللطام، ثم يكابد الختان، والأوجاع والأحزان، ثم يكابد المعلم وصولته، والمؤدب وسياسته، والأستاذ وهيبته، ثم يكابد شغل التزويج والتعجيل فيه، ثم يكابد شغل الأولاد، والخدم والأجناد، ثم يكابد شغل الدور، وبناء القصور، ثم الكبر والهَرَم، وضعف الركبة والقدم، في مصائب يكثر تعدادها، ونوائب يطول إيرادها، من صداع الرأس، ووجع الأضراس، ورمد العين، وغم الدّين، ووجع السن، وألم الأذن.

(١) قوت القلوب لأبي طالب المكي (٤٤٢/١).

ويكابد محنًا في المال والنفس، مثل الضرب والحبس، ولا يمضي عليه يوم إلا يقاسي فيه شدة، ولا يكابد إلا مشقة، ثم الموت بعد ذلك كله، ثم مسألة المَلَك، وضغطة القبر وظلمته، ثم البعث والعرض على الله، إلى أن يستقر به القرار، إما في الجنة وإما في النار، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فلو كان الأمر إليه لما اختار هذه الشدائد.

ودلّ هذا على أن له خالقًا دبره، وقضى عليه بهذه الأحوال، فليمتثل أمره^(١). انتهى

لذات الدنيا ممزوجة بالآلام:

ومن خصائص الدنيا: أن لذاتها ممزوجة بالآلام، وخيراتها مخلوطة بالشرور، وعافيتها محفوفة بالبلاء من كلِّ جانب، لا تدوم على حال، ولهذا وصفوها بالغدر. يقول الشاعر:

هي الدنيا تقول بملء فيها: حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
فلا يغرركمو مني ابتسام فقولي مُضحك والفعل مبكي^(٢)

ولكثرة متاع الدنيا وآلامها، يقول العامة عنها: الدنيا أشغال شاقّة، ونهايتها الإعدام!

وقال أبو حازم: ما في الدنيا شيء يسرُّك، إلا وقد ألصق الله إليه شيئًا يسوءك^(٣)!

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٦٣/٢٠)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٢) من شعر أبي الفرج الكاتب، انظر: أحسن ما سمعت للثعالبي ص ٥٢، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (٢٣٩/٣).

وقال الحسن: لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث: أنه لم يشبع مما جمع، وأنه لم يدرك ما أمّل، وأنه لم يحسن الزاد لما يقدّم عليه^(١).

بل تجد متاع الدنيا تلاحق الإنسان حتّى بعد موته. قيل لابن عمر: إن زيد بن جارية مات وترك مائة ألف، فقال: لكنها لا تتركه^(٢)! يعني أنه سيحاسب عليها.

نسبة الدنيا إلى الآخرة:

ومن المهم هنا لكي نعرف الدنيا على حقيقتها، ولا يخدعنا سراها، ويغرّنا ظاهر نضرتها: أن نقيسها إلى ضرّتها الآخرة، فبضدها تتميز الأشياء. فكم تكون نسبة الدنيا إذا قارناها بالآخرة؟

القرآن يقول: ﴿فَمَا مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

متاع الدنيا قليل بالنسبة للزمان:

هي قليل بالنسبة إلى الزمان؛ إذ لا قيمة لمُدّة الدنيا مهما طالت بالنسبة إلى الخلود، أو قل: إلى الأبد.

ولهذا قال ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه في اليمِّ، فلينظر بم يرجع؟»^(٣). إذا أدخل الإنسان أصبعه في البحر أو في

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الدنيا (٢٧٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢٧٢/٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٧٩١)، وابن الأعرابي في الزهد (١١٨)، والطبراني (٢٢٤/٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٣٥٣): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، وعند ابن أبي شيبة وابن الأعرابي والهيثمي: زيد بن حارثة. وهو تصحيف، والصواب زيد بن جارية كما في المعجم الكبير والإصابة (٥٩٥/٢).

(٣) سبق تخريجه ص ٩٣.

المحيط ثم أخرجه، فما قيمة ما علق بأصبعه من ماء بالنسبة لما في البحر أو المحيط؟!

وروى أبو سعيد ابن الأعرابي في كتابه «الزهد» بسنده، عن عمر أنه قال: والله لكأن الدنيا في الآخرة كنفجة أرنب^(١)! أي: كوئبته من مجثمه. يريد تقليل مدتها. وكأن المعنى: ما مقدار الدنيا بالنسبة إلى الآخرة من ناحية الزمن إلا كالزمن القليل الذي يأخذه الأرنب حين ينتفض من مكان لآخر!

متاع الدنيا قليل بالنسبة للمكان والمساحة:

هذا بالنسبة إلى الزمان. أمّا بالنسبة إلى المكان والمساحة، فقد قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢١]، ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فإذا كان هذا هو عرضها، فكيف يكون طولها؟

وقد ورد أن آخر من يدخل الجنة يُعطى مثل أعظم ملوك الدنيا عدّة مرات، فما بالك من يدخلها من السابقين المقربين؟ ففي الحديث: «سأل موسى ربه فقال: يا رب، ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجلٌ يجيء بعدما يدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة. فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: ألا ترضى أن يكون لك مثل ملكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيتُ ربّ. فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله. فقال في الخامسة: رضيتُ ربّ. فيقول: هذا

(١) رواه ابن أبي شيبة في الزهد (٣٥٦٦)، وابن الأعرابي في الزهد (١١٩).

لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهدت نفسك، ولذت عينك. فيقول: رضيتُ ربَّ. قال: ربُّ فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردتُ، غرستُ كرامتهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم ترَ عينٌ، ولم تسمعُ أُذنٌ، ولم يخُطر على قلب بشرٍ»^(١).

ولو قارننا نعيم الدنيا بنعيم الجنَّة، لرأينا الدنيا وكأنَّها لا شيء، وقد قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]، وفي الحديث الصحيح الذي يرويه الرسول ﷺ عن ربِّه ﷻ: «قال تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحين في الجنَّة ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ، اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»^(٢).

وإذا كانت هذه نسبة الدنيا إلى الآخرة، فأَي الدارين نُؤثر، وأيُّهما نرجِّح؟ وقد قال سيدنا عليّ رضي الله عنه: مثل الدنيا والآخرة كمثل الضَّرتين، إذا أرضيت إحداهما أسخَّطت الأخرى، وكمثل المشرق والمغرب، إذا اقتربت من أحدهما ابتعدت عن الآخر، وككفتي الميزان، إذا رجحت إحداهما خفَّت الأخرى^(٣).

لا شكَّ أنَّ الآخرة عند التعارض أولى بالإيثار والترجيح.

- (١) رواه مسلم في الإيمان (١٨٩)، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٩٨)، عن المغيرة بن شعبة.
 (٢) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (٣٢٤٤)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٤)، عن أبي هريرة.
 (٣) إحياء علوم الدين (٦٠/١).

الفصل التاسع

ليس من متطلّبات الزهد

يجب علينا هنا: أن نكشف عن أمور يعدها بعض النَّاس - أو بعض المتصوّفة - من أساسيات الزُّهد، ولكنها في ميزان الإسلام ليست من حقيقة الزُّهد الذي يحبه الله، ولا من ضروراته. وسنذكر هنا جملة أشياء مما يُتصوّر أنها تنافي الزُّهد، وهي لا تنافيه، مثل الزواج وحب النساء والبنين، والعزلة عن المجتمع، والعمل للكسب، وامتلاك المال، والاستمتاع بزينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق. وسنخصّ كلًّا منها بحديث مختصر.

أولاً: ليس من الزُّهد الإعراض عن الزواج:

وليس مما ينافي الزُّهد في الدنيا: أن يتزوَّج المسلم، بل هو من الاستمتاع بطيبات الحياة الدُّنيا، التي أباحها الله لعباده، ومن أهمّها «الزواج»، الذي امتنَّ الله به في كتابه، وجعله آية من آياته، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

وفي سورة النحل - وهي التي تسمّى سورة النِّعم - ذكره الله تعالى في معرض الامتنان على عباده، فقال: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢].

وخاطب رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

وقال عن الزوجات: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ثم قال: ﴿فَالَّذِينَ بَشَرُوهُنَّ وَابْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وكان للرسول الكريم ﷺ تسع نساء تُؤفِّي عنهنَّ، ونزلت فيهنَّ آيات من كتاب الله.

وحتَّ القرآن على الزواج، فقال: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [النساء: ٣].

كما حثَّ المجتمع على التزويج فقال: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢].

ولم يعتبر الغريزة الجنسية رجسًا ولا نزغة من الشيطان، بل ربما كان إشباعها بالحلال عبادة إذا صحَّت النية، وأباح الاستمتاع بالنساء إلا في حالة الحيض: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

﴿نِسَائِكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

بل شرع الإفضاء إلى النساء ولو في ليالي الصيام، كما قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، بما توحى به كلمة «اللباس» من اللصوق والستر والزينة والدفع.

وقال عليه السلام: «حُبَّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»^(١).

وقال عليه السلام: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغْضُّ لِلْبَصْرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وَجَاءٌ»^(٢).

وقال: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(٣).

وقال: «تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ: لِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِمَالِهَا، وَلِدِينِهَا. فَاظْفُرْ بِنَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ»^(٤).

وقال: «أَرْبَعٌ مِنَ السَّعَادَةِ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ، وَالجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ»^(٥).

وَلَمَّا سَأَلَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ الرَّسُولَ عليه السلام أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ فِي التَّبْتُلِ (أَيِ التَّرْهَبِ) أَوْ الْخِصَاءِ، أَبِي عَلَيْهِمْ ذَلِكَ^(٦).

وَذَهَبَ ثَلَاثَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ عليه السلام زَوْجَاتِهِ، فَكَأَنَّهُمْ تَقَالُوهَا، قَالُوا: أَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ عليه السلام قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟! قَالَ أَحَدُهُمَا: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصْلِي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ الْآخَرُ:

(١) سبق تخريجه ص ١٣١.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠)، كلاهما في النكاح، عن ابن مسعود.

(٣) سبق تخريجه ص ١٣١.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥٠٩٠)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٦)، عن أبي هريرة.

(٥) رواه ابن حبان في النكاح (٤٠٣٢)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٧٦)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٦) عن سعد بن أبي وقاص: رد رسول الله على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا.

متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢)، كلاهما في النكاح.

إِنِّي أَصُومُ الدَّهْرَ أَبَدًا وَلَا أَفْطِرُ. وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا اعْتَزَلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوِّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لِأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأَصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»^(١). رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي مَرِيَمٍ، وَأَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ثَابِتٍ عَنِ أَنَسٍ.

وَجَاءَتْ أَحَادِيثُ نَبَوِيَّةٌ صَحِيحَةٌ تَنْصَحُ الْأَزْوَاجَ أَنْ يَحْسِنُوا الِاسْتِمْتَاعَ بِمَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ، وَلَا يَكُونَ كُلُّ هَمِّ الرَّجُلِ أَنْ يَقْضِيَ شَهْوَتَهُ، وَيُرِيحَ نَفْسَهُ، دُونَ نَظَرٍ إِلَى شَرِيكَتِهِ، وَأَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَبْذُلَ جَهْدًا فِي الِاسْتِمْتَاعِ بِأَهْلِهِ، وَفِي إِمْتَاعِهِمْ أَيْضًا، وَلِذَا قَالَ ﷺ: «إِذَا غَشِيَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ فَلْيَصُدَّقْهَا، فَإِنْ قَضَى حَاجَتَهُ وَلَمْ تَقْضِ حَاجَتَهَا فَلَا يُعْجَلْهَا»^(٢).

وبهذا علم أن لا رهبانية في الإسلام.

ولهذا لا تجد في الصحابة من أعرض عن الزواج وترهب، وانقطع للعبادة، بل نجد كثيرًا منهم تزوج أكثر من واحدة، مثل عمر بن الخطاب، ومثل علي بن أبي طالب، الذي كان عنده أربع نسوة، غير الجواري، وكان الحسن بن علي سبط رسول الله ﷺ أكثر الناس محبة للنساء، وكان يتزوج ويطلق. وخصوصًا أن المجتمع كان مجتمع جهاد وقاتل في سبيل الله، وكان كثير الشهداء في سبيل الله، وهؤلاء الشهداء تركوا أرامل من بعدهم، تزوجها رفقائهم وإخوانهم من الصحابة، ليرعوهن ويرعوا أولادهم، ليكون لهم أجر كافل اليتيم.

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس بن مالك.

(٢) رواه عبد الرزاق في النكاح (١٠٤٦٨)، وأبو يعلى (٤٢٠١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد

(٧٥٦٦): رواه أبو يعلى، وفيه راوٍ لم يسم، وبقية رجاله ثقات. عن أنس.

خطر الانشغال بالزوجة والأولاد عن حق الله تعالى:

فليس الخطر في الزواج، بل الخطر في الانشغال بالمرأة والأولاد عن حق الله تعالى وطاعته، وعند ذلك يكونون أعداء للمؤمن إذا شغلوه عن ربّه، كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

تخيير النبي ﷺ نساءه:

وكان للرسول الكريم هدي في معاملة النساء، أشار إليه القرآن حين اجتمع نساؤه وطالبه بالمزيد من النفقة، وقد أصبح سيد الجزيرة، فلماذا هذه الحياة المتقشفة يحييها؟ فهجرهن ﷺ، حتى نزلت آيات «التخيير» في سورة الأحزاب: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسْرِحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْءَدَارَ الْءَاخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ ءَعَدَّ لِمُحْسِنَتِي مِّنْكَنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩].

وحين قرأ الرسول ﷺ عليهن الآيات بدءًا بعائشة؛ اخترن جميعًا الله ورسوله والدار الآخرة^(١).

هديه ﷺ في بيته ومع نساءه:

وذكر ابن القيم في «زاد المعاد» هديه ﷺ، في بيته ومع نساءه، فقال: «وكانت سيرته مع أزواجه حسن المعاشرة، وحسن الخلق.

(١) حديث طويل متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٩١)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٩).

وكان يسرّب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها^(١). وكان إذا هويت شيئاً لا محذور فيه تابعها عليه، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه، فوضع فمه في موضع فمها وشرب، وكان إذا تعرّقت عرقاً - وهو العظم الذي عليه لحم - أخذه فوضع فمه موضع فمها، وكان يتكئ في حجرها ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها، وربما كانت حائضاً، وكان يأمرها، وهي حائض فتتزر ثم يباشرها، وكان يقبلها وهو صائم، وكان من لطفه وحسن خلقه مع أهله أنه يمكنها من اللعب، ويريهما الحبشة وهم يلعبون في مسجده، وهي متكئة على منكبيه تنظر، وسابقها في السفر على الأقدام مرّتين، وتدافعا في خروجهما من المنزل مرّة.

(ولقد روت لنا كيف كان النبي ﷺ يراعي صغر سنّها، وحرصها على اللهو. وقد استمع إليها وهي تحكي مواقف إحدى عشرة امرأة من أزواجهن، وكل امرأة منها لها موقف، ولها حديث عن زوجها، وهو ما يعرف بحديث أم زرع).

وكان إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، ولم يقض للبواقي شيئاً، وإلى هذا ذهب الجمهور.

وكان يقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»^(٢).

(١) عن عائشة قالت: كنتُ أَلعبُ بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمّعن منه، فيسرّبهن إليّ فيلعبن معي. رواه البخاري في الأدب (٦١٣٠).

(٢) رواه الترمذي في المناقب (٣٨٩٥)، وقال: حسن صحيح. والدارمي (٢٣٠٦)، وابن جبان (٤١٧٧)، كلاهما في النكاح، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح. وصحّحه الألباني في الصحيحة (٢٨٥)، عن عائشة.

وربما مدَّ يده إلى بعض نساءه في حضرة باقيهن، وكان إذا صَلَّى العصر دار على نساءه، فدنا منهن واستقرأ أحوالهن، فإذا جاء الليل انقلب إلى بيت صاحبة النوبة، فخصَّها بالليل. وقالت عائشة: كان لا يُفْضَلُ بعضنا على بعض في مكثه عندهن في القَسَم، وقلَّ يوم إلا كان يطوف علينا جميعًا، فيدنو من كلِّ امرأة من غير مسيس، حتَّى يبلغ التي هو في نوبتها فيبيت عندها^(١)»^(٢).

موقف المسلم الزاهد من المرأة:

يُتَمِّم الأمر موقف الإسلام من المرأة، وبالتالي موقف المسلم «الزاهد» من المرأة، ولا نتحدَّث هنا عن مكانة المرأة في الشريعة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وحقوقها الأدبية والاجتماعية والسياسية، وكيف رفع الإسلام شأنها، وجعل لها مثل ما للرجل بالمعروف؟

وإنما نتحدَّث عنها باعتبارها نعمة من نعم هذه الدُّنيا، وطِيبَة من طِيبَات هذه الحياة، ماذا كان موقف الإسلام منها؟

قد يثب إلى الذهن لأول وهلة هذه الأحاديث التي نسمعها من ألسن الوعاظ والخطباء، ونطالعها في كتب المرشدين والمتصوِّفين، مثل: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرِّجالِ من النِّساء»^(٣)، «اتَّقوا النِّساء، فإنَّ أوَّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانت في النِّساء»^(٤).

(١) رواه أحمد (٢٤٧٦٥)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وأبو داود في النكاح (٢١٣٥)، وقال الألباني في صحيح أبي داود (١٨٥٢): حسن صحيح. والحاكم في الطهارة (١٨٦/٢)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي.

(٢) زاد المعاد لابن القيم (١/١٤٦، ١٤٧)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢٧، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٣) سبق تخريجه ص ٨٨.

(٤) سبق تخريجه ص ٨٦.

ولكن مهلاً، فقد شاءت حكمة الله أن يكون دينه العظيم - خاتم الأديان - وسطاً في كل شيء، وأن يكون المؤمنون به أمة وسطاً.

فتنة شعوب ومذاهب بجسد المرأة:

فهناك شعوب وأمم وفلسفات ومذاهب فُتنت بالمرأة، وشُغفت بجسدها، وجعلت أدبها وفنّها، ونثرها وشعرها، وصحافتها ومسرحها وخيّالتها (سينماها) تدور حول محور واحد، هو جسد المرأة، وخصرها النحيل، وقُدّها الأسيل، وطرفها الكحيل، وشعرها الناعم، ونهدّها البارز، وغير ذلك من تفاصيل جسدها، وفي ذلك ما فيه من فتنة وإغراء، ينبىء عن فساد وانحطاط وضياع.

لقد قام مزدك في فارس في أوائل القرن السادس الميلادي، فدعا إلى إباحة النساء والأموال، وكان من جرّاء ذلك ما كان من انتشار الفساد، وانحطاط البلاد، واختلاط الأنساب. ولم يلبثوا إلا قليلاً حتّى صاروا لا يعرف الرجل ولده، ولا المولود أباه.

وها هي المدنية الغربية قد جعلت المرأة معبوداً جديداً، فانحلّ عقْد الأسرة، واضطرب نظام المجتمع، وتوترت الأعصاب، وكثر الفساد، وأصبح خلف كلّ حادثة وكارثة امرأة مكشوفة أو وراء الستار، حتّى قالوا: «فتش عن المرأة».

موقف رهبان المسيحية من المرأة:

وعلى نقيض هؤلاء كان رهبان المسيحية وعُبادها في القرون الوسطى، كانوا يفرّون من ظلّ النساء، ويتأثّمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق، والتحدّث إليهن - ولو

كُنَّ أمهات أو شقيقات - يحبط أعمالهم الصالحة، وجهودهم الروحية، وقد روى «ليكى» في كتابه «تاريخ أخلاق أوروبا» من هذه المبكيات المضحكات شيئاً كثيراً.

وسطية الإسلام في موقفه من المرأة:

أما الإسلام فقرر أنّ المرأة آية من آيات الله، جعلها الله للرجل أنس نفسه، وسكن قلبه، تُشيع في جوّه المودّة، وتنشر الرحمة: ﴿ وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

الترغيب في الزواج:

حظر على المسلم قصد العزوبة، والتعبّد بها؛ إذ لا رهبانية في الإسلام. ورغب في الحياة الزوجية، لما فيها من تكثير النسل، وكسر شرّة الشهوة، وإحصان النفس بالمتعّة الحلال، وعمارة الكون، وتدبير المنزل، وتوسيع دائرة العشيرة. والآيات والأحاديث في ذلك شتى.

المرأة من نعم الله الكبرى:

وأعلن الرسول ﷺ: أنّ المرأة من نعم الله الكبرى على عبده: «أربعٌ مَنْ أُعْطِيَهُنَّ فَقَدْ أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: قلبٌ شاكر، ولسانٌ ذاكِر، وبدنٌ على البلاء صابر، وزوجةٌ لا تبغيه خوفاً في نفسها ولا ماله»^(١).

(١) رواه الطبراني (١٣٤/١١)، والأوسط (٧٢١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤١١٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٤٣٧): رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجال الأوسط رجال الصحيح. عن ابن عباس.

وقال: «الدُّنيا متاعٌ، وخَيْرُ متاعها الزوجةُ الصالحة»^(١)، «ما استفاد المؤمنُ بعدَ تقوى الله خيراً له من زوجةٍ صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسمَ عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحتَه في نفسها وماله»^(٢).

العناية بجانب الجمال في المرأة:

ولم يهمل الجمال إهمالاً كاملاً، بل جعل له نصيباً غير مجهول في ترجيح شريكة الحياة: «تُنكحُ المرأةُ لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها. فاظفر بذاتِ الدينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ»^(٣)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل النبي ﷺ: أيُّ النساءِ خيرٌ؟ فقال: «خيرُ النساءِ مَنْ تسرُّ إذا نظر، وتطيعُ إذا أمر، ولا تخالفُه في نفسها وماله»^(٤).

سيرة النبي ﷺ مع زوجاته:

وكانت سيرة النبي ﷺ في ذلك قدوة حسنة فقد قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ»^(٥).

وكان يمزح معهنَّ، ويُطَيِّبُ نفوسهنَّ، ويستمتع إليهنَّ، ويصغي إلى قصصهنَّ وأحاديثهنَّ وإن طالت، كما في حديث أم زرع^(٦).

(١) سبق تخريجه ص ١٣١.

(٢) رواه ابن ماجه في النكاح (١٨٥٧)، والطبراني (٢٢٢/٨)، وضعف سنده العجلوني في كشف الخفاء (١٨١/٢)، وقال: له شواهد تدل على أن له أصلاً. عن أبي أمامة.

(٣) سبق تخريجه ص ٢١٧.

(٤) رواه أحمد (٧٤٢١)، وقال مخرجه: إسناده قوي. والنسائي (٣٢٣١)، والحاكم (١٦١/٢)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما في النكاح، عن أبي هريرة.

(٥) سبق تخريجه ص ١٣١.

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في النكاح (٥١٨٩)، ومسلم في الفضائل (٢٤٤٨)، عن عائشة.



ويسابق عائشة، فسبقته مرّة، ثم سبقها مرّة فقال: «هذه بتلك»^(١).
 لقد بالغ الإسلام في الوصية بالمرأة وحسن برّها أمّا، وحسن تربيتها
 بنتًا، وحسن رعايتها زوجة.

المحذور من جهة المرأة:

أمّا المحذور في الإسلام فهو أمران:

الاستمتاع الحرام بالمرأة:

الأول: أن يدع الرجل أبواب الحلال الطيب، ويلج أبواب الحرام
 الخبيث، ويبحث عن خدينة تخادنه، فهذا ما حذر الله منه، ونهى عباده
 عنه، ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

أجل! حرّم الله الزنى، لا تضييقًا على الرجل والمرأة، ولا كراهية
 للتمتع بالطيبات، ولكن لما فيه من أضرار جسيمة على الفرد والأسرة
 والمجتمع، من فقدان الغيرة، واختلاط الأنساب، وتفكك الروابط،
 وانهيار الأخلاق.

وَإِذَا أُصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلاً^(٢)

وقد رسم رسول الله ﷺ الخطة لكلّ شابّ تائق إلى النساء بقوله:
 «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوّج، فإنّه أغضّ للبصر،
 وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنّه له وجاء»^(٣).

(١) رواه أحمد (٢٤١١٨)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في
 الجهاد (٢٥٧٨)، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٩)، وابن حبان في السير (٤٦٩١)، وصحّحه
 الألباني في الصحيحة (١٣١)، عن عائشة.

(٢) من شعر أحمد شوقي، كما في ديوانه (١٨٣/١)، نشر دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

(٣) سبق تخريجه ص ٢١٧.

ولكيلا تصعب الحياة على الشاب العزب، الذي لا يجد القدرة على الزواج، أمر أن تُغلق الأبواب التي تهبُّ منها رياح الفتنة الجنسية، فحرّم تبرُّج الجاهلية، والخلوة الشيطانية، والغزل المكشوف، والغناء الماجن، وزِي الكاسيات العاريات، وكلّ ما يهيِّج الغريزة، ويحرِّك الشهوة البهيمية.

تيسير سبل الزواج والاستمتاع الحلال:

ومن الناحية الإيجابية: أزال العوائق، ويسّر السبل للزواج المشروع، والاستمتاع الحلال، فلا ينبغي أن تقف العقبات المادية أو الاجتماعية في سبيل الزواج: «خَيْرُ الصَّدَاقِ أَيْسَرُهُ»^(١)، «إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ»^(٢).

كلُّ ذلك رحمة من الله بالإنسان، كي يستمتع بما أحلَّ الله له، ويتعد عما حرّم الله، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿ [النساء: ٢٦ - ٢٨].

الانشغال بالمرأة عن واجب الدين والأمة:

الأمر الثاني: الذي يحذّر منه الإسلام أن تصبح المرأة - ولو كانت حلالاً طيباً - شغل الرجل الشاغل، ومعبوده المقدّس، في سبيل القرب

(١) رواه الحاكم في النكاح (١٨١/٢)، وصحّحه على شرط الشيخان، ووافقه الذهبي، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٧٩)، عن عقبة بن عامر.

(٢) رواه الترمذي (١٠٨٤) موصولاً ومرسلاً. وإنما يعني بقوله: مرسلاً انقطاع ما بين ابن عجلان وأبي هريرة، وقد رجّح البخاري المنقطع على المتصل. وابن ماجه (١٩٦٧)، كلاهما في النكاح، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٠٢٢)، عن أبي هريرة.

منها والأنس بها يضحّي بحق الجماعة، ويصمُّ سمعه عن نداء الأمة، ويُشغل بها عن واجب دينه وربّه، وتصبح أحبّ إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وفي مثل هذه الحال يقول القرآن: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]. وأي عدو أدهى وأضر ممّن يلهيك عن عبادة الله، وعن إعلاء كلمة الله؟! المؤمن الحقّ هو الذي يحبُّ المرأة ويأنس بها، فإذا جدّ الجدُّ، ودقّت ساعة الخطر، ودعا داعي الجهاد، طلق الفراش الوثير، وفارق الوجه الجميل، وركض إلى الله، ورضي الله عن أبي خيثمة حين خرج وترك زوجته في غزوة تبوك^(١).

في مثل هاتين الحالتين: الاستمتاع الحرام بالمرأة، والانشغال بها عن واجب الدين والأمة، يورد الإسلام نذره الصارخة، وتحذيراته الصارمة من فتنة النساء.

بل إنّ الاستمتاع بمباشرة الزوجة يجعله الإسلام عبادة إذا صحبتها النية الصالحة، التي تنقل المباحات دائماً إلى طاعات وقربات، وكان يقصد كلُّ منهما إحصان الآخر وإعفافه عن الحرام، استجابة لأمر الله في التمتّع بما أحلّ لهم، فضلاً عن طلب الولد وابتغاء النسل.

وقال عليه السلام، وهو يعلم أصحابه: «وفي بضع أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر؟! قال: «أرأيتم لو وضعها في الحرام، أكان عليه وزر؟». قالوا: نعم. قال: «فكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له أجر»^(٢).

(١) رواه أبو نعيم في معرفة الصحابة (٣١٤٩).

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠٠٦)، وأحمد (٢١٤٧٣)، عن أبي ذر.

وقد جعل النبي ﷺ مداعبة الرجل أهله ومطايبة امرأته طاعة تقتضي الأجر والمثوبة، قال لسعد: «إِنَّكَ لَتَوْجِرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى اللَّقْمَةَ تَضَعُهَا فِي فَمِ امْرَأَتِكَ»^(١)، وهل يضع الزوج اللقمة في في زوجته إلا من باب المداعبة والمطايبة والمزاح^(٢)؟

إِنَّمَا ذَمَّ الْقُرْآنُ مَنْ يَجْعَلُ التَّمَتُّعَ هِمَّةً وَمَبْتَغَاهُ، فَيَتَحَوَّلُ مِنْ إِنْسَانٍ ذِي عَقْلٍ وَرُوحٍ إِلَى بَهِيمَةٍ ذَاتِ غَرِيزَةٍ وَشَهْوَةٍ فَحَسْبُ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٢٩٥)، ومسلم في الوصية (١٦٢٨)، عن سعد بن أبي وقاص.

(٢) وللقاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المالكي المتوفى بالقاهرة سنة ٣٩١هـ، أبيات يتغزل فيها بزوجه، وهو الفقيه الزاهد، يصف فيها ما فعل حين دخل على زوجته، فرآها تغط في نوم عميق:

| | |
|-------------------------------|----------------------------------|
| ونائمة قبلتها فتنبهت | وقالت: تعالوا واطلبوا اللص بالحد |
| فقلت لها: إني - فديتك - غاصب | وما حكموا في غاصب بسوى الرد |
| خذيها وكفي عن أئيم ظلامه | وإن أنت لم ترضي فألفا على العد |
| فقلت: قصاصٌ يشهد العقل أنه | على كبد الجاني ألد من الشهد |
| فباتت يميني، وهي هميان خصرها! | وباتت يساري وهي واسطة العقد |
| فقلت: ألم تخبر بأنك زاهد؟ | فقلت: بلى ما زلت أزهدي في الزهد |

أبيات فيها ود بين الزوجين المحبين، يمازح الرجل زوجته ويتقرب إليها، فتجيبه بالأسلوب المرح نفسه. ولا ينسى الشاعر الفقيه في غمرة الوصال أن يفرق بين عقوبة اللص وعقوبة الغاصب. فاللص يُحد، والغاصب يرد ما اغتصبه، وهو الآن غاصب، لا يرى حرجاً أن يرد ما أخذ من زوجته وهي غافلة! أضعاف حقها، وهما الراحان في غضب الحق وإعادته.

وما أحلى تصوير الموقف الذي جمع الحببين بعد هذا الحكم العدل، الذي أَرْضَى الطرفين! وقرأ البيت الأخير تجد الحوار القصير بينهما، سؤال وجواب.. أما السؤال فتعجج (دلح) وتدل وتجب، وأما الجواب فتقرب وتزلف.. إنه الحب الرضي، والألفة الزوجية الرحيمة الرائعة، التي لا تتنافى مع الزهد. انظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي (٣/٣٣)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

وذمّ الذين يُسقطون الآخرة من حسابهم، فلا يدعون شيئاً من طيبات الدنيا - مهما كان سُحْتًا أو حَرَامًا - إلا استمتعوا به، وهؤلاء هم الذين يُقال لهم يوم القيامة: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِذَا كُنْتُمْ فَسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

ثانيًا: ليس من الزهد العزلة عن المجتمع:

وليس من ضرورة الزهد: العزلة عن المجتمع، والبعد عن المشاركة في أنشطته الفكرية والثقافية، والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، إذ لا رهبانية في الإسلام، والأسوة للناس هنا هم أنبياء الله ورسوله، الذين حملوا رسالة الهداية إلى البشر، فدعواهم إلى الله، فأمن بهم من آمن، وكفر بهم من كفر، ولم يزالوا على دعوتهم حتى نصرهم الله، وأخذ أعداءهم أخذًا أليمًا شديدًا.

عن أبي هريرة رضي عنه قال: مرّ رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بشعب في عُيَيْنة من ماء عذبة، فأعجبه لطيبها، فقال: لو اعتزلتُ النَّاسَ فأقمتُ في هذا الشَّعب، ولن أفعل حتى استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا، ألا تحبُّون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنَّة؟ اغزُّوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فُواقَ ناقةٍ وجبت له الجنَّة»^(١).

(١) رواه أحمد (١٠٧٨٦)، وقال مخرّجوه: إسناده حسن. والترمذي (١٦٥٠)، وحسنه، والحاكم (٦٨/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، كلاهما في الجهاد.

مشاركة عبد الله بن المبارك في أنشطة الحياة المتنوعة:

لذا رأينا من الأئمة الزهاد من يشارك في أنشطة الحياة المتنوعة، يروي الحديث ويفقه الأمة في الدين، ويعلم الجاهلين، ويفتي المستفتين، ويؤلف الكتب، ويجود بماله على المحتاجين، ويشارك في الجهاد والرباط مع المجاهدين والمرابطين.

وأوضح مثل ذلك: هو الإمام العَلَم عبد الله بن المبارك (ت: ١٨١هـ)، صاحب الشخصية الرحبة، التي جمعت الفضائل المتعددة في رجل واحد، على نحو ما قال الشاعر:

وليس على الله بمُسْتَنْكَرٍ أن يجمعَ العالمَ في واحدٍ!^(١)

وقد كتب وهو في الرباط والجهاد، إلى أخيه وصديقه الزاهد العابد الشهير الفضيل بن عياض، الذي كان يتردد بين مكة والمدينة متنسكًا بالطاعة والتقرب إلى الله تعالى، كتب إليه أبياتًا شهيرة، قال له فيها:

يا عابِدَ الحَرَمَيْنِ لو أبصرتنا لعلمتَ أنَّكَ بالعِبَادَةِ تَلْعَبُ!

مَنْ كان يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ فَنُحُورُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ!^(٢)

(١) هو الشاعر العباسي أبو نواس الحسن بن هانئ، انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة (٨١٣/٢)، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر (٤٤٩/٣٢)، وفي أحد ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر: أنكر أحد الدعاة الكبار نسبة هذا الشعر إلى ابن المبارك، مستبعدًا أن يقول: (أنك بالعبادة تلعب). والقصة ثابتة ومشهورة، ذكرها ابن كثير في تفسيره في آخر سورة آل عمران (٢٠٢/٢، ٢٠٣)، نقلًا عن ابن عساكر، وذكرها الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣٦٤/٨، ٣٦٥)، تحقيق مجموعة من بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، ط ٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

ثالثاً: العمل لكسب الدنيا ليس مذموماً ولا ينافي الزهد:

وليس من متطلبات الزُّهد أن يترك الإنسان المسلم عمله الدنيوي، ويعيش عالة على غيره، بل العمل لكسب العيش مطلوب طلباً شرعياً، وليس مذموماً في ذاته. فإن الله تعالى منذ خلق الأرض، ﴿وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]، وجعل فيها معاش للناس، ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠]، وضمن لهم رزقهم فيها: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٥]، ولكن قضت سُنته في خلقه ألا يحصل الإنسان على رزقه إلا بالمشي في مناكب الأرض، والتماسه في خباياها.

الأمر بالمشي في مناكب الأرض والتماس الرزق فيها:

لهذا أمر الله تعالى بالمشي في مناكب الأرض في آيات كثيرة من القرآن، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، حتى يوم الجمعة - وهو العيد الأسبوعي للمسلمين - لم يطلب فيه التفرُّغ للعبادة، ولم يحرم العمل الدنيوي فيه كما حرمت اليهودية العمل في يوم السبت، بل قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، أي: صلاة الجمعة.

سبب تخفيف صلاة الليل عن المسلمين:

وقال في سبب تخفيفه عن المسلمين في صلاة الليل، وإنه لم يفرضها عليهم: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَعَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَعَاخَرُونَ يَقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فانظر كيف قرن بين

الضرب في الأرض لطلب المعيشة وبين القتال في سبيل الله. وانظر أيضاً كيف أطلق على هذا العمل الدنيوي هذه العبارة الجميلة، ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد قال عمر بن الخطاب: ما جاءني أجلي في مكان - ما عدا في سبيل الله ورسوله - أحب إلي من أن يأتيني وأنا بين شعبتي رحلي، أطلب من فضل الله^(١).

وقد أثنى القرآن على التجار الذين يعمرون المساجد بالصلوات، ولم تشغلهم تجارتهم ولا أموالهم، فيقول تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا نُلْهِمُهُمْ بَيْعًا وَلَا بَعْثًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

ابتغاء فضل الله في الحج:

وحتى في الحج لم يمنع التجارة فيه، قال سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

تعليم داود صناعة الحديد:

وأثنى الله على نبيه داود بأن علمه صناعة الدروع من الحديد: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ۖ أَنِ اعْمَلْ سَبِغَتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

صحاح الأحاديث تنوّه بالحرف والأعمال الدنيوية:

وجاءت جملة من صحاح الأحاديث تنوّه بالحرف والأعمال الدنيوية، مثل الزراعة والصناعة والتجارة، كما في قوله ﷺ: «ما من مسلم يغرس

(١) رواه عبد الرزاق في الجامع (٢١٠١٨).

غرسًا، أو يزرعُ زرعًا، فيأكلَ منه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة»^(١).

«ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيَّ الله داودَ كان يأكلُ من عمل يده»^(٢).

«التَّاجِرُ الصَّدُوقُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ»^(٣).

الشروط التي تجعل العمل الاقتصادي عبادة لله وجهادًا في سبيله: بل يُضفي الإسلام على هذا العمل الاقتصادي لونا من القدسية، بحيث يصبح ضربًا من العبادة لله، أو من الجهاد في سبيل الله. إذا تحققت فيه جملة شروط:

النية الصحيحة:

١ - أن تكون وراءه نيّة صحيحة: أن يعفّ نفسه عن سؤال الناس، وأن يقوم بأعباء أسرته وعياله، ويسهم في رُقْيِ أُمَّتِهِ، ويقوم بدوره في عمارة الأرض، ومساعدة أهل العوز والحاجة من حوله. وهذه كلّها أهداف مشروعة، يُثاب عليها مَنْ قصد إليها.

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الحِثِّ والمزارعة (٢٣٢٠)، ومسلم في المساقاة (١٥٥٣)، عن أنس.

(٢) رواه البخاري في البيوع (٢٠٧٢)، عن المقدم بن معديكرب.

(٣) رواه الترمذي (١٢٠٩)، وقال: حديث حسن. والدارمي (٢٥٨١)، والدارقطني (٢٨١٣)، والحاكم

(٦/٢)، شاهدًا وحكم عليه بالإرسال، أربعتهم في البيوع، وحسّنه ابن القطان في الوهم

والإيهام (٤٧٨/٤ - ٤٧٩)، وقال الذهبي في الميزان (٤١٣/٣): جيد الإسناد صحيح المعنى.

وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٧٨٢): صحيح لغيره. عن أبي سعيد الخدري.

إحسان العمل وإتقانه:

٢ - أن يؤدّي عمله بإحسان وإتقان كما يحبُّ الله تعالى، فقد قال رسوله: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ»^(١). والإحسان هو إحكام العمل وإتقانه، ومعنى «كتبه»، أي: فرضه فرضية مؤقتة، كما فرض الصيام بقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وفي الحديث الآخر: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقَنَهُ»^(٢).

مشروعية العمل وإباحته:

٣ - أن يكون عمله مشروعًا ومباحًا، فأمّا إذا كان محرّمًا، فإن تعبه فيه لا يكسبه إلا إثمًا ووزرًا، كالذي يزرع التبغ أو النباتات المخدّرة، أو يصنّعها لتحوّل إلى سموم تقتل الشعوب، أو يتاجر فيها ليكسب الملايين من ورائها، ولا يبالي بقتل الملايين من البشر، وكذلك كل من يبيع ما حرّم الله كالخمر والخنزير، أو ينتج ما حرّم الله، أو يروّج ما حرّم الله، كمنتجات الفنّ الخليع، وصحافة الإغراء والفضائح التي يسمّونها الصحافة الصفراء.. وغيرها؛ فعمله هذا اتّباع لخطوات الشيطان.

التزام حدود الله ورعاية حقوق الناس:

٤ - أن يلتزم في عمله حدود الله، ويرعى حقوق الناس، فلا يظلم أحداً، ولا يخون متعاملاً، ولا يجور على حقّ، ولا يغشّ ولا يخدع. وإن كان يبيع أو يشتري، فلا يطفّف في كيل أو وزن، ولا يبخس الناس

(١) رواه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٥٥)، وأحمد (١٧١٣٩)، عن شداد بن أوس.

(٢) رواه أبو يعلى (٤٣٨٦)، والطبراني في الأوسط (٨٩٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٣١٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٠)، عن عائشة.

أشياءهم، ولا يكون همهم ربح الدنيا، وإن خسر الآخرة. وحسبه وعيد الله للمطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦]. هذا فيمن طمع في حفنة أو بعض حفنة من حق غيره، فما بالك بمن يأكل حقوق الآخرين كلها ولا يبالي؟

الموازنة بين العمل للدين والدنيا:

٥ - ألا يلهيه عمل دنياه عن عمل دينه، ولا حط نفسه عن حق ربه، بل يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً، ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً، لا يضيع صلاة، ولا يبخل بزكاة، ولا يفرط في جنب الله، ولا ينسى ذكر الله، ولا يكون من الذين نسوا الله، فأنساهم أنفسهم. واضعاً نصب عينيه قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمُ أَمْوَالَكُم مَّا ءَوْلَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]^(١).

٤ - ليس من ضرورة الزهد أن يعيش المسلم فقيراً:

وكذلك ليس من الزهد أو من ضرورة الزهد: أن يعيش المسلم فقيراً لا يملك شيئاً، فإذا كان العمل لكسب الدنيا من حلها بشروط ليس مذموماً، فذلك الحصول على الغنى وامتلاك الدنيا بشروطها ليس مذموماً. المهم أن يملك الدنيا ولا تملكه، وأن يستخدمها ولا تستخدمه، وأن يضعها في يده، ولا يسكنها في قلبه، وألا يتخذها له رباً، فتتخذها لها عبداً. فقد خلق الله الدنيا للإنسان، ولم يخلق الإنسان للدنيا!

(١) انظر كتابنا: العبادة في الإسلام ص ٤٣ - ٧٣، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط ٢٩، ١٤٣٠هـ -

وليس في الإسلام ما في المسيحية من ذمّ الغنى مطلقاً، كما ورد في الإنجيل: لا يدخل الغني ملكوت السماوات حتى يدخل الجمل في ثقب الإبرة^(١).

وليس فيه ما قال المسيح لمن أراد أن يؤمن برّبّه ويتّبعه: اذهب فبع مالك ثم اتبعني^(٢).

بل في القرآن امتنان الله على رسوله بالغنى في قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، وقوله في شأن المؤمنين: ﴿فَأَنزَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، فاعتبر إعطاء الدنيا من الثواب المعجل للمؤمنين.

وقال تعالى على لسان نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢]، فجعل إعطاء الأموال والجنت والآنهار من عاجل ثوبتهم على استغفارهم لربّهم.

سعة الرزق من ثمرات التقوى:

وفي القرآن آيات كثيرة تجعل سعة الرزق من ثمرات التقوى والعمل الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٧٩]، وغيرها من الآيات.

(١) إنجيل متى (٢٣/١٩).

(٢) إنجيل مرقس (٢١/١٠).

من أدعيته ﷺ في شأن المال والغنى:

وكان من دعائه ﷺ: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»^(١)، «اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار وعذاب النار، وفتنة القبر، وعذاب القبر، وشر فتنة الغنى، وشر فتنة الفقر»^(٢). وأثنى على الله ثناء طويلاً عظيماً، ثم سأل الغنى وقضاء الدين: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»^(٣).

ولو كان الفقر خيرًا يُسعى إليه، ويُحرص عليه، ما استعاذ بالله من شره، وما فرض الزكاة على الأغنياء لتُردَّ على الفقراء، وما قال: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»^(٤). أي: اليد المُعطية خيرٌ من اليد الآخذة.

ولا وضع المناهج وشرع الأنظمة لعلاج مشكلة الفقر، وتحقيق الكفاية التامة للفقراء: بالزكاة، وبنفقات الأقارب المُوسرين على المُعسرين، وبفرض حقوقٍ في المال بعد الزكاة إذا لم تكف حاجات الفقراء، وبموارد الدولة المختلفة.

وفي الحديث النبوي: «إنَّ من أمنَّ النَّاسِ عليَّ في صحبته وماله أبا بكر»^(٥). «ما نفعني مالٌ كمالِ أبي بكر»^(٦). «إنَّ اللهَ يحبُّ العبدَ التَّقِيَّ

(١) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢١)، وأحمد (٣٩٠٤)، عن ابن مسعود.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٧٧)، ومسلم في الذكر والدعاء (٥٨٩)، عن عائشة.

(٣) رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧١٣)، وأحمد (٥٩٦٠)، عن أبي هريرة.

(٤) متفق عليه: رواه البخاري (١٤٢٧)، ومسلم (١٠٣٥)، كلاهما في الزكاة، عن حكيم بن حزام.

(٥) متفق عليه: رواه البخاري في الصلاة (٤٦٧)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٢)، عن أبي

سعيد الخدري.

(٦) رواه أحمد (٧٤٤٦)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في =

الغِنِيِّ الْخَفِيِّ»^(١). ومعنى «الخفي»: البعيد عن الشهرة، أي: الذي يعمل في صمت.

ليس الغنى مناقضاً للصالح والتقوى:

فليس الغنى مناقضاً للصالح والتقوى، فقد ذكر القرآن بعض الأنبياء الذين آتاهم الله مالاً وملكاً ومكّن لهم في الأرض، كما أعطى يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

وكذلك أعطى داود وسليمان ملكاً عظيماً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥].

وكذلك كان بعض أصحاب النبي ﷺ من ذوي الثروة، وقد بذلوا منها في سبيل الله ما بذلوا، ولم يَضُتُوا بها على نصرته الإسلام، كما في تجهيز جيش العُسرة وغيرها.

من هؤلاء: عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وهما من السابقين الأولين من المهاجرين، ومن العشرة المبشرين بالجنة، والذين تُوفِّي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ.

وجمع كثير من السلف الصالحين من هذه الأمة بين الغنى والتقى، وهو الذي يسمّيه المسلمون «الغني الشاكر».

= المناقب (٣٦٦١)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في المقدمة (٩٤)، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٧١٨)، عن أبي هريرة.

(١) رواه مسلم في الزهد (٢٩٦٥)، وأحمد (١٤٤١)، عن سعد بن أبي وقاص.

المفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر:

وقد اختلف العلماء فيهما: أيهما أفضل للمرء: أن يكون غنياً شاكراً أم فقيراً صابراً؟

والذي تدلُّ عليه الأحاديث: أنَّ الغني الشاكر هو الأفضل.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: «أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إنَّ بكلِّ تسبيحة صدقة، وكلُّ تكبيرة صدقة، وكلُّ تحميدة صدقة، وكلُّ تهليلة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌّ عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة». قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال، كان له أجر» رواه مسلم^(١).

والحديث الصحيح المتفق عليه يقول: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»^(٢). واليد العليا هي اليد المعطية، والسفلى هي الآخذة. مما يدلُّ على فضل الغنيِّ المعطيِّ والمُنْفِقِ في سبيل الله، والمُعِين للفقراء وذوي الحاجة.

ردُّ ابن الجوزي على الذين ذمُّوا الغني:

وقد ردَّ ابن الجوزي على الذين ذمُّوا الغني واعتبروا المال شراً، فقال: «أمَّا شرف المال، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ عَظَّمَ قدره، وأمر بحفظه، إذ جعله

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٧، وفيه: «وفي بضع أحدكم صدقة».

(٢) سبق تخريجه ص ٢٣٧.

قوامًا للآدمي الشريف، فهو شريف، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا﴾ [النساء: ٥]، ونهى ﷺ أن يُسلم المال إلى غير رشيد، فقال: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].

وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ: أنه نهى عن إضاعة المال^(١).

وقال لسعد رضي الله عنه: «لأنَّ تترك ورثتك أغنياء، خيرٌ من أن تتركهم عالة يتكفّفون النَّاس»^(٢).

الغنى أداة خير للأخيار:

قال ﷺ: «ما نفعني مالٌ كمالٍ أبي بكر»^(٣).

وعن عمرو بن العاص قال: بعث إليّ رسول الله ﷺ فقال: «خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ ائْتِنِي». فَأْتَيْتُهُ فَقَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُبْعَثَكَ عَلَى جَيْشٍ فَيُسَلِّمَكَ اللَّهُ وَيُعْزِمَكَ، وَأَرْغَبَ لَكَ مِنَ الْمَالِ رَغْبَةً صَالِحَةً». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَسَلَمْتُ مِنْ أَجْلِ الْمَالِ، وَلَكِنِّي أَسَلَمْتُ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ!! فَقَالَ: «يَا عَمْرُو، نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(٤).

وعن أنس بن مالك: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، دَعَا لَهُ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَكَانَ فِي آخِرِ دَعَائِهِ أَنَّهُ قَالَ: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ»^(٥).

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الزكاة (١٤٧٧)، ومسلم في الأفضية (٥٩٣)، عن المغيرة بن شعبة.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٢٨، وفيه: «إِنَّكَ لَتَوْجِرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ».

(٣) سبق تخريجه ص ٢٣٧.

(٤) سبق تخريجه ص ١١٣.

(٥) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الدعوات (٦٣٧٩)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨٠)، عن أم سليم.

وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، أنَّ عُبَيْدَ اللَّهِ بن كعب بن مالك قال: سمعتُ كعب بن مالك يحدث بحديث توبته قال: فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى اللَّهِ وَرَجُلٍ، وإلى رسوله ﷺ، فقال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»^(١).

قال ابن الجوزي: فهذه الأحاديث مخرّجة في الصحاح، وهي على خلاف ما تعتقده المتصوّفة، من أن إكثار المال حجاب وعقوبة، وأن حُبّه ينافي التوكُّل.

ولا يُنكر أنه يُخاف فتنته، وأنَّ خلقًا كثيرًا اجتنبوه لخوف ذلك، وأن جمعه من وجهه يعزُّ، وسلامة القلب من الافتتان به يبعد، واشتغال القلب مع وجوده بذكر الآخرة ينذر، ولهذا خيف فتنته.

أثر المقصد في جمع المال:

فأمَّا كسب المال، فإنَّ من اقتصر على كسب البُلغة من حِلِّها، فذلك أمر لا بدَّ منه، وأمَّا من قصد جمعه والاستكثار منه من الحلال، نظرنا في مقصوده، فإنَّ قصد نفس المفاخرة والمباهاة فبئس المقصود، وإنَّ قصد إعفاف نفسه وعائلته، وادّخر لحوادث زمانه وزمانهم، وقصد التوسعة على الإخوان، وإغناء الفقراء، وفعل المصالح، أثيب على قصده، وكان جمعه بهذه النية أفضل من كثير من الطاعات.

مقاصد الصحابة في جمع المال والازدياد منه:

وقد كانت نيات خلق كثير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، في

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري في الوصايا (٢٧٥٧)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، عن كعب بن مالك.

جمع المال سليمة، لحسن مقاصدهم لجمعه، فحرصوا عليه، وسألوا زيادته.

عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ أقطع الزبير حُضْرَ فرسه^(١) بأرض يقال لها: ثُرَيْر. فأجرى فرسه حتى قام ثم رمى سوطه، فقال: «أعطوه حيث بلغ السَّوْطُ»^(٢).

وكان سعد بن عبادة يدعو فيقول: اللهم وسِّع عليّ^(٣).

قال ابن الجوزي: وأبلغ من هذا أن يعقوب عليه السلام لما قال له بنوه: ﴿وَنَزَدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٦٥]، مال إلى هذا، وأرسل ابنه بنيامين معهم، وأن شعيباً^(٤) طمع في زيادة ما يناله فقال: ﴿فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾ [القصص: ٢٧]، وأن أيوب عليه السلام لما عوفي نُثِرَ عليه رجل جراد من ذهب، فأخذ يحثو في ثوبه يستكثر منه، فقليل له: أما شَبِعتَ؟ قال: يا ربِّ، مَنْ يشبع من فضلك^(٥)! وهذا أمر مركوز في الطباع، فإذا قصد به الخير كان خيراً محضاً.

وأما الأنبياء، فقد كان لإبراهيم عليه السلام زرع ومال، ولشعيب ولغيره.

وكان سعيد بن المسيب رضي الله عنه يقول: لا خير فيمن لا يطلب المال، يقضي به دينه، ويصون به عرضه، ويصل به رحمه، فإن مات تركه ميراثاً

(١) حُضْرُ الفرس: عدوها، والمعنى أقطعه موضع حُضْرَ فرسه.

(٢) رواه أحمد (٦٤٥٨)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. وأبو داود في الخراج والإمارة (٣٠٧٢)، وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٦٧٣)، عن ابن عمر.

(٣) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٢٦٤/٢٠).

(٤) لم يثبت أن الشيخ الكبير هو شعيب عليه السلام، في قول الله تعالى على لسان المرأتين: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

(٥) رواه البخاري في الغسل (٢٧٩)، عن أبي هريرة.

لمن بعده. وخلف ابن المسيب أربعمائة دينار، وقد ذكرنا ما خلفت الصحابة، وقد خلف سفيان الثوري رضي الله عنه مائتين وكان يقول: المال في هذا الزمان سلاح^(١).

سبب مجافاة بعض السلف للاستكثار من المال:

وما زال السلف يمدحون المال ويجمعونه للنوائب وإعانة الفقراء، وإنما تجافاه قوم منهم إيثارًا للتشاغل بالعبادات، وجمع الهمم، فقتنوا باليسير، ولو قال هذا القائل: إن التقلُّ منه أولى، قُرب الأمر، ولكنه زاحم به مرتبة الإثم.

الصبر على الفقر والشكر على الغنى:

واعلم أنّ الفقر مرض، فمن ابتلي به فصبر أثيب على صبره، ولهذا: «يدخلُ الفقراءُ الجنةَ قبل الأغنياء بخمسمائة عام»^(٢). لمكان صبرهم على البلاء، والمال نعمة، والنُّعمة تحتاج إلى شكر، والغنيُّ وإن تعب وخاطر كالمفتي والمجاهد، والفقير كالمعتزل في زاوية.

الرد على من كره أن يخلف الفقير شيئاً:

وقد ذكر أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب «سنن الصوفية» باب كراهية أن يخلف الفقير شيئاً، فذكر حديث الذي مات من أهل الصُّفَّة وخلف دينارين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كَيْتَان»^(٣).

(١) رواه أبو بكر الخلال في الحث على التجارة (٢٠)، نشر دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤٠٧هـ.

(٢) رواه أحمد (٧٩٤٦)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط البخاري. والترمذي في الزهد (٢٣٥٣)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤١٢٢)، عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٢٢١٨٠)، وقال مخرجه: حديث صحيح وهذا إسناد جيد. عن أبي أمامة.

قال ابن الجوزي: وهذا احتجاج من لا يفهم الحال، فإن ذلك الفقير كان يزاحم الفقراء في أخذ الصدقة، وحبس ما معه، فلذلك قال: «كَيْتَان». ولو كان المكروه نفس ترك المال، لما قال رسول الله ﷺ لسعد: «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتِكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»^(١). وَلَمَّا كَانَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ يُخَلِّفُ شَيْئًا.

الرُّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ لِلْإِنْسَانِ ادِّخَارَ شَيْءٍ لِعَدِهِ:

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حثَّ رسول الله ﷺ على الصدقة، فجئتُ بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «وما أبقيت لأهلك». فقلتُ: مثله^(٢). فلم ينكر عليه رسول الله ﷺ. قال ابن جرير الطبري: وفي هذا الحديث دليلٌ على بطلان ما يقوله جهلة المتصوِّفة: أن ليس للإنسان ادِّخار شيء في يومه لعدده، وأنَّ فاعل ذلك قد أساء الظنَّ برَّبِّه، ولم يتوكَّل عليه حقَّ توكُّله.

قال ابن جرير: وكذلك قوله عليه السلام: «اتَّخِذُوا الْغَنَمَ؛ فَإِنَّهَا بَرَكَةٌ»^(٣). فيه دلالة على فساد قول من زعم من المتصوِّفة أنَّه لا يصحُّ لعبد التوكُّل على ربِّه إلا بأن يصبح ولا شيء عنده من عين ولا عَرَض، ويمسي كذلك، ألا ترى كيف ادَّخر رسول الله ﷺ لأزواجه قوت سنة^(٤).

(١) سبق تخريجه ص ٢٢٨.

(٢) رواه أبو داود في الزكاة (١٦٧٨)، والترمذي في المناقب (٣٦٧٥)، وقال: حديث حسن صحيح. والحاكم في الزكاة (٤١٤/١)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبزار (٢٧٠) وقواه، عن عمر بن الخطاب.

(٣) رواه أحمد (٢٧٣٨١)، وقال مخرجه: إسناده صحيح. والطبراني (٤٢٦/٢٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (٨٢)، عن أم هانئ.

(٤) عن عمر: كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله... وكان ينفق على أهله نفقة سنته.

الرُّدُّ عَلَى مَنْ خَرَجَ مِنْ مَالِهِ وَتَعَرَّضَ لِلأُوسَاخِ وَالطَّلَبِ مِنَ النَّاسِ:

«وقد خرج أقوام من أموالهم الطيبة، ثم عادوا يتعرّضون للأوساخ ويطلبون، وهذا لأنّ حاجة الإنسان لا تنقطع، والعاقل يعدُّ للمستقبل، وهؤلاء مثلهم في إخراج المال عند بداية تزهدهم مثل مَنْ رَوِيَ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَبَدَّدَ الْمَاءَ الَّذِي مَعَهُ. وَالحديث بإسناد عن جابر بن عبد الله قال: قدم أبو الحصين السلمي بذهب من معدنهم، فقضى ديناً كان عليه، وفضل معه مثل بيضة الحمامة، فأتى بها رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ضع هذه حيث أراك الله، أو حيث رأيت. قال: فجاءه عن يمينه، فأعرض عنه، ثم جاءه عن يساره، فأعرض عنه، ثم جاءه من بين يديه، فنكس رسول الله ﷺ رأسه، فلما أكثر عليه أخذها من يديه، فحذفه بها لو أصابته لعقرته، ثم أقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى مَالِهِ فَيَتَصَدَّقُ بِهِ، ثُمَّ يَقَعُدُ فَيَتَكَفَّفُ النَّاسَ، وَإِنَّمَا الصَّدَقَةُ عَنْ ظَهْرِ غِنَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»^(١)»^(٢).

قال ذو النُّون المصري: أقرب النَّاسِ إِلَى الكُفْرِ ذُو فَاقَةٍ لَا صَبْرَ لَهُ^(٣).

وَقَلَّ فِي النَّاسِ الصَّابِرُونَ عَلَى الْفَقْرِ.

متَّفَقٌ عَلَيْهِ: رواه البخاري (٢٩٠٤)، ومسلم (١٧٥٧)، كلاهما في الجهاد والسير.

(١) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢٧٧/٤)، تحقيق إحسان عباس، نشر دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.

(٢) انظر: تلبس إبليس لابن الجوزي ص ٢٢٠ - ٢٢٦ بتصرف، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

(٣) إحياء علوم الدين (٢٠٠/٤).

عقد الغزالي كتاباً في ذمّ حب المال:

ولم يستطع الغزالي الذي عقد لذمّ المال فصلاً، من كتاب «ذمّ البخل وذمّ حبّ المال» من «الإحياء»، أن يجحد النصوص التي تمدح المال وتثني عليه، وتذمّ الفقر وتنفر منه، فقال: «اعلم أنّ الله تعالى قد سمّى المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز، فقال جلّ وعزّ: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا...﴾ الآية [البقرة: ١٨٠]، وقال رسول الله ﷺ: «نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ»^(١).

وكلّ ما جاء في ثواب الصدقة والحجّ، فهو ثناء على المال، إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]. وقال تعالى ممتناً على عباده: ﴿وَيُمَدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٢]. وقال ﷺ: «كاد الفقر أن يكون كُفْرًا»^(٢). وهو ثناء على المال»^(٣).

استدلال الغزالي على فضيلة الفقر بأيتين:

والعجيب أنّ الغزالي رحمته الله، حين عرض لبيان فضيلة الفقر في كتاب «الزهد»، لم يجد في القرآن ما يدلّ على فضله، إلا آيتين في ظنّه: قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

(١) سبق تخريجه ص ١١٣.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٥٣/٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٦١٨٨)، وضعّفه الألباني في ضعيف الجامع (٤١٤٨)، عن أنس.

(٣) إحياء علوم الدين (٢٣١/٣ - ٢٣٤).

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٤].

قال: «ساق الكلام في معرض المدح، ثم قَدَّم وصفهم بالفقر، على وصفهم بالهجرة والإحصار، وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر»^(١).

بُعد الإمام الغزالي عن المعنى الدقيق للآيتين:

ورحم الله أبا حامد، فقد بَعُدَ عن الفهم الدقيق للآيتين، فالآية الأولى جاءت بعد قسمة الفبيء تبين المستحقين له، وقد أفاء الله على رسوله من أموال يهود بني النضير، ولم يخمسها الرسول ﷺ كغنائم بدر، وإنما عوض بها رسول الله المهاجرين عما فقدوه في وطنهم القديم، من ديار وأموال، فقال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

فليست الآية إلا بياناً لموضع الفبيء من الناس، وبيان الصفة التي استحقوا بها هذا، وهي الفقر، مع بيان العلة التي أدت إلى هذا الفقر، وهي هجرتهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، فهل في الآية مدح للفقر ذاته، أو حث على الاتصاف به؟ لا ثم لا.

والآية الثانية بيان لأحق الناس بالصدقة والإنفاق الذي يحبه الله، وهم الفقراء الذين أحصروا، وقبلها: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوقَفْ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي

(١) إحياء علوم الدين (٤/١٩٣).

سَبِيلِ اللَّهِ ﴿البقرة: ٢٧٢، ٢٧٣﴾، فذكر صفاتهم في الآية وهي خمس صفات:

١ - ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٢ - ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾.

٣ - ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾.

٤ - ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾.

٥ - ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

وقد روي عن سعيد بن جبير: أنها نزلت في قوم أصابتهم الجراحات في سبيل الله تعالى، فصاروا زمنى، فجعل لهم في أموال المسلمين حقاً^(١).

وروي عن ابن عباس: أنها نزلت في أهل الصُّفَّة. وهم جماعة من فقراء المهاجرين لم يكن لأكثرهم مأوى، فكانوا يقيمون في المسجد، في موضع مظلل منه، قد حبسوا أنفسهم لحفظ القرآن، وبه تحفظ أصول الدين، والخروج مع السرايا للجهاد، وبه يُحفظ كيان الأمة.

فهل في الآية دلالة واضحة - كما يقول الغزالي - على مدح الفقر؟ كلا ثم كلا.

متى يكون المال شراً؟

إنما يكون المال شراً إذا أصبح حبُّ جمعه وتنميته هو الشُّغل الشاغل

(١) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥٤٠/٢) رقم (٢٨٦٦)، تحقيق أسعد محمد الطيب، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط ٣، ١٤١٩هـ.

لصاحبه، فيصير غاية لا وسيلة، ولا يبالي من أين جاء، أمن خبيث أم من طيب، من حلال أم من حرام! وحينئذ يرتكب الموبقات في سبيل جمعه وتكثيره، ويستحل الرشاوى والسرقه الظاهرة أو الخفية، ويأكل الربا، ويأكل مال اليتيم، وهذا ما حذر الله منه أشد الحذر: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]، ﴿وَأَتُوا النِّمَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

الغرور بالمال والبغي والطغيان به:

ويكون المال شرًا إذا أدى بمالكة إلى الغرور به، والطغيان والبغي على غيره، ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ [العلق: ٦، ٧]. ﴿إِنَّ قُرُونَ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۗ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصر: ٧٦]. ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

نسيان الآخرة:

ويكون المال شرًا إذا أنسى صاحبه الآخرة، وظن أنه مخلد في ماله، ﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّمَزَةٍ ۗ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۗ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ١-٣]. ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۗ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ۗ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۗ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ

الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءُ الْوَضْعِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿ [سبأ: ٣٤ - ٣٧].

إنفاق المال في غير محله والبخل به عن حقه وموضعه:

ويكون المال شرًا إذا أنفقه صاحبه في غير محله، أو بخل به عن حقه وموضعه، ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿ [التوبة: ٣٤، ٣٥]. ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿ [النساء: ٣٦، ٣٧]. ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿ [النساء: ٣٨].

هؤلاء الذين يكنزون ويختالون ويبخلون ويبخلون في آن واحد، يبخلون ويأمرون غيرهم بالبخل عما أوجب الله.

وينفقون رياء الناس في المظاهر الفارغة والأبهة الكاذبة، إرضاء لنزعة المباهاة والتفاخر فيهم.

شغل المال صاحبه عن واجب دينه:

ويكون المال شرًا إذا شغل صاحبه عن واجب دينه، ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿ [المنافقون: ٩].

ويكون المال شرًّا إذا أصبح مقياس عظمة النَّاس وتقديرهم في الدُّنيا، دون النظر إلى ما يحملونه في قلوبهم من إيمان، وفي عقولهم من علم، وفي نفوسهم من أخلاق. كما قال القائل:

فقيمة ربِّ الألف ألف وزد تزدُ وقيمة ربِّ الدرهم الدرهم الفرد

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].
فالعظمة عندهم بكثرة المال وقوّة النفوذ.

ميزان التفاضل عند الله:

وقد بيّن القرآن أنّ ميزان التفاضل عند الله: الإيمان والعمل الصالح، لا المال ولا البنون، ولا ما يملكه الإنسان من الدنيا: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

ماذا يُطلب من الغنيّ ذي الثروة؟

لم يطلب القرآن من الغنيّ أن يتخلّى عن ماله، ولم يحرم عليه طيبات الدُّنيا، وإنّما طلب منه واجبات معيّنة تحدّد علاقته بالله، وعلاقته بالآخرة، وعلاقته بحياته، وعلاقته بالنَّاس، وعلاقته بالحياة عامّة.

ذكر الله هذه الواجبات على لسان المؤمنین من قوم موسى عليه السلام، وهو يقصُّ علينا قصة قارون الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، والقرآن حين يقصُّ علينا هذه القصص، لا يهّمه أن نضيف إلى معلوماتنا التاريخية جديدًا، وإنّما يقصّها لنا لأجل الهداية والعبرة: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١].

الوصايا الخمس على لسان المؤمنين من قوم موسى لقارون:

هذه الواجبات هي أوامر ونواهٍ خالدة، تتصل بمهمة الإنسان وغاية وجوده في الحياة، قيلت لقارون، وتقال لكل ذي مال وغنى من بعده، وهذه هي^(١): ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ * وَأَبْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧].

الوصية الأولى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾:

فالوصية الأولى تتضمن ألا يفرح بماله وغناه فرح البطر المغرور، وينسى ربه وواجبه نحوه، فينساها الله، ويعرض عنه ولا يحبه، ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

ولا يظنن ظاناً أن الفرح هنا بمعناه المألوف من السرور والانشراح، فهذا أمر مرغوب محبوب، وقد كان النبي ﷺ يستعيد بالله من الهم والحزن^(٢)، ويبشّر من أدخل السرور على قلوب الناس بأعظم المثوبة^(٣)، وإنما هو الأشر والبطر والغرور، الذي يُعمي عين البصيرة عن رؤية يد الله في جلب النعمة وتيسيرها، فيقول ما قال قارون في غرور واستعلاء: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

(١) تقدم ذكرها بإيجاز في الاعتبار بمصاير أهل الدنيا، في الفصل الثامن: بواعث الزهد.

(٢) إشارة إلى حديث: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين وغلبة الرجال». رواه البخاري في الدعوات (٢٨٩٣)، عن أنس.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٤٥٣/١٢)، والأوسط (٦٠٢٦)، والصغير (٨٦١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٧٠٨): رواه الطبراني في الثلاثة وفيه سكين بن سراج وهو ضعيف. عن ابن عمر.

ولو فكَرَّ وأنصف لقال ما قال يوسف عليه السلام، وقد صارت له خزائن مصر: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

ولقال ما قال سليمان عليه السلام وقد حشر له جنوده من الجن والإنس والطيور فهم يوزعون، قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

فرحُ قارون وأمثاله بغير الحق الذي ذمّه القرآن، وعذب الله أصحابه في نار السعير: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]. فرح هؤلاء فرحٌ بالمادة لا بالروح، وبالصورة لا بالمعنى، وبالأعراض المتغيّرة لا بالقيم الثابتة، فأولى أن يقال لهم: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

الوصية الثانية: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾:

والوصية الثانية تطلب منه أن تكون وجهته في ماله وثروته الدار الآخرة، يبتغيها ويقصدها في إنفاقه إذا أنفق، واستثماره إذا استثمر، وتنميته إذا نمى.

فالدار الآخرة هي الغاية المطلوبة، والمقصد المبتغى، والمال الذي ملكه الله بإيتائه إياه، واستخلافه فيه، هو الوسيلة والأداة، فإذا انقلبت الغاية وسيلة، والوسيلة غاية، وصار المال هو القصد الذي يوضع نصب العين، والآخرة هي التي تُطرح وراء الظهر، فذلك هو الضلال البعيد، والبلاء المبين.

كلام الغزالي في قصد سعادة الآخرة:

قال الإمام الغزالي في «كتاب الشكر»: «إنَّ مقصد الأكياس وأرباب البصائر سعادة الآخرة، التي هي النعيم الدائم والمُلك المقيم. والقصد إلى هذا دأب الكرام والأكياس، إذ قيل لرسول الله ﷺ: مَنْ أكرم النَّاسِ وأكسبهم؟ فقال: «أكثرهم للموتِ ذكراً، وأشدُّهم له استعداداً»^(١).

وهذه السعادة لا تُنال إلا بثلاث وسائل في الدُّنيا، وهي:

الفضائل النفسية، كالعلم، وحسن الخلق. والفضائل البدنية، كالصحة، والسلامة. والفضائل الخارجة عن البدن، كالمال، وسائر الأسباب. وأعلاها النفسية، ثم البدنية، ثم الخارجة.

فالخارجة أحسُّها، والمال من جملة الخارجات، وأدناها: الدراهم والدنانير، فإنَّهما خادمان ولا خادم لهما، ومُرادان لغيرهما ولا يُرادان لذاتهما. إذ النفس هي الجوهر النفيس المطلوب سعادتها، وإنها تخدم العلم والمعرفة ومكارم الأخلاق، لتحصلها صفة في ذاتها، والبدن يخدم النفس بواسطة الحواسِّ والأعضاء، والمطاعم والملابس تخدم البدن، وقد سبق أن المقصود من المطاعم إبقاء البدن، ومن المناكح إبقاء النسل، ومن البدن تكميل النفس وتزكيتها وتزيينها بالعلم والخلق.

ومن عرّف هذا الترتيب، فقد عرّف قدر المال، ووجه شرفه، وأنه من حيث هو ضرورة المطاعم والملابس، التي هي ضرورة بقاء البدن، الذي هو ضرورة كمال النفس، الذي هو خير. ومن عرف فائدة الشيء وغايته

(١) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٩) بنحوه، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (٣)، والطبراني في الأوسط (٤٦٧١)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٤٠/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٤٣٥)، عن ابن عمر.

ومقصده، واستعمله لتلك الغاية، ملتفتاً إليها غير ناسٍ لها، فقد أحسن وانتفع، وكان ما حصّل له الغرض محموداً في حقّه، فإذا المال آلة ووسيلة إلى مقصود صحيح، ويصلح أن يتخذ آلة ووسيلة إلى مقاصد فاسدة، وهي المقاصد الصادّة عن سعادة الآخرة، وتسُدُّ سبيل العلم والعمل، فهو إذن محمود مذموم، محمود بالإضافة إلى المقصد المحمود، ومذموم بالإضافة إلى المقصد المذموم»^(١).

فهذا كلام الغزالي هنا، وهو كلام فقيه أصولي، مستمد من مصادر الشريعة، على خلاف كلامه إذا ترك نهج الفقه وأصوله، واتبع نهج المتصوّفة بإطلاق، حتّى فيما غلّوا فيه، وشطّوا عن السبيل^(٢).

الوصية الثالثة: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾:

وهذه الوصية توضح نقطة مهمة، وهي أنّ الغنيّ الذي وسّع الله عليه، حين يتجنّب البطر والأشر، ويبتغي في ماله الدار الآخرة، لا يعني هذا أن يحرم نفسه من طيبات الدنيا، بل له حقٌّ في أن يأخذ نصيبه من هذه الدنيا، بل هو مأمور ألا ينسى نصيبه منها بالمعروف، في غير إسراف ولا تقتير.

الوصية الرابعة: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾:

وهذه وصية توجب على الغنيّ أن يشكر نعمة الله عليه، الذي أحسن إليه فأغناه من فضله، وذلك بأن يُحسن إلى خلق الله من أهل الفقر والحاجة، كما أحسن الله إليه، وهذا تذكير بحقيقة مهمة، وهي أنّ المال مالٌ الله تعالى، والإنسان مستخلف فيه، بمنزلة أمين الخزانة، فهو يتصرف فيه، بحسب أوامر مالكه. ومن ذلك الحقوق الواجبة في المال.

(١) إحياء علوم الدين (٣/٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) تقدم مناقشة كلام الغزالي في ذم حب المال وفضيلة الفقر.

الوصية الخامسة: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾:

وهذه الوصية الخامسة والأخيرة، وهي ألا يبغى الغني بماله نشر الفساد في الأرض، مثل الظلم والغش والاحتكار والربا والتطفيف والغبن الفاحش.. وغيرها مما يجري في معاملات الرأسماليين الجشعين، ولا إشاعة الترف والميوعة وشرب المسكرات وتناول المخدرات في حياة الناس، أو الترويج لسلع مغشوشة أو مسرطنة، أو ملوثة بالإشعاع، أو انتهى أمد صلاحيتها، ابتغاء الربح من ورائها، وإن أضر بجماهير الخلق. فهذا من الإفساد في الأرض، والله لا يحب المفسدين؛ لأنهم أعداء الله، وأعداء الناس، وأعداء الحياة.

خامساً: ليس من الزهد الإعراض عن الحياة الطيبة:

وإذا كان العمل للدنيا بشروط ليس مذموماً، وامتلاك الدنيا بشروط ليس مذموماً أيضاً، فإن الاستمتاع بطيبات الدنيا ليس مذموماً كذلك.

ذلك أن الله خلق هذه الطيبات، ليستمتع بها الناس، ويشكروا الله عليها، بل جعلها مما كرم به جنس الإنسان وميزه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ وَحَسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

وما كان الله ليخلق هذه الطيبات ويمتنُّ بها على الناس، ثم يحرمها

عليهم!

الإنكار على الذين حرّموا على أنفسهم الطيبات:

بل نجد القرآن ينكر على المشركين وأهل الكتاب الذين حرّموا على أنفسهم طيبات المآكل والمشارب والملابس وغيرها، مما يتزيّن به الإنسان، فقال تعالى مخاطبًا الجنس البشري كله: ﴿يَبْنَئِ عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣١، ٣٢].

فانظر إلى هذا الأسلوب من الاستفهام الإنكاري: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾؟ وانظر إلى هذه الإضافة: إضافة الزينة إلى الله، وهي إضافة تشريف وتكريم.

وانظر إلى قوله: ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، فهو تبارك وتعالى يخرجها لهم، ويأتي مَنْ يحرمها عليهم!

من أوصاف الرسول ﷺ الأساسية عند أهل الكتاب:

بل إنَّ القرآن ليجعل من أوصاف الرسول الأساسية عند أهل الكتاب في التوراة والإنجيل: أَنَّهُ يَحُلُّ الطَّيِّبَاتِ، وَيَحْرَمُ الْخَبَائِثَ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والطَّيِّبَاتِ: كلُّ ما تستطيبه الفطر السليمة وتستحسنه، ولا تجد فيه خبثًا ولا قَدْرًا، وقد كان الله عاقب اليهود بتحريم بعض الطيبات عليهم

جزاء ما صنعوا، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]. فلما جاء محمد ﷺ بالرسالة العامة الخالدة، ألغى هذا الحظر الذي كانت له أسبابه، وليس معقولاً أن يُعاقب البشر جميعاً بما اقترفه اليهود في مرحلة من الزمن.

امتنان القرآن بالطيبات على المؤمنين:

بل تجد القرآن يمتنُّ بالطيبات على المؤمنين، فيقول تعالى مخاطباً المسلمين بعد الهجرة في معرض الامتنان والإنعام: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَاءُ فَأَوْبَكُمْ وَآيْدَكُمْ بِضُرِّهِمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

موقف القرآن من المسلمين الذين أرادوا تحريم الطيبات:

وحين أراد بعض المسلمين أن ينزعوا نزعاً رهبانية، فحرّم من حرّم منهم اللحم، وامتنع من امتنع منهم عن قرب النساء، نزل قول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِء مُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨].

المعاني التي وجّه إليها القرآن:

فكان توجيه القرآن لهم يتضمّن المعاني التالية:

- ١ - النهي عن تحريم الطيبات التي أحلّها الله، فليس من حقّ أحد أن يحرم ما أحلّ الله، فإن تحريم الحلال قرين الشرك.
- ٢ - النهي عن الاعتداء والتجاوز في تناول الطيبات، والاعتداء هنا

يكون بالجور على حق الغير، أو تجاوز حد الاعتدال في الاستهلاك، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]. أو الاعتداء على حق الله بتحريم ما أحله.

٣ - رفع أي حرج في الاستمتاع بالطيبات، حيث أمر بالأكل، وهو هنا يفيد الإذن والإطلاق؛ لأنه مع الأمر يقول: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، فهو إغراء بالأكل، ثم يقول: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾، إغراء آخر. ومعنى ﴿طَيِّبًا﴾ هنا: أي: لذيذاً تستطيبه أنفسكم، وتميل إليه طباعكم.

٤ - رعاية تقوى الله أبداً، في كل ما تأتون وما تذررون، فهي ملاك الأمر كله.

قيود الاستمتاع بالطيبات:

لا جناح على المسلم السائر في طريق الله أن يستمتع بما رزقه الله من الطيبات بقيود:

١ - أن يتحرى حلها، فإذا شابها حرام أو شبهة حرام اتقاه استبراءً لدينه وعرضه^(١).

٢ - أن يتجنب الإسراف، فإن تناول المباحات جميعاً مقيّد بعدم الإسراف، كما قرأنا قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، وكلما كان من مريدي الزهد كان التقلل أولى به.

٣ - ألا ينسى شكر نعمة الله عليه بهذه الطيبات، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ ءِتْيَاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١٧٢]. وشكر الله على نعمه واجب، بالقلب واللسان والجوارح.

(١) كما في الحديث: «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه». وقد سبق تخريجه صـ ٩.

٤ - أن يراعي آداب الشرع في تناول الطيبات، فإذا أكل سمّى الله، وأكل بيمينه، وأكل مما يليه^(١)، وإذا فرغ من طعامه حمد الله^(٢). وكذلك يسمّى الله عند الشرب ويحمده عند الانتهاء^(٣).

وإذا لبس ثوبًا جديدًا قال: «اللهم لك الحمد، أنت كَسَوْتَنِيهِ، أسألك من خيرهِ وخيرِ ما صنع له، وأعوذُ بك من شرِّه وشرِّ ما صنع له»^(٤). كذلك إذا استعمل أيّ آلة جديدة.

وإذا ركب سيارته قال ما ذكره القرآن: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

موقف خصوم الإسلام من الحديث عن الحياة الطيبة:

الحديث عن «الحياة الطيبة» في الإسلام حديث دقيق، ذلك أن خصوم الإسلام يقفون بالمرصاد لكل ما يُقال في هذه الناحية، فإذا تحدّثنا عن عناية الإسلام بـ «الجانب الرُّوحي» وقيّمته بالنسبة للحياة والإنسان، اتّخذوا من هذا أداة للطعن، ونقطة للهجوم على الإسلام، أنه

(١) إشارة إلى حديث: «يا غلام، سمّ الله، وكلّ بيمينك، وكلّ ممّا يليك». متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢)، عن عمر بن أبي سلمة.

(٢) عن أبي أمامة أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدته قال: «الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غير مكفيّ ولا مودّع ولا مستغنى عنه ربنا». رواه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨).

(٣) إشارة إلى حديث: «إنّ الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها». رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٤)، وأحمد (١١٩٧٤)، عن أنس.

(٤) رواه أحمد (١١٤٦٩)، وقال مخرجه: حسن. وأبو داود (٤٠٢٠)، والترمذي (١٧٦٧)، وقال: حديث حسن. كلاهما في اللباس، عن أبي سعيد الخدري.

دين يدير ظهره للحياة، ويُغفل واقع الإنسان والوجود، ويدعو إلى الضعف والسلبية والحرمان والتشُّف، فهو لهذا لا يصلح للحياة، ولا تصلح له الحياة.

وإذا تحدَّثنا عن «الجانب المادي» واهتمام الإسلام به؛ اهتمامه بجسم الإنسان وغرائزه وعواطفه، إلى جوار عقله ورُوحه، واهتمامه بالحياة الدُّنيا إلى جانب الحياة الباقية، سرعان ما يقولون: دين مادي لا رُوحانية فيه، يدعو إلى الحيوانية والاستغراق في الملذات.

على أن هذا لا يجعلنا نُحجم عن بيان الحقِّ المجرَّد، خشية أن يتَّخذ منه المغرضون المحرِّفون ذريعة للتقوُّل والافتراء والتضليل: وهبني قلت: هذا الصُّبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء^(١)

تخوُّف بعض المسلمين من الدعوة إلى الحياة الإسلامية الحقَّة:

إنَّ كثيرًا من النَّاس - من المسلمين أنفسهم - يتوجَّسون خيفة، ويمسكون قلوبهم بأيديهم خوفًا وفزعًا، كلما دعاهم داع إلى الحياة الإسلامية الحقَّة، وما أسرع ما تلوح لمخيلاتهم صور شائهة مخيفة عن تلك الحياة، الحياة القاسية التي لا تعرف الرحمة، الضيقة التي لا تسمح بالسَّعة، البدوية التي لا تعرف التمدُّن، المحرومة التي لا تذوق طعم النعيم، الحزينة التي لا تعرف المرح، الصارمة التي لا ترخِّص في لهو، الجامدة التي لا يقربها تطوُّر.

وربَّما حلا لبعضهم عن جهل أو عن سوء قصد أن يتندَّروا بتلك الحياة، وقد استبدل النَّاس الجِمال فيها بركوب القطارات والسيارات،

(١) البيت للمتنبّي، انظر: ديوانه ص ٧٩، نشر دار بيروت للنشر، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

وقناديل الزيت بمصابيح الكهرباء، والزوايا والتكايا بالحدائق والمنتزهات، وأغلقت محلات الزينة والعطور بسبب الزُّهد والتقشف المفروض.. وهكذا.

سبب هذا الوهم العريض:

وعلة هذا الوهم العريض ما أشاعته الفكرة الصوفية المتطرفة من نظرة خاطئة عن الحياة والتمتع بطيباتها، وما تناقله بعض المتعلمين من موقف أديان أخرى من الحياة، ثم قاسوا الإسلام عليها ظلمًا، غافلين عن الفرق، جاهلين أن أول ما يضاف إليه الإسلام بحق: أنه «دين الحياة».

الحياة الإسلامية كما رسمها القرآن والسنة:

ونحن هنا نتحدث عن الحياة الإسلامية كما رسمها صريح القرآن، وصحيح السنة، وعمل الجيل الفاضل الذي ربّاه رسول الله ﷺ، ومن اتبعهم بإحسان، متجنبين الفهم السقيم للنصوص الثابتة، والانخداع الأبله بالأحاديث الواهية الأساس.

طبيعة الإنسان المادية والروحية:

اقتضت مشيئة الله أن يجعل في الأرض خليفة، وأن يكون هذا الخليفة بطبيعته قادرًا على تسخير الأرض والانتفاع بها وعمرانها، وإظهار حكمة الله فيها، بجوار قدرته على السجود والتخليق والاتصال بالملأ الأعلى، فلا غرو أن كانت طبيعة هذا الخليفة الإنسان المادية الروحية معًا، فله جسمه الكثيف، وله روحه الشفافة، له غرائزه التي تهبط به إلى الأرض، وله أشواقه التي تحلّق به إلى السماء، له شهوته التي تلحّ عليه في الطعام والشراب، وله قلبه الذي يتطلّع إلى نور الهداية.



لا تنافي بين الحكم والحكمة:

ولم يكن من الحكمة أن يخلق الله الإنسان هكذا، جسمًا من طبيعته أن يأكل ويشرب وينكح، ثم يقول للإنسان: لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح. إن هذا ينافي الحكمة في خلق الإنسان على هذا الوجه، وتعالى الله أن ينافي حكمه حكمته، ويصادم تشريعه تكوينه، ويناقض أمره خلقه، وهو صاحب الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

الإنكار على المتعجبين من بشرية الرسول:

وقد أنكر الله في قرآنه على الذين عجبوا أن يأكل النبي الطعام، وما كان لهم أن يعجبوا ما دام النبي بشرًا كسائر بني آدم، ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧]. ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان: ٢٠]. ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨].

التمتع بالطيبات من مقتضى الفطرة:

ولولا أن الناس أفسدوا دين الله، وأدخلوا فيه ما ليس منه، وشوهوا فيه ما كان منه، ما كان لذكر هذه القضية ومثلها في الدين من وجه، فإنها من مقتضى الفطرة، وموجب الطبيعة الإنسانية، وما كانت تحتاج إلى وحي سماوي، أو نداء تشريعي، فإن الدين لا يدعو الإنسان إلى ما ينساق إليه بطبيعته، ويندفع إليه بحكم غريزته، وكفى بالطبع سائقًا، وبالغريزة دافعًا!!

التمتع بطيبات الملابس:

وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة، لا المرتفعة ولا الدون،

فيتخيرون أجودها للجمعة والعيدين، ولقاء الإخوان، ولم يكن غير الأجدود عندهم قبيحًا.

وقد أخرج مسلم في صحيحه، من حديث عمر بن الخطاب أنه رأى حُلَّةَ سَيِّرَاءٍ تَبَاعَ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: لَوْ اشْتَرَيْتَهَا لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، وَلِلْوَفُودِ إِذَا قَدِمُوا عَلَيْكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذِهِ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ»^(١). فَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ ذَكَرَ التَّجَمُّلَ بِهَا، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ لَكُونِهَا حَرِيرًا.

وقد رُوِيَ عَنِ أَبِي الْعَالِيَةِ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا تَزَاوَرُوا تَجَمَّلُوا^(٢).

وبسنده قال: كَانَ الْمَهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ يَلْبَسُونَ لِبَاسًا مَرْتَفَعًا.

وقد اشترى تميم الداري حُلَّةً بِأَلْفِ دِرْهَمٍ، وَكَانَ يَصَلِّي بِأَصْحَابِهِ فِيهَا، بَلْ كَانَ يَقُومُ فِيهَا بِاللَّيْلِ إِلَى صَلَاتِهِ.

وقد كان ابن مسعود من أجود النَّاسِ ثوبًا، وَأَطْيَبِهِمْ رِيحًا^(٣).

وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَلْبَسُ الثِّيَابَ الْجِيَادَ، وَقَدْ خَرَجَ الْحَسَنُ وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ يَمْنِيَةٌ وَرْدَاءٌ يَمْنِيٌّ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَرَقَّدَ، فَقَالَ يَا أَسْتَاذَ، لَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَكُونَ هَكَذَا. فَقَالَ الْحَسَنُ: يَا ابْنَ أُمِّ فَرَقْدَ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْأَكْسِيَّةِ^(٤)؟ أَيِ الْأَكْسِيَّةِ الْغَلِيظَةِ.

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٨٨٦)، ومسلم في اللباس والزينة (٢٠٦٨)، عن ابن عمر.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٤٨).

(٣) رواه الطبراني (٢٤٠/٩).

(٤) رواه ابن سعد في الطبقات (١٦٩/٧).



وكان مالك بن أنس يلبس الثياب العدنية الجياد.

وكان ثوب أحمد بن حنبل يُشترى بنحو الدينار.

وقد كانوا يؤثرون البذاذة إلى حدٍّ، وربّما لبسوا خُلُقَان الثياب في بيوتهم، فإذا خرجوا تجمّلوا، ولبسوا ما لا يشتهرون به من الدون، ولا من الأعلى.

قال عيسى بن حازم: كان لباس إبراهيم بن أدهم كَتَانًا، قُطْنًا، فَرُوزة. لم أر عليه ثياب صوفٍ ولا ثياب شهرة.

قال أبو جعفر الطبري: ولقد أخطأ مَنْ آثر لباس الشعر والصوف على لباس القطن والكَتَان، مع وجود السبيل إليه من حِلِّه، ومَنْ أكل البقول والعدس واختاره على خبز البُرِّ، ومَنْ ترك أكل اللحم خوفًا من عارض شهوة النساء.

وجاء رجل إلى الحسن البصري يلبس الصوف، وعليه جُبَّة صوف، وعمامة صوف، ورداء صوف، فجلس فوضع بصره في الأرض، فجعل لا يرفع رأسه مُظهِرًا للخشوع، وكأنَّ الحسن خال فيه العُجب! فقال فيه الحسن: ها، إن قومًا جعلوا كبرهم في صدورهم، شَنَعوا - والله - دينهم بهذا الصوف. ثم قال: إن رسول الله ﷺ، كان يتعوّذ من زيِّ المنافقين. قالوا: يا أبا سعيد، وما زيِّ المنافقين؟ قال: خشوع اللباس، بغير خشوع القلب.

ورأى ابن عمر على ولده ثوبًا قبيحًا دونًا، فقال: لا تلبس هذا، فإن هذا ثوب شهرة^(١)!

(١) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (٦٧)، تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

وعن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ: «مَنْ لَبَسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ مِنَ الثِّيَابِ أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ ذَلَّةٍ»^(١).

عن أبي هريرة وزيد بن ثابت رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ، نهى عن الشهرتين. فقيل: يا رسول الله، وما الشهرتان؟ قال: «رِقَّةُ الثِّيَابِ وَغِلْظُهَا، وَلِينُهَا وَخَشُونَتُهَا، وَطَوْلُهَا وَقَصْرُهَا، وَلَكِنْ سَدَادٌ بَيْنَ ذَلِكَ وَاقْتِصَادٌ»^(٢).

وعن سفيان: البس من الثياب ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبك عليه الحكماء.

واعلم أن اللباس الذي يُزري بصاحبه، يتضمّن إظهار الزُّهد، وإظهار الفقر، وكأنّه لسانُ شكوى من الله ﷻ، ويوجبُ احتقارَ اللابس، وكلُّ ذلك مكروهٌ ومنهجيٌّ عنه.

عن الأحوص، عن أبيه قال: أتيتُ النبي ﷺ، وأنا قَشِفُ الهيئة، فقال: «هل لك من مالٍ؟». قلتُ: نعم. قال: «من أيِّ المال؟». قلتُ: من كلِّ المال قد آتانا الله ﷻ: من الإبل، والرقيق، والخيل، والغنم. قال: «فإذا آتاك الله ﷻ مالاً، فليُرِّ عليك»^(٣).

وعن جابر قال: أتانا رسول الله ﷺ زائرًا في منزلي، فرأى رجلًا شَعِثًا

(١) رواه أحمد (٥٦٦٤)، وقال مخرجه: حسن وهذا إسناد ضعيف. وأبو داود (٤٠٣٠)، وابن ماجه (٣٦٠٦)، كلاهما في اللباس، وأبو يعلى (٥٦٩٨)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٣٣٩٩)، عن ابن عمر.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥٨٢١)، وقال: أبو نعيم - أحد الرواة - هذا لا نعرفه.

(٣) رواه أحمد (١٥٨٩١)، وقال مخرجه: إسناد صحيح على شرط مسلم. وأبو داود في اللباس (٤٠٦٣)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٦)، وقال: حسن صحيح. والنسائي في الزينة (٥٢٢٣)، عن مالك بن نضلة.

فقال: «أما يجد هذا ما يُسكّن به رأسه؟». ورأى رجلاً عليه ثياب وسخة، فقال: «أما كان يجد هذا ما يغسل به ثيابه؟!»^(١).

عن عبد الله بن سلام قال: خطب رسول الله ﷺ في يوم الجمعة فقال: «ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوب مهنته؟!»^(٢). وكان لرسول الله ﷺ، بُرد يمنيّة، وإزار من نسج عُمان، فكان يلبسهما في يوم الجمعة، ويوم العيدين، ثم يُطويان^(٣).

رد ابن الجوزي على شبهة المتزمتين من المتصوّفة:

وقد ردّ ابن الجوزي على شبهة المتزمتين من المتصوّفين الذين يقولون: إن تجويد اللباس والعناية به هوّى للنفس، وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزيّن للخلق، وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق.

قال: «ليس كل ما تهواه النفس يُذمّ، ولا كلُّ التزيّن للناس يكره، وإنّما يُنهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه، أو كان على وجه الرياء في باب الدين. فإن الإنسان يجب أن يرى جميلاً، وذلك حظُّ النفس، ولا يلام فيه، ولهذا يسرّح شعره، وينظر في المرأة، ويسوّى عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشن إلى داخل، وظهارته الحسننة إلى خارج، وليس في شيء من هذا ما يُكره ولا يُذمّ.

روى مكحول، عن عائشة قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ،

(١) رواه أحمد (١٤٨٥٠)، وقال مخرجه: إسناده جيد. وأبو داود في اللباس (٤٠٦٢)، والنسائي في الكبرى في الزنية (٩٢٦١) مختصراً، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١٣٣٣).

(٢) رواه أبو داود في الصلاة (١٠٧٨)، ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٩٥)، وصحّحه الألباني في صحيح أبي داود (٩٥٣).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (١٩٢/١).

ينتظرونه على الباب، فخرج يريداهم، وفي الدار ركة فيها ماء، فجعل ينظر في الماء ويسوي شعره ولحيته، فقلت: يا رسول الله: وأنت تفعل هذا؟! هذا!

قال: «نعم، إذا خرج الرجل إلى إخوانه، فليهيئ من نفسه، فإن الله جميلٌ يحبُّ الجمال»^(١).

وفي رواية: خرج رسول الله ﷺ، فمرَّ برُكوةٍ لنا فيها ماء، فنظر إلى ظلِّه فيها، ثم سوي لحيته ورأسه، ثم مضى، فلما رجع قلتُ: يا رسول الله، تفعل هذا؟ قال: «وأى شيء فعلتُ؟ نظرتُ في ظلِّ الماء، فهياتُ من لحيتي ورأسي، إنه لا بأس أن يفعله الرجلُ المسلم، إذا خرج إلى إخوانه أن يهيئ من نفسه»^(٢).

* * *



(١) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب (٣٥٢)، تحقيق حمدي الدمرداش، نشر نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط ٢، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) تلبس إبليس ص ٢٤٨، ٢٤٩.

الفصل العاشر

حدود الزُّهْد في ضروريات الحياة في نظر الإمام الغزالي

نذكر في هذا الفصل حدود الزُّهْد المطلوب - في نظر الإمام الغزالي - من أرباب السلوك، ممَّن يريد أن يدخل في زمرة الزاهدين في الدُّنيا، الراغبين في الآخرة. وذلك فيما يتعلَّق بأساسيات الحياة أو ضرورياتها، من المأكل، والمشرب، والملبس، والمسكن، والأثاث، والمنكح (أي الزواج)، والجاه.

وقد عرض الغزالي لهذا الأمر في «الإحياء» وفصَّله، وقد ضيَّق فيه بحيث لا يتَّسع إلا لأناس متفرِّغين للتعبُّد، أو لأناس أوتوا من العزائم والقوَّة ما لم يؤتَ غيرهم. أمَّا جمهور المسلمين الكادحين في الأرض، الساعين في طلب الرزق، فيصعب عليهم تنفيذ ما قاله الغزالي.

كما أنَّ «برنامج» الغزالي الذي وضعه لم يراع فيه أنه لا يليق بأمة لها رسالة تقود الأمم، وتصنع الحضارة، وتمتلك القوة، وتعمر الأرض بالحقِّ والخير. وسناقش ذلك فيما بعد.

بيان تفصيل الزُّهْد فيما هو من ضروريات الحياة:

قال الإمام الغزالي: «اعلم أنَّ ما النَّاس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول، وإلى مهم، فالفضول كالخيل المسوَّمة مثلاً، إذ غالب النَّاس إنَّما يقطنها للترفُّه بركوبها، وهو قادر على المشي، والمهم، كالأكل والشرب.

ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول، فإن ذلك لا ينحصر، وإنما ينحصر المهم الضروري، والمهم أيضًا يتطرق إليه فضول، في مقداره وجنسه وأوقاته، فلا بد من بيان وجه الزُّهد فيه.

ضروريات الحياة الستة:

والمهمات ستة أمور: المطعم، والملبس، والمسكن وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه يطلب لأغراض، وهذه الستة من جملتها، وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حبّ الخلق له، وكيفية الاحتراز منه، في كتاب الرياء من ربع المهلكات، ونحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمات الستة.

١ - مهم المطعم:

الأول: المطعم، ولا بدّ للإنسان من قوتٍ حلالٍ يقيم صلبه، ولكن له طول وعرض، فلا بد من قبض طوله وعرضه حتّى يتم به الزُّهد، فأما طوله فبالإضافة إلى جملة العمر، فإن من يملك طعام يومه، فلا يقنع به. وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله، أمّا طوله، فلا يقصر إلا بقصر الأمل.

وأقل درجات الزُّهد فيه: الاقتصار على قدر دفع الجوع عند شدّة الجوع وخوف المرض.

ومن هذا حاله فإذا استقلّ بما تناوله، لم يدخر من غدائه لعشائه، وهذه هي الدرجة العليا.

الدرجة الثانية: أن يدّخر لشهر أو أربعين يومًا.

الدرجة الثالثة: أن يدّخر لسنة فقط، وهذه رتبة ضعفاء الزُّهاد.

ومن ادّخر لأكثر من ذلك، فتسميته زاهدًا محال؛ لأن من أمّل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدًّا، فلا يتمُّ منه الزُّهد، إلا إذا لم يكن له كسب، ولم يرضَ لنفسه الأخذ من أيدي الناس، كداود الطائي، فإنَّه ورث عشرين دينارًا فأمسكها وأنفقها في عشرين سنة، فهذا لا يضادُّ أصل الزُّهد، إلا عند مَنْ جعل التوكُّل شرط الزهد.

وأما عَرَضُه، فبالإضافة إلى المقدار، وأقلُّ درجاته في اليوم واللييلة: نصف رطل، وأوسطه: رطل، وأعلاه: مُدٌّ واحد. وهو ما قدره الله تعالى في إطعام المسكين في الكفَّارة، وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغال به. ومن لم يقدر على الاقتصار على مدٍّ لم يكن له من الزُّهد في البطن نصيب.

وأما بالإضافة إلى الجنس، فأقلُّه: كلُّ ما يقوت، ولو الخبز من النخالة، وأوسطه: خبز الشعير والذرة، وأعلاه: خبز البُرِّ غير منخول، فإذا مُيِّز من النخالة وصار حُوَّارِي (خبزًا أبيض) فقد دخل في التنعُّم، وخرج عن آخر أبواب الزُّهد، فضلًا عن أوائله.

وأما الأذم، فأقلُّه: الملح أو البقل والخل، وأوسطه: الزيت أو يسير من الأدهان، أي دهن كان، وأعلاه: اللحم، أي لحم كان، وذلك في الأسبوع مرَّة أو مرَّتين. فإن صار دائمًا أو أكثر من مرتين في الأسبوع، خرج عن آخر أبواب الزُّهد، فلم يكن صاحبه زاهدًا في البطن أصلًا.

وأما بالإضافة إلى الوقت، فأقلُّه في اليوم واللييلة: مرَّة، وهو أن يكون صائمًا، وأوسطه: أن يصوم ويشرب ليلة، ولا يأكل، ويأكل ليلة ولا يشرب، وأعلاه: أن ينتهي إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعًا وما زاد عليه.

أحوال الرسول والصحابة في زهدهم في المطاعم:

ولينظر إلى أحوال رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم، في كيفية زهدهم في المطاعم وتركهم الأدم.

قالت عائشة رضي الله عنها: كانت تأتي علينا أربعون ليلة، وما يوقد في بيت رسول الله ﷺ مصباح ولا نار. قيل لها: فبم كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين التمر والماء^(١). وهذا ترك اللحم والمرقة والأدم.

وقال الحسن: كان رسول الله ﷺ يركب الحمار، ويلبس الصوف، وينتعل المخصوف، ويلعق أصابعه، ويأكل على الأرض، ويقول: «إنما أنا عبد، أكل كما تأكل العبيد، وأجلس كما تجلس العبيد»^(٢).

وقال المسيح عليه السلام: بحق أقول لكم: إنه من طلب الفردوس، فخبز الشعير له، والنوم على المزابل مع الكلاب كثير^(٣).

وقال الفضيل: ما شبع رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر^(٤).

وكان المسيح عليه السلام يقول: يا بني إسرائيل، عليكم بالماء القراح، والبقل البري، وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر، فإنكم لن تقوموا بشكره^(٥).

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (٩٦٩)، والطيالسي (١٥٧٥)، والحاكم في الأطعمة (١٠٦/٤)، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن عائشة.

(٢) رواه هناد في الزهد (٧٩٩)، عن الحسن البصري.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤٣/٤٧).

(٤) عن عائشة: ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة، من طعام البر ثلاث ليال تباعاً، حتى قبض. متفق عليه: رواه البخاري في الأطعمة (٥٤١٦)، ومسلم في الزهد والرقائق (٢٩٧٠).

(٥) رواه مالك في صفة النبي (٣٤٣٩) بلاغاً، تحقيق الأعظمي.

٢ - مهم الملبس:

المهم الثاني: الملبس، وأقل درجته: ما يدفع الحرَّ والبرد، ويستتر العورة، وهو كساء يتغطى به. وأوسطه: قميص وقُنسوة ونعلان. وأعلاه: أن يكون معه منديل وسراويل. وما جاوز هذا من حيث المقدار، فهو مجاوز حدَّ الزهد.

وشرط الزاهد: ألا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه، بل يلزمه القعود في البيت، فإذا صار صاحب قميصين وسراويلين ومنديلين، فقد خرج من جميع ألوان الزُّهد من حيث المقدار.

أمَّا الجنس، فأقله: المُسُوح الخَشِنة، وأوسطه: الصوف الخشن، وأعلاه: القطن الغليظ.

وأمَّا من حيث الوقت، فأقصاه: ما يستر سنة. وأقله: ما يبقى يومًا، حتَّى رقع بعضهم ثوبه بورق الشجر، وإن كان يتسارع الجفاف إليه. وأوسطه: ما يتماسك عليه شهرًا وما يقاربه. فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروجٌ إلى طول الأمل، وهو مضادٌّ للزهد، إلا^(١) إذا كان المطلوب خشونته، ثم قد يتبع ذلك قوّته ودوامه، فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدّق به، فإن أمسكه لم يكن زاهدًا، بل كان محببًا للدنيا.

أحوال النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم في زهدهم في الملبس: ولينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة، كيف تركوا الملابس. قال

(١) في المطبوعة التي اعتمدنا عليها: وإلا، والمثبت أليق بالسياق.

أبو بردة: أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها، كساء ملبّداً، وإزاراً غليظاً، فقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين ^(١).

ولبس خاتماً من ذهب، ونظر إليه على المنبر نظرة، فرمى به، فقال: «شغلني هذا عنكم، نظرة إليه، ونظرة إليكم» ^(٢).

وعُدَّ على قميصِ عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رُقعة بعضها من آدم ^(٣).

واشترى علي بن أبي طالب رضي الله عنه ثوباً بثلاثة دراهم ولبسه، وهو في الخلافة، وقطع كُمّيه من الرُّسغين وقال: الحمد لله الذي كساني هذا من رِيَاشِه ^(٤).

وقال الثوري وغيره: البس من الثياب ما لا يَشْهَرُك عند العلماء، ولا يَحْقِرُك عند الجهّال.

وكان يقول: إنّ الفقير ليمرُّ بي وأنا أصلّي، فأدعه يجوز، ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البزّة فأمقته ولا أدعه يجوز! وقال بعضهم: قوّمت ثوبي سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دوانق. وقال ابن شبرمة: خير ثيابي ما خدمني، وشُرّها ما خدمته.

وقال بعض السلف: البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة، ولا تلبس منها ما يَشْهَرُك، فيُنظر إليك.

وقال أبو سليمان الداراني: الثياب ثلاثة: ثوب لله، وهو ما يستر

(١) متَّفَق عليه: رواه البخاري (٥٨١٨)، ومسلم (٢٠٨٠)، كلاهما في اللباس، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (٢٩٦٠)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والنسائي (٥٢٨٩)،

وابن جبّان (٤٥٩٣)، عن ابن عباس.

(٣) رواه أبو داود في الزهد (٥٥)، عن أنس بن مالك.

(٤) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٤٨٣/٤٢)، عن ابن عباس.



العورة، وثوب للنفس، وهو ما يطلب لينة، وثوب للناس، وهو ما يطلب جوهره وحسنه.

وقال بعضهم: مَنْ رَقَّ ثوبه رَقَّ دينه.

وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهماً، وكان الخوَّاص لا يلبس أكثر من قطعتين؛ قميص ومئزر تحته، وربَّما يعطف ذيل قميصه على رأسه.

ونظر رافع بن خديج إلى بشر بن مَرْوان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال: انظروا إلى أميركم، يعظ النَّاس وعليه ثياب الفسَّاق! وكان عليه ثياب رفاق^(١).

وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزَّته، فجعل يتكلم في الزُّهد، فوضع أبو ذر راحته على فيه، وجعل يضرب به، فغضب ابن عامر، فشكاه إلى عمر، فقال: أنت صنعتَ بنفسك، تتكلم في الزُّهد بين يديه بهذه البزَّة.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: إِنَّ الله تعالى أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس، ليقتدي بهم الغني، ولا يزري بالفقير فقره^(٢).

ولما عوتب في خشونة لباسه قال: هو أقرب إلى التواضع، وأجدر أن يقتدي به المسلم^(٣).

(١) قوت القلوب (٢٨٩/١).

(٢) قوت القلوب (٤٢٧/١).

(٣) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (١٤٣/٣)، وسكت عنه هو والذهبي، وأبو نعيم في الحلية (٨٣/١)، عن زيد بن وهب.

ونهى ﷺ عن التنعم، وقال «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَادًا لَيْسُوا بِالْمَتَنَعِّمِينَ»^(١).
 وقال عليٌّ لعمر رضي الله عنهما: إن أردت أن تلحق بصاحبك، فارفع القميص،
 ونكس الإزار، واخسف النعل، وكُلْ دون الشَّبَع^(٢).
 وقال عمر: اخشوشنوا، وإياكم وزِيَّ العجم كسرى وقيصر.
 وقال عليٌّ رضي الله عنه: مَنْ تَزَيَّا بَزِيٍّ قَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ^(٣).
 وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: ما لك لا تلبس الجيد من الثياب؟
 فقال: وما للعبد والثوب الحسن؟ فإذا عتق فله - والله - ثيابٌ لا تبلى
 أبدًا.

ويروى عن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه أنه كان له جُبَّةٌ شعر وكساء
 يلبسهما من الليل إذا قام يصلي.

٣ - مُهِمُّ الْمَسْكِنِ:

المهم الثالث المسكن: وللزهد فيه أيضًا ثلاث درجات:
 أعلاها: ألا يطلب موضعًا خاصًا لنفسه، فيقنع بزوايا المساجد
 كأصحاب الصُّفَّة.
 وأوسطها: أن يطلب موضعًا خاصًا لنفسه، مثل كوخ مبنيٍّ من سَعَفٍ
 أو خُصٍّ أو ما يشبهه.

(١) رواه أحمد (٢٢١٠٥)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والبيهقي في شعب الإيمان (٥٧٦٦)،
 وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٧٨٣٥): رواه أحمد ورجاله ثقات. وحسنه الألباني في
 صحيح الترغيب والترهيب (٢١٤٦)، عن معاذ بن جبل.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥٢٨٩).

(٣) قوت القلوب (٤٢٨/١).

وأدناها: أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة، فإن كان قدر سعة المسكن على قدر حاجته من غير زيادة، ولم يكن فيه زينة، لم يخرج هذا القدر عن آخر درجات الزهد، فإن طلب التشييد والتجصيص والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع، فقد جاوز بالكلية حد الزهد في المسكن.

فاختلاف جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو بالطين أو بالأجر، واختلاف قدره بالسعة والضيق، واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات، بأن يكون مملوكًا أو مستأجرًا أو مستعارًا، وللزهد مدخل في جميع ذلك.

وبالجملة، كل ما يراد للضرورة، فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة، وقدرة الضرورة من الدنيا آلة الدين ووسيلته، وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين.

والغرض من المسكن: دفع المطر والبرد، ودفع الأعين والأذى، وأقل الدرجات فيه معلوم، وما زاد عليه فهو الفضول، والفضول كله من الدنيا، وطالب الفضول والساعي له بعيد من الزهد جدًا.

وقال النبي ﷺ: «إذا أراد الله بعبد شرًا، أهلك ماله في الماء والطين»^(١).

وقال عبد الله بن عمرو: مرّ علينا رسول الله ﷺ، ونحن نعالج خصًا،

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٨٥/٢)، والأوسط (٩٣٦٩)، وفي الصغير (١١٢٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٢٧٨): رواه الطبراني في الثلاثة، ورجاله رجال الصحيح خلا شيخ الطبراني، ولم أجد من ضعفه. عن جابر بن عبد الله. وعزاه العراقي لأبي داود في تخريج الإحياء ص ١٥٩٢، عن عائشة، وليس فيه.

فقال: «ما هذا؟». قلنا: خُصَّ لنا قد وهى. فقال: «أرى الأمرَ أعجلُ من ذلك»^(١).

وقال الحسنُ: دخلنا على صفوانَ بن مَحَيْرِيزٍ، وهو في بيت من قَصَبٍ قد مال عليه، فقيل له: لو أصلحتَه. فقال: كم من رجل قد مات، وهذا قائمٌ على حاله.

وفي الخبر: «كلُّ نفقةٍ في الأرض يؤجرُ عليها، إلا ما أنفقه في التراب» أو قال: «في البناء»^(٢).

وكان من السَّلفِ مَنْ يبني داره مرارًا في مدَّة عمره لضعف بنائه، وقصيرِ أمله، وزُهده في إحكام البنیان. وكان منهم مَنْ إذا حجَّ أو غزا نزع بيته، أو وهبه لجيرانه، فإذا رجع أعاده. وكانت بيوتهم من الحشيش والجلود، وهي عادة العرب الآن ببلاد اليمن، وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة.

قال الحسن: كنتُ إذا دخلتُ بيوت رسول الله ﷺ، ضربتُ بيدي إلى السقف.

وقال عمرو بن دينار: إذا أعلى العبد البناء فوق ستة أذرع، ناداه مَلِكٌ: إلى أين يا أفسق الفاسقين^(٣)؟

وقد نهى سفيان عن النظر إلى بناء مشيّد، وقال: لولا نظر النَّاسِ لَمَّا شيدوا، فالنظر إليه مُعينٌ عليه.

(١) رواه أحمد (٦٥٠٢)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وأبو داود في الأدب

(٢٣٦)، والترمذي في الزهد (٢٣٣٥)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في الزهد (٤١٦٠)،

عن عبد الله بن عمرو، كما أثبتناه، وهو الصواب. وفي إحياء علوم الدين (٢٣٦/٤): ابن عمر.

(٢) رواه البخاري في المرضي (٥٦٧٢)، وأحمد (٢١٠٦٩)، عن خباب موقوفًا.

(٣) قوت القلوب (٤٣٣/١).



وقال الفضيل: إنني لا أعجب ممن بنى وترك، ولكن أعجب ممن نظر إليه ولم يعتبر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يأتي قوم يرفعون الطين، ويضعون الدين، ويستعملون البراذين، يُصلُّون إلى قبلكم، ويموتون على غير دينكم.

٤ - مهم الأثاث:

وللزهد فيه أيضًا درجات:

أعلاها: حال عيسى المسيح صلوات الله عليه وسلامه وعلى كل عبد مصطفى، إذ كان لا يصحبه إلا مُشط وكوز، فرأى إنسانًا يمشط لحيته بأصابعه، فرمى بالمُشط، ورأى آخر يشرب من النهر بكفيه، فرمى بالكوز. وهذا حكم كلِّ أثاث، فإنه إنَّما يراد لمقصود، فإذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة، وما لا يُستغنى عنه، فيقتصر فيه على أقلِّ الدرجات، وهو الخزف في كل ما يكفي فيه الخزف، ولا يبالي بأن يكون مكسور الطَّرف، إذا كان المقصود يحصل به.

وأوسطها: أن يكون له أثاث بقدر الحاجة، صحيح في نفسه، ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد، كالذي معه قصعة يأكل فيها، ويشرب فيها، ويحفظ المتاع فيها، وكان السلف يستحبُّون استعمال آلة واحدة في أشياء للتخفيف.

وأدناها: أن يكون له بعدد كلِّ حاجة آلة، من الجنس النازل الخسيس، فإن زاد في العدد أو في نفاسة الجنس خرج عن جميع أبواب الزُّهد، وركن إلى طلب الفضول.

ولينظر إلى سيرة رسول الله صلَّى الله عليه وآله، وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم

أجمعين، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ينام عليه وسادة من آدم، حشوها ليف^(١).

وروي أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشريط، فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام، فدمعت عيناه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب؟». قال: ذكرت كسرى وقيصر، وما هما فيه من الملوك، وذكرت وأنت حبيب الله وصفية ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط. فقال صلى الله عليه وسلم: «أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟». قال: بلى، يا رسول الله. قال: «فذلك كذلك»^(٢).

ودخل رجل على أبي ذرّ، فجعل يقلّب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذرّ، ما أرى في بيتك متاعاً، ولا غير ذلك من الأثاث؟ فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا. فقال: إنه لا بدّ لك من متاع، ما دمت هاهنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه^(٣)!

وقال الحسن: أدركت سبعين من الأخيار، ما لأحدهم إلا ثوبه، وما وضع أحدهم بينه وبين الأرض ثوباً قط، كان إذا أراد النوم باشر الأرض بجسمه، وجعل ثوبه فوقه.

٥ - مهم المنكح (الزواج):

المهم الخامس: المنكح، وقد قال قائلون: لا معنى للزهد في أصل

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الرقاق (٦٤٥٦)، ومسلم في اللباس (٢٠٨٢)، عن عائشة.

(٢) رواه أحمد (١٢٤١٧)، وقال مخرجه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن. والبخاري في الأدب المفرد (١١٦٣)، عن أنس.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠١٦٨).

النكاح، ولا في كثرته، وإليه ذهب سهل بن عبد الله، وقال: قد حبّب إلى سيد الزاهدين النساء، فكيف زهد فيهن؟ ووافقه على هذا القول ابن عيينة، وقال: كان أزهد الصحابة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان له أربع نسوة، وبضع عشرة سُرّيّة.

والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمته الله، إذ قال: كلُّ ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد، فهو عليك مشؤوم^(١). والمرأة قد تكون شاغلاً عن الله.

فلا يجوز أن يترك النكاح زهداً في لذّته من غير خوف آفة أخرى، وهذا ما عناه سهل لا محالة، ولأجله نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإذا ثبت هذا، فمن حاله حال رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنه لا يشغله كثرة النسوة، ولا اشتغال القلب بإصلاحهن، والإنفاق عليهن، فلا معنى لزهده فيهن، حذرًا من مجرّد لذة الوقاع والنظر، ولكن أنى يُتصوّر ذلك لغير الأنبياء والأولياء، فأكثر النَّاس يشغلهم كثرة النسوان، فينبغي أن يترك الأصل إن كان يشغله، وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهن، أو جمال المرأة، فليُنكح واحدة غير جميلة، وليراع قلبه في ذلك. قال أبو سليمان: الزُّهد في النساء أن يختار المرأة الدُّون أو اليتيمة، على المرأة الجميلة والشريفة.

وقال الجُنَيْد رحمته الله: أحبُّ للمريد المبتدئ ألا يشغل قلبه بثلاث، وإلا تغيّر حاله: التكسب، وطلب الحديث، والتزوُّج! وقال: أحبُّ للصوفي ألا يكتب ولا يقرأ! لأنّه أجمع لهمّه. فإذا ظهر أن لذة النكاح كلذّة الأكل، فما شغل عن الله فهو محذور فيهما جميعًا.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٦٤/٩).

٦ - مُهِمُّ الْمَالِ وَالْجَاهِ:

المهم السادس: ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة، وهو المال والجاه. وأما المال فهو ضروري في المعيشة، أعني القليل منه، فإن كان كسُوبًا، فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، كان بعضهم إذا اكتسب حبتين رفع سَفْطَه^(١) وقام، هذا شرط الزُّهْد، فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة، فقد خرج عن حدِّ ضعفاء الزهاد وأقويائهم جميعًا، وإن كانت له ضَيْعَةٌ ولم يكن له قوَّة يقين في التوكُّل، فأمسك منها مقدار ما يكفي رَيْعَه لسنة واحدة، فلا يخرج بهذا القدر عن الزُّهْد، بشرط أن يتصدَّق بكلِّ ما يفضل عن كفاية سنته، ولكن يكون من ضعفاء الزهاد، فإن شَرَطَ التوكُّل في الزُّهْد، كما شرطه أُويسُ القَرْنِي رضي الله عنه، فلا يكون هذا من الزهاد، وقولنا: إنه خرج من حدِّ الزهاد. نعني به أن ما وُعدَ للزاهدين في الدار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله، وإلا فاسم الزُّهْد قد لا يفارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة.

فإذا ما يضطر الإنسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور، بل الزائد على الحاجة سَمٌّ قاتل، والمقتصر على الضرورة دواء نافع. وما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سمًّا قاتلا فهو مضرٌّ، وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء نافعًا، لكنه قليل الضرر، والسمُّ محذور شربه، والدواء فرض تناوله، وما بينهما مشتبه أمره، فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه، ومن تساهل فإنما يتساهل على نفسه، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه، وردَّ نفسه إلى مضيق الضرورة، فهو الآخذ بالحزم، وهو من الفرق الناجية لا محالة^(٢) انتهى.

(١) السفط: وعاء من قضبان الشجر ونحوها تُوضَع فيه الأشياء كالفاكهة.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/٢٣٠ - ٢٤٠).



وسأتكلم في الفصل الحادي عشر والأخير من هذا الباب عن تجاوزات الإمام الغزالي للمنهج الوسطي في الزُّهد، وأقف معه - على حُبِّي وتقديري وشدة إعجابي به - وقفات نقدية جنح فيها - وهو من كبار أئمة الوسطية - عن الوسط في هذه القضية إلى بعض أطراف الغلو.



الفصل الحادي عشر

وقفات نقدية أمام الغلاة في الزهد

اجتهاد الصوفية المخلصين في طاعة الله:

المخلصون من الصوفية قوم مجتهدون في طاعة الله، ولكنهم ليسوا أنبياء معصومين، ولا ملائكة مطهَّرين، بل هم بشر يصيبون ويُخطئون، ومَن كان من أهل العلم منهم، فهو معذور في خطئه، بل ماجور عليه أجرًا واحدًا. وقد نقلنا عن كثير منهم أقوالاً حسنة مقبولة في بيان حقيقة الزُّهد، والتعريف به، كلٌّ منهم يعبرُ فيه عن حاله ووجدانه، ومجموعها يعطي صورة طيبة عن الزُّهد والزاهدين، الذين يعيشون في الدُّنيا بقلوب أهل الآخرة، ويمشون على الأرض وأعينهم ترنو إلى السماء، ويتعاملون بظاهريهم مع الخلق وبواطنهم معلقة بالخالق.

ولكن منهم مَن بالغ في تصوير الزُّهد، بحيث يحرم النَّاس من طبيبات الدُّنيا، ويُشعر المسلم المتديّن في عصرنا بأنه قليل الدين، وأنه لا أمل له أن يصبح من أهل الآخرة، أو يقرب من أهل التقوى، الذين قال الله فيهم: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

ومن هؤلاء الإمام أبو حامد الغزالي الذي أحبه وأقدره لأمانته، وإخلاصه لله، وخدمته للعلم والدين، ومقاومة أعداء الإسلام والمسلمين، حتَّى سُمِّي بحق «حجّة الإسلام». فقد بالغ في تقدير ما ينبغي للزاهدين

من مأكّل ومشرب وملبس ومسكن وأثاث، بحيث يظنّ المسلم المعاصر أنّه بعدّ جدًّا عن حقيقة التديّن المنشود.

وهؤلاء هم الذين نقف معهم في هذا المبحث وقفة نقدية، فليس في العلم كبير، وليس بعد محمد ﷺ معصوم.

أولاً: مصطلح الزُّهد والزهاد ليس مصطلحاً قرآنيّاً ولا نبويّاً:

ويهمُّني أن أوكد هنا ما ذكرته من قبل، وهو ما لا ينبغي أن يغيب عنا، وهو أن مصطلح «الزهد» أو «الزهاد» أو «الزاهدين» ليس من «المصطلحات القرآنية» أو «النبوية»، التي يعرفها العلماء والدارسون.

إنّما يعرف العلماء والدارسون المسلمون مفاهيم ومصطلحات «الإيمان» و«الصلاح» و«البر» و«التقوى» و«الإحسان» و«العبادة» و«العبودية للرحمن» ونحوها، وهي التي رُتبت عليها خيرات الدُّنيا والآخرة، ويعرف العلماء المسلمون المشتتات منها، التي تكرّرت في القرآن الكريم، تنويهاً بها، وثناء على أصحابها، ووعداً لهم بأحسن الجزاء في الآخرة والأولى، وبياناً لخصالهم وأوصافهم التي تميّزوا بها، واستحقُّوا هذا العطاء، وذاك الجزاء من قبل الله تعالى عليهم.

من أوصاف المؤمنين في القرآن:

ف نجد في القرآن بياناً ناصحاً جليّاً لأوصاف «المؤمنين»، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقوله في أول سورة «المؤمنون»: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

وقوله في سورة الحجرات: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقوله في سورة النور: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وفي سورة الأحزاب: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

كما بيّن القرآن صفات الكافرين الصرحاء، والمنافقين المتلونين، ليميّز المؤمنين غاية التمييز.

من صفات الْمُتَّقِينَ فِي الْقُرْآنِ:

وكذلك ميّز القرآن صفات «المتقين» بجلاء، كما في أول سورة البقرة، فقد أخبر الله عن كتابه أنه ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِفُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢ - ٥].

وفي السورة نفسها بيّن القرآن حقيقة البرّ، الذي يعبر عن حقيقة التدين، وليس عن مجرد شكله، ويردّ على اليهود الذين حاولوا أن يجعلوه مجرد الاتجاه إلى قبة في المشرق أو المغرب، فيقول تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي سورة آل عمران بيّن القرآن خصال «المُتَّقِينَ»، الذين يستحقون جنة الله، فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

وفي سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. فبيّن القرآن أن الشيطان يمكن أن يمسّ المُتَّقِينَ، فليسوا ملائكة مطهّرين، ولا أنبياء معصومين، ولكن سرعان ما يتذكرون جلال الله تعالى ورقابته وحسابه وجزاءه، فإذا هم مبصرون الحقيقة، ومبصرون الغاية، ومبصرون الطريق.

بل إن المُتَّقِينَ قد يرتكبون الكبيرة بفعل الفاحشة، أو الصغيرة بظلم

النفس، ولكنهم سرعان ما يذكرون الله فيستغفرون لذنوبهم، ويتوبون إلى ربهم: ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

صفات الأبرار والمحسنين:

كما بيّن القرآن وصف الأبرار من عباد الله، الذين يسأل الكثيرون أن يتوفاهم الله معهم، ﴿وَتَوَقَّنا مَعَ الْأَبْرارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فيجلبهم ربنا في سورة الإنسان، فيقول: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿ فَوَقَّاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿ وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿ [الإنسان: ٧ - ١٢].

وبيّن القرآن كذلك صفات المحسنين، فقال في سورة الذاريات: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿ [الذاريات: ١٦ - ١٩].

صفات عباد الرحمن:

وبيّن القرآن صفات عباد الرحمن فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخَلَّدُ فِيهِ مُهَكَانًا ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ

عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *
 وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَنْوِبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ
 وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا
 صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ
 وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا * أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ
 فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا * خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * [الفرقان: ٦٣ - ٧٦].

صفات أولي الألباب:

ويبين القرآن صفات أولي الألباب، فيقول في سورة الرعد: ﴿الَّذِينَ
 يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ
 رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا
 مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّتٌ عَدْنٍ
 يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ *
 سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ * [الرعد: ٢٠ - ٢٤].

كما يقول تعالى في سورة الزمر: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ
 فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ * [الزمر: ١٧، ١٨].

كما حدثتنا سورة آل عمران عن بعض أوصافهم: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ
 قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ
 هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا
 لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ
 فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا
 وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ *

[آل عمران: ١٩١ - ١٩٤].

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ، فَهَذِهِ أَوْصَافُهُمْ، وَهَذِهِ مُمِيزَاتُهُمْ مَبِينَةٌ مَفْصَلَةٌ، مُشْرِقَةٌ نَاصِعَةٌ، وَفِي السَّنَةِ بَيَانٌ أَوْفَى وَتَفْصِيلٌ أَكْثَرُ، حَتَّىٰ إِنْ «شَعْبَ الْإِيمَانِ» قَدْ صَنَّفَ لَهَا الْإِمَامُ الْبِيهَقِيُّ مَصْنَفًا كَبِيرًا، ظَهَرَ مُحَقَّقًا فِي سَبْعَةِ عَشَرَ جُزْءًا.

ليس كل ما يروى عن الزهاد مقبولاً شرعاً:

أَمَّا «الزُّهَادُ» أَوْ «الزَّاهِدُونَ» فَلَا نَجِدُ لَهُمْ ذِكْرًا فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السَّنَةِ، وَإِنَّمَا نَجِدُ مَنْ يَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ، كَلَامٌ أَنَسَ مِنْ أَهْلِ التَّجْرِبَةِ الرُّوحِيَّةِ، مَمَّنْ يَصِيبُونَ وَيَخْطِئُونَ، وَيَغْلُونَ أَوْ يَقْصِرُونَ، إِذْ لَا عَصْمَةَ لَهُمْ، وَلَا وَحْيَ يَسُدُّهُمْ إِذَا أَخْطَؤُوا، فَلَا غُرُو أَنْ تَجِدَ فِي سُلُوكِيَّاتِهِمْ وَفِي أَقْوَالِهِمْ كَثِيرًا مِنَ التَّجَاوِزَاتِ، الَّتِي قَدْ تُوَصَّفُ بِالتَّشَدُّدِ، أَوْ تَتَّهَمُ بِالقِسْوَةِ عَلَى النَّفْسِ، أَوْ بِالْبَعْدِ عَنِ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْكُونِ وَالْمَجْتَمَعِ.

مثل دخولهم البادية المقفرة بغير زاد ولا رُفْقَةٍ، ومثل عيشهم على خبز الشعير الجاف بغير ملح، واعتبار الملح ترفاً يفسد عليهم طريقتهم، وتحريمهم شرب الماء البارد على أنفسهم، وتحريم بعضهم على أنفسهم أن يناموا على فِرَاشٍ، أَوْ يَضْطَجِعُوا عَلَى جَنُوبِهِمْ، وَاسْتِمْرَارِهِمْ شَهْرًا طَوِيلَةً، بِلِ سَنِينَ عَدِيدَةٍ بِلَا نَوْمٍ لَيْلٍ، حَتَّىٰ رَوَى بَعْضُهُمْ: أَنَّهُ عَاشَرَ وَاحِدًا مِنْهُمْ أَرْبَعَ سَنَوَاتٍ، فَلَمْ يَرَهُ نَامَ فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارًا! فَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبا: ١٠، ١١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣]؟

ومثل أن يعيش أحدهم بثوب واحد، إذا أراد أن يغسله لم يخرج من بيته، ومثل أن يحرموا على أنفسهم بناء بيت يسكنون فيه، فهذا من طول الأمل الذي يتنافى مع الزهد، كما ألزموا أنفسهم لبس الصوف الخشن، وحرّموا على أنفسهم التجمّل وزينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق.

تحذيره ﷺ من الغلو في الدين:

عن أبي قلابة: أراد أناس من أصحاب رسول الله ﷺ أن يرفضوا الدنيا، ويتركوا النساء، ويترهبوا، فقام رسول الله ﷺ، فغلظ فيهم المقالة، ثم قال: «إِنَّمَا هَلِكُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالتَّشْدِيدِ، شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَأُولَئِكَ بَقَايَاهُمْ فِي الدِّيَارِ وَالصَّوَامِعِ، فَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ، وَحُجُّوا وَعَمَرُوا، وَاسْتَقِيمُوا يُسْتَقَمْ بِكُمْ»^(١).

قال: ونزلت فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧]^(٢).

وفي الحديث: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلِكُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ»^(٣).

بهذه الصيحات الهادرة، والتوجيهات الجليلة، وقف النبي ﷺ بأصحابه رضي الله عنهم عند حدود الله، وأرادهم أن يكونوا أمة وسطاً، وشهراً سلاحه في وجه كل نزعة تدعو إلى الغلو والانحراف، وقد فهم أصحابه روح الإسلام، واهتدوا بهديه، وقوم بعضهم بعضاً إذا رأى مبالغة أو زيفاً.

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٠٣١).

(٢) انظر: الدر المنثور للسيوطي (١٤٠/٣)، نشر دار الفكر، بيروت.

(٣) رواه أحمد (١٨٥١)، وقال مخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والنسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، كلاهما في المناسك، عن ابن عباس.

بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي:

كان أبو الدرداء رجلاً نزاعاً إلى كثرة العبادة، زاهداً في الحياة الدنيا، وكان سلمان الفارسي أخاً له في الله، استطاع أن يتمثل تعاليم الإسلام حقاً، ويتحرّر من آثار الديانات التي مارسها قبل إسلامه، من وثنية فارسية، أو كتابية (رهبانية) نصرانية.

أخرج البخاري، عن أبي جحيفة قال: آخى النبي بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء يوماً، فرأى أم الدرداء متبذلة^(١).

فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء، ليس له حاجة في الدنيا.

فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً، فقال: كل، فإني صائم.

قال سلمان: ما أنا بآكل حتى تأكل. قال: فأكل.

فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال سلمان: نم. فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم. فنام.

فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصلياً، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه.

فأتى أبو الدرداء للنبي ﷺ، فذكر ذلك له، فقال ﷺ: «صدق سلمان»^(٢).

(١) أي: لابسة ثياب البذلة أي المهنة، ليس عليها لباس الزينة كما تفعل الزوجات لأزواجهن.

(٢) رواه البخاري في الصوم (١٩٦٨)، عن أبي جحيفة.



تصدّي ابنُ الجوزي للمنحرفين عن المنهج الوسط في كتابه «تلبيس إبليس»:

من أجل ذلك تصدّي الإمام الموسوعي أبو الفرج ابن الجوزي، لهذه المبالغات في التّشُف، والحرمان من المأكّل والمشرب، والملبس والمسكن وغيرها، وبَيّن مخالفتها للمنهج الشرعي المستمد من القرآن والسُّنّة، وذلك في كتابه النقدي القيّم: «تلبيس إبليس»، الذي نقد فيه فئات المجتمع المختلفة بميزان القرآن والسُّنّة، قال: وقيل لعبد الرحمن بن مهدي: يا أبا سعيد، إن ببلدنا قومًا من هؤلاء الصوفية؟ قال: لا تقرب من هؤلاء، فإننا قد رأينا من هؤلاء قومًا أخرجهم الأمر إلى الجنون، وبعضهم أخرجهم إلى الزندقة. ثم قال: خرج سفيان الثوري في سفر، فشيعته، وكان معه سُفرة فيها فالودج، وكان فيها حَمَلٌ، ويقول: إن الدابة إذا أحسن إليها عملت.

وقال رجل لأحمد بن حنبل: إنني منذ خمس عشرة سنة قد ولع بي إبليس، وربّما وجدتُ وسوسة، أتفكر في الله وَعَلَّكَ! فقال أحمد: لعلك كنتَ تدمن الصوم! أفطر وكُل دسمًا، وجالس القُصّاص.

قال ابن الجوزي: فإن قيل: كيف تمنعون من التقلُّ، وقد رويتم أن عمر رضي الله عنه، كان يأكل كلّ يوم إحدى عشرة لقمة، وأن ابن الزبير كان يبقى أسبوعًا لا يأكل، وإن إبراهيم التيمي بقي شهرين.

قلنا: قد يجري للإنسان من هذا الفن في بعض الأوقات، غير أنه لا يدوم عليه، ولا يقصد الترقّي إليه. وقد كان في السلف من يجوع عَوَزًا، وفيهم من كان الصبر له عادة لا يضُرُّ بدنه، وفي العرب من يبقى أيامًا لا يزيد على شرب اللبن. ونحن لا نأمر بالشَّبَع، إنّما ننهي عن جوع

يضعف القوّة، ويؤذي البدن، وإذا ضعف البدن قلّت العبادة، فإن حملت البدن قوّة الشباب، جاء الشيب فأقذع^(١) بالراكب.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان يُطرح لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الصاع من التمر، فيأكله حتّى حشّفه^(٢).

وقد روينا عن إبراهيم بن أدهم، أنه اشترى زبدًا وعسلًا وخبزًا حواري. ف قيل له: هذا كلّه تأكله؟ فقال: إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال، وإذا عدنا صبرنا صبر الرجال. اهـ^(٣).

وروّوا عن الحسن البصري أنه دُعي إلى طعام ومعه فرقد السبّخي - أحد الزاهدين - وأصحابه، فقعدوا على المائدة وعليها الألوان من الدجاج المسمّن والفالوذ، وغير ذلك، فاعتزل فرقد ناحية، فسأل الحسن: أهو صائم؟ قالوا: لا، ولكنه يكره هذه الألوان.

فأقبل الحسن عليه وقال: يا فرقد، أترى لعاب النحل بلباب البرّ بخالص السمن يعيبه مسلم^(٤)؟!

وقيل له: إن فلانًا لا يأكل الفالوذ، ويقول: لا أستطيع أن أوذّي شكره. قال: أفيشرب الماء البارد؟ قالوا: نعم.

قال: إنه جاهل، إن نعمة الله عليه في الماء البارد أكثر عليه من نعمته في الفالوذ!

ومن كلمات الحسن البصري: إن الله أدّب عباده فأحسن أدبهم، قال

(١) بالمطبوعة التي بين أيدينا: فأقذع، والمثبت الصواب، ومعنى أقذع: كفه عن السير.

(٢) والحشّف: التمر اليابس الرديء.

(٣) تليس إبليس ص ٢٦٦، ٢٦٧.

(٤) صيد الخاطر لابن الجوزي ص ٧٨، نشر دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧]. ما عاب الله قوما وسَّع عليهم الدنيا فتنَّعَموا وأطاعوا، ولا عذر قوماً زواها عنهم فعصوه^(١).

النهي عن اتباع الشهوات والإسراف في الملذات:

إنما يكره الإسلام اتباع شهوة البطن، والاستسلام لها، كما يكره السرف والامتلاء إلى حدِّ التُّخْمَةِ.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابنِ آدمَ لقيَماتٍ يُقَمِّنُ صلبه، فإن كان لا محالة، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه»^(٢).

وقال: «كُلُوا واشربوا وتصدقوا، ما لم يخالطه إسرافٌ ولا مَخِيلَةٌ»^(٣).

وعن ابن عمر: تجشأ رجلٌ عند النبي ﷺ فقال: «كُفَّ عَنَا جُشَاءُكَ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ شِبَعًا فِي الدُّنْيَا أَطْوَلُهُمْ جَوْعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٤). والجشَاءُ أو التجشؤ: تنفس المَعِدَةِ من كثرة الأكل.

وفي بعض الآثار: «من الإسراف أن تأكل كلَّ ما اشتهيت».

- (١) انظر: الكشاف للزمخشري (٦٧٢/١)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ.
- (٢) رواه أحمد (١٧١٨٦)، وقال مخرجه: رجاله ثقات، غير أن يحيى بن جابر الطائي تكلموا في سماعه من المقدم، فإن صح سماعه منه فالحديث صحيح، وإلا فمقطع. والترمذي في الزهد (٢٣٨٠)، وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه في الأُطعمَة (٣٣٤٩)، والحاكم في الرقاق (٣٣١/٤)، وصحَّحه، ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ ابن حجر في الفتح (٥٢٨/٩)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٢٢٦٥)، عن المقدم بن معديكرب.
- (٣) رواه أحمد (٦٦٩٥)، وقال مخرجه: إسناده حسن. والنسائي في الزكاة (٢٥٥٩)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٥)، والحاكم في الأُطعمَة (١٣٥/٤)، وصحَّحه على شرط مسلم، وقال الذهبي: سويد بن عبد العزيز متروك. عن عبد الله بن عمرو.
- (٤) رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٨)، وقال: حسن غريب. وابن ماجه في الأُطعمَة (٣٣٥٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الترمذي (٢٠١٥)، عن ابن عمر.

حاجة الأمة إلى التَّقَشُّف من أجل الجهاد والأعمال الإنسانية الكبرى:

وما أحوج الأمم إلى هذا المبدأ! حين تأخذ نفسها بالتقشُّف من أجل جهاد واجب، أو أعمال إنسانية كبرى، وقد ضاق عمر بن عبد العزيز بمن يحبون أن يتناولوا كل ما يشتهون، فقال: أوكل ما اشتهيتم اشتريتم؟

وفي مثل هذا ما يرويه جابر بن عبد الله الأنصاري قال: لقيني عمر بن الخطاب، وقد ابتعت لحمًا بدرهم، فقال: ما هذا، يا جابر؟ قلت: قَرَم أهلي (اشتدت شهوتهم للحم) فابتعت لحمًا بدرهم، فجعل عمر يردد: قَرَم أهلي.. حتى تمنيت أن الدرهم سقط مني ولم ألقَ عمر^(١).

إن عمر لم يُرد تحريم ما أحل الله، ولكن أراد أن يأخذ الأمة، وبخاصة ذوو المكانة فيها كجابر، بنوع من التربية النفسية، يعلنون فيه على الاستسلام للشهوات، فلا يشترون كل ما يشتهون.

ويكون اتباع هذا أوجب في البلاد التي تضيق مواردها الطبيعية، ولا يستطيع الرجل العادي والفقير أن يأخذ حظّه من طيبات الحياة، إذا لم يدع له الموسرون والقادرون مكانًا باختيارهم، قناعة منهم وإيثارًا. وهذا يفسّر لنا قول عائشة: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام من خبز الشعير^(٢).

وما رُوي أن عمر قال لجابر ومعه اللحم: أما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لجاره وابن عمه، فأين تذهب عنكم هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]^(٣)!

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥٢٨٥)، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٤٤): حسن لغيره.

(٢) سبق تخريجه ص ٢٧٢.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٥٢٨٤).



محاربة الإسلام للترف والنعمومة والإفراط في الشَّبَع:

إِنَّ الإسلام يبيح التمتع بالطيبات، ولكنه يحارب الترف والنعمومة.
عن معاذ رضي الله عنه، أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، لما بعثه إلى اليمن، قال له: «إِيَّاكَ
والتنعم، فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمَتَنَعِّمِينَ»^(١).

إِنَّ الإفراط في الشبع يؤدي إلى السَّمَن الذي كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذمَّ
أصحابه، وقد أخبر أن بعد القرون الأولى يأتي قوم يخونون ولا يؤتمنون،
ويشهدون ولا يُستشهدون، وينذرون ولا يَفُونَ، ويظهر فيهم السَّمَن^(٢).
فالسَّمَن حمل ثقيل على صاحبه، وقيد معطل عن النشاط، ومرض
تقصر به الأعمار.

رأى النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً عظيم البطن، فقال بأصبعه، مشيراً إلى بطنه: «لو
كان هذا في غير هذا لكان خيراً لك»^(٣).

وهذا معنى ما قيل: إِنَّ أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبئها الشَّبَع
- يعني الإفراط فيه - فَإِنَّ القوم لما شبعت بطونهم، سمت أبدانهم،
فضعفت قلوبهم، وجمحت شهواتهم.

ورحم الله الحافظ المنذري، فحين أورد هذه الأحاديث في كتابه
«الترهيب والترغيب» جعل عنوانها: «الترهيب من الإمعان في الشَّبَع،
والتوسُّع في المآكل والمشارب شرّها وبَطْرًا»^(٤).

(١) سبق تخريجه ص ٢٧٦.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٥١)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٥)، عن
عمران بن حصين.

(٣) رواه أحمد (١٨٩٨٤)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف. والحاكم في الأطلعة (١٢٢/٤)، وصحح
إسناده، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٧٤٩): رواه أحمد، ورجاله ثقات.

(٤) الترغيب والترهيب (٩٨/٣).

ونزيد على ذلك: إن هذا المنهج «الرهباني» لا يتربى به مؤمن قوي، ولا يصلح به مجتمع متحضّر، ولا تُبنى عليه أمة ذات رسالة عالمية، وهو أبعد ما يكون عن منهج «الأمة الوسط»، التي جمعت بين الدنيا والآخرة، ومزجت بين الرُّوح والمادة، ووصلت العقل بالقلب، وواءمت بين الحقوق والواجبات، وربطت بين العلم والإيمان.

يمكن أن تقوم عليه طائفة من الناس، منعزلة عن الحياة، منقطعة عن العالم وما يجري فيه، بعيدة عن هموم الأمة وقضاياها وصراعاتها مع أعدائها الذين يكيّدون لها، ويطربصون بها الدوائر.

ثانيًا: زهد العصور الماضية لا يصلح لعصرنا:

ومن المهم هنا أن نؤكد أن الصور التفصيلية لحياة الزُّهد والزهاد في الأزمنة الماضية، لم تعد تصلح للتطبيق في عصرنا، وإذا كُنّا نقول في أحكام الفقه العام، في شؤون الأفراد والأمة والمجتمع: إنَّ الفتوى تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان والحال والعُرف وغيرها، فنحن أيضًا نقول مثل هذا في «فقه السلوك»، فالإنسان ابن زمانه ومكانه وبيئته، شاء أم أبى.

ولا يمكن لإنسان مهما يكن مكانه في الصلاح والتقوى، أو في الزُّهد والإعراض عن الدنيا، أن يتخلّى عن عصره وبيئته تخليًا مطلقًا، ولذا وجدنا أيوب السَّخْتِيَّاني يطوّل قميصه حتّى يقع على قدميه، ويقول: كانت الشهرة في التطويل، واليوم الشهرة في التقصير^(١).

ومن هنا نجد بعض ما ذكر عن الزهاد والصوفية في الأزمنة الماضية - ربما قبل منهم، وربما مدحوا به - لا يمكن أن يُقبل بحذافيره اليوم،

(١) صيد الخاطر لابن الجوزي ص ٢٦٤.

فما ذكره الإمام الغزالي في كتابه «كسر الشهوتين» في ربع المهلكات من الإحياء، أو كتاب «الفقر والزهد» من ربع المنجيات، من تقليل المطاعم والمشارب، أو التقشُّف في الملابس أو البيوت والمساكن، لم يعد اليوم مستساغًا ولا مرضيًا بمنطق العصر، وفي ضوء معارف العصر، وتقنيات العصر، وضروريات العصر.

وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ وَجِبُّكَ يَحِبُّ أَنْ يَرَىٰ أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَىٰ عَبْدِهِ»^(١)، في مأكله ومشربه، وملبسه ومسكنه. ولهذا كان بكر بن عبد الله يقول: مَنْ أُعْطِيَ خَيْرًا فَرَّيْتُ عَلَيْهِ أَثْرَهُ، سُمِّيَ حَبِيبَ اللَّهِ، مُحَدَّثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَجِبُّكَ، وَمَنْ أُعْطِيَ خَيْرًا فَلَمْ يَرِ عَلَيْهِ، سُمِّيَ بَغِيضَ اللَّهِ، مُعَادِيًا لِنِعْمَةِ اللَّهِ وَجِبُّكَ^(٢).

مواصفات الطعام الصحي اللازم للإنسان:

إنَّ «الطعام الصحي» الذي يمنح الإنسان الوقود اللازم لتشغيل الماكينة، والقيام بالدور المطلوب منه، والذي يقي الإنسان من الأمراض وسوء التغذية، له مواصفات أصبحت معروفة لجماهير الناس، فلا بدَّ أن يتضمَّن عناصر متوازنة من البروتينات والدهنيات والكربوهيدرات (النشويات والسكريات) والأملاح والمعادن والفيتامينات، وغياب عنصر من هذه العناصر بصفة دائمة أو غالبية، يعرِّض صاحبه للآفات، ويُلقي به إلى التهلكة، ويوقعه في الضرر، ومن المعروف أن الإسلام يحافظ على أبدان النَّاسِ وصحَّتْهم وحياتهم، وقد قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِحَدِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا»^(٣).

(١) رواه الترمذي في الأدب (٢٨١٩)، وحسنه، والطيلاسي (٢٣٧٥)، والحاكم في الأُطعمة (١٣٥/٤)، وصحَّح إسناده، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٢٦٠)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في الشكر (٥٤)، وفي العيال (٣٦٤)، يرفعه، وهو مرسل.

(٣) متَّفَق عليه: رواه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩)، كلاهما في الصوم، عن عبد الله بن عمرو.

وكان ﷺ يتخير الماء الصافي، ويُستعذب له الماء، ويحبُّ الحلو البارد، حتَّى إنه ليقول في دعائه لربِّه ومناجاته له: «اللهم اجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد»^(١).

روى البخاري، عن جابر بن عبد الله، أنَّ رسولَ الله ﷺ، أتى قومًا من الأنصار يعود مريضًا، فاستسقى (طلب أن يشرب) وجدول قريب منه، فقال: «إنَّ كان عندكم ماءٌ بات في شتَّة، وإلَّا كَرَعْنَا»^(٢).

وَرُوِيَ عن عائشة، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يُسْتَقَى له الماء العذب من بئر السُّقْيَا^(٣).

ضرورة المحافظة على النفس:

وقرَّر الفقهاء والأصوليون من علماء الإسلام: أنَّ المحافظة على النفس (أي: الحياة والصحة) من الضروريات الخمس، التي اتَّفقت على حفظها كلُّ الشرائع السماوية، ولا سيما الإسلام.

قاعدة «لا ضرر ولا ضرار»:

كما أنَّ من القواعد الشرعية القطعية المتَّفَق عليها، قاعدة: «لا ضرر ولا ضرار». أي: لا يجوز للإنسان أن يضرَّ نفسه، ولا أن يضرَّ غيره، ولا ريب أن تناول الطعام غير الصحي باستمرار، سواء من ناحية جنسه، أو من ناحية قدره وكميَّته، ضار بالإنسان، ويسبِّب الأمراض، بشهادة

(١) رواه الترمذي في الدعوات (٣٤٩٠)، وقال: حسن غريب. والبزَّار (٤٠٨٩)، عن أبي الدرداء.

(٢) رواه البخاري في الأشربة (٥٦١٣)، عن جابر.

(٣) رواه أحمد (٢٤٦٩٣)، وقال مخرجه: إسناده جيد كما قال الحافظ في الفتح (٧٤/١٠). وأبو

داود (٣٧٣٥)، وابن حِبَّان (٥٣٣٢)، كلاهما في الأشربة، عن عائشة.

وإجماع علماء الطب، وعلماء الصحّة، وعلماء التغذية، وبشهادة الواقع الذي يلمسه جمهور الخلق.

إنّ بدن الإنسان هو مطيِّته التي يستخدمها للوصول إلى مقاصده الدينية والدنيوية، ولهذه المطيِّة عليه حقٌّ: أن يطعمها إذا جاعت، ويسقيها إذا عطشت، وينظفها إذا اتَّسخت، ويريحها إذا تعبت، ويداويها إذا مرضت، حتّى يُمكنها الاستمرار في حمله وتوصيله إلى حيث يريد.

اختلافات الأذواق والتوجهات:

على أنّ لكلِّ عصر، ولكل بلد ذوقه وتوجُّهه في المآكل والمشارب والملابس، والمساکن والأثاث وغيرها، والناس بزمانهم أشبه منهم بأبائهم، كما قال عليّ رضي الله، وكذلك يقال في البيئته.

فلا يستطيع أحد أن يلبس في عصرنا «المرقّعات» التي كان يلبسها الصوفية فيما مضى، ولا يستطيع أحد أن يلبس الثياب الرديئة التي تُزري بمكانته بين الناس، ولا أن يخرج عن السائد في المجتمع، وإذا خرج عن هذا كان ثوبه ثوب شهرة، وهو مذموم شرعاً، كما جاء في الحديث: «مَنْ لَبَسَ ثُوبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا، أَلْبَسَهُ اللهُ ثُوبَ مَذَلَّةٍ»^(١).

ارتقاء نوع اللباس في عصرنا:

وقد ارتقى نوع اللباس في عصرنا في العالم كلّه بالنسبة للعصور الماضية، بمناسبة ارتقاء صناعة الغزل والنسج والخياطة والتطريز، بحيث إن ما كان ترفاً في الماضي، أصبح شيئاً عادياً اليوم، وغدا يلبسه الفقراء

(١) سبق تخريجه ص ٢٦٦.

والفئة الدنيا من الناس اليوم، فهذه أحوال تتغيّر وتتطوّر بتغيّر الزمان والمكان والحال، ولا سيما في زمن «العولمة»، حيث تقارب العالم وتداخل، حتّى أصبح كأنه قرية واحدة.
كلُّ لباس فيه شهرة فهو مكروه:

قال العلامة ابن الجوزي: «وكان في الصوفية من يجعل على رأسه خِرقة مكان العمامة، وهو أيضًا شهرة؛ لأنّه على خلاف لباس أهل البلد، وكلُّ ما فيه شهرة فهو مكروه.

قال بشر بن الحارث: إنّ ابن المبارك دخل المسجد يوم الجمعة، وعليه قُلنسوة، فنظر إلى الناس ليس عليهم قلائس، فأخذها فوضعها في كُمّه»^(١).

البيوت السكنية في عصرنا:

والبيوت السكنية، أو ما يسمونه «الشقق السكنية» لم يعد الإنسان حرًا في أن يبنّيها من اللين، أو ينشئ له خُصًا في مدينة أو قرية، فإن للبناء قواعد وتراخيص والتزامات لا بد من مراعاتها، حتّى لا يتشوّه منظر المدينة أو القرية، وحتى لا تتعرّض الأبنية لخطر الانهيار، فيتضرّر ما حولها ومن حولها.

العناية بالأسرة والأولاد في مسكنهم وتعليمهم:

على أنّ الزاهد أو الصوفي إذا بنى، فهو لا يبني لنفسه فقط، بل يبني لأسرته وأولاده، وهم ليسوا ملزمين بأن يعيشوا على طريقته في الزهد

(١) تلبس إبليس ص ٢٥٣.

في الفضول والمباحات، وقد قال أبو سليمان الداراني: لا ينبغي للرجل أن يرهق أهله إلى الزُّهد، بل يدعوهم إليه، فإن أجابوا وإلا تركهم، وفعل بنفسه ما شاء.

قال الغزالي: «معناه أن التضييق المشروط على الزاهد يخصه، ولا يلزمه كل ذلك في عياله، ثم لا ينبغي أن يجيبهم فيما يخرج عن حدِّ الاعتدال»^(١).

وإذا كان هؤلاء الأولاد في سنِّ التَّعليم، فيجب عليه أن يوفرَّ لهم ما يحتاجون إليه في تعليمهم من التوصيل إلى المدارس، ومن شراء الكتب والأدوات المدرسية، ومن دفع الرسوم إن كانت مطلوبة، وغير ذلك من كلِّ ما يُطلب لأمثالهم من البنين والبنات، ولا يجوز له أن يهملهم بدعوى الزُّهد، ويحرمهم من حقِّهم في التَّعليم، الذي يناله زملاؤهم ورفقاؤهم، ويتأكد ذلك إذا كانوا نوابغ يمكن أن تستفيد الأمة من نبوغهم ونجابتهم، في علوم الدِّين أو علوم الدنيا.

ومعلوم أن المسكن الذي فيه أبناءٌ وبنات يتعلَّمون لا بدَّ أن تكون له مواصفات خاصة، من حيث سَعته، ومن حيث الأثاث، والحديث يقول في شأن الأولاد: «فرِّقوا بينهم في المضاجع»^(٢)، إذا بلغوا عشر سنين، وهنا ينبغي أن يكون للذكور حُجرهم، وللإناث حُجرهم، كما ينبغي أن تزوَّد حُجرهم بالإضاءة الكافية، والأثاث المعين على القراءة والكتابة، وفي الحديث الصحيح: «فراشٌ للرجل، وفراشٌ لامرأته، والثالث

(١) إحياء علوم الدين (٢٣٩/٤).

(٢) رواه أحمد (٦٧٥٦)، وقال مخرِّجوه: إسناده حسن. وأبو داود (٤٩٥)، والدارقطني (٢٣٠/١)، والبيهقي (٢٢٩/٢) ثلاثتهم في الصلاة، وصحَّحه الألباني في إرواء الغليل (٢٩٨)، عن عبد الله بن عمرو.

للضيف، والرابع للشَّيْطَان»^(١)، وهذا في حالة ما لم يكن له ولد، وإلا احتاج إلى فُرْشٍ أُخْرَى بقدر ما عنده من أولاد.

ثالثاً: انتقاد منهج الإمام الغزالي:

ومنهج الإمام أبي حامد الغزالي في «الإحياء» منتقد من وجهين:

غلو الصوفية وشطحاتهم:

١ - من جهة غلو الصوفية وشطحاتهم وتجاوزاتهم في بعض الأحيان، استغراقاً في التعبد لله تعالى، وحبّ التقرب إليه، من غير استناد إلى أصل شرعي، وهذا هو أساس الابتداع في الدين، وما دفعهم إلى أن يشرعوا في دينهم ما لم يأذن به الله تعالى، من التقرب بالمحدثات، والغلو في التعبدات، وهو أساس ابتداع النصارى للرهبانية، وما صاحبها ولازمها من القسوة على النفس والغير، حينها كانوا يفرّون من ظلّ المرأة، ولو كانت أمّاً أو أختاً، وكانوا يتقرّبون إلى الله بعدم الطهارة.

الاستدلال بالأحاديث الواهية:

٢ - اعتماد الإمام الغزالي رحمته الله في كثير من استدلالاته على الأحاديث الضعيفة، بل الضعيفة جداً، والمنكرة والواهية، بل الموضوعة المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذلك ما لا أصل له ولا سند في دواوين الحديث. وربما اعتذر بعضهم للغزالي: أنّ الأحاديث الضعيفة هنا لا يؤخذ منها أحكام في الحلال والحرام، بل في فضائل الأعمال، والترغيب والترهيب، ولذا تساهلوا فيه، وأجازوا رواية الضعيف في خصوصه.

(١) رواه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٨٤)، وأحمد (١٤١٢٤)، عن جابر بن عبد الله.

ونسوا أنّ الضعيف في هذا المقام يؤسس موقف الإسلام من الدنيا، أو من المال، أو من المرأة، أو من العزلة وعدمها، وهذا لا يقلُّ عن أحكام الحلال والحرام، بل هو أشدُّ خطرًا منها.

شروط رواية الحديث الضعيف:

ثم إن الضعيف - ولو كان في مجال الرقائق - له شروط حدّدها العلماء حتّى تجوز روايته، منها:

١ - ألا يشتدّ ضعفه.

٢ - وأن يكون الأمر الذي يُستشهد به فيه مندرجًا تحت أمر كليّ ثابت بأدلة الشرع الأخرى.

٣ - وألا يُعتقد صحّته، بل يعتقد الاحتياط.

ولكن كثيرًا من الأحاديث التي يوردها الغزالي لا تستوفي هذه الشروط، فكثيرًا ما تكون ضعيفة جدًّا، أو لا أصل لها بالمرّة، أو مكذوبة على رسول الله ﷺ، كما بيّن ذلك الإمام الحافظ زين الدّين العراقي (ت: ٨٠٤)، في تخريجه لأحاديث الإحياء.

كثرة ما أورده الغزالي من أحاديث باطلة:

لنأخذ مثلاً مما ذكره أبو حامد الغزالي رحمته الله، في كتاب «كسر الشهوتين» في بيان فضيلة الجوع وذمّ الشّبّع، وما ذكره فيه من أحاديث، فقد ذكر في هذا الفصل ثلاثة وعشرين حديثًا، لم يصحّ منها إلا ثلاثة أحاديث، والباقي إما لا أصل له بالكلية، مثل الأحاديث السبعة التي بدأ بها هذا الموضوع، فكلّها قال فيها الحافظ العراقي: لم أجد له أصلًا.

وكذلك خمسة أحاديث أخرى لم يجد لها العراقي أصلاً، والأحاديث الأخرى، واحد منها رواه ابن الجوزي في «الموضوعات»، والأخرى بأسانيد ضعيفة، فكيف يُبنى على ذلك حكم أو موقف ديني؟!!

وما كُنَّا نحبُّ للإمام أبي حامد رحمته الله، الذي ردَّ على الفلاسفة المناطحين للدين فأفحمهم، وردَّ على الباطنية المنافقين ففضحهم، ورد على المعتزلة فأسكتهم، وصنف في الفقه وأصوله: أن يقع فيما وقع فيه، ولكن لنعلم أن كلَّ عالم - وإن علا كعبه - يؤخذ من كلامه ويترك إلا النبي صلوات الله وسلامته عليه.

ومما انتُقد على الإمام الغزالي، أنه لم يلتفت كثيراً إلى السنة الثابتة، والأحاديث الصحيحة التي تخالف ما دعا إليه، من المبالغة في التقشُّف والتبذُّل والحرمان.

رجوعه كثيراً إلى الوسط:

على أننا نجد أبا حامد رحمته الله كثيراً ما يرجع إلى المنهج الوسط، ويعلن في عدد من كتبه، منها «الإحياء» نفسه: أن المقصود بالشرعية هو «الوسط»، وكثيراً ما يشرح ذلك بعبارته البليغة فيحسن الشرح، ويردُّ على الغلاة فيتنقن الردَّ.

وقد نقلنا عنه في كتابنا «فقه الوسطية والتجديد» نقولاً جمّة، تدلُّ على أن انتصاره رحمة الله عليه كان للوسطية المتوازنة التي جاء بها الإسلام في قرآنه وسنة نبيّه، ولهذا يجب أن يضمَّ كلامه بعضه إلى بعض.

أكتفي من ذلك ببعض ما نقلناه عنه رحمته الله في كتابنا المذكور.

الوسطية في رياضة الطبائع:

ومن ذلك: ما أورده في «الإحياء» في معرض مناقشته لمن زعم أن الأخلاق لا تقبل التغيير بطريق الرياضة، استنادًا إلى أن الآدمي ما دام حيًا فلا تنقطع عنه الشهوة والغضب وحبُّ الدنيا وسائر هذه الأخلاق^(١).

ولكن الغزالي يخطئ هذه النظرة، ويردُّها بمنطق قوي، قائلاً: «فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أنَّ المقصود من المجاهدة قمعُ هذه الصفات بالكلية ومحوُّها، وهيئات! فإن الشهوة خُلقت لفائدة، وهي ضرورية في الجبلَّة، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان، ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يُهلكه ولهلك. ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لا محالة حبُّ المال الذي يوصِّله إلى الشهوة، حتَّى يحمله ذلك على إمساك المال. وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية، بل المطلوب ردها إلى الاعتدال، الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط»^(٢) اهـ.

الوسطية في الأخلاق:

وقد ظلَّ الإمام الغزالي على هذا النهج، لا يحدد عنه، ولا يفرِّط فيه، حتَّى في كتبه الفلسفية، وفي مقدِّمتها «تهافت الفلاسفة»، الذي قال فيه: «فقد ورد الشرع في الأخلاق بالتوسط بين كلِّ طرفين... فلا ينبغي أن يبالغ في إمساك المال فيستحكم فيه الحرص على المال، ولا في الإنفاق فيكون مبدِّراً، ولا أن يكون ممتنعاً عن كلِّ الأمور فيكون جباناً، ولا منهمكاً في كلِّ أمر فيكون متهوراً، بل يطلب الجود - فإنه الوسط بين

(١) إحياء علوم الدين (٥٦/٣).

(٢) المصدر السابق (٥٧/٣).

البخل والتبذير، والشجاعة فإنها الوسط بين الجبن والتهوُّر، وكذا في جميع الأخلاق، وعلم الأخلاق طويل، والشريعة بالغة في تفصيلها»^(١). ويشرح الغزالي ذلك شرحًا رائعًا في كتاب آخر من كتب الإحياء «كسر الشهوتين» شرح المرَبِّي العالم بطبائع النفس البشرية، فيقول: «اعلم أنَّ المطلوب الأقصى في جميع الأمور والأخلاق: الوسط؛ إذ خير الأمور أوسطها، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم. وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يُومئ إلى أنَّ الإفراط فيه مطلوب، وهيهات، ولكن من أسرار حكمة الشريعة: أنَّ كلَّ ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى، وكان فيه فساد، جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه، على وجه يُومئ عند الجاهل إلى أنَّ المطلوب مضادَّة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان، والعالم يُدرك أنَّ المقصود الوسط؛ لأنَّ الطبع إذا طلب غاية الشَّبَع، فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع، حتَّى يكون الطبع باعثًا والشرع مانعًا، فيتقاومان ويحصل الاعتدال، فإنَّ مَنْ يقدر على قمع الطبع بالكلية بعيد، فيعلم أنه لا ينتهي إلى الغاية، فإنَّه إنَّ أسرف مسرف في مضادَّة الطبع كان في الشرع أيضًا ما يدلُّ على إساءته، كما أنَّ الشرع بالغ في الثناء على قيام الليل وصيام النهار، ثمَّ لما عَلِمَ النبي ﷺ من حال بعضهم أنه يصوم الدهر كلَّه، ويقوم الليل كلَّه نهى عنه...»^(٢). يشير إلى موقفه من عبد الله بن عمرو^(٣) وغيره من الصحابة.

(١) تهافت الفلاسفة ص ٢٨٦، تحقيق د. سليمان دنيا، نشر دار المعارف، القاهرة، ط ٦. وتهافت الفلاسفة يعدُّ من الكتب الفلسفية، وإنَّ كان يرُدُّ على الفلاسفة ويبطل مقولاتهم، ولكنه يرُدُّ عليهم بمنطق الفلسفة نفسه.

(٢) إحياء علوم الدين (٩٦/٣).

(٣) إشارة إلى الحديث: أنكحني أبي امرأة ذات حسب، فكان يتعاهد كتته... وفيه: «صم أفضل» =



أصناف النَّاسِ بالنسبة إلى الصراط المستقيم:

ومما يؤكِّد النظرية «الوسطية» عند الإمام الغزالي: ما بيَّنه من تصنيفه النَّاسِ بالنسبة للصراط المستقيم إلى ثلاثة أصناف:

١ - صنف منهمكون في الدُّنيا دون التفات إلى العقبى، وهذا طريق قد ذمَّه الشرع، وهو مُهلك.

٢ - وصنف تجرَّدوا للعبادة والإقبال على الآخرة، «أي إهمال أمر الدُّنيا تماماً»، فهذا أيضاً قد ورد في الشرع ما يدلُّ على إساءته، كما يشير إلى ذلك كلام الغزالي المذكور آنفاً.

٣ - وصنف ثالث: متوسِّطون وفَّوا الدارين حقَّهما، وهم الأفضلون عند المحقِّقين؛ لأنَّ بهم قوام أسباب الدُّنيا والآخرة، ومنهم عامة الأنبياء ﷺ، إذ بعثهم الله لإقامة مصالح العباد في المعاش والمعاد^(١).

وهؤلاء المتوسِّطون هم الذين ذكر القرآن دعاءهم في الحجِّ، بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ٢٠١]. فهم يدعون بالحسنتين، وينشُدون السعادتين في الدُّنيا والآخرة.

وقبلهم ذكر القرآن قوماً على سبيل الذمِّ، فقال: ﴿ فَمِنَ النَّكَاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ولم يذكر القرآن الصنف الثالث حسب القسمة العقلية، وهم الذين

= الصوم: صوم داود؛ صيام يومٍ وإفطار يومٍ، وقرأ في كل سبع ليال مرة». رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٢)، عن عبد الله بن عمرو.

(١) ميزان العمل (٣٨٢، ٣٨٣)، تحقيق د. سليمان دنيا، نشر دار المعارف، مصر، ط ١، ١٩٦٤هـ.

يقولون: ربنا آتانا في الآخرة حسنة، وما لهم في الدنيا من خلاق! لأنه اعتبر هذا الصنف غير موجود، أو لا ينبغي أن يكون موجودًا؛ لأنه لا يوجد إنسان ليس له في الدنيا خلاق ولا نصيب، وإلا كيف يعيش!؟

الاعتداء بالفرقة الناجية:

وتكلمة لمنهجه في الإصلاح والتربية والهداية إلى الصراط المستقيم، حثَّ على الاعتداء بالفرقة الناجية، وهم الصحابة رضي الله عنهم، الذين «كانوا على النهج القصد، وعلى السبيل الواضح؛ فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا، بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قوامًا، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين، وهو أحبُّ الأمور إلى الله تعالى»^(١).

التوازن بين الخوف والرجاء:

ومنها: استشعار التوازن بين الخوف والرجاء، والرغبة والرغبة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وقد فصل ذلك في كتاب «الخوف والرجاء» من الإحياء، وفي عقبه «البواعث» في كتابه «منهاج العابدين»^(٢).

(١) إحياء علوم الدين (٣/٢٣٠).

(٢) منهاج العابدين ص ٢٧٥، ٢٧٦، تحقيق د. محمود مصطفى حلاوي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، وانظر: الفكر المقاصدي عند الغزالي للدكتور محمد عبدو (٨٩ - ٩٣)، مبحث أن مصدر الشريعة الوسط.

رابعًا: الإسلام لا يعادي الحياة:

ومن المهم هنا كذلك: أن نعلن بكل جلاء: أنَّ الإسلام لا يعادي الحياة، والقرآن كتاب الإسلام لا يعادي الحياة، ومحمد رسول الإسلام لا يعادي الحياة، بل معاداة الحياة هي النعمة السائدة في العالم قبل الإسلام، كما يشهد بذلك تاريخ الأديان.

ماذا كان يسمع النَّاس من الأديان قبل الإسلام ورسول الإسلام؟

العالم شرٌّ يجب التخلُّص منه، فقلَّل من الطعام والشراب حتَّى نُسرِع بفناء الفرد، وأطَّرح الزواج حتَّى نسرِع بفناء النوع. هكذا كانت تقول المانوية الفارسية.

والجسد شرٌّ تجب مقاومته وتعذيبه حتَّى تنتصر الرُّوح. هكذا تقول البرهمية الهندية.

لا يدخل الغني ملكوت السماوات، حتَّى يدخل الجمل في سَمِّ الخياط^(١). هكذا تقول المسيحية.

الحياة قنطرة فاعبروها ولا تعمروها!

إذا رأيتَ الفقر مقبلًا، فقل: مرحبًا بشعار الصالحين، وإذا رأيتَ الغنى مقبلًا، فقل: ذنب عُجِّلَت عقوبته.

هكذا كان يسمع النَّاس من رجال الملل والنحل القديمة، حتَّى رسخ في أذهان الكثيرين أن الدِّين دعوة إلى استدبار الحياة وتحريم طبياتها، ونبذ مقوِّمات الغنى والقوَّة فيها.

(١) إنجيل متَّى (٢٣/١٩).

دعوة الرسول ﷺ إلى الحياة:

وجاء رسول الإسلام فقلب هذه الموازين، وغير تلك الأفكار، وكان دينه دعوة إلى الحياة، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

أفهم المؤمنين أن الحياة نعمة يجب أن تُغتَنم، وليست عبثًا يجب أن يُلقى.

والعمل للحياة ليس رذيلة دينية، ولا نقيصة رُوحية، ولكنه عبادة في محراب كبير، وجهاد مقدس في ميدانٍ حدوده أرض الله الواسعة.

روى كعب بن عُجرة رضي الله عنه قال: مرَّ على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله! (أي في الجهاد) فقال رسول الله ﷺ: «إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صَغَارًا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ! وَإِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى أَبِيَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ! وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يَعْفُهَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ! وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى رِيَاءً وَمُفَاخَرَةً، فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ!»^(١).

ابتغاء فضل الله:

لقد خلع القرآن على طلب الرزق وصفًا عذبًا جميلاً، هو «ابتغاء فضل الله»: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠]. ﴿وَأَخْرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِسُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]. ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

(١) رواه الطبراني في الكبير (١٢٩/١٩)، وفي الأوسط (٦٨٣٥)، وفي الصغير (٩٤٠)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣٣٥/٢): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٧٠٩): رواه الطبراني في الثلاثة، ورجاله الكبار رجال الصحيح.

العالم دليل على خالقه:

والعالم ليس شرًّا يجب التخلُّص منه، وإنما هو دليل على خالقه، وصورة ناطقة لعلمه وحكمته، وكتاب مفتوح تُقرأ فيه آثار عظمته - أو بعبارة أخرى: العالم كلمات الله الصامتة، وكتابه المفتوح للقارئ والأمين، يُتلى فيه آثار عظمته، ونعمته - ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

هذا العالم علويه وسفليه ليس إلا ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]. ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧]. ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]. الله هو الذي أفرغ عليه وحدة جعلته في أرضه وسماؤه، وجماده ونباته وحيوانه؛ كأجزاء الجسد الواحد، تناسقًا وائتلافًا، ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣]. ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠].

تسخير الكون لخدمة الإنسان:

ليس في الكون شيء خلق جُزافًا، ولا شيء خلق عبثًا، وإنما هيئ كل شيء فيه ليؤدِّي دوره فيما أراد الله، من عمارة الأرض، واستمرار الحياة، وخدمة هذا النوع المكرَّم من الخليقة (الإنسان)، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ *

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ^ط وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَءَاتَاكُمْ مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٢-٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤]. انظر كيف تكررت كلمة «لكم» في هذا السياق خمس مرات، ليبين لهم أن منفعة المخاطبين المادية والمعنوية مقصودة من خالق السماوات والأرض، ومنزل الأمطار، ومسخر الأنهار، ومسخر الشمس والقمر والليل والنهار.

واقراً قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٣٣-٣٥].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِئَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ٦-١٦].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧١﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣]. هذا هو الكون كله، علويه وسفليه مسخر لخدمة الإنسان.

نظرة الإسلام إلى المال والغنى وطيب الحياة:

لم يعد الإسلام المال نقمة أو مصيبة من السماء لصاحبه، ولكنه عدّه خيراً، ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ [البقرة: ٢١٥]. ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢]. ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ [العاديات: ٨]. واعتبره قياماً للناس وعصب الحياة: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ﴿٥﴾ [النساء: ٥]. وجعل الغنى والنعمة وطيب الحياة من الأمور التي يمتنُّ الله بها على عباده، ويذكره عباده بها شاكرين: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ [الضحى: ٨]. ﴿فَأَوَانِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ [الأنفال: ٢٦]. ﴿لِيَلْفَ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيَّاهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ [قريش: ١ - ٤]. رتب العبادة على الطعام والأمن، فان الجائع والخائف لا يستطيعان أن يعبدا الله حقاً.

جعل الإسلام المال نعمة، والحياة الطيبة نعمة يجزي الله بها عباده المؤمنين الحقيقيين المستقيمين: ﴿وَأَلُو اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ [الجن: ١٦]. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦]. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴿٦٦﴾ [المائدة: ٦٦]. ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

صحيح أن العبادة مفروضة على المسلم لربه، ولكن الغلو فيها، وشغل الليل والنهار بها، وهضم حقوق الحياة من أجلها: أمر يرفضه الإسلام ورسول الإسلام.

الحكمة من إخفاء وقت قيام الساعة:

صحيح أنه أنذر بالساعة، ونبه العقول والقلوب على الاستعداد لها، وتهيئة الزاد للسفر إليها، فقال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦]، ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ﴾ [المزمل: ١٧، ١٨]. ولكنه لحكمة عالية أخفى وقت قيام الساعة عن خلقه، حتى لا يعطلوا الحياة في انتظارها. وسئل الرسول ﷺ عنها، فقال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل»^(١). ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثُقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

عمارة الأرض حتى آخر لحظة في الحياة:

وهب أن الساعة قامت فجأة، وفي يد المسلم عمل من أعمال الحياة، فهل يُلقي ما في يده، ويستقبل الآخرة؟ يقول الرسول ﷺ: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»^(٢). ولماذا يغرسها، ولا أمل لأحد في الانتفاع بها؟ إنه إقرار

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، كلاهما في الإيمان، عن أبي هريرة.

(٢) رواه أحمد (١٢٩٨١)، وقال منخرجه: إسناده صحيح على شرط مسلم. والبخاري في الأدب المفرد (٤٧٩)، والضياء في المختارة (٢٧١٥)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩)، عن أنس بن مالك.

سنة الله تعالى في عمارة الأرض، والتعبد بالعمل فيها حتى آخر نفس تَلْفِظُهُ الحياة.

الصالحون لهم أموال وأولاد وتجارة:

وصحيح أن القرآن قال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُؤَلِّهِمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩]. ووصف المؤمنين بأنهم ﴿رِجَالٌ لَا نُؤَلِّهِمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧]. ولكن افترض أن يكون عباده الصالحون لهم أموال وأولاد وتجارة وبيع، بيد أنها لا تلهيهم عن القيام بما أوجب الله.

فضيلة الطموح الموجّه إلى الخير:

والطموح ليس شيئاً ممقوتاً، ولكنه فضيلة إذا وُجِّه إلى الخير، كطموح سليمان للملك: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]. وطلب يوسف لوزارة المالية والاقتصاد: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. ودعاء عباد الرحمن بالإمامة في الدين: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

غلاة الصوفية لم يراعوا شأن الأمة:

كما أن من عيوب النظرة الصوفية المتشددة في الزهد: أنها أغفلت جانب «الأمة» التي يريد أن يؤسسها الإسلام، وهي أمة ذات رسالة دينية وعمرانية وحضارية، أمة تتميز عن الأمم بأنها تجمع بين الدين والدنيا، وتمزج بين الروح والمادة، فهي أمة وسط، ومن شأنها أن تقيم حضارة

أو مدنية تجمع بين العلم والإيمان، وبين السمو الروحي والأخلاقي والإبداع المادي والعمراني. وهو ما حدثنا عنه التاريخ.

مقارنة «دريبر» الأمريكي بين مدينة أوروبا ومدنية العرب:

وهو ما اعترف به مؤرخو الغرب أنفسهم، أمثال «غوستاف لوبون» الفرنسي، و«دريبر» الأمريكي، الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية، في كتابه «المنازعة بين العلم والدين»، قال في المقارنة بين مَدَنِيَّة أوروبا في ذلك العهد ومَدَنِيَّة العرب: «إنَّ أوروبا في ذلك العهد - عهد مَدَنِيَّة العرب - كانت غاصَّة بالغابات الكثيفة من إهمال النَّاس للزراعة، وكانت المستنقعات قد كثرت حوالي المدائن، فكانت تنتشر منها روائح قَتَّالة اجتاحت النَّاس وأكلتهم، ولا مُغيث لهم.

وكانت البيوت في باريس ولوندره تُبنى من الخشب والطين المعجون بالقشِّ والقصب، ولم يكن بها نوافذ ولا أرضيات خشبية، أمَّا الأبسطة فكانت مجهولة لديهم، وكان يقوم مقامها القش، ينشرونه على الأرض، ولم يكونوا يعرفون المداخن، فكان الدخان يطوف البيوت، ثم يتسرَّب من ثقب صنعوه له في السقف، فكان النَّاس في هذه البيوت معرَّضين لكل ضروب الإصابات الخطيرة، وكان النَّاس لا يعرفون معنى النظافة، فيلقون بأحشاء الحيوانات، وأقذار المطابخ أمام بيوتهم أكوامًا وأكداسًا، تتصاعد منها روائح قاتلة، ولا رقيب ولا حسيب، وكانت الأسرة الواحدة تنام في حجرة واحدة، من رجال ونساء وأطفال، وكثيرًا ما كانوا يؤوون معهم الحيوانات المنزلية.

وكان السرير عندهم عبارة عن كيس من القشِّ، فوقه كيس من الصوف كميخدة، وكانت النظافة معدومة لديهم، لا يعرفون لها رسمًا.

وكان الغني منهم لا يأكل اللحم إلا كل أسبوع مرّة، ولم يكن للشوارع مجارٍ ولا بلاط ولا مصابيح...

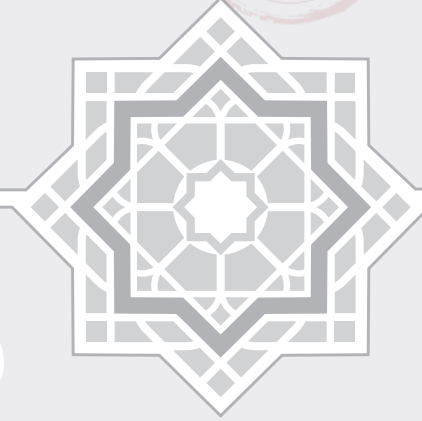
وقال: لم تكن أوربا في مدنيّتها العصرية بأعلى ذوقاً، ولا أرفع مدنيّة، ولا ألطف رونقاً، من عواصم الأندلس على عهد حكم العرب، فقد كانت شوارعهم مضاءة بالأنوار، ومبلطة أجمل تبليط، والبيوت مفروشة بالبُسُط، وكانت تُدفأ شتاءً بالمواعد، وتُهَوَّى صيفاً بالنسمات المعطّرة، بواسطة إمرار الهواء تحت الأرض، من خلال أوعية مملوءة زهراً، وكانت لهم حمامات، ومكتبات، ومحلات للغذاء، وينابيع مياه عذبة.

وكانت المدن والخلوات ملاءى بالاحتفالات، التي كانوا يرقصون فيها على آلات الطرب، وكانوا بدل النهم وإدمان السكر في المآدب الليلية - كجيرانهم الأوروبيين - يحملون مآدبهم بالقناعة، فكانت الخمر محرّمة عليهم، وكانت غاية لذاتهم البدنية تنحصر في تمشّيتهم في الليالي المقمرة في حدائقهم البالغة منتهى الجمال، أو جلوسهم حول أشجار البرتقال، يسمعون قصة مسلية، أو يتجادلون في موضوع فلسفي. متعزّين عن مصائب الدنيا وآلامها بقولهم: إنها لو كانت منزّهة عن الآلام، وعن الإصابات لنسوا حياتهم الأخروية، وكانوا يوفقون بين وجودهم في هذه الحياة، وبين آمالهم في النعيم المقيم في الآخرة»^(١) اهـ.

(١) الإسلام دين عام خالد للأستاذ محمد فريد وجدي ص ١٠٧ - ١٠٩، نشر مطبعة دائرة معارف القرن العشرين، ط ١، ١٩٣٢م.



مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ
لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ
يُوسُفَ الْقَاضِي



الباب الثالث
زهد الخلفاء والعلماء وورعهم



- ١ - عمر بن الخطاب.
- ٢ - علي بن أبي طالب.
- ٣ - عمر بن عبد العزيز.
- ٤ - إبراهيم بن أدهم.
- ٥ - عبد الله بن المبارك.

وسنقتصر في هذا الباب من الكتاب، على ثلاثة من الخلفاء، وهم: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب من الصحابة، وعمر بن عبد العزيز ممن بعدهم.



الفصل الأول

زهد عمر بن الخطاب وورعه (٢٣هـ)

طعام عمر:

عن الأحنف بن قيس قال: كُنَّا نشهد طعام عمر رضي الله عنه، فيوماً كان لحمًا غريضًا (أي طريًا) ويوماً قديدًا، ويوماً زيتًا.

وعن المسور بن مخرمة قال: أتني عمر بمال، فوضع في المسجد، فخرج إليه يتصفّح وينظر إليه، فهملت عيناه! فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا أمير المؤمنين، ما يُبكيك؟ فوالله إن هذا لمن مواطن الشكر! فقال عمر: إن هذا والله ما أُعْطِيهِ قوم قط، إلا وقع بينهم العدوان والبغضاء^(١)!

وكان أشد ما يكون على نفسه إذا نزلت بالمسلمين نازلة، فهو أول من يتحمّل نصيبه منها، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان عمر يأكل الزيت عام الرمادة^(٢)، وكان قد حرم على نفسه السّمْن، وكان بطنه يقرقر، فنقر بطنه بأصبعه، وقال: قرقر أو لا تقرقر، فليس لك عندنا غيره حتّى يحيا الناس^(٣).

(١) الأثران رواهما أحمد في الزهد ص ٩٤.

(٢) الرمادة: الهلاك، وسمي به عام الرمادة لكثرة هلاك الناس وأموالهم، وهو عام ١٨هـ، حدث فيه جذب عمّ أرض الحجاز، وجاع الناس جوعًا شديدًا. انظر لسان العرب مادة (ر. م. د).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٤٨/١).

تشديده على أهله:

وكان يشدد على أهله؛ لأنهم أسوة للناس ويقول لهم: إن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم^(١)، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قدم على عمر مسك وعنبر من البحرين، فقال عمر: والله لوددت أنني وجدت امرأة حسنة الوزن تزن لي هذا الطيب حتى أقسمه بين المسلمين، فقالت له امرأته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل: إنني جيدة الوزن، فهل أزن لك! فقال: لا. فقالت: لم؟ قال: أخشى أن تأخذه فتجعلينه هكذا - فأدخل أصبعه في صُدْغِيهِ - وتمسحين به عنقك؛ فأصيب فضلاً على المسلمين^(٢).

وكان عمر رضي الله عنه لا يعيب طعاماً، فقال له غلامه يرفاً أو أسلم: لأجعلته حتى يعيبه، فجعل لبنا حامضاً، ثم قربه إليه، قال: فأخذ منه فقطب، ثم قال: ما أطيب هذا من رزق الله وعجل^(٣)!

ثياب عمر:

وعن قتادة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أبطأ على الناس يوم الجمعة، ثم خرج فاعتذر إليهم في احتباسه، وقال: إنما حبسني غسل ثوبي هذا؛ كان يغسل ولم يكن لي ثوب غيره^(٤).

وعن الحسن: أن عمر رضي الله عنه خطب الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة^(٥).

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣٥٨/٥).

(٢) رواه أحمد في الزهد ص ٩٨.

(٣) المصدر السابق ص ١٠٣.

(٤) المصدر السابق ص ١٠٢.

(٥) رواه أبو نعيم في الحلية (٥٣/١).

وركب عمر دابة، فرآها تُروث شعيراً، فقال: يأكل هكذا، والمسلمون يموتون هزلاً، لا أركبها حتى يحيا الناس.

كلمات في الورع والزهد لعمر:

قال رضي الله عنه: إن الدين ليس بالطنطنة من آخر الليل، ولكن الدين الورع. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: إنك لن تنال^(١) عمل الآخرة بشيء أفضل من الزهد في الدنيا، وإيّاك ومذاق الأخلاق ودناءتها. مذاق الأخلاق: اختلاط محمودها بمذمومها.

وقال رضي الله عنه: نظرت في هذا الأمر، فجعلت إذا أردت الدنيا أضرت بالآخرة، وإذا أردت الآخرة أضرت بالدنيا، فإذا كان الأمر هكذا أضرت بالفانية^(٢).

قال عمر: عليكم بذكر الله فإنه شفاء، وإيّاكم وذكر الناس فإنه داء^(٣).

وقال رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء خير، إلا ما كان من أمر الآخرة^(٤).

التزّين للزوجة:

ولم يكن عمر يرى من ضرورة الزهد ترك زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، بل أحياناً تكون مطلوبة تتعلق بحق الغير، كالزوجة.

(١) في مطبوعة الزهد لأحمد: لن تنل، والمثبت من الزهد لو كيع وهو أليق بالسياق.

(٢) هذه الآثار رواها أحمد في الزهد ص ١٠٤.

(٣) رواه أحمد في الزهد ص ١٠١.

(٤) المصدر السابق ص ٩٨.

جاءت امرأة إلى عمر بزوجٍ أشعثٍ أغبر، تسأله الخلاص منه، فأمر به أن يُحَمَّ، وأن تقلِّمَ أظافره، ويؤخذ من شعره، ثم قال له ولمن حوله في مجلسه: هكذا فاصنعوا لهن، فوالله إنهنَّ ليحببن أن تتزيَّنوا لهنَّ، كما تحبُّون أن يتزيَّنوا لكم.

وقال عمر: أحبُّ أن يكون الرجل في أهله كالصبي، فإن احتيج إليه كان رجلاً^(١).

إراحة المسلمين من تعبهم:

وكتب أبو عبيدة إلى عمر: أنه لا يريد الإقامة بأنطاكية، لطيب هوائها، ووفرة خيراتها، مخافة أن يخلد الجند إلى الراحة، فلا يُنتفع بهم بعدها في قتال. فأنكر عمر ذلك عليه وأجابه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبي عبيدة عامر بن الجراح، سلام عليك، وإنني أحمد الله الذي لا إله إلا هو، وأصلي على نبيه، وأشكره على ما وهب من النصر للمسلمين، وجعل العاقبة للمتقين، ولم يزل بنا لطيفاً معيناً. وأمّا قولك: لم نقم بأنطاكية لطيبها. فإن الله وَعَجَّلَ لِمَ يَحْرَمُ الطيبات على المؤمنين الذين يعملون الصالحات، فقال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]. وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِتْيَاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]. فكان يجب عليك أن تُريح المسلمين من تعبهم، وتَدَعَهُم يَرِغِدُونَ فِي مَطْعَمِهِمْ، وَيَرِيحُونَ أَبْدَانَهُمْ مِنْ نَصَبِ الْقِتَالِ مَعَ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ^(٢).

(١) ذكره ابن عبد الهادي الحنبلي المعروف بابن المبرِّد في محض الصواب (٦٧٤/٢)، تحقيق عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن، نشر عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، ط ١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) فتوح الشام للواقدي (٣٠٥/١)، نشر دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

معاملة عمر نفسه معاملة خاصة:

وَحَدَّثَ أَنَّ حَازِمَةَ بِنْتُ أَبِي عَمْرٍو أَخْبَرَتْ أَنَّهَا رَأَتْ عُمَرَ بْنَ الْوَلِيدِ إِذْ كَانَ يَأْكُلُ الْخُبْزَ وَاللَّحْمَ، وَبَيْنَ أَيْدِيهِمُ الْقِصَاعُ (وعادة يكون فيها الثريد واللحم)، فدعاه عمر إلى الطعام، وعنده خبز غليظ وزيت، فقال حذيفة: أمنتني أن أكل الخبز واللحم، ودعوتني على هذا؟ قال: إنما دعوتك على طعامي، فأما ذاك طعام المسلمين^(١).

فَعَمْرٌو لَا يَرِيدُهَا رَهْبَانِيَّةً، وَلَا يَحْرُمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ مِنْ طَيِّبَاتٍ، وَإِنَّمَا يَعْمَلُ نَفْسَهُ فَقَطْ مَعَامَلَةً خَاصَةً.

فهو - أولاً - يُنْفِقُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ، وَهُوَ أَمِينٌ عَلَيْهِ، وَكَيْلٌ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فِي رِعَايَتِهِ، فَلَا غَرَوَ أَنْ يَتَحَرَّجَ غَايَةَ التَّحَرُّجِ مِنَ الْأَكْلِ مِنْ هَذَا الْمَالِ، وَحَسْبُهُ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى الْكِفَافِ وَيَقْتَصِدَ، بَلْ يَتَقَشَّفُ مَا اسْتَطَاعَ. وَقَدْ قَالَ: أَلَا وَإِنِّي أَنْزَلْتُ نَفْسِي مِنْ مَالِ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ وَالِي الْيَتِيمِ: إِنْ اسْتَغْنَيْتُ اسْتَعْفَفْتُ، وَإِنْ افْتَقَرْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِذَا أَيْسَرْتُ قَضَيْتُ^(٢).

ثم هو - ثانيًا - خليفة يريد أن يكون قدوة لأمرائه وولاته، فلا يطمع أحد منهم في تكوين ثروة، وهو يرى أمير المؤمنين يعيش عيشة الكفاف أو دون الكفاف.

وقد كان يقول لأهله وأبنائه: إِنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ إِلَيْكُمْ، نَظَرَ الطَّيْرِ إِلَى اللَّحْمِ^(٣).

(١) رواه أحمد في الزهد ص ١٠٠.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في السير (٣٣٥٨٥).

(٣) سبق تخريجه ص ٣٢٤.

ثم هو - ثالثًا - يريد أن يكون أسوة لفقراء المسلمين، حتى لا تنكسر قلوبهم، ولا يشتد عليهم بؤسهم.
ولم يكن يطلب من ولاته أن يقتدوا به في مثل ما هو فيه، وما كان يطلب منهم إلا البعد عن الإسراف، كالبعد عن التقتير.

الشعور بضخامة المسؤولية:

أنكر على عامله باليمن حُلَّة مشهّرة ودهونًا، فعاد إليه العام الذي يليه أشعث مغبرًا عليه أطلاس^(١)، فقال: لا، ولا هكذا... إن عاملنا ليس بالشعث ولا العاني، فكلوا واشربوا وادّهنوا، إنكم ستعلمون الذي أكره من أمركم^(٢).
إنّ هناك أمر آخر، هو قوّة الشعور بضخامة المسؤولية!

إننا نرى الطالب الطموح إذا زحفت عليه أيام الامتحان السنوي، وأحسّ بشبحه يقترب منه، انهمك في تحصيل معارفه، واستذكر دروسه، انهماكًا قد ينسيه نفسه وطعامه وشرابه، بل يُنسيه نومه وراحته إلا قليلًا... يسوقه إلى ذلك رغبة عارمة في النجاح بدرجة عالية، وخوف من الإخفاق في الحصول على ما يريد، وفضيحة الرسوب أو انخفاض الدرجة بين الأهل والإخوان.

فكيف بقلوب كبيرة أحس أصحابها بهول امتحان الآخرة، ودقّة الحساب أمام الله، وكثرة الخصوم الذين يسألون عنهم؟ «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته»^(٣).

(١) يعني: ثيابًا وسخة.

(٢) انظر: الفائق في غريب الحديث للزمخشري (٢/٢٧١)، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار المعرفة، لبنان، ط ٢.

(٣) متفق عليه: رواه البخاري في الجمعة (٨٩٣)، ومسلم في الإمارة (١٨٢٩)، عن ابن عمر.



ألا يكون ذلك مدعاة لأرباب تلك المسؤوليات الجسام أن يُشغَلوا
عن أنفسهم وحظوظها، بآمتهم وحقوقها، وبالآخرة وحسابها؟!
ذلك ما نحسُّه ونلمسه في سيرة أولئك الراشدين المهديين من
الخلفاء.

نلمسه في قول ابن الخطاب: لو عثرت بغلة في العراق، لخفت أن
أسأل: لِمَ لَمْ تصلح لها الطريق، يا عمر؟
وقد لمست ذلك امرأة خطبها عمر لنفسه، فقالت وصدقت: ذاك
رجل أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه، حتّى كأنه يرى ربّه بعينه^(١).



(١) رواه الحاكم في معرفة الصحابة (٣/٣٧٧)، وسكت عنه هو والذهبي، وابن عساكر في تاريخ
دمشق (١٩٨/٧٠).

الفصل الثاني

زهدي علي بن أبي طالب وورعه (٤٠هـ)

تضييقه على نفسه وتوسعته على غيره:

أعطى عليّ النَّاسَ في سنة ثلاث عطايات، ثم قدم عليه مال من أصبهان فقال: هلمُّوا إلى العطاء الرابع فخذوا، ثم كنس بيت المال وصلى فيه ركعتين، وقال: يا دنيا غرِّي غيري^(١).

وكان لعلِّي رضي الله عنه امرأتان، كان إذا كان يوم هذه اشترى لحمًا بنصف درهم، وإذا كان يوم هذه اشترى لحمًا بنصف درهم^(٢).

وعن يزيد بن محجن قال: كُنَّا مع علي رضي الله عنه، فدعا بسيف فسأله، فقال: مَنْ يشتري هذا؟ فوالله لو كان عندي ثمن إزار ما بعته^(٣).

ولم يكن فقيرًا، ولكنه كان ينفق ويجود على أهل الحاجة ولا يبخل، ولقد حدثهم عن نفسه فقال: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صدقتي اليوم لأربعون ألفًا^(٤).

(١) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٨٨٢)، تحقيق د. وصي الله محمد عباس، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) المصدر السابق (٨٨٩).

(٣) المصدر السابق (٨٩٧).

(٤) رواه أحمد (١٣٦٧)، وقال مخرجه: إسناده ضعيف لانقطاعه. وقال الهيثمي في مجمع =

واشترى يوماً تمرًا بدرهم، فحمله في مِلْحَفَتِهِ، فقالوا: نحمل عنك يا أمير المؤمنين، فقال: لا، أبو العيال أحقُّ أن يحمل^(١).

ولكنه رضي الله عنه لم يحبَّ من ولاته وكبار الموظفين في دولته أن يشدّدوا على أنفسهم، فيحرموها من الطيبات، اقتداءً به.

موقفه من زهد عاصم بن زياد:

مرض الربيع بن زياد الحارثي، فذهب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يعوده، وكان فيما قاله له الربيع: يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصم بن زياد؟ قال: وما له؟ قال: لبس العباء، وترك الملاء، وغمَّ أهله، وأحزن ولده. قال: عَلَيَّ عاصمًا. فلما أتاه عبس بوجهه، وقال: ويلك يا عاصم، أترى الله أباح لك اللذات، وهو يكره أخذك منها؟! لأنت أهون على الله من ذلك! أو ما سمعته يقول: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكذَّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢٢]. وقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢]. أمّا والله إن ابتذال نعم الله بالفعال، أحبُّ إليه من ابتذالها بالمقال^(٢)، وقد سمعته يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. ويقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وأن الله رسوله خاطب المؤمنين بما خاطب به المرسلين فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ

= الزوائد (١٤٧١٢): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، غير شريك النخعي، وهو حسن الحديث، ولكن اختلف في سماع محمد بن كعب القرظي من علي.

- (١) رواه أحمد في فضائل الصحابة (٩١٦).
 (٢) أي: استعمالها وإظهارها وتشهيرها، بالفعال وهو الشكر الفعلي أحب إلى الله من ابتذالها بالمقال وهو الشكر القولي.

ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴿البقرة: ١٧٢﴾. وقال: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِن الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿المؤمنون: ٥١﴾.

فقال عاصم: فعلام اقتصرت أنت - يا أمير المؤمنين - على لبس الخشن، وأكل الجشب^(١)؟! قال: إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام، لئلا يشنع على الفقير فقره. قال: فما برح حتى لبس الملاء ونبد العباء^(٢).

الولاة أسوة للناس:

فهو هنا يرى أن أئمة الناس أي خلفائهم ومن ولاهم الله المسؤولية عنهم ينبغي أن يكونوا أسوة للناس، وبخاصة الفقراء أو الضعفاء منهم، فهذا لا يحسن أن يأكلوا من الأطعمة أطيبيها، وأن يلبسوا من الثياب أجملها، حتى يهون على الفقير فقره إذا نظر إليهم ورأى ما هم فيه.

شهادة معاوية وعمر بن عبد العزيز والحسن البصري:

روى أبو نعيم في «الحلية»، دخل ضرار بن ضمرة الكتاني على معاوية، فقال له: صف لي عليًا. فقال: أو تعفيني، يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك. قال: أمّا إذ لا بد، فإنه كان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته. كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة، يقلّب كفه، ويخاطب نفسه،

(١) الجشب: الطعام الرديء.

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه (٢٥١/٧).



يعجبه من اللباس ما قَصُر، ومن الطعام ما جُشِب، كان والله كأحدنا، يُدِيننا إذا أتينا، ويُجِيننا إذا سألناه، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا، لا نكلّمه هيبة له. فإن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم! يعظّم أهل الدين، ويحبُّ المساكين، لا يطمع القويُّ في باطله، ولا يئس الضعيف من عدله، فأشهد بالله لقد رأيتُه في بعض مواقفه - وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه - يميل في محرابه، قابضاً على لحيته، يتململ تململ السليم (أي الملدوغ) ويبيكي بكاء الحزين، فكأنني أسمعُه الآن وهو يقول: يا ربنا، يا ربنا - يتضرّع إليه - ثم يقول للدنيا: ألي تغرّزت، أم إليّ تشوّفت؟ هيهات هيهات، غرّي غيري، قد بتُّك ثلاثاً، فعمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك يسير! آه آه من قلة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق!

فوكفت دموع معاوية على لحيته ما يملكها، وجعل يُنشّفها بكُمّه، وقد اختنق القوم بالبكاء، فقال: كذا كان أبو الحسن عليه السلام، كيف وجدك عليه، يا ضرار؟ قال: وجد من ذبح واحداً في حجرها، لا ترقاً دمعته، ولا يسكن حزنها! ثم قام فخرج^(١).

وعن الحسن بن صالح قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز، فقال قائلون: فلان. وقال قائلون: فلان. فقال عمر بن عبد العزيز: أزهّد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب^(٢).

وقال هشام بن حسان: بينا نحن عند الحسن البصري، إذ أقبل رجل من الأزارقة (من الخوارج خصوم عليّ) فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/٨٤، ٨٥).

(٢) تاريخ دمشق (٤٢/٤٨٩).

علي بن أبي طالب؟ قال: فاحمّرت وجنتا الحسن، وقال: رحم الله عليًا، إنَّ عليًا كان سهمًا لله صائبًا في أعدائه، وكان في مَحَلَّة العلم أشرفها وأقربها من رسول الله ﷺ، وكان ربانيّ هذه الأمة، لم يكن لِمال الله بالسَّرْوِقة، ولا في أمر الله بالنَّوْمِة، أعطى القرآن عزائمه وعمله وعلمه، فكان منه في رياضٍ مُونِقَةٍ، وأعلامٍ بيّنة، ذاك علي بن أبي طالب، يا لُكْع^(١).

من أقوال وأفعال علي في الزهد:

أورد ابن كثير في «البداية والنهاية»^(٢)، عن عبد بن حُميد بسنده، عن أبي مطر قال: خرجتُ من المسجد فإذا رجل ينادي من خلفي: ارفع إزارك؛ فإنّه أبقي لثوبك، وأتقى لربك، وخُذ من رأسك إن كنتَ مسلمًا، فمشيتُ خلفه، وهو بين يديّ مؤتزرٍ بإزارٍ ومُزْتَدٍ برداء، ومعه الدرّة كأنه أعرابي بدوي، فقلتُ: من هذا؟ فقال لي رجل: أراك غريبًا بهذا البلد! فقلت: أجل، أنا رجل من أهل البصرة. فقال: هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين.

حتى انتهى إلى دار بني أبي مُعَيْط، وهي سوق الإبل، فقال: بيعوا ولا تحلفوا؛ فإن اليمين تُنْفَق (تُرَوِّج) السلعة، وتَمْحَق البركة. ثم أتى أصحاب التمر، فإذا خادمٌ تبكي، فقال: ما يُبكيك؟ فقالت: باعني هذا الرجل تمرًا بدرهم، فردّه مواليّ، فأبى أن يقبله. فقال له عليّ: خُذ تمرًا وأعطها درهمها؛ فإنها ليس لها أمر. فدفعه (أي لم يبال بقوله)، فقلتُ: أتدري من هذا؟ فقال: لا. فقلتُ: هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين!

(١) تاريخ دمشق (٤٢/٤٩٠).

(٢) البداية والنهاية (١٠٦/١١) وما بعدها، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر دار هجر،

القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

فصَبَّتْ تمره وأعطاهها دراهمها. ثم قال الرجل: أحبُّ أن ترضى عني يا أمير المؤمنين. قال: ما أرضاني عنك إذا أوفيت الناس حقوقهم! ثم مرَّ مجتازًا بأصحاب التمر، فقال: يا أصحاب التمر، أطمعوا المساكين يَرُبُّ كسبكم.

ثم مرَّ مجتازًا ومعه المسلمون، حتَّى انتهى إلى أصحاب السَّمك فقال: لا يُباع في سوقنا طافٍ. (لأن الطافي مات قبل أن يُصاد، فربما يكون مات بآفة أو مادة سامّة أو غير ذلك).

ثم أتى دار فُرات، وهي: سوق الكرابيس (الثياب) فأتى شيخًا فقال: يا شيخ، أحسن بيعي في قميص بثلاثة دراهم. فلما عرّفه لم يشتر منه شيئًا، ثم آخر، فلما عرّفه لم يشتر منه شيئًا، فأتى غلامًا حدثًا، فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم، وكُفّمه ما بين الرُّسغين إلى الكفّين يقول في لُبسه: الحمد لله الذي رزقني من الرّياش ما أتجمل به في الناس، وأواري به عورتِي. فقيل له: يا أمير المؤمنين، هذا شيء ترويه عن نفسك، أو شيء سمعته من رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، بل شيء سمعته من رسول الله ﷺ يقول عند الكسوة. فجاء أبو الغلام صاحب الثوب، فقيل له: يا فلان، قد باع ابنك اليوم من أمير المؤمنين قميصًا بثلاثة دراهم. قال: أفلا أخذت منه درهمين؟ فأخذ منه أبوه درهمًا، ثم جاء به إلى أمير المؤمنين، وهو جالس مع المسلمين على باب الرّحبة، فقال: أمسك هذا الدرهم. فقال: ما شأن هذا الدرهم؟ فقال: كان قميصًا ثَمَنُ درهمين. فقال: باعني رضاي وأخذ رضاه^(١).

(١) رواه عبد بن حميد (٩٦)، تحقيق صبحي البدري السامرائي، ومحمود محمد خليل الصعيدي، نشر مكتبة السنة، القاهرة، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. وقال البوصيري في إتحاف الخيرة المهرة (٢٧٥٤) (٢): هذا حديث ضعيف.

وروى البغوي عن صالح بيّاع الأكسية، عن جدته قالت: رأيتُ عليًّا اشتري تمرًا بدرهم، فحمله في ملحفته، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، ألا نحمله عنك؟ فقال: أبو العيال أحقُّ بحمله^(١).

وعن زاذان قال: كان عليٌّ يمشي في الأسواق وحده وهو خليفة، يرشد الضالَّ، ويُعين الضعيف، ويمرُّ بالبيّاع والبقال، فيفتح عليه القرآن، ويقرأ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]. ثم يقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس^(٢).

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»: ومن كلامه الحَسَن، ما رواه ابن أبي الدنيا عن أبي أراكَة يقول: صليتُ مع عليٍّ صلاة الفجر، فلما انفتل عن يمينه مكث كأن عليه كآبة، حتّى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح صلّى ركعتين، ثم قلب يده فقال: والله لقد رأيتُ أصحاب محمد ﷺ، فما أرى اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يصبحون صُفْرًا شُعْثًا غُبرًا، بين أعينهم كأمثال رُكَب المِعْزَى، قد باتوا لله سُجْدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله، يُراوحن بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا، فذكروا الله مادوا كما يمد الشجر في يوم الريح، وهَمَلت أعينهم حتّى تبتلّ ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين. ثم نهض فما رُئي بعد ذلك مفترًا يضحك، حتّى قتله ابن ملجم عدو الله الفاسق^(٣).

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٤٨٩/٤٢) من طريق البغوي.

(٢) المصدر السابق (٤٨٩/٤٢).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في مقتل عليٍّ (٦)، تحقيق إبراهيم صالح، نشر دار البشائر، دمشق، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، وابن عساکر في تاريخ دمشق (٤٩٢/٤٢). وانظر: البداية والنهاية (١١/١١١).



أئمة الهدى ومصايح العلم:

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: تعلّموا العلم تُعرّفوا به، واعملوا تكونوا من أهله، فإنّه يأتي من بعدكم زمانٌ ينكر فيه من الحقّ تسعة أعشاره، وإنه لا ينجو منه إلا كلُّ أوّاب منيب، أولئك أئمة الهدى ومصايح العلم، ليسوا بالعُجّل المذاييع (الذين يذيعون الأسرار والفواحش) البُدُر. الذين يمشون في الأرض بالنميمة والشرّ.

أوصاف الزاهدين في الدنيا:

ثم قال: إنّ الدُّنيا قد ارتحلت مُدبرة، وإن الآخرة قد أتت مقبلة، ولكلّ واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدُّنيا، ألا وإن الزاهدين في الدُّنيا اتّخذوا الأرض بساطًا، والتراب فراشًا، والماء طيبًا، ألا من اشتاق إلى الآخرة سلا عن الشهوات، ومن أشفق من النَّار رجع عن الحُرّمات، ومن طلب الجنة سارع إلى الطاعات، ومن زهد في الدُّنيا هانت عليه المصيبات، ألا إن الله عبادًا كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلّدين، وأهل النَّار في النَّار معذّبين، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صبروا أيامًا قليلة لعُقبى راحة طويلة، أمّا الليل، فصافون أقدامهم، تجري دموعهم على خُدودهم، يجأرون إلى ربهم: ربنا ربنا. يطلبون فكاك رقابهم، وأمّا النهار فظمّاء حُلّماء، برّرة أتقياء، كأنهم القِداح، ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى. وما بالقوم من مرض، وخولطوا. ولقد خالط القوم أمرٌ عظيم^(١).

وخطب علي فقال: أمّا بعد، فإن الدُّنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن

(١) تاريخ دمشق (٤٢/٤٩٣).

الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإنَّ المضممار اليوم، وغدًا السباق، ألا وإنَّكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خيب عمله، ألا فاعملوا لله في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة، ألا وإنني لم أر كالجنة نام طالبها، ولم أر كالنار نام هاربها، ألا وإنه من لم ينفعه الحق ضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى حار به الضلال، ألا وإنكم قد أمرتم بالظن (السفر)، ودلتم على الزاد، ألا أيها الناس، إنما الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر، ألا إن الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً، والله واسع عليم.

أيها الناس، أحسنوا في عمركم تحفظوا في عقبيكم، فإن الله وعد جنته من أطاعه، وأوعد ناره من عصاه، إنها نار لا يهدأ زفيرها، ولا يفك أسيرها، ولا يجبر كسيرها، حرها شديد، وقعرها بعيد، وماؤها صديد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل.

وفي رواية: فإنَّ إتياع الهوى يصدُّ عن الحق، وإن طول الأمل يُنسي الآخرة^(١).

* * *

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٤٢/٤٩٧، ٤٩٨).

الفصل الثالث

زهد عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ)

انشغاله بمسؤولية الخلافة عمّا يحبُّ:

ذكر ابن عساكر في تاريخه، أنّ عمر بن عبد العزيز كان يعجبه جارية من جواري زوجته فاطمة بنت عبد الملك، وكان قد سألها إياها بيعًا أو هبة، فكانت تأبى عليه ذلك، فلما ولي الخلافة ألبستها وطيبتها وأهدتها إليه، ووهبتها له. فلما أخلتها به أعرض عنها، فتعرّضت له، فصدف عنها، فقالت له: يا سيدي، فأين ما كان يظهر لي من محبتك إياي؟ فقال: والله إنّ محبتك لباقية كما هي، ولكن لا حاجة لي في النساء، فقد جاءني ما يشغلني عنك وعن غيرك^(١)!

عظم مسؤولية الحاكم:

ودخلت زوجته يومًا عليه، وهو جالس في مصلاه، واضعًا خده على يده، ودموعه تسيل على خديه، فقالت: ما لك؟! قال: ويحك يا فاطمة! قد وُلِّيتُ من أمر هذه الأمة ما وُلِّيتُ، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعارى المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأشبابهم في أقطار الأرض وأطراف

(١) تاريخ دمشق (٦٨/١٩٣، ١٩٤).

البلاد، وعلمتُ أن ربِّي وَعَجَّلَ سَيْسَأَلَنِي عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنْ خَصْمِي
دُونَهُمْ (أَيَ الْمُحَامِي عَنْهُمْ) مُحَمَّدٌ ﷺ، فَخَشِيتُ أَلَا يَثْبِتَ لِي حِجَّةٌ عِنْدَ
خَصْمَتِهِ.. فَرَحَمْتُ نَفْسِي، فَبَكَيْتُ^(١)!

وقال مقاتل بن حيان: صليتُ وراءَ عمر بن عبد العزيز، فقراً:
﴿ وَقَفُوهُمْ إِيَّاهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ [الصفات: ٢٤]. فجعل يكررها، وما يستطيع أن
يتجاوزها، وما ذلك إلا لأن الآية تذكّره بالوقوف أمام الله، والمسؤولية
بين يديه.

إحساسه بواجبه وخشيته لربه:

وقالت فاطمة امرأته، تصف إحساسه بواجبه وخشيته لربه: ما رأينا
أحدًا أشدَّ فرَقًا من ربّه منه، كان يصلي العشاء، ثم يجلس يبكي حتّى
تغلبه عيناه، ثم ينتبه، فلا يزال يبكي حتّى تغلبه عيناه. قالت: ولقد كان
يكون معي في الفراش، فيذكر الشيء من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض
العصفور في الماء، فأخرج عليه اللحاف رحمة له، وأنا أقول: يا ليت كان
بيننا وبين الخلافة بُعد المشرقين، فوالله ما رأينا سرورًا منذ دخلنا فيها^(٢)!

زهده في اللباس:

وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع اللين جدًّا، فيقول: ما أحسنه
لولا خشونة فيه! فلما ولي الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ
المرقوع، ولا يغسله حتّى يتسخ جدًّا، ويقول: ما أحسنه لولا لينه^(٣)!

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (١٩٦/٤٥ - ١٩٧).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٧٠٥/١٢).

(٣) المصدر السابق (٧١٢/١٢).

الخلافة ومسؤوليتها - إذن - هي التي أذهلته عن النساء واللباس
والمتاع والنعيم.

الأمّة طالبة له مطلوبة منه:

قال له زياد العبدي مرة: يا أمير المؤمنين، أخبرني عن رجل له خَصْمُ
ألدُّ ما حاله؟ قال: سيء الحال. قال: فإن كان خصمين ألدِّين؟ قال: أسوأ
حالاً. قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال: ذاك حسبت لا يُهنئته عيش. قال: فوالله
يا أمير المؤمنين ما أحد من أمّة محمّد ﷺ إلا وهو خصمك (أي: طالب
حقه منك).

قال زياد: فبكى عمر، حتّى تمنيتُ أني لم أكن حدثته ذلك^(١).

أيُّ مسؤولية هذه؟ الأمّة كلّها طالبة له، مطلوبة منه!

ابن أدهم وابن المبارك

ونختار بعد الخلفاء شخصيتين زاهدتين من الزهاد الأوائل، أعني
قبل أن تدخل المؤثرات الثقافية الأجنبية في حياة المسلمين، فتؤثر في
تفكيرهم وفي سلوكهم، ولذا أخذنا هذين النموذجين من النماذج التي
نعتبرها نماذج إسلامية خالصة، ممن نعدّهم من تلاميذ «مدرسة الإسلام»
التي أسست على تعاليم القرآن الكريم، والسنة النبوية، قبل ظهور
التصوف وتأثيره بقوة في المجتمعات الإسلامية.

هذان النموذجان هما: إبراهيم بن أدهم (ت: ١٦١هـ)، وعبد الله بن
المبارك (ت: ١٨١هـ).

(١) انظر: البداية والنهاية (٢٤٤/٩)، نشر دار إحياء التراث، ط ١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. ولم أجده في
طبعة هجر.



أولهما: أقرب إلى العزلة والنسك، والرغبة في الخمول والبعد عن الناس. وإن لم يعتزل الناس تمامًا.

والثاني: أقرب إلى الاختلاط بالناس في العلم والتعليم والجهاد وعمل الخير.

وكلاهما خرج من خراسان، وإن كان أولهما عربي الأصل، والثاني: تركي الأصل. وقد استقر الأول في بلاد الشام. وسنخص كلاّ منهما بحديث يليق به، ويُجلى صورته وسيرته.

* * *



الفصل الرابع

إبراهيم بن أدهم «ت: ١٦٢هـ»

معالم زهد ابن أدهم:

قال عنه مؤرّخ الإسلام الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء»:
القدوة الإمام العارف، سيد الزهاد^(١).

ولد في مكة المكرمة حوالي سنة مائة من الهجرة، وكان أبوه أدهم رجلاً صالحاً، فرفعه في خرقة، وكان يمرُّ به على العلماء والعبّاد والصالحين المجاورين في مكة، يلتمس دعاءهم له، ولا ريب أن منهم مَنْ كانت دعوته مستجابة، فنالته بركة هذا الدعاء.

كان إبراهيم بن أدهم من أبناء الملوك، ولكنّه حين أدركته الهداية الإلهية، ترك أبّهة الملك، وسلطان الإمارة، ورغد العيش، وحياة النعيم في بلخ بأفغانستان، ليعيش حياة الورع والزهد في الدنيا في ديار الهجرة، أو قل: حياة التعب والكدح والعرق.

عزمه على تغيير منهج حياته:

قالوا: إنّه جاءته هذه الصحوة، وهو في رحلة صيد، فلما صمّم على أن يغيّر منهج حياته ويتخذ طريق الصالحين، نزل عن فرسه، وصادف

(١) سير أعلام النبلاء (٣٨٧/٧).

راعياً لأبيه، فأخذ منه لباس الراعي، وأعطاه لباسه الأميري، وأعطاه فرسه وما معه من ثياب ورياش، ودخل البادية، ثم دخل مكة، وانتهى إلى الشام.

من حياة الرغد إلى حياة العَمال الكادحين:

إن هذه اليقظة الربانية التي أدركته، غيّرتة تغييراً كُلياً من رأسه إلى قدمه، وأنشأته خلقاً آخر، وجعلت من الأمير ابن الأمير، سليل الملوك، وربيب القصور، والذي وُلِدَ وفي فمه ملعقة من ذهب، ونشأ وهو يَرْفُلُ في الحرير والديباج، وبين يديه الخدم والحشم، وحوله الحرّاس والأتباع، يرفض هذه الحياة الرغيدة الناعمة، ويطلقها ثلاثاً لا رجعة فيها، ليدخل في حياة جديدة، لا تعتمد على نسب ولا حسب، ولا تستند إلى مال ولا جاه، بل حياة العمال الكادحين، ممّن يكسب لقمة عيشه بكدّ يمينه، وعَرَقَ جبينه، متحرّياً أن تكون من الحلال البيّن، بعيداً عن أيّ شبهة، ولو من بعيد، «فمّن اتقى الشُّبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه»^(١).

من كبار الزاهدين الأوائل:

لا يشكُّ باحث مسلم أو غير مسلم أنّ إبراهيم بن أدهم كان من كبار الزاهدين، الذين باعوا دنياهم بأخراهم، وتركوا شهواتهم مرضاة لربهم، ولم يركضوا وراء ما يركض وراءه عامة الناس من حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، بل كانت هذه عنده، وتخلّى عنها مختاراً، مصراً على

(١) سبق تخريجه ص ٩٠، وفيه: «ألا إن في الجسد مضغة».

أن يحيا حياة العامل الكادح في سبيل نعمة العيش الحلال، بعيداً عن الأضواء وصخب الحياة، وعيشة المنعمين.

وهو يمثل بحق طراز الزُّهَّاد المسلمين الأوائل، الذين يستقون زهدهم وطريقة حياتهم من منابع الإسلام الصافية، قبل أن ينشأ التصوُّف، ويصبح علمًا له رموزه ومصطلحاته، وله رسومه وشطحاته، وله مصادره ومنطلقاته، وله أهدافه وغاياته، وله شيوخه وقياداته، وله مناهجه ومبالغاته.

ثناء الأئمة على إبراهيم بن أدهم:

أثنى عليه الأئمة من العلماء والزهاد ثناءً مستطاباً، فعن سفيان الثوري قال: كان إبراهيم بن أدهم يشبه إبراهيم الخليل، ولو كان في الصحابة لكان رجلاً فاضلاً.

وقال عبد الله بن المبارك: كان إبراهيم رجلاً فاضلاً، له سرائر، وما رأيتُهُ يُظهر تسبيحاً ولا شيئاً من عمله، ولا أكل مع أحد طعاماً إلا كان آخر من يرفع يده.

وقال بشر بن الحارث الحافي: أربعة رفعهم الله بطيب المطعم: إبراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص، ووهيب بن الورد، ويوسف بن أسباط^(١).

وكل واحد من هؤلاء الثلاثة - سفيان وابن المبارك وبشر الحافي - إمام من أئمة الأمة، به يُقتدى فيُهدى. وهذه شهادتهم لابن أدهم، وهم شهداء الله في الأرض.

(١) أورد هذه الآثار ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦/٢٨٩، ٢٩٠).

كبر شأنه في الورع:

قال الحافظ المزي في «تهذيب الكمال»: كان إبراهيم بن أدهم كبير الشأن في باب الورع، يحكى عنه أنه قال: أطب مطعمك، ولا عليك ألا تقوم بالليل، ولا تصوم بالنهار^(١)!

وقال خلف بن تميم: سألت إبراهيم بن أدهم: منذ كم قدمت الشام؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة، وما جئت لرباط ولا لجهاد. قلت: ولم جئت؟ قال: جئت أشبع من خبز الحلال^(٢).

وقال: أعز الأشياء في آخر الزمان ثلاثة: أخ في الله يؤنس به، وكسب درهم من خبز حلال، وكلمة حق عند سلطان^(٣)!

وقال شقيق البلخي: لقيت إبراهيم بن أدهم بالشام، فقلت: يا إبراهيم تركت خراسان؟ فقال: ما تهنت بالعيش إلا في بلاد الشام، أفر من شاهق إلى شاهق، فمن رأني يقول: موسوس! ومن رأني يقول: حمال! ثم قال: يا شقيق، لم يقبل من قبل عندنا بالحج ولا بالجهاد، وإنما قبل عندنا من قبل: من كان يعقل ما يدخل جوفه - يعني الرغيفين - من حلّه! ثم قال: يا شقيق، ماذا أنعم الله على الفقراء؟ لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة، ولا عن حج، ولا عن جهاد، ولا عن صلة رحم - يعني: الصلة بالمال - إنما يسأل عن هذا هؤلاء المساكين. يعني: الأغنياء^(٤)!

(١) تهذيب الكمال للمزي (٣١/٢)، تحقيق د. بشار عواد معروف، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٢) المصدر السابق (٣٣/٢).

(٣) المصدر السابق (٣٥/٢).

(٤) المصدر السابق (٣٣/٢).



الزهد ثلاثة أصناف:

وكان يقول: الزُّهد ثلاثة أصناف: فزهدٌ فرض، وزهدٌ سلامة، وزهدٌ فضل. فالزهد الفرض: الزُّهد في الحرام، والزهد السلامة: الزُّهد في الشُّبهات، والزهد الفضل: الزُّهد في الحلال^(١).

مقومات الزُّهد عند ابن أدهم:

وللزهد عند ابن أدهم مكونات أو مقومات، يستطيع الباحث في مفردات سيرته، وفيما رواه أصحابه وتلاميذه من أقواله وأفعاله ومواقفه: أن يستخلصها ويرتبها في جملة مبادئ أو معالم.

١ - تحري الحلال:

المبدأ الأول: تحري الحلال، بمعنى أن يأكل من عمل يده، وأن يكون حلالاً صرفاً. وهذا ما شدّد فيه، فلا يقبل لقمة أو درهماً أو دانيقاً من حرام أو من شبهة. وهذا أساس الورع، والورع عنده شرط للزهد، أو مقدمة له، فلا زهد بلا ورع. وله في ذلك مواقف تروى. والسعي إلى الحلال هو السبب في هجرته إلى الشام، وإقامته فيها.

وضع نصب عينيه حديث الرسول الكريم: «ما أكل أحدٌ قُطُّ طعاماً خيراً من عمل يده، وإن نبيّ الله داودَ كان يأكلُ من عمل يده»^(٢). فأصرَّ على أن يكسب لقمة عيشه بجهدهِ وعرقه، ولا يقبل أن يعيش عائلة على أحد، أو يتصدّق عليه أحد، ويدمُّ الزاهد الذي لا يعمل ويعتمد على

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢٦/٨).

(٢) سبق تخريجه ص ٢٣٣.

صدقات الناس، عالمًا أنَّ الصدقة لا تحلُّ لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّة سَوِيٍّ^(١).

وقد اختار أن يعمل بأجر للناس فيما يحسنه من الأعمال، مثل حصاد الغلال، وهي مهنة اكتسبها بالممارسة، وهو العائش في بحبوحة من التنعيم؛ وحفظ البساتين أو نظارتها، بمعنى حراستها، ورعاية شأنها.

من هنا كان يأكل من عمل يده، مثل: حصاد القمح وغيره من الغلال، وحفظ البساتين، أي: كان يعمل ناطورًا أو خفيِّرًا أو ناظرًا لهذه البساتين - أي راعيًّا وحافظًا - بأجر زهيد، ولكنه كان سعيدًا بهذه المعيشة المتقشِّفة؛ لأنَّه كان مطمئنًا إلى أنه يكسب عيشه من الحلال. وكان هذا هو الذي يعنيه قبل قيام الليل وصيام النهار.

٢ - الزُّهد في الشهرة وفي كلام الناس:

ولم يكن الزُّهد عنده مقصورًا على الطعام واللباس ونحوهما، بل كان الزُّهد في الكلام أيضًا.

فمن النَّاس مَنْ يحبُّ أن يتصدَّر المجالس بالكلام، وأن يكون صوته مسموعًا، وأن يغلب كلَّ الأصوات، وهي شهوة ربما فاقت شهوة البطن وشهوة الفرج، وكم أدَّت شهوة الكلام هذه إلى ضياع صاحبها أو تلفه في الدُّنيا، كما قال الشاعر:

احفظ لسانك أيُّها الإنسانُ لا يلدغَنَّك إنه ثعبانٌ^(٢)!

(١) رواه أحمد (٦٥٣٠)، وقال مخرَّجوه: إسناده قوي. وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢)، وقال:

حسن. كلاهما في الزكاة، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود (١٤٤٤)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) ذكر البيهقي أن الإمام الشافعي كان باليمن فقرأ هذا الشعر على باب صنعاء أو عدن مكتوبًا. =



ولهذا جاءت التحذيرات من آفات اللسان، وجاء في الحديث: «مَنْ صمت نجا»^(١). وقال ابن مسعود: يا لسان، قل خيرًا تغنم، واسكت عن شرِّ تسلّم^(٢)!

كان الصالحون يخافون على أنفسهم من حصاد ألسنتهم، كما قال النبي ﷺ لمعاذ: «وهل يكبُّ النَّاسُ في النَّارِ على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - إلا حصادُ ألسنتهم؟»^(٣).

حتى كان بعضهم يضع حصاةً في فمه، يحتاج إلى أن يُخرجها منه كلما تكلم، ليجبره ذلك على قلة الكلام فيما لا يعنيه.

الكلام على أربعة أوجه:

قال أبو إسحاق الفزاري: كان إبراهيم بن أدهم يُطيل السكوت، فإذا تكلم ربَّما انبسط، فأطال ذات يوم السكوت، فقلتُ له: لو تكلمت؟ فقال: الكلام على أربعة أوجه: فمن الكلام كلامٌ ترجو منفعتَه، وتخشى عاقبته، فالفضل في هذا: السلامة منه. ومن الكلام كلامٌ لا ترجو منفعتَه، ولا تخشى عاقبته، فأقلُّ ما لك في تركه خفة المؤونة على بدنك ولسانك، ومن الكلام كلامٌ لا ترجو منفعتَه، ولا تأمن عاقبته، فهذا قد

= انظر: مناقب الشافعي للبيهقي (٨٧/٢)، تحقيق السيد أحمد صقر، نشر مكتبة دار التراث، القاهرة، ط ١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م

(١) رواه أحمد (٦٤٨١)، وقال مخرجه: حديث حسن. والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠١)، وقال: حديث غريب. وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٥٣٦)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) رواه الطبراني (١٩٧/١٠). وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٨١٥٤): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٣) رواه أحمد (٢٢٠١٦)، وقال مخرجه: صحيح بطرقه وشواهد. والترمذي في الإيمان (٢٦١٦)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٩٧٣)، عن معاذ بن جبل.

كُفِي العاقلُ مؤونته، ومن الكلام كلامٌ ترجو منفعتَه، وتأمّن عاقبته، فهذا الذي يجب عليك نشره. قال خَلْفٌ راوي هذه القِصَّة: فقلتُ لأبي إسحاق: أراه قد أسقط ثلاثة أرباع الكلام! قال: نعم^(١).

وكان من قوله ﷺ: أعربنا في الكلام فلم نلحن، ولحنّا في الأعمال فلم نُعرب^(٢)!

٣ - التقلُّل من الدُّنيا:

ومن مقومات الزُّهد عند إبراهيم بن أدهم: التقلُّل من الدُّنيا فقد فرَّ ﷺ منذ أدركته الهداية الربانية من نعيم الدُّنيا وترفها وزينتها، التي يتنافس النَّاس عليها، ويتهاشون على متاعها تهارش الذئاب، ولكنه طلق هذه الحياة التافهة التي يعيش لها كثير من الناس. طلقها ثلاثاً لا رجعة فيها. وأصرَّ ألا يعود إلى ملك الحياة، كما لا يعود اللبن إلى الضرع إذا خرج منه.

لا يحرم على نفسه الطيبات، ولكنه يتقلل منها ما وجد إلى ذلك سبيلاً، ولا يسعى إليها، بل هي سعت إليه أكثر من مرة، فرفضها طائعاً مختاراً.

رفضه هبة إخوته وتصدُّقه بها:

سعت إليه حينما أرسل إليه إخوته في خراسان من المال ما يُعينه على حياته مما آتاهم الله من فضله، فلم يأخذ منه درهماً ولا فلساً، والخبر ذكره أبو نعيم في «الحلية» فقال: عن علي بن بكَّار قال: كُنَّا

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت (٥٠).

(٢) رواه أبو بكر الدينوري في المجالسة (٨٥١).

جلوسًا عند الجامع بالمصيصة، وفيما إبراهيم بن أدهم، فقدم رجل من خراسان، فقال: أيكم إبراهيم بن أدهم؟ فقال: القوم هذا. أو قال: أنا هو. قال: إن إخوتك بعثوني إليك، فلما سمع ذكر إخوته قام فأخذ بيده فنحاه، فقال: ما جاء بك؟ قال: أنا مملوكك مع فرس وبغلة وعشرة آلاف درهم، بعث بها إليك إخوتك. قال: إن كنت صادقًا فأنت حر، وما معك فلك، اذهب فلا تخبر أحدًا. قال: فذهب، قال: وكان إبراهيم يطحن، وإحدى رجله مبسوطة، والأخرى قد كفها، فلا يكف تلك المبسوطة، ولا يبسط تلك المكفوفة حتى يفرغ من مُدَّين، فإذا فرغ من مُدَّين بسط تلك، وكف هذه، فيطحن مُدَّين آخرين^(١).

فانظر إلى هذه النفس الغنية بالله، كيف رفضت هذه الهبة الكبيرة من إخوته، وتصدق بها كلها على من جاء بها. وعاش بعد ذلك يطحن الحبوب بالرحى، وهو قرير العين.

تنازله عن ميراث أبيه:

وسعت إليه مرة أخرى بعد موت أبيه، واستحقاق نصيبه من ميراث أبيه «فريضة من الله»، ورفض مرة أخرى أن يأخذ حقه، فتغيّر من سير حياته، أو نهج حياته الذي ارتضاه لنفسه: أن يعيش من كسبه، وأن يأكل من عمل يده، وأن يعمل حصّادًا لأصحاب المزارع، أو ناظرًا لأصحاب البساتين، وتنازل عن ميراثه لمن جاءه به.

روى أبو نعيم بسنده عن عيسى بن حازم، يقول: بينا إبراهيم بن أدهم يحصد حقل زرع، أخذه جُزافًا، إذ وقف عليه رجلان معهما ثقل

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٨٣/٧).

ووطاء مع كل واحد منهما نفقة، فسلما عليه، فقالا له: أنت إبراهيم؟ قال: نعم. قالوا: إنا مملوكان لأبيك، ومعنا مال ووطاء، فقال: ما أدري ما تقولان، إن كنتما صادقين فأنتما حران، وما معكما لكما، لا تشغلاني عن عملي^(١)!

عدم قبوله الهدايا إلا بشروط:

وكثيرًا ما كانت تأتيه الهدايا والهبات من الناس، يتقربون إلى الله بالهدية إليه، فلا يقبلها، إلا نادرًا، من بعض إخوانه الموسرين، أو من بعض الناس بشروط معينة.

عرض عليه بعضهم أن يقبل هدية منه، فقال: أقبلها إن كنت غنيًا. فقال الرجل: إني ذو مال كثير، وعندي كذا وكذا وكذا. فقال له: تحب أن يتضاعف مالك؟ قال: نعم. قال: لست إذا غنيًا وأنت تطلب المزيد. ولم يقبل هديته.

وكان يقبل الهدية بشروطها، ويثيب عليها تأسياً بهدي رسول الله ﷺ.

فعن عيسى بن حازم قال: كان لإبراهيم أخ له من عسقلان، يقال له: أزهر، فسأل عنه، فأخبر عنه أنه مريض في حصين على الساحل، فأخذ أزهر كساء صوف، فوضعه على رقبته، ثم لزم الساحل حتى أتاه فوجده مريضًا. وإذا هو على بارية (حصير) ليس تحته شيء، فقال له: يا أبا إسحاق، أحب أن تأخذ هذا الكساء فتضع نصفه تحتك ونصفه فوقك. قال: قال: ما يخف عليّ؟ قال: لو فعلت سررتني، فقد غمّني. قال: وقد غمّك؟ قال: نعم! ضعه. فوضعه ومضيت مخافة أن يبدو له. قال أزهر:

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٨٣/٧).

فجاء بعد أيام، فرفع ردائي ودسّ تحته شيئاً ومضى، فأرفع ردائي، فإذا عمامة قطن جديدة، قد لفها على نعل جديدة، فمضيت حتى لحقته خارجاً من المدينة، فقال: هكذا أدركتُ النَّاسُ يأخذون ويعطون، انصرف بما معك. فانصرفت^(١).

امتناعه عن الزواج:

ومن زهده في الدنيا وتقلله فيها: امتناعه عن الزواج، فالمرأة لا شك من الدنيا، من زينتها ومتاعها، كما في الحديث الصحيح: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»^(٢)، وفي الحديث الآخر: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ»^(٣). وهو لم يُرد هذه الدنيا، لا لأنه يحرم ما أحل الله، أو يخالف سنة رسول الله ﷺ، ولكن يخاف من نفسه ألا تقوم بما يجب لها من حق، وهو مشغول عنها، وليس كالرجل الذي يستطيع أن يعطي لكل ذي حق حقه^(٤).

ولهذا لما لقيه بَقِيَّةُ بن الوليد بالساحل فسأله قال له: أَكُنَيْكَ أم أدعوك باسمك؟ فقال: إِنْ كُنَيْتَنِي قَبْلْتُ مِنْكَ، وَإِنْ دَعَوْتَنِي بِاسْمِي فَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ. قال بَقِيَّةُ: فقال لي: يا بَقِيَّةُ، كُنْ ذَنْبًا وَلَا تَكُنْ رَأْسًا، فَإِنَّ الذَّنْبَ يَنْجُو وَالرَّأْسَ يَهْلِكُ، قال قلتُ له: ما شأنك لا تتزوَّج؟ قال: ما تقول في

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٨٣/٧ - ٣٨٤).

(٢) سبق تخريجه ص ١٣١.

(٣) سبق تخريجه ص ١٣١.

(٤) ومثل ابن أدهم في ذلك كثير من العلماء العزاب، الذين شغلهم العلم عن القيام بحق الزوجية وبناء الأسرة، مثل: بشر الحافي، وابن جرير الطبري، وأبي عليّ الفارسي، والزمخشري، والنووي، وابن تيمية. وانظر كتاب: العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج، للعلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمته الله.

رجل غرَّ امرأته وخذعها؟ قلت: ما ينبغي هذا. قال: فأتزوِّج امرأة تطلب ما يطلب النساء لا حاجة لي في النساء، قال: فجعلت أثني عليه، قال: ففطن، فقال: لك عيال؟ فقلت: نعم، قال: رَوْعة من رَوْعة^(١) عيالك أفضل ممَّا أنا فيه^(٢).

فهو يخشى من الزواج أن تطالبه امرأته بما تطالب به المرأة من حقوق على زوجها من المعاشرة الجنسية، ومن المطايبه والمؤانسة وغيرها، وهو مشغول عن هذا كله، وربما من طول الجوع والمعاناة لم تعد لديه قدرة ولا رغبة في النساء، فهذا يظلم أي امرأة يتزوَّجها وكانت حياته لا تستطيع امرأة أن تتحمَّلها، فقد كان هو وأصحابه يأكلون الخبز بالملح، وكانوا يمنعون أنفسهم الحَمَّام والماء البارد والحذاء، ولا يجعلون في ملحهم أبقاراً^(٣) (أي: توابل)، وكان إذا جلس على سفرة فيها طعام طيب، رمى بطيبها إلى أصحابه، وأكل هو الخبز والزيتون. وأي امرأة تطيق هذه المعيشة؟ ولا يستطيع هو أن يتنازل عنها.

شدته على نفسه:

وقد كان شديداً على نفسه. حتَّى إنه يصبر على الجوع أياماً لا يأكل، أو يأكل ما لا يأكله أحد، كما قيل من أنه يبُلُّ الرمل بالماء، ويأكله حتَّى يجد الخبز الحلال.

عن بقية بن الوليد، قال: قلت لرفيق لإبراهيم: أخبرني عن أشدَّ شيء

(١) رَوْعة أي: فزعة.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢١/٨).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٥٠٠/١٣).

مرَّ بكم منذ صحبتته؟ قال: نعم كُنَّا يوماً صياماً فلما كان عند الإفطار، لم يكن عندنا شيء نفطر عليه، فقلت له: يا أبا إسحاق، هل لك في خَصْلة: أن تأتي باب الرّسْتَن^(١)، فنُكري أنفسنا مع هؤلاء الحَصّادين؟ قال: وذلك، فأتينا باب الرّسْتَن، فجاء رجل فاكراني بدرهم، قال: قلت: وصاحبي؟ قال: صاحبك ضعيف لا أريده. قال: فما زلتُ به حتّى اكتراه بأربعة دوانق (أي: ثلثي درهم) قال: - ونحن صيام - فلما كان عند المساء أخذت الكراء منه، فأتيت السوق، فاشترت ما احتجتُ إليه، وتصدقتُ بالباقي فقال: أمّا نحن فقد استوفينا أجرينا، فليت شعري أوفيناه أم لا؟ قال: فلما رأيت ذلك غضبتُ، فلما رأى غضبي قال: لا بأس، تضمن لي أنا أوفيناه عمله؟ قال: فلما رأيتُ ذلك أخذتُ منه الطعام، فتصدّقتُ به، فهذا أشد شيء مرَّ بي منذ صحبتته.

شدة مفارقة الوطن:

وقال: عالجتُ العبادة، فما وجدت شيئاً أشد عليّ من نزاع النفس إلى الوطن. ويقول: ما قاسيتُ فيما تركت شيئاً أشدّ عليّ من مفارقة الأوطان.

وقال: ما قاسيتُ شيئاً من أمر الدُّنيا أشدّ عليّ من نفسي، مرة عليّ ومرة لي، وأمّا هواي فقد والله استعنتُ بالله عليه، فأعاني، واستكفيته سوء مغالبتة فكفاني، فوالله ما آسى على ما أقبل من الدُّنيا ولا ما أدبر منها.

ويقول: ما كانت لي مؤونة قط على أصحابي ولا على غيرهم، إلا في شيء واحد فقلت: فإيش يا أبا إسحاق؟ قال: ما كنت أحسن أكري

(١) الرستن: بلدة قديمة بين حماة وحمص.

نفسى فى الحصّادين، فىحتاجون أن يكرونى، وىأخذون لى الأجرة. فهذه كانت مؤونتى عليهم^(١).

ومرة أخرى قال له رجل: لو تزوجتُ؟ فقال: لو أمكننى أن أطلق نفسى لطلقتها^(٢)!

فمن كان يرى نفسه عاجزًا عن حمل ذاته، فكيف يحمل غيره معه؟!!

٤ - خوف الله وحساب الآخرة:

ومن مقومات الزُّهد عند إبراهيم بن أدهم: استحضار رقابة الله تعالى، وأنه يراك قبل أن تراه، وأنه لا تخفى عليه خافية، وأن كل ما يعمله الإنسان مسجّل عنده، وأنه يُحاسب عليه، يوم تنصب الموازين، وتنشر الدواوين، وتبلى السرائر، ويحصّل ما فى الصدور، ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِلٍ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهَمَّ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]. فكانت الآخرة أبدًا نُصب عينيه، والموت والقبر وما بعدهما، والموت أشد ما قبله، وأهون ما بعده، وكان إبراهيم يقول: دارنا أماننا، وحياتنا بعد وفاتنا، فإما إلى الجنة، وإما إلى النار^(٣).

وكان يقول: مثل لبصرك حضور ملك الموت وأعوانه لقبض رُوحك، وانظر كيف تكون، ومثل له هول المطلع ومساءلة منكر ونكير، وانظر كيف تكون، ومثل له القيامة وأهوالها وأفزاعها والعرض والحساب، وانظر كيف تكون. ثم صرخ صرخة خرّ مغشيًا عليه^(٤).

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية (٣٧٩/٧ - ٣٨١).

(٢) رواه ابن عساکر فى تاريخ دمشق (٣٠١/٦).

(٣) رواه البيهقي فى الزهد الكبير (٥٣٨).

(٤) رواه ابن عساکر فى تاريخ دمشق (٣٣٠/٦، ٣٣١).



ونظر إلى رجل من أصحابه يضحك، فقال له: لا تطمع فيما لا يكون، ولا تيئس ممّا يكون. فقيل له: كيف هذا يا أبا إسحاق؟ فقال: لا تطمع في البقاء والموت يطلبك، فكيف يضحك من يموت، ولا يدري أين يذهب إلى جنة أم إلى نار؟! ولا تيئس مما يكون، الموت يأتيك صباحًا أو مساءً. ثم قال: أوه أوه! ثم خرّ مغشيًا عليه^(١).

وكان يقول: ما لنا نشكو فقرنا إلى مثلنا، ولا نسأل كشفه من ربنا. ثم يقول: ثكلت عبدًا أمّه أحب الدنيا، ونسي ما في خزائن مولاه!

وقال: إذا كنت بالليل نائمًا، وبالنهار هائمًا، وبالمعاصي دائمًا، فكيف يرضى من هو بأمرورك قائمًا^(٢)؟!

ورآه بعض أصحابه وهو بمسجد بيروت وهو يبكي، ويضرب بيديه على رأسه، فقال: ما يبكيك؟ فقال: ذكرت يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار.

وقال: إنك كلما أمعت النظر في مرآة التوبة بان لك قبح شين المعصية.

وكتب إلى الثوري: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن أطلق أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه^(٣).

كيف يتم الورع:

قال إبراهيم بن أدهم: إنّما يتمّ الورع بتسوية كل الخلق في قلبك، والاشتغال عن عيوبهم بذنبك، وعليك باللفظ الجميل، من قلب ذليل،

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٣/٨).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٢/٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣٢/٦).

(٣) هذه الآثار رواها ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣٣/٦، ٣٣٤).

لرب جليل، فكَرَّ في ذنبك، وتُوب إلى ربك، يَثبت الورع في قلبك،
واقطع الطمع إلا من ربك^(١).

وقال أيضا: ليس من أعلام الحب أن تحب ما يُبغضه حبيبك، ذمَّ
مولانا الدنيا، فمدحناها، وأبغضها، فأحببناها، وزهدنا فيها، فأثرناها^(٢).

٥ - سكينه النفس ورضاها بما قسم الله:

ومن مقومات زهده: الاطمئنان إلى ما عند الله، وسكينه النفس
بالأنس به، والرضا بما قسم الله تعالى للعبد، واعتياد ذلك هو السعادة
العظمى التي لا تُدانيها سعادة، والتي حُرِّمها الملوك وأبناء الملوك،
ونالها طلاب الآخرة، وعُشِّاق ما عند الله وَعَبَّاد.

رزق الله مضمون:

فقد روى أبو نعيم عن إبراهيم بن بشار الصوفي الخراساني خادم
إبراهيم بن أدهم قال: أمسينا مع إبراهيم بن أدهم ذات ليلة، وليس معنا
شيء نفطر عليه، ولا بنا حيلة، فرآني مغتمًا حزينًا، فقال: يا إبراهيم بن
بشار، ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في
الدنيا والآخرة؟! لا يسألهم الله يوم القيامة عن زكاة ولا عن حج ولا عن
صدقة ولا عن صلة رحم (أي بالمال) ولا عن مواساة، وإنما يسأل
ويحاسب عن هذا هؤلاء المساكين - يعني الأغنياء - أغنياء في الدنيا
فقراء في الآخرة، أعزة في الدنيا أدلة يوم القيامة، لا تغتم ولا تحزن،

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦/٨).

(٢) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٢٦٣)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣٩/٦)، وانظر: البداية

والنهاية (٥٠٧/١٣ - ٥٠٩).

فرزق الله مضمون سيأتيك، نحن والله الملوك الأغنياء، نحن الذين قد تعجلنا الراحة في الدنيا، لا نبالي على أي حال أصبحنا وأمسينا، إذا أطعنا الله وَعَجَّلَ .

ثم قام إلى صلاته، وقمت إلى صلاتي، فما لبثنا إلا ساعة، إذا نحن برجل قد جاء بثمانية أرغفة وتمر كثير، فوضعه بين أيدينا، وقال: كلوا رحمكم الله. قال: فسلم وقال: كل يا مغموم. فدخل سائل فقال: أطمعوني شيئاً، فأخذ ثلاثة أرغفة مع تمر فدفعه إليه، وأعطاني ثلاثة وأكل رغبين، وقال: المواساة من أخلاق المؤمنين^(١).

لذة عيش ابن أدهم:

وروى أبو نعيم بسنده أيضاً عن إبراهيم بن بشار الرطابي^(٢) قال: بينا أنا وإبراهيم بن أدهم وأبو يوسف الغسولي، وأبو عبد الله السخاوي، ونحن متوجهون نريد الإسكندرية، فصرنا إلى نهر يقال له «نهر الأزدن» فقعدنا نستريح، فقرب أبو يوسف الغسولي كسائر يابسات، فأكلنا وحمدنا الله تعالى، وقام أحدنا ليسقي إبراهيم. فسارعه فدخل النهر، حتى بلغ الماء ركبتيه، ثم قال: باسم الله. فشرب (أي كرعَ بيديه)، ثم قال: الحمد لله. ثم يبدأ ثانية، فقال: باسم الله، ثم شرب، ثم قال: الحمد لله ثم خرج، فمد رجله، ثم قال: يا أبا يوسف لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السرور والنعيم، إذا لجالدونا بأسيا فهم أيام الحياة على ما نحن فيه من لذة العيش، وقلة التعب!! زاد أحد الرواة: فقلت له:

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٧٠/٧).

(٢) كذا في حلية الأولياء، وفي غيره: الصوفي، وهو إبراهيم بن بشار الخراساني الصوفي

الحمال مولى معقل بن يسار.

يا أبا إسحاق، طلب القوم الراحة والنعيم فأخطؤوا الطريق المستقيم. فتبسم ثم قال: من أين لك هذا الكلام^(١)؟

«ولقد صدق ابن أدهم، فإنَّ السلطان إن أكل شيئًا خاف أن يكون قد طرَحَ له فيه سم، وإن نام خاف أن يُغتال، وهو وراء المغاليق لا يمكنه أن يخرج لفُرجة، فإن خرج كان منزعًا من أقرب الخلق إليه، واللذة التي ينالها تبرد عنده، ولا تبقى له لذة مطعم ولا منكح.

وكلما استظرف المطاعم أكثر منها، ففسدت معدته، وكلما استجدَّ الجواري أكثر منهن فذهبت قوته، ولا يكاد يُبعد ما بين الوطاء والوطء، فلا يجد في الوطاء كبير لذة؛ لأن لذة الوطاء بقدر بُعد ما بين الزمانين، وكذلك لذة الأكل. فإن من أكل على شِبَع، ووطئ من غير صدق شهوة وقلق، لم يجد اللذة التامة التي يجدها الفقير إذا جاع، والأعزب إذا وجد امرأة.

ثم إنَّ الفقير يرمي نفسه على الطريق في الليل فينام ولذة الأمن قد حُرِّمها الأُمراء فلذتهم ناقصة وحسابهم زائد»^(٢).

٦ - السخاء والإيثار:

ومن مكونات الزُّهد عند ابن أدهم: السخاء بما عنده لإخوانه ولكل الفقراء والمحاييج وإيثارهم على نفسه، فهو يرضى بالقليل وبالذون، وبالعيش الخشن، وبالجوع أحيانًا، ويؤثر الآخرين على نفسه، عن رضا وطيب خاطر.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/٣٧٠، ٣٧١).

(٢) صيد الخاطر ص ٢٩٩، ٣٠٠.

قالوا: وكان إذا جلس على سُفرة فيها طعام طيب رمى بما وقع بين يديه إلى أصحابه، وأكل هو الخبز والزيتون^(١).

وذكروا أنه كان يعمل بالفاعل، ثم يذهب فيشتري الخبز الأبيض والزبد، وتارة الشُّواء والجوزبان (الأرز بالسكر والجوز واللحم) والخبيص (طعام يعمل من التمر والسمن) فيطعمه أصحابه، وهو صائم، فإذا أفطر، يأكل من رديء الطعام، ويحرم نفسه المطعم الطيب ليبرّ به الناس، تأليفاً لهم وتحبباً وتودُّداً إليهم^(٢).

وقال مضاء بن عيسى: ما فاق إبراهيم بن أدهم أصحابه إلا بالصدق والسخاء^(٣).

٧ - خدمة إخوانه وخدمة الناس:

من معالم زهد ابن أدهم: أنه وضع نفسه في خدمة النَّاس عامة، وفي خدمة إخوانه خاصة، وكان يخدمهم بنفسه وبدنه، وما يبذله من جهد، ويجد لذلك لذته، يتعب ليرتاحوا، ويسهر ليناموا، ويجوع ليشبعوا، ويمشي ليركبوا، ويعمل كل ما في وسعه ليدخل عليهم السرور والبهجة. وله في ذلك عجائب ونوادر، لا تصدر إلا عن الصّديقين.

فعن سهل بن بشر قال: مرّ بي إبراهيم بن أدهم، وأنا أكسر عود حطب قد أعياني، فقال لي: يا محمد قد أعياك؟ قلت: نعم، قال: فتأمر لنا به؟ قلت: نعم. قال: وتعيّرنا الفأس؟ قلت: نعم؟ قال: فأخذ العود

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩٨/٦).

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠٧/٦) بنحوه، وانظر: البداية والنهاية (٥٠٢/١٣، ٥٠٣).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٨٤/٧).

ووضعه على رقبته وأخذ الفأس ومضى، فبينا أنا على ذلك، إذا أنا
بالباب قد فُتِحَ والحطب يطرح في الباب مكسراً، وألقى الفأس، وأغلق
الباب ومضى.

قال: وكان إبراهيم إذا صَلَّى العشاء، وقف بين يدي الدور، فنادى بأعلى
صوته: مَنْ يريد يطحن؟ فكانت المرأة تُخرج القُفَّة، والشيخ الكبير، فينصب
الرحى بين رجليه، فلا ينام حتَّى يطحن بلا كِرَاء، ثم أتى أصحابه^(١).

وعن خلف بن تميم قال: سألت إبراهيم بن أدهم: مُذْ كم أنت هاهنا
بأرض الشام؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة. وقال: دُفِعْتُ إلى شباب من
العرب يحصدون، وقد ضربوا خِباءً لهم، فقالوا: يا فتى اذُنْ فاحصد معنا.
قال فحصدت معهم، فكانوا يعطونني من الأجر ما يُعطون واحداً منهم
من الأُستاذين. فقلت بيني وبين نفسي: ما أرى هذا يسعني، هؤلاء
الأُستاذون وأنا لا أحسن أحصد، قال: فكنت أدعهم إذا أخذوا مضاجعهم
وناموا، أخذت المِنْجَل فحصدتُ. قال: فأصبح وقد حصدت شيئاً
صالحاً. قال: فسمعتهم يتوشوشون فيما بينهم يقولون: أليس هذا الزرع
كان البارحة قائماً فمن حصده؟ فيقول بعضهم لبعض: هذا نراه بالليل
يقوم فيحصد، فأسمعهم يقولون: ما يسعنا ذا، هذا يحصد بالليل والنهار،
وإنما يأخذ أجر رجل واحد^(٢).

وعن أحمد بن الفضل العتكي قال: سمعتُ أبي يقول: مرَّ إبراهيم بن
أدهم بقبسارية^(٣)، وقد تعجَّل ديناراً من الكَرْم، فسمع صوت امرأة تصيح،

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٧٢/٧، ٣٧٣).

(٢) ذكره أبو نعيم في الحلية (٣٧٨/٧).

(٣) مدينة من مدن فلسطين، نسأل الله أن يحررها من دنس يهود.

فقال: ما لهذه؟ قالوا: تلد. قال: وأي شيء يُعمل بالمرأة؟ قالوا: يشتري لها طحين وزيت ولحم وعسل، فصرف دينار، واشتري زنبيلًا وملاء طحينًا، واشتري زيتًا وسمنًا وعسلًا ولحمًا، وحمله على رقبته إلى الباب، وقال: خذوا. قال: فنظر فإذا هم أفقر بيت في أهل قيسارية وأعبدهم^(١).

اشتراطه على رفقائه الخدمة والأذان:

وكان إذا غزا اشترط على رفقائه أن يكلوا له أمرين: الخدمة، والأذان. فقد روى أبو نعيم عن عيسى بن حازم يقول: كان إبراهيم بن أدهم إذا غزا اشترط على رفقائه الخدمة والأذان^(٢).

وكان إذا سافر مع أحد من أصحابه يخدمه إبراهيم، ويصبر على ذلك، مع ما كان له من منزلة كبيرة في أنفس الناس. فكان إذا حضر في مجلس، فكأنما على رؤوسهم الطير، هيبة له وإجلالاً^(٣).

وكان يساعده على خدمة الناس التواضع، الذي جعله من الأذلة على المؤمنين، فكان لا يستكبر عن شيء ولا يتعالى على أحد.

ورآه الأوزاعي ببسروت، وعلى عنقه حزمة حطب، فقال: يا أبا إسحاق، إن إخوانك يكفونك هذا! فقال له: اسكت يا أبا عمرو، فقد بلغني أنه إذا وقف الرجل موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة^(٤).

(١) المصدر السابق (٣٨٢/٧).

(٢) المصدر السابق (٦/٨).

(٣) انظر: البداية والنهاية (٥٠٤/١٣).

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣١٦/٦).

وكان مع شدته على نفسه، لا يكلف أحداً همَّ نفسه. يقول: ما كانت لي مؤونة قط على أصحابي ولا على غيرهم، إلا في شيء واحد، فقلت: فأيش يا أبا إسحاق؟ قال: ما كنت أحسن أكري نفسي في الحصادين، فيحتاجون أن يكروني، ويأخذون لي الأجرة، فهذه كانت مؤونتي عليهم^(١).

مباسطته أصحابه:

وكان مع أصحابه يُبسطهم، ويشعرهم بقربه منهم، وقربهم منه، فلا يتكلف معهم، ولا يتكلفون معه. وقد قيل: إذا زادت الألفة سقطت الكلفة.

حدث أبو المنذر بشر بن المنذر قاضي المصيبة قال: كنت إذا رأيت إبراهيم بن أدهم كأنه ليس فيه رُوح، ولو نفخته الريح لوقع، قد اسودَّ، متدرِّع بعباءة، فإذا خلا بأصحابه فمَن أبسط الناس.

وعن عيسى بن حازم قال: كُنَّا مع إبراهيم بن أدهم في بيت ومعه أصحاب له، فأثوا ببطيخ، فجعلوا يأكلون ويمزحون ويترامون بينهم، فذقَّ رجل الباب، فقال لهم إبراهيم: لا يتحركنَّ أحد، قالوا: يا أبا إسحاق: تعلّمنا الرياء؟ نفعل في السر شيئاً لا نفعله في العلانية؟ فقال: اسكتوا إنني أكره أن يعصى الله فيّ وفيكم^(٢). (يعني: أنه يخشى إذا سمع الطارق اللهو والمزاح أساء الظن بهم فعصى الله بذلك).

(١) سبق تخريجه ص ٣٥٦.

(٢) الأثران رواهما أبو نعيم في الحلية (٩/٨).

٨ - الاهتمام بأمر الإسلام والمسلمين:

ومن مكونات الزُّهد عند ابن أدهم: اهتمامه بأمر الإسلام وأمر المسلمين، وعزة الدين ونصرته.

ومن الكلمات البليغة التي تُروى عنه في اعتزازه بالإسلام: أيُّ دينٍ لو كان له رجال^(١)!

وكان لا يهتم بشأن نفسه، وإنَّما يهتم بأمر المسلمين وحاجات المسلمين، ويعمل على إعادتهم وتفريج كرباتهم وقضاء حاجاتهم.

وعن بقية بن الوليد قال: صحبتُ إبراهيم بن أدهم في بعض كُور الشام (يعني قراها)، وهو يمشي ومعه رفيقه، فانتهى إلى موضع فيه ماء وحشيش، فقال لرفيقه: أترى معك في المِخلاة شيء؟ قال: معي فيها كِسْر، فنثرها، فجعل إبراهيم يأكل، فقال لي: يا بقية، اذُنْ فكل. قال: فرغبت في طعام إبراهيم، فجعلت أكل معه، قال: ثم إنَّ إبراهيم تمدد في كسائه، فقال: يا بقية، ما أغفل أهل الدُّنيا عنا، ما في الدُّنيا أنعم عيشًا منا، ما أهتم بشيء إلا لأمر المسلمين^(٢).

مشاركته في الجهاد:

ومن اهتمام ابن أدهم بأمر الإسلام وأمته، كان اهتمامه بالمشاركة في الجهاد. فلم يكتف بجهاد نفسه عن جهاد الأعداء، كما فعل بعض المتصوِّفة بعد ذلك، الذين سَمَّوا جهاد العدو الجهاد الأصغر، وجهاد النفس الجهاد الأكبر. بل جمع بين الجهادين. وهل يتم جهاد الأعداء إلا بجهاد النَّفس؟

(١) رواه أبو بكر الدينوري في المجالسة (٨٥٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٢١/٨).

جهاد الهوى:

وكان يقول: أشدُّ الجهاد جهاد الهوى، من منع نفسه هواها، فقد استراح من الدنيا وبلائها، وكان محفوظًا ومعافًى من أذاها.
وقال أيضا: الهوى يُردى، وخوف الله يشفي، وأعلم أن ما يزيل عن قلبك هواك، إذا خفت من تعلم أنه يراك^(١).

ولم يكتف بالزهد والتعبد، وما يمارسه من عمل في كسب الحلال، وما يقوم به من السخاء والإيثار، وخدمة الفقراء، بل أصرَّ على أن يكون له نصيب مع الغزاة والمجاهدين.

شجاعته وإيثاره:

وكان له في غزواته مواقف في شجاعته وإيثاره وفي تحمُّل المتاعب، ما يعزُّ نظيره. فهو يُصِرُّ على أن يمشي، ويدع إخوانه يركبون.

عن أحمد بن أبي الحَوَّاري قال: سمعتُ أبا الوليد يقول: غزوتُ أنا وإبراهيم ومعِي فَرَسَان، وهو على رجليه. قال: فأردتُه أن يركب، فأبى، فحلفتُ. قال: فركب حتى جلس على السَّرَج. قال: قد أبررتُ يمينك، ثم نزل. قال: فسرنا في تلك السرية سِتًّا وثلاثين ميلاً، وهو على رجليه، فلما نزلنا أتى البحر، فأنقع رجليه، ثم أتى فاستلقى، ورفع رجليه على الحائط، فهذا أشد شيء رأيتُه صنع.

وعن أحمد بن أبي الحَوَّاري: حدثني بعض أصحابنا، قال: أصاب إبراهيم بن أدهم وأصحابه ثلجٌ بأرض الروم، فدخل أصحابه في الخباء،

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٨/٨).

وبقي هو برًّا، فأرادوه أن يدخل فأبى. قال: فأدخل رأسه في فروة كانت عليه، فكلما كثر الثلج نفضه، قال: فلما أصبحوا وطلعت الشمس، خرج الذين كانوا في الخباء، فقالوا: يا أبا إسحاق أي ليلة مرّت بنا؟ فنسأل الله ألاّ يبتلينا بليلة أخرى مثلها. قال إبراهيم: وكيف لنا بليلة أخرى مثلها^(١)؟!

وعن بعض رفقاء إبراهيم: أنّه كان مرة في الجهاد، فحين رأى العدو، رمى بنفسه في البحر يسبح نحوهم، وسبح معه رجال آخرون، فلما رأهم العدو بهذه الروح، والاستبسال، انهزموا أمامهم^(٢).

بُعده عن الجدل والخوض في الفتن:

ومع اهتمامه بأمر المسلمين، لم يكن يحب أن يشغل نفسه بالفتن التي أصابت المسلمين في تاريخهم، والدخول في الجدل الذي لا طائل تحته، فعن يحيى بن آدم، قال: سمعتُ شريكًا يقول: سألتُ إبراهيم بن أدهم عما كان بين علي ومعاوية، فبكى، فندمت على سؤالي إياه، فرفع رأسه فقال: إنّه من عرف نفسه اشتغل بنفسه، ومن عرف ربّه اشتغل برّبّه عن غيره^(٣).

لماذا لا يستجاب الدعاء؟

ولكنه كان يعرف آفات النفوس، وأمراض القلوب، التي تحول بين الناس وربهم، ولماذا لا يستجيب دعاءهم إذا دعوا.

(١) الأثران رواهما أبو نعيم في الحلية (٣٨٧/٧).

(٢) المصدر السابق (٣٧٩/٧) بنحوه.

(٣) المصدر السابق (١٥/٨).

قال شقيق بن إبراهيم: مرَّ إبراهيم ابن أدهم في أسواق البصرة، فاجتمع النَّاس إليه، فقالوا له: يا أبا إسحاق، إن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ونحن ندعوه منذ دهر، فلا يستجيب لنا. قال: فقال إبراهيم: يا أهل البصرة، ماتت قلوبكم في عشرة أشياء: أولها: عرفتم الله ولم تؤدوا حقه. الثاني: قرأتكم كتاب الله ولم تعملوا به. والثالث: ادعيتكم حب رسول الله ﷺ وتركتم سنته. والرابع: ادعيتكم عداوة الشيطان ووافقتموه. والخامس: قلمت نحب الجنة ولم تعملوا لها. والسادس: قلمت نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها. والسابع: قلمت إن الموت حق ولم تستعدوا له. والثامن: اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم. والتاسع: أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها. والعاشر: دفتتم موتاكم ولم تعتبروا بهم^(١).

٩ - الابتعاد عن أهل السلطة:

ومن مقومات زهده: البعد عن رجال الحكم، وأهل السلطان، لا يحب أن يلقاهم، ولا أن يزورهم، فيصدقهم بكذبهم، ويعينهم على ظلمهم، فيبرأ منه محمد ﷺ، ولا يرد عليه حوضه. فإذا اضطرتة الأقدار أن يلقى أحداً من ذوي السلطان قال كلمة الحق في وجهه.

وقد روي عنه قوله: أعز الأشياء في آخر الزمان ثلاثة: أخ يُؤنس به، وكسب درهم من حلال، وكلمة حق عند ذي سلطان^(٢).

وروي أبو نعيم أنه دخل إبراهيم بن أدهم على أبي جعفر «المنصور»

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٥/٨، ١٦).

(٢) رواه أبو ذر الهروي في فوائده (١٧)، تحقيق سمير بن حسين ولد سعدي القرشي الهاشمي الحسني، نشر مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

أمير المؤمنين، فقال: كيف شأنكم يا أبا إسحاق؟ قال: يا أمير المؤمنين: نرقع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع^(١) ولم يزد على ذلك، ولا استزاده أمير المؤمنين، ولا أدري متى كان هذا اللقاء، ولا في أي مناسبة.

١٠ - حبُّ الخمول والبعد عن الشهرة:

ومن معالم الزُّهد عنده: الزُّهد في الشهرة والجاه، وما يسميه النَّاس في عصرنا بـ «الأضواء» التي يلهث وراءها الكثيرون، وبعض النَّاس يحرصون عليها أكثر من حرصهم على المال والثروة، وهذا هو الذي جعل بعضهم يتقاتلون على الجاه والمنصب، وما وراءه من نفوذ وسلطة. وقد قيل: حبُّ الجاه ينبت النفاق في القلب كما يُنبت الماء البقل.

ولكن إبراهيم حين طلق الدنيا وفارقها، طلق معها حب الشهرة والمكانة المحمودة عند الناس، وقد قال ابن عطاء الله في ذلك: ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يُدفن لا يتم نتاجه^(٢). يشير إلى أنَّ البذرة التي تنبت وتورق وتنمو هي التي تدفن تمامًا في الأرض، لا التي تبقى على ظهرها، فهذه لا يتم نتاجها ولا يُنتفع بها.

وقد فرَّ مختارًا من الحياة الصاخبة الزاهية، إلى هذه الحياة الجديدة العامرة بتقوى الله، شعاره فيها الحديث الصحيح: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»^(٣).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/٨).

(٢) حكم ابن عطاء الله ص ٦٠ - ٦٢، شرح العارف بالله الشيخ زروق، تحقيق د. عبد الحليم محمود، ود. محمود بن الشريف، نشر دار الشعب، القاهرة، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

(٣) رواه مسلم في البر والصلة (٢٥٦٤)، وابن ماجه الزهد (٤١٤٣)، عن أبي هريرة.

وعن عبّاس بن الفضل المِرْعَشِي قال: لقيتُ عبد العزيز بن أبي رُوَاد، فتذاكرنا أمر إبراهيم بن أدهم. فقال عبد العزيز: رحم الله إبراهيم بن أدهم لقد رأيتُه بخراسان إذا ركب حضر بين يديه نحو من عشرين شاكري^(١)، ولكنه رحمته الله تعالى طلب بِحُبُوحَةِ الْجَنَّةِ.

وعن داود بن الجراح قال: كان إبراهيم بن أدهم ينظر كرمًا في كُورَةِ غَزَّةَ، فجاء صاحب الكرم ومعه أصحابه، فقال: ائتنا بعنبٍ نأكل. فأتاه بعنبٍ يقال له: الخافوني، فإذا هو حامض، فقال له صاحب الكرم: من هذا تأكل؟ قال: ما آكل من هذا ولا من غيره. قال: لم؟ قال: لأنك لم تُجِزْ لي شيئًا من العنب. قال: فأتني برمان، فأتاه برُمَّان، فإذا هو حامض. فقال: من هذا تأكل؟ قال: لا آكل من هذا ولا من غيره، ولكن رأيتُه أحمر حسنًا، فظننت أنه حلو. فقال: لو كنت إبراهيم بن أدهم ما عدا (أي ما فعلت أكثر من هذا)! ثم إنهم ذكروا صفة لبعض الناس فعرفوه، قال: فلما علم أنهم عرفوه هرب منهم وترك كِرَاهِ^(٢).

وكان إبراهيم يقول: ما صدقَ الله من أحب الشهرة^(٣). وكان رفقاًؤه كثيراً ما يسمعونه وهو يعمل أو يحصد، يرتجز ويقول:
اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانباً^(٤)

لهذا كانت العزلة أحب إلى إبراهيم من الاختلاط بالناس، ولكن العزلة عنده ليست عزلة الرهبان في الصوامع، ولكنها عن أهل الدنيا

(١) كذا بمطبوعة الحلية، والجادة: شاكرياً بالنصب، والشاكري: الأجير.

(٢) الأثران رواهما أبو نعيم في الحلية (٣٧١/٧، ٣٧٢).

(٣) المصدر السابق (١٩/٨).

(٤) المصدر السابق (١٠/٨).

وأهل السلطان، وعن حبّ الظهور، الذي طالما قصم الظهور. ولكنه كان يختلط بالفقراء والصالحين، وبجماهير الناس ما داموا لا يعرفونه من هو؟ فإذا انكشف لهم فارقهم إلى مكان آخر.

من الأتقياء الأخفاء:

روى أبو نعيم بسنده عن خلف بن تميم قال: قال لي إبراهيم بن أدهم: كنتُ في بعض السواحل، وكانوا يستخدموني ويبعثوني في حوائجهم، وربما يتبعني الصبيان، حتّى يضربوا ساقي بالحصا، إذ جاء قوم من أصحابي، فأحدقوا بي فأكرموني، فلما رأوا أولئك إكرامهم لي، أكرموني، فلو رأيتموني والصبيان يرموني بالحصا، وذلك أحلى في قلبي منهم حيث أحدقوا بي^(١).

وإنّما قال ذلك؛ لأنّ الخمول أحب إليه من الشهرة، يريد أن يكون من الأتقياء الأخفاء، الذين إذا حضروا لم يُعرفوا، وإذا غابوا لم يُفتقدوا.

اشتغاله بالعمل عن العلم:

وهذا الخمول، والبعد عن الشهرة، هو الذي جعله يختار طريق العمل لا طريق العلم، فلم يشتغل بطلب الحديث أو الفقه، وتعلّمه وتعليمه، كما شغل أصحابه وشيوخه: سفيان الثوري، والفضيل بن عياض، وعبد الله بن المبارك، والأوزاعي وغيرهم. وقد قال أبو حنيفة يوماً لإبراهيم: قد رُزقتَ من العبادة شيئاً صالحاً، فليكن العلم من بالك، فإنّه رأس العبادة، وقوام الدين^(٢). ومع هذا اشتغل إبراهيم بالعمل عن العلم،

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣٧١/٧).

(٢) البداية والنهاية (٤٩٩/١٣).

وخشي على قلبه من آفة التصدُّر في المجالس للتحديث والإقراء والإفتاء، وما فيها من فتنة وإغراء.

وسئل مرة: لماذا لم تطلب الحديث؟ فقال: أخاف ألا أقوم بحقه.

وروى ابن أبي الدنيا قال: حدثنا أبو الربيع عن إدريس قال: جلس إبراهيم إلى بعض العلماء، فجعلوا يتذكرون الحديث وإبراهيم ساكت، ثم قال: حدثنا منصور. ثم سكت، فلم ينطق بحرف حتى قام من ذلك المجلس، فعاتبه بعض أصحابه في ذلك! فقال: إني لأخشى مضرة ذلك المجلس في قلبي إلى اليوم^(١).

وقال رشدين بن سعد: مرَّ إبراهيم بن أدهم بالأوزاعي وحوله حلقة، فقال: لو أنَّ هذه الحلقة على أبي هريرة لعجز عنهم. فقام الأوزاعي وتركهم.

سبب تركه الحديث:

وقال إبراهيم بن بشار: قيل لابن أدهم: لم تركت الحديث؟ فقال: إنني مشغول عنه بثلاث: بالشكر على النعم، وبالاستغفار من الذنوب، وبالاستعداد للموت. ثم صاح وغشي عليه، فسمعوا هاتفاً يقول: لا تدخلوا بيني وبين أوليائي^(٢).

بل جعلوا من فضائله: أنه روى حديثاً واحداً في الزُّهد، فنفعه الله به، واستغنى عن كثير مما يطلبه الناس.

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩٠/٦) من طريق ابن أبي الدنيا.

(٢) المصدر السابق (٢٩١/٦، ٢٩٢).

روى ابن عساكر من طريق معاوية بن حفص قال: إنما سمع إبراهيم بن أدهم من منصور حديثاً، فأخذ به، فسَادَ أهل زمانه، قال: حدثنا منصور، عن ربّعي بن خراش قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، دُلّني على عمل يحبُّني الله عليه ويحبُّني الناس، قال: «إذا أردت أن يحبَّك الله فأبغض الدنيا، وإذا أردت أن يحبَّك الناس، فما كان عندك من فضولها فانبذهُ إليهم»^(١).

ولكنَّ زهده في النَّاسِ، لا يعني الانعزال عنهم تمامًا، كما يفعلُ الرُّهبان، بل يخالطهم في مساجدهم وصلواتهم وجمعهم وجماعاتهم، ويصاحب الأختار منهم، ويخدمهم بما يستطيع، ولكنه لا يجعل رضاهم أكبر همه، فرضا النَّاسِ غاية لا تدرك، وهو ينظر إلى الله قبل أن ينظر إليهم، ويسعى إلى مرضاته وإن أسخطهم. شعاره: إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هينٌ وكلُّ الذي فوق الثُّرابِ تُرابٌ^(٢) كان يقول: فرُّوا من النَّاسِ كفراركم من السَّبْعِ الضَّاري، ولا تخلفوا عن الجمعة والجماعة^(٣).

١١ - العبادة والعمل الصالح لله خالصًا:

ومن معالم زهده، أو قل: من معالم طريقه الذي سلكه: الانشغال بعبادة الله، وبالعمل الصالح الخالص عن سواه وعما سواه. فلا يشغله

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٩٠/٦).

(٢) من شعر المتنبي، كما في ديوانه ص ٤٨١، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٣م، وهو أيضًا في ديوان أبي فراس (٢٥/٢) بلفظ: إذا نلت، تحقيق سامي الدهان، نشر المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ١٩٤٤م.

(٣) البداية والنهاية (٥٠٣/١٣)، وهو في تاريخ دمشق لابن عساكر (٣١٣/٦).

شيء غير طاعة الله، وعبادة الله، وكان عامة دعائه: اللهم انقلني من ذل معصيتك إلى عز طاعتك^(١). وكانت قُرّة عينه في التعبد لله، وخصوصًا إذا كان بعيدًا عن أعين الناس.

قال أصحابه: صلّى بنا العتمة (أي: العشاء) ثم ما زال راکعًا وساجدًا ومتفكرًا حتّى الصبح، ثم صلّى بنا الصبح على وضوء العتمة^(٢)!

ولم يكن أكبر همّه كم العبادة، ولكن كيفها، ماذا فيها من إخلاص، وما وراءها من تفكير. قيل لعلي بن بكار من أصحابه: كان إبراهيم بن أدهم كثير الصلاة؟ قال: لا، ولكنه كان صاحب تفكير، يجلس ليله يتفكر^(٣).

وكان يستريح بالخلوة مع الله، بمعزل عن الناس، قالوا: رئي إبراهيم بن أدهم خارجًا من الجبل، فقيل: من أين؟ فقال: من الأنس بالله **وَجَلَّ**^(٤).

وكان يقول: أظب مطعمك ولا عليك ألا تقوم بالليل وتصوم بالنهار^(٥).

عبادته في رمضان:

وكان في شهر رمضان يُحيي ليله بالصلاة والذكر، ويعمل نهاره في الحصاد.

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣١/٨، ٣٢).

(٢) المصدر السابق (٣٨٥/٧، ٣٨٦).

(٣) المصدر السابق (١٧/٨).

(٤) المصدر السابق (٢٠/٨).

(٥) المصدر السابق (٣١/٨).



روى أبو نعيم بسنده إلى إسحاق الفزاري قال: كان إبراهيم بن أدهم في شهر رمضان يحصد الزرع بالنهار، ويصلي بالليل، فمكث ثلاثين يوماً لا ينام بالليل ولا بالنهار!!

أقول: وهل في استطاعة الإنسان ذلك؟ أو هو من المبالغات التي تُعتاد في مثل ابن أدهم!؟

روى أبو نعيم في «الحلية» بسنده إلى موسى بن عبد الله الطرسوسي قال: سمعتُ أبا يوسف الغسولي يعقوب بن المغيرة يقول: كُنَّا مع إبراهيم بن أدهم في الحصاد في شهر رمضان، ف قيل له: يا أبا إسحاق، لو دخلت بنا إلى المدينة فنصوم العشر الأواخر بالمدينة، لعلنا ندرك ليلة القدر؟ فقال: أقيموا هاهنا وأجيدوا العمل، ولكم بكل ليلة ليلة القدر^(١)!

* * *



(١) الأثران رواهما أبو نعيم في الحلية (٣٧٨/٧).

الفصل الخامس

عبد الله بن المبارك (١١٨ - ١٨١هـ)

الشخصية الثانية التي اخترتها مع إبراهيم بن أدهم، نموذجًا للزُّهَاد المسلمين الأوائل، هي: شخصية عبد الله بن المبارك، وهي شخصية أُعجبت بها من قديم، وتمنيتُ لو يمنحني الله تعالى رذاذًا من وابل فضلها^(١).

نقاط الاتفاق والاختلاف بين شخصية ابن المبارك وابن أدهم:

تجتمع شخصيّة ابن المبارك مع ابن أدهم في الورع والزهد، وفي السخاء والإيثار، وفي التعبد لله والإخلاص له، وفي خدمة الأصحاب والرفقاء، والمشاركة في الجهاد.

ولكنها تختلف عنه في التجارة والضرب في الأرض ابتغاء فضل الله، وامتلاك المال والغنى، وتسخيره في عمل الخير، وإنفاقه على طلاب العلم وأهل الحديث، وفي الاختلاط بالناس، وطلب العلم والفقه في الدين، وحفظ الحديث، ثم تعليم الناس، وتفقيهم في دين الله، وفي

(١) ممن أفرد ترجمته العلامة الأديب: الشيخ علي الطنطاوي، والشيخ أبو الوفا المراغي، وأستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود، في كتابه: الإمام الرباني الزاهد عبد الله بن المبارك، والعالم الفاضل الشهيد: محمد عثمان جمال، في كتابه: عبد الله بن المبارك الإمام القدوة، وهو من أوسع ما كُتب عنه.

معرفة كتاب الله، وحديث رسول الله ﷺ، والنصح للأمة، وجمع خصال الخير والمكارم، فهو ممن سماهم السلف «الرباني»، وهو الذي يعلم ويعمل ويعلم. ويزيد على ذلك، أنه يربط ويجاهد في سبيل الله.

إمامته في عدة مجالات:

فهو شخصية متعدّدة المواهب، متنوّعة القدرات، ثرة العطاء، ثرية بالمكرّمات، انعقدت له الإمامة في عدة مجالات: الإمامة في الحديث، والإمامة في الفقه، والإمامة في الورع، والإمامة في الزهد، والإمامة في العبادة، والإمامة في السخاء، والإمامة في الجهاد، والإمامة في الأدب ومكارم الأخلاق. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ترجمة الذهبي وابن كثير لابن المبارك:

ترجم له مؤرخ الإسلام، الحافظ الذهبي في «السير» فقال: الإمام، شيخ الإسلام، عالم زمانه، وأمير الأتقياء في وقته، أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم، التركي ثم المروزي، الحافظ الغازي، أحد الأعلام. وكانت أمه خوارزمية. ولد سنة ثمان عشرة ومائة (١١٨هـ). فطلب العلم وهو ابن عشرين سنة.

وبعد أن تحدّث عن شيوخه الذين أخذ عنهم، وتلاميذه الذين رووا عنه، قال: وصنّف التصانيف النافعة الكثيرة^(١).

وترجم له ابن كثير كذلك في كتابه «البداية والنهاية» ترجمة مركزة،

فقال:

(١) سير أعلام النبلاء (٣٧٨/٨) وما بعدها.

عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن المَرْوَزِيُّ، كان أبوه تركيًّا، مولى لرجل من التجَّار من بني حنظلة من أهل همذان، فكان ابن المبارك إذا قدّمها أحسن إلى ولد مولاهم، وكانت أمه خوارزمية، ولد سنة ثمان عشرة ومائة، وسمع إسماعيل بن أبي خالد، والأعمش، وهشام بن عروة، وحَمِيدًا الطويل، وغيرهم من أئمة التابعين. وحَدَّث عنه خلائق من الناس، وكان موصوفًا بالحفظ والفقه والعربية والزهد والكرم والشجاعة، وله التّصانيف الحسان، والشُّعر المتضمن حكمًا جمّة، وكان كثير الغزو والحج، وكان له رأس مالٍ نحو أربعمئة ألف يدور يتّجر به في البلدان، فحيث اجتمع بعالم بلدة أحسن إليه، وكان يربو كسبه في كل سنة على مائة ألف، يُنفقها كلها في أهل العلم والعبادة، وربما أنفق من رأس المال^(١).

قال سفيان بن عُيينة: نظرتُ في أمره وأمر الصحابة، فما رأيتهم يُفضّلون عليه إلا بصُحبتهم رسول الله ﷺ^(٢).

وقال إسماعيل بن عيَّاش: ما على وَجْه الأرض مثله، وما أعلم خصلة من الخير إلا وقد جعلها الله في ابن المبارك، ولقد حدّثني أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلى مكة، فكان يطعمهم الخبيص، وهو الدَّهْر صائمٌ^(٣).

أبواب الخير عند ابن المبارك:

وقال مولى ابن المبارك: اجتمع جماعة مثل الفضل بن موسى ومخلد بن الحسين، فقالوا: تعالوا نعدُّ خصال ابن المبارك من أبواب

(١) البداية والنهاية (٦١٠/١٣).

(٢) تاريخ دمشق (٤١٥/٣٢).

(٣) المصدر السابق (٤٢٦/٣٢).



الخير، فقالوا: العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد،
والفصاحة، والشعر، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والشجاعة،
والفروسية، والقوة (الشدة في الجسم)، وترك الكلام فيما لا يعنيه،
والإنصاف، وقلة الخلاف على أصحابه^(١).

منزلته بين العلماء:

لم يبلغ عالم من سُمُوّ المقام، وعلو المنزلة، ما بلغه عبد الله بن
المبارك بين علماء الأمة في مشرقها ومغربها، مع أنه كان من الموالي،
فأبوه تركي، وأمه خوارزمية. لم يشذ عن ذلك محدث أو فقيه أو أديب
أو مؤرخ.

قال الأوزاعي لعبد الرحمن بن يزيد الجَهْضَمي: رأيت ابن المبارك؟
قال: لا، قال: لو رأيتَه لقرّرت عينك^(٢).

وقال عبد العزيز بن أبي رزمة: قال لي شعبة: عرفت ابن المبارك؟
قلت: نعم. قال: ما قدم علينا من ناحيتكم مثله^(٣).

وقال إسماعيل بن عيَّاش: ما على وجه الأرض مثل ابن المبارك^(٤).

وقال أبو أسامة: كان ابن المبارك في أصحاب الحديث مثل أمير
المؤمنين في الناس^(٥).

(١) سير أعلام النبلاء (٣٩٧/٨).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٢/٨).

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣٨٨/١١)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤١٣/٣٢).

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢٦/٣٢).

(٥) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣٨٨/١١).

وقال محمد بن عبد الوهاب الفراء: ما أخرجت خراسان مثل هؤلاء الثلاثة: ابن المبارك، والنضر بن شميل، ويحيى بن يحيى^(١).

وقال ابن مهدي: ما رأيت رجلاً أعلم بالحديث من الثوري، ولا أحسن عقلاً من مالك، ولا أقشف من شعبة، ولا أنصح لهذه الأمة من عبد الله بن المبارك^(٢).

وكان يقول: كان ابن المبارك أعلم من الثوري^(٣).

قيل لابن مهدي مرّة: أيهما أفضل عندك، ابن المبارك أو سفيان الثوري؟ فقال: ابن المبارك، فقيل: إن الناس يخالفونك. قال: إن الناس لم يجربوا^(٤).

وقدم ابن مهدي بغداد في بيع دار له، فاجتمع إليه أصحاب الحديث، فقالوا له: جالست سفيان الثوري وسمعت منه، وسمعت من عبد الله، فأيهما أرجح؟ فقال: ما تقولون لو أنّ سفيان جهد جهده على أن يكون يوماً مثل عبد الله لم يقدر^(٥).

وقال سفيان نفسه: إنني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله بن المبارك، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام^(٦).

وكان أبو إسحاق الفزاري يقول: ابن المبارك إمام المسلمين أجمعين

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣٨٨/١١).

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٢١/٣٢).

(٣) انظر: تاريخ الإسلام (٢٢٣/١٢).

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤١٩/٣٢).

(٥) المصدر السابق (٤٢٠/٣٢).

(٦) المصدر السابق (٤١٢/٣٢).

- قال الذهبي: أي في زمانه - وقال المسيّب بن واضح: ورأيت أبا إسحاق بين يدي ابن المبارك قاعدًا يُسأله^(١).

وهل تدري من أبو إسحاق هذا؟ هو من كان الأوزاعي يقول فيه: إنه والله خير مني. وقال أبو داود الطيالسي: ما على وجه الأرض أفضل منه^(٢).

ونُعي ابن المبارك إلي ابن عُيينة، فقال: لقد كان فقيهاً، عالماً، عابداً، زاهداً، سخياً، شجاعاً، شاعراً^(٣).

ونُعي إلى الفضيل بن عياض، فقال: رحمته الله، أما إنّه ما خلف بعده مثله^(٤).

وقال شعيب بن حرب: ما لقي ابن المبارك رجلاً إلا وابن المبارك أفضل منه^(٥).

وقال الحاكم: هو إمام عصره في الآفاق، وأولاهم بذلك علماً وزهداً وشجاعة وسخاء^(٦).

وقال النسائي: لا نعلم في عصر ابن المبارك أجل من ابن المبارك، ولا أعلى منه، ولا أجمع لكل خصلة محمودة منه^(٧).

(١) تاريخ دمشق (٤١٧/٣٢).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي (٥٨/١٢).

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤١٥/٣٢).

(٤) المصدر السابق (٤١٧/٣٢).

(٥) المصدر السابق (٤٢٥/٣٢).

(٦) انظر: تهذيب التهذيب (٣٨٦/٥)، نشر دائرة المعارف النظامية، الهند، ط ١، ١٣٢٦هـ.

(٧) انظر: المصدر السابق (٣٨٧/٥).

وقال أبو عمر ابن عبد البر: أجمع العلماء على قبوله وجلالته وإمامته وعدله^(١).

وقال الأسود بن سالم: إذا رأيت الرجل يغمز ابن المبارك، فاتَّهمه على الإسلام^(٢).

وقال الخليلي في الإرشاد: ابن المبارك الإمام المتَّفَق عليه، له من الكرامات ما لا يُحصى^(٣).

وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ: الإمام الحافظ العلامة، شيخ الإسلام، فخر المجاهدين، قدوة الزاهدين. وقال في ترجمته: والله إنني لأحبه وأرجو الخير بحبه، لِمَا منحه الله من التقوى والعبادة والإخلاص والجهاد، وسعة العلم والإتقان، والمواساة والفتوة والصفات الحميدة^(٤).

وأنا «القرضاوي» أقول ما قال الإمام الذهبي: والله إنني لأحبه وأرجو الخير بحبه، وأحبُّ مَنْ يحبه، وأتقرب إلى الله بحبه، وأدعو الله أن يحشرنا معه تحت راية محمد ﷺ.

مَلِكٌ غَيْرٌ مَتَوَجِّحٌ:

وقد قدم مرّة إلى الرّقة، وبها هارون الرشيد، فلما دخلها انجفل النَّاسُ يُهرعون إلى ابن المبارك، وازدحم النَّاسُ حوله، فأشرفت أم ولد للرشيد من قصر هناك، فقالت: ما للناس؟ فقيل لها: قديم رجل من علماء

(١) انظر: البداية والنهاية (٦١٣/١٣).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (٣٨٧/٥).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) تذكرة الحفاظ (٢٠٢/١)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.



خُرَاسَانُ يُقَالُ لَهُ: عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، فَانْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ. فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ:
هَذَا هُوَ الْمُلْكُ، لَا مُلْكُ هَارُونَ الرَّشِيدِ الَّذِي يَجْمَعُ النَّاسَ عَلَيْهِ بِالسُّوْطِ
وَالْعَصَا وَالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ^(١).

شعر ابن المبارك:

قال الذهبي: وقد كان ابن المبارك رحمته الله شاعراً محسناً، قوَّالاً بالحق.

وهو كذلك، ففي شعره كثير من الحكم والمواعظ، ووصف آفات
الأنفس، ومداخل الشيطان إليها، وقد روى شعره المتصوِّفة وأرباب
السلوك، ومن شعره:

رَأَيْتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ وقد يورثُ الذُّلَّ إِدْمَانُهَا
وَتَرَكْتُ الذُّنُوبَ حَيَاةَ الْقُلُوبِ وخيرٌ لِنَفْسِكَ عَصِيَانُهَا
وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمَلُوكُ وأجبارٌ سوءٍ ورُهْبَانُهَا؟
لَقَدْ رَتَعَ الْقَوْمُ فِي جِيْفَةٍ يَبِينُ لَدِي اللَّبِّ إِنْتَانُهَا^(٢)!

وروى إسحاق بن سنين لابن المبارك:

إِنِّي أَمْرٌ لَيْسَ فِي دِينِي لَغَامِرُهُ لَيْنٌ وَلَسْتُ عَلَى الْإِسْلَامِ طَعَانَا
فَلَا أَسْبُ أَبَا بَكْرٍ وَلَا عُمَرَا وَلَنْ أَسْبُ - مَعَاذَ اللَّهِ - عُثْمَانَا
وَلَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ أَشْتَمُهُ حَتَّى أَلْبَسَ تَحْتَ الثُّرْبِ أَكْفَانَا
وَلَا الزُّبَيْرَ حَوَارِيَّ الرَّسُولِ وَلَا أُهْدِي لَطْلِحَةَ شَتْمًا عَزَّ أَوْ هَانَا

(١) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٤٤٧/٣٢).

(٢) ديوان الإمام المجاهد ابن المبارك ص ١١٤، ١١٥، تحقيق أ. د. مجاهد مصطفى بهجت، نشر

مجلة البيان ١٤٣٢هـ.

ولا أقولُ عَلَيَّ في السَّحابِ، إذَنْ
 ولا أقولُ بقولِ الجَهَمِ إنَّ له
 ولا أقولُ تخَلَّى مِنْ خَلِيقَتِهِ
 ما قال فرعونُ هذا في تمردِهِ
 اللهُ يدفعُ بالسُّلطانِ مُعْضَلَةً
 لولا الأئمَّةُ لم تأمنُ لنا سُبُلٌ
 قد قُلْتُ واللهِ ظُلْمًا ثُمَّ عُدوانًا
 قولًا يُضارِعُ أهلَ الشُّركِ أحيانًا
 ربُّ العِبَادِ وولَّى الأمرَ شَيْطانًا
 فرعونُ موسى ولا هَامَانَ طُغْيَانًا
 عن ديننا رحمةً منه ورُضْوَانًا
 وكان أضعفنا نَهَبًا لأقوانا^(١)

يقال: إنَّ الرشيدَ أعجبه هذا، فلما أن بلغه موت ابن المبارك بهيت^(٢)
 قال: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، يا فضلُ، ائذن للنَّاسِ يُعزِّوننا في ابن
 المبارك. وقال: أمَّا هو القائلُ:

الله يدفعُ بالسُّلطانِ معضلة؟! فمن الذي يسمع هذا من ابن المبارك،
 ولا يعرف حقنا^(٣)!؟

معالم الزُّهد عند ابن المبارك:

وللزهد وسلوك طريق الآخرة عند ابن المبارك معالم تميز طريقته عن
 طريقة غيره، فهو - كما أشرنا من قبل - يلتقي مع إبراهيم بن أدهم في
 أشياء كثيرة، ويختلف معه في بعض الأشياء.

وهنا نشير إلى معالم طريقته في الزُّهد والسلوك، حتَّى تبين لنا
 الملامح الأساسية لهذه الطريقة، وهذه الشخصية الربانية.

- (١) ديوان الإمام المجاهد ابن المبارك ص ١١٠ - ١١٣.
- (٢) هيت: بلدة على الفرات من نواحي بغداد. انظر: معجم البلدان (٤٢١/٥)، نشر دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥م.
- (٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٤١٤/٨).



هذه المعالم هي:

- ١ - تشدده في الورع.
- ٢ - الخوف من الله تعالى وحساب الآخرة.
- ٣ - الاجتهاد في العبادة مع إخفائها.
- ٤ - السخاء والتوسعة على أهل العلم.
- ٥ - سخاؤه في الجهاد والحج.
- ٦ - الحرص على الجهاد والرباط.
- ٧ - أدبه مع أصحابه، وحسن تربيته.
- ٨ - الفقه في الدين وبث العلم.
- ٩ - البعد عن أهل البدع وأهل السلطة.

ولتحدث عن كل معلم من هذه المعالم بكلمة مناسبة.

١ - تشدده في الورع:

كان لابن المبارك رحمته الله سلوك في الورع يذهب فيه مذهب التشديد على نفسه في تحري الحلال، ولا يتساهل في القليل، خشية أن يجر إلى الكثير، ويريد ألا يدخل عليه أي شيء فيه أدنى شبهة، عالمًا بأن من اتقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه، وهو يدع ما يريه إلى ما لا يريه.

تنازله عن بستان خصه به أبوه دون أخواته:

من ذلك أنه كان لأبي عبد الله بن المبارك بستان بمرو، فنحله «عبد الله»، فلما كبر عبد الله وترعرع وجالس أهل العلم وطلب العلم، جاء إلى أخواته، فقال لهن: إن أبانا كان صنع أمرًا لم ينبغ له أن يصنعه،

نحلني هذا البستان دونكن، وليس أحد أحق أن يخرج أباه مما جعل فيه مني، فقد رددت هذا البستان وجعلته ميراثا بيننا على كتاب الله وَعَجَّلَ، فحللوا أبانا مما كان دخل فيه، فقلن له: أنت في حل، وأبونا في حل، وهو لك كما كان والدنا نحلك، قال: لا، ولكنه ميراث بيننا فحللوه، فحللوه، فتزوج عبد الله فولد له ابن، فنحل الأخوات ابن عبد الله حصصهن من البستان، فمات الغلام، فورثه عبد الله، فرجع إليه البستان كما كان أبوه نحله^(١).

وفي هذا عبرة لمن تدبّر، فإن الرزق لا ينقص إذا عرف الإنسان حق الله فيه، وتورّع عما فيه من شبهات.

من عجائب ورعه:

ومن عجيب ورعه: أنه استعار قلمًا من رجل بأرض الشام، فنسيه وذهب عليه أن يرده إلى صاحبه، فلما قدم بلده «مرو» نظر فإذا القلم معه، فرجع إلى أرض الشام حتى رده على صاحبه^(٢).

وقال له رجل: احمل لي هذا الكتاب معك لتوصله، فقال: حتى استأمر الحمّال فأني قد اكرتيت. فانظر كيف تورّع من استصحاب كتاب لا وزن له، وهو طريق الحزم في الورع، فإنه إذا فتح باب القليل انجر إلى الكثير يسيرًا يسيرًا^(٣).

وروي أنه خرج إلى الغزو فنزل إلى نهر، ونصب رمحه وربط فرسه،

(١) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢٦٨/١)، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٢٧١هـ - ١٩٥٢م.

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٤٠٠/١١).

(٣) إحياء علوم الدين (٢٣٨/١).

فتوضأ وشرع في الصلاة، فلما سلّم رأى أنّ فرسه انفلت يأكل الزرع، فقال: إنه أكل حرامًا فلا ينبغي أن يغزى عليه، وتركه لصاحب الزرع، واشترى فرسًا أخرى وقضى سبيله^(١).

وكان لا يأكل من كسب غلامه إذا باع شيئًا، وصلى على النبي ﷺ عند بيعه، فكان يقول: إنك أطريت عليه بالصلاة على رسول الله ﷺ، ومدحته بها حتّى اشتراه الناس^(٢). فهو يرى أن الصلاة على رسول الله عبادة، لا ينبغي أن تستغل في ترويح السلع والمبيعات.

وكان لا يصلي بمرو في المسجد الجامع إلا الجمعة لا يرى أن يتطوع فيه بسبب أن أبا مسلم كان قد اغتصب منه شيئًا^(٣).

وقال الحسن: رأيت في منزل ابن المبارك حمامًا طائرة، فقال ابن المبارك: قد كُنّا ننتفع بفراخ هذه الحمام، فليس ننتفع بها اليوم، قلت: ولم ذلك؟ قال: اختلطت بها حمام غيرها، فتزوجت بها، فنحن نكره أن ننتفع بشيء من فراخها من أجل ذلك^(٤).

ردّ ما فيه شبهة أعظم من الصدقة بأضعافه:

ومن أقواله في الورع، قوله: لأن أرد درهما من شبهة أحب إليّ من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتّى يبلغ ستمائة ألف^(٥).

(١) كنوز الأولياء ص ١٨٦.

(٢) تنبيه المغترين لعبد الوهاب الشعراني ص ١٥٧، تحقيق أحمد عبد الرحيم السائح، وتوفيق علي وهبة، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

(٣) رواه أحمد في الورع ص ٣٥.

(٤) انظر: صفة الصفوة (٣٢٤/٢)، تحقيق أحمد بن علي، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

(٥) رواه ابن أبي الدنيا في الورع (٢٠٦).

ويقول: لأن أتصدق بدرهم من حلال أحب إليّ من أتصدق بستين درهماً من شبهة^(١).

وقال عن الورع: لو أن رجلاً أنفق مائة شيء، ولم يتورّع عن شيء واحدٍ لم يكن ورعاً، ومن كان فيه ضلّة من الجهل كان من الجاهلين، أما سمعت الله تعالى يقول لنوح عليه السلام لما قال له: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنِّي أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]. فقال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]^(٢).

منهجه في الزهد:

قال علي بن الفضيل: سمعتُ أبي يقول لابن المبارك: أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبُلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا؟ فقال ابن المبارك: يا أبا علي! إنّما أفعل ذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي. لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتّى أقوم به، قال له الفضيل: يا ابن المبارك، ما أحسن ذا! إن تم ذا^(٣).

ومن فقهه في الزهد: أنّه إذا اشتتت نفسه شيئاً لا يحرمه على نفسه، ولكن يأكل مع إخوانه، فيشركهم معه، حتّى لا ينفرد هو بما يشتهي.

تجارته وضربه في الأرض:

كان ابن المبارك تاجراً، كما كان بعض الصحابة تجاراً مثل أبي بكر وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان وغيرهم. والإسلام لم يذم

(١) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢٨٠/١).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٧/٨).

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٢٠٨).

التجارة، ولكنه حذر من أن تشغل صاحبها عن التجارة التي لا تبور، وهي المذكورة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ * لِيُؤْفِيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

وأعتقد أن عبد الله بن المبارك، وإن اشتغل بتجارة الدنيا، فإنها لم تلهه عن تجارة الآخرة. وأنه من الرجال الذين قال الله فيهم: ﴿رِجَالٌ لَا نُلْهِمُهُم تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

ولا سيما أن تجارة الدنيا لم تُنسه أرباح تجارة في الدنيا والآخرة، وهي التي قال الله تعالى فيها: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١].

وقد قدر رأس مال ابن المبارك بـ (٤٠٠٠٠٠) أربعمئة ألف درهم، وهذا مبلغ كبير بالنسبة للقوة الشرائية للنقود، وكانت تدر عليه سنويًا حوالي (١٠٠٠٠٠) مائة ألف درهم. كان ينفقها كلها على طلبه العلم وأهل الحديث، ويفرج بها كربة المكروبين، وربما أنفق من رأسماله.

وقد قال للفضيل بن عياض: لولا أنت وإخوانك ما اتَّجرت^(١).

وقيل له: لم لا تنفق أموالك في بلدك، وتخرج أكثرها إلى بلاد أخرى؟ فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث،

(١) انظر: الثقات لابن حبان (٨/٧)، نشر دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، ط ١،

فأحسنوا طلبه لحاجة النَّاس إليهم، احتاجوا، فإن تركناهم، ضاع علمهم،
وإن أعناهم، بثوا العلم لأمة محمد ﷺ، لا أعلم بعد النبوة أفضل من
بث العلم^(١).

٢ - الخوف من الله تعالى وحساب الآخرة:

ومن معالم زهده: خشيته لله تعالى، والخوف من حسابه، وذكر
الموت، والدار الآخرة.

قال نعيم بن حماد: كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق، يصير كأنه
ثور منحور، أو بقرة منحورة، من البكاء، لا يجترئ أحد منا أن يدنو منه،
أو يسأله عن شيء إلا دفعه^(٢).

وقال أبو أحمد محمد بن عبد الوهاب: سمعتُ الخليل أبا محمد،
قال: كان عبد الله بن المبارك إذا خرج إلى مكة قال:

بُغض الحياة وخوف الله أخرجني وبيع نفسي بما ليست له ثمنًا
إني وَزنتُ الذي يبقى ليعدله ما ليس يبقى، فلا والله ما اتَّزنا^(٣)

وقيل لابن المبارك: إنَّ رجلاً ختم القرآن في ركعة! فقال ابن
المبارك: ولكنني أعرف رجلاً ظل ليلة كاملة لم يغادر: ﴿أَلْهَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾
[التكاثر: ١]! يعني نفسه^(٤).

وقد روى أبو نعيم في الحلية عن ابن وهب قال: رأى رجل سهيل بن

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣٨٨/١١).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩٥٩).

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٤٠٠/١١).

(٤) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٤٣٥/٣٢).

علي في المنام، فقال: ما فعل بك ربك؟ قال: نجوت بكلمة علمنيها ابن المبارك. قلت له: ما تلك الكلمة؟ قال: قول الرجل: يا رب عفوك عفوك^(١).

وقد روى بسنده عن النبي ﷺ من طريق شداد بن أوس: «الكَيْسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»^(٢).

وروى عنه كذلك من حديث أبي هريرة: «ما رأيتُ مثلَ الجنَّةِ نام طالبُها، وما رأيتُ مثلَ النَّارِ نام هارِبُها»^(٣).

وعن القاسم بن محمد قال: كُنَّا نَسافر مع ابن المبارك، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فُضِّلَ هذا الرجل علينا، حتَّى اشتهر في النَّاسِ هذه الشهرة؟ إن كان يصلي، إنا لنصلي، وإن كان يصوم إنا لنصوم، وإن كان يغزو فإننا لنغزو، وإن كان يحج إنا لنحج. قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام نتعشى في بيت، إذ أطفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج، وخرج يستصبح، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فُضِّلَ هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى الظلمة، ذكر ظلمة القيامة^(٤).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٧١/٨).

(٢) رواه أحمد (١٧١٢٣)، وقال مخرَّجوه: إسناده ضعيف. والترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٥٩)، وقال: حديث حسن. وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠)، والحاكم في التوبة (٢٨٠/٤) وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، عن شداد بن أوس.

(٣) رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٦٠١)، وقال: هذا حديث إنَّما نعرفه من حديث يحيى بن عبيد الله، وهو ضعيف عند أكثر أهل الحديث. والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٣)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٥٣).

(٤) انظر: صفة الصفوة (٣٣٠/٢).

وعن الفضيل بن عياض قال: قال ابن المبارك: أكثركم علمًا ينبغي أن يكون أشدكم خوفًا. وقال لي ابن المبارك: استعد للموت ولما بعد الموت، قال الفضيل: فشقق عليّ شهقة، فلم يزل مغشيًا عليه عامة الليل^(١). وقد روى في كتابه «الزهد» عن ابن مسعود قوله: كفى بخشية الله علمًا، وكفى باغترار بالله جهلاً^(٢).

٣ - الاجتهاد في العبادة مع إخفائها:

وكان ابن المبارك مجتهدا في عبادة الله تعالى، ويجد فيها قرّة عينه، وسعادة قلبه، فالحياة الحقيقية عنده هي حياة الروح، وهي روح الحياة، لا حياة البطن والشهوات.

وكان يقول عن أهل المُلْك وأهل الثروة: مساكين هؤلاء، خرجوا من الدنيا ولم ينعموا بأطيب ما فيها! قيل له: وما أطيب ما فيها؟ قال: المعرفة بالله وَعَبَّادٌ.

وكان يقوم الليل، ويصوم النهار، ولا يكاد أحد يراه صائمًا. قال قطن بن سعيد: ما أفطر ابن المبارك قط، ولا رُئي صائمًا قط^(٣)! يعني أنه كان لا يُظهر الصيام، ولا يحس أحد بصيامه.

روى الفضيل بن محمد الشعراني، قال حدثنا عبدة بن سليمان، قال: سمعتُ رجلا يسأل ابن المبارك عن الرجل يصوم يوما ويُفطر يومًا. قال: هذا رجل يضيع نصف عمره، وهو لا يدري. يعني: لم لا يصومها^(٤).

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٨/٨).

(٢) الزهد لابن المبارك (٤٦).

(٣) رواهما أبو نعيم في الحلية (١٦٧/٨).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٠٦/٨).

قال الذهبي: أحسب ابن المبارك لم يذكر حينئذ حديث: «أفضل الصَّوم صومُ داود»^(١). ولا حديث: النهي عن صوم الدهر^(٢).
 قلت (القرضاوي): ومن المعلوم أنَّ هناك من السَّلف من صاموا الدهر - إلا الأعياد - ولهم في ذلك تأويلات.
 وقال نُعيم: ما رأيتُ أعقلَ من ابن المبارك، ولا أكثر منه اجتهادًا في العبادة^(٣).

وعن عبد الكريم الشُّكري قال: كان عبدُ الله يُعجبه إذا ختم القرآن أن يكون دعاؤه في السُّجود^(٤).

ومع هذا كان يستقلُّ طاعته وعبادته، بالنظر إلى حق الله تعالى عليه، ويخاف على نفسه من العجب، وهو يراه شرَّ الذنوب، قال أبو وهب المروزي: سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: أن تزدرى النَّاس. فسألته عن العجب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئًا ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلِّين شيئًا شرًّا من العُجب^(٥).

٤ - سخاؤه وتوسعته على إخوانه من أهل العلم:

ومن معالم زهده: سخاؤه الذي عُرف به، وخصوصًا على إخوانه من

(١) متفق عليه: رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٢)، ومسلم في الصيام (١١٥٩)، عن عبد الله بن عمرو.

(٢) وردت أحاديث كثيرة في النهي عن صوم الدهر، منها حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ، متفق عليه: رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)، كلاهما في النكاح، عن أنس. وحديث عبد الله بن عمرو السابق.

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٠٥/٨).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٩٢١).

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٠٧/٨).

أهل الحديث وطلبة العلم، فكان يتقرب إلى الله بإكرامهم، ويسعى إلى إعادتهم بالمطعمات الطيبة، والحلويات الشهية، التي لا يجدونها في بيوتهم، ولا سيما في رحلاته وأسفاره معهم في طلب العلم، أو الحج، أو الجهاد.

قال حَبَّان بن موسى: رأيت سُفْرَةَ ابن المبارك حُمِلَتْ على عَجَلَةٍ.
وقال أبو إسحاق الطَّالِقَانِي: رأيت بعيرين محمّلين دجاجًا مشويًا
لِسُفْرَةَ ابن المبارك.

وروى عبد الله بن عبد الوهاب، عن محمد بن عبد الرحمن بن سَهْم، قال: كنت مع ابن المبارك، فكان يأكل كل يوم، فيشوي له جَدِي، ويتخذ له فالوذك^(١). فقيل له في ذلك، فقال: إني دفعتُ إلى وكيلي ألف دينار، وأمرته أن يوسّع علينا.

قال الحسن بن حمّاد: دخل أبو أسامة على ابن المبارك، فوجد في وجهه عبْدُ الله أثر الضُّرِّ، فلما خرج، بعث إليه أربعة آلاف درهم، وكتب إليه:

وفتى خلا من ماله ومن المروءة غير خال
أعطاك قَبْلَ سؤاله وكفاك مكروه السؤال

وقال المسيّب بن واضح: أرسل ابن المبارك إلى أبي بكر بن عياش أربعة آلاف درهم، فقال: سُدَّ بها فتنة القوم عنك.

قال عليُّ بن خَشْرَم: قلت لعيسى بن يونس: كيف فَضَلَكُم ابن

(١) الفالوذك، كالفالوذك نوع من الحلوى تسوّى من لب الحنطة، فارسي معرب. انظر تاج العروس مادة (ف. ل. ذ).

المبارك، ولم يكن بأسنَّ منكم؟ قال: كان يقدّم ومعه الغلّمة الخراسانية، والبرّة الحسنة، فيصلُّ العلماء، ويُعطيهم، وكنا لا نقدر على هذا.

قال نعيم بن حمّاد: قدّم ابن المبارك أيلة على يونس بن يزيد، ومعه غلام مفرّغ لعمل الفالوذج، يتخذه للمحدثين^(١).

وسأله مرة سائل، فأعطاه درهماً، فقال له بعض أصحابه: إن هؤلاء يأكلون في غدائهم الشواء والفالوذج، وقد كان يكفيه قطعة. فقال: والله ما ظننتُ أنه يأكل إلا البقل والخبز، فأما إذا كان يأكل الشواء والفالوذج، فلا بدّ من عشرة دراهم! يا غلام: ردّه وأعطه عشرة دراهم^(٢).

٥ - سخاؤه في الحج والجهاد:

وكان أظهر ما يكون سخاؤه إذا سافر مع أصحابه لحج أو جهاد، فهو يؤثرهم على نفسه، ويبالغ في إكرامهم وإعانتهم على أداء طاعة الله وَعَلَيْكُمْ. وكانت سُفرتة تُحمل على بعير وحدها، وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك، يُطعمه وهو صائم لله وَعَلَيْكُمْ في الحر الشديد.

وكان إذا عزم على الحج يقول لأصحابه: من عزم منكم على الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم، ويكتب على كل صرّة اسم صاحبها ويجمعها في صندوق، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب، وحسن الخلق والتيسير عليهم، فإذا قضاوا حجتهم يقول لهم: هل أوصاكم أهلوكم بهدية؟ فيشتري لكل واحد منهم ما وصّاه أهله من الهدايا المكية

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٠٩/٨، ٤١٠).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٦١٢/١٣).

واليمينية وغيرها، فإذا جاؤوا إلى المدينة اشترى لهم منها الهدايا المدنية، فإذا قفلوا بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم فأصلحت وبُيِّضت أبوابها ورُمِّمَ شَعَثُهَا، فإذا رجعوا إلى أوطانهم عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم، ثم دعا بذلك الصندوق ففتحه، وأخرج منه تلك الصُّرر، كل صرة عليها اسم صاحبها. ثم يُقسم عليهم أن يأخذ كل واحد نفقته التي عليها اسمه، فيأخذونها وينصرفون إلى منازلهم، وهم شاكرون ناشرون لواء الشفاء الجميل^(١).

وأورد الذهبي في أعلامه ما حدَّث به عمر بن حفص الصوفي بِمَنْبَج، قال: خرج ابن المبارك من بغداد، يريد المِصْبِيصَةَ، فصحبه الصوفية، فقال لهم: أنتم لكم أنفس تَحْتَشِمُونَ أن يُنْفَقَ عليكم. يا غلام، هات الطَّسْت، فألقى عليه منديلاً، ثم قال: يلقي كل رجل منكم تحت المنديل ما معه، فجعل الرجل يلقي عشرة دراهم، والرجل يلقي عشرين، فأنفق عليهم إلى المِصْبِيصَةَ. ثم قال: هذه بلاد نفيير. فنقسم ما بقي، فجعل يعطي الرجل عشرين ديناراً، فيقول: يا أبا عبد الرحمن، إنَّما أعطيت عشرين درهماً، فيقول: وما تُنكر أن يبارك الله للغازي في نفقته^(٢).

٦ - الحرص على الجهاد والرباط:

كما اعتاد ابن المبارك على بذل العلم للناس ابتغاء وجه الله، وبذل المال لأهل الحاجة، ولا سيما من طلاب العلم، وأهل الحديث لله تعالى، اعتاد كذلك بذل النفس والروح لإعلاء كلمة الله ﷻ. ولذا كان الرباط والجهاد جزءاً لا يتجزأ من حياته.

(١) انظر: البداية والنهاية (٦١١/١٣، ٦١٢).

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣٨٨/١١)، وانظر: سير أعلام النبلاء (٣٨٥/٨).

وكان له في الجهاد من روائع البطولات ما يستحق أن يُحكى ويُروى ويُعْلَن، ولكنه كان حريصًا كل الحرص أن يصنع ذلك سرًّا، لوجه الله وحده، ولا يُشعر به أحدًا، حتّى يكون جهاده خالصًا لله. وكانت دولة الروم البيزنطية تهدد المسلمين باستمرار، ولذا كان كثير من العلماء والصالحين يرابطون على الثغور، أي على حدود الدولة الإسلامية مع الدولة الرومية، ولا سيما الثغور المخوفة، فيقيمون فيها تحسبًا لأيّ اعتداء، فينادي المنادي، فيهمّون سراعًا لملاقاة الأعداء.

قَتْلُهُ سِتَّةَ مِنَ الْعُلُوجِ وَحِرْصَهُ عَلَى إِخْفَاءِ الْعَمَلِ:

قال محمد بن المثنى: حدثنا عبد الله بن سنان قال: كنتُ مع ابن المبارك ومُعتمر بن سليمان بطرسوس، فصاح الناس: النفير. فخرج ابن المبارك والنّاس، فلما اصطفتّ الجمعان، خرج رومي، فطلب البراز، فخرج إليه رجل، فشد العِلْجُ عليه فقتله، حتّى قتل ستة من المسلمين، وجعل يتبختر بين الصّفين يطلب المبارزة، ولا يخرج إليه أحد، فالتفت إليّ ابن المبارك، فقال: يا فلان، إن قُتلتُ فافعل كذا وكذا، ثم حرّك دابته، وبرز للعلاج، فعالج معه ساعة، فقتل العِلْجَ، وطلب المبارزة، فبرز له علاج آخر فقتله، حتّى قتل ستة علوج، وطلب البراز، فكأنهم كاعوا عنه، فضرب دابته، وطرد بين الصّفين، ثم غاب، فلم نشعر بشيء، وإذا أنا به في الموضع الذي كان، فقال لي: يا عبد الله، لئن حدثت بهذا أحدًا وأنا حي.. فذكر كلمة^(١). يعني كلمة تشعر بغضبه عليه إذا أفشى سره.

وهكذا نراه لم يكن مجرد مشارك في الجهاد، يكثّر السواد، ويحرّض

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٠٨/٨، ٤٠٩).

الآخرين، بل رأيناه بطلاً من الأبطال، وفارساً من أكابر الفرسان، وإن كان لا يحب أن يُشار إليه بالبنان، ولهذا كانوا يعتبرون «الفروسية» من فضائله. وقصة أخرى من قصص بطولاته الجهادية التي كان يجتهد في إخفائها حتى لا تُعرف، أوردتها الذهبي في «أعلامه» وهي ما رواه أبو حاتم الرازي، قال: حدثنا عبدة بن سليمان المروزي قال: كُنَّا في سرية مع ابن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان، خرج رجل من العدو، فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز، فخرج إليه رجل، فطارده ساعة فطعنه فقتله، فازدحم إليه الناس، فنظرت فإذا هو عبد الله بن المبارك، وإذا هو يكتف وجهه بكمّته، فأخذت بطرف كفه، فمددته، فإذا هو هو! فقال: وأنت يا أبا عمرو ممّن يشنّع علينا^(١)!

دعوته للفضيل بن عياض للحاق به في الجهاد:

وقد كان في الجهاد يحدث الناس ويعلمهم، ويسخو على من حوله، مع اجتهاده في العبادة، وقد كتب إلى أخيه في الله الورع الزاهد العابد المشهور الفضيل بن عياض، يُغريه باللحاق به في الجهاد. قال الذهبي: روى عبد الله بن محمد قاضي نصيبين، حدثنا محمد بن إبراهيم بن أبي سُكينة، قال: أملى عليّ ابن المبارك سنة سبع وسبعين ومائة، وأنفذها معي إلى الفضيل بن عياض من طرسوس:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنّك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضب

(١) سير أعلام النبلاء (٣٩٤/٨).

أو كان يُتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصَّبِيحة تتعبُ
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رَهَج السنايك والغبار الأطيب^(١)
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميتٍ لا يكذب
فلقيتُ الفُضيل بكتابه في الحرم، فقرأه وبكى، ثم قال: صدق أبو
عبد الرحمن ونصح^(٢).

٧ - أدبه مع أصحابه وحُسن تربيته لتلاميذه:

وكان مع أصحابه مثلاً عاليًا للأدب الرفيع، يوَقِّر كبيرهم، ويرحم
صغيرهم، ويأخذ بيد ضعيفهم، ويتعلم من علمائهم، ويعلم من طلب
العلم منهم، ويؤدّب من أخطأ برفق.

قال عُبَيْد بن جَنَاد: ما رأيتُ أحدًا مثل ابن المبارك، إذا ذكر أصحابه
فخَمَّهم، يقول: وأين مثل فلان؟ ثم يقول: الرفيع مَنْ يرفعه الله بطاعته،
والوضيع مَنْ وضعه^(٣).

أدبه مع حمّاد بن زيد:

وكان يقدر شيوخه، ويعرف منزلتهم، ويعطيهم حقهم من التوقير. وقد
نوّه المؤرّخون بأدبه مع حمّاد بن زيد حين قدم عليه. قال إسماعيل
الخُطّبي: بلغني عن ابن المبارك أنه حضر عند حمّاد بن زيد، فقال
أصحاب الحديث لحمّاد: سل أبا عبد الرحمن أن يحدثنا. فقال: يا أبا
عبد الرحمن، تحدثهم، فإنهم قد سألوني؟ قال: سبحان الله، يا أبا إسماعيل

(١) الرّهج والرّهج: الغبار، والسنايك جمع سُنَيْك وهو طَرَف حافر الخيل وجانباه من قُدّام.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٤١٢/٨).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٩/٨).

أحدتُ وأنت حاضر؟! فقال: أقسمتُ عليك لتفعلنَّ. فقال: خذوا. حدثنا أبو إسماعيل حماد بن زيد.. فما حدّث بحرف إلا عن حماد^(١).
وسئِل مرّة: مَنْ الأئمة؟ فقال: سفيان وأصحابه.

وقال: قد جمعتُ علم العلماء، فليس فيما جمعتُ أحب إليّ من علم الفضيل بن عياض^(٢).

وحدّث ابن حميد قال: عطس رجل عند ابن المبارك، فلم يحمد الله، فقال ابن المبارك: أيش يقول العاطس إذا عطس؟ قال: يقول: الحمد لله. فقال له: يرحمك الله! قال ابن حميد: فعجبنا كلنا من حسن أدبه^(٣).

في مجلس مالك بن أنس:

وقال يحيى بن يحيى الأندلسي: كُنّا عند مالك، فاستؤذن لابن المبارك، فأذن له، فرأينا مالكا تزحزح له في مجلسه، ثم أقعده بلصقه، ولم أره تزحزح لأحد في مجلسه غيره، فكان القارئ يقرأ على مالك، فربما مر بشيء، فيسأله مالك: ما عندكم في هذا؟ فكان عبد الله يجيبه بالخفاء، فأعجب مالك بأدبه، ثم قال لنا: هذا ابن المبارك فقيه خراسان^(٤). وقال - أي مالك -: ابن المبارك عندنا آدب من سفيان.

وقال ابن المبارك: كاد الأدب أن يكون ثلثي الدين^(٥).

وقال أيضا: طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدّبون^(٦).

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤٤/٣٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٨/٨).

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣٨٨/١١).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٢٠/٨).

(٥) انظر: صفة الصفوة (٣٣٠/٢).

(٦) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤٥/٣٢).

حسن تربيته وتأديبه لتلاميذه:

ولم يكن ابن المبارك مثل كثير من المحدثين، همُّه أن يكثُر من الرواية، وأن يطلب علو الأسانيد، بل كان محدثًا ومربيًا في الوقت نفسه، يُعنى بإصلاح عيوب تلاميذه وأصحابه، وينبّههم على خطئهم، وقد يؤدّبهم عليه. فقد امتنع أن يكلم أحدهم ثلاثين يومًا؛ لأنّه أكل على مائدة صاحب بدعة، وهذا نوع من الزجر بالهجر، والتأديب بالمقاطعة. وقد خاصم ابن عُلية حينما تولى القضاء، حتّى استعفى منه وتركه، فعاد إلى وصله^(١).

وكان يرى أنّ التربية تنفع مع العدد القليل، أمّا الجُم الغفير والحلقة الواسعة فلا تصلح لهذا.

وكان يقول: الحديث مع الاثنتين أو الثلاثة أو الأربعة، فإذا عظمت الحلقة، فأنصت أو انشز^(٢).

وقال بشر بن الحارث (الحافي): سألت رجل ابن المبارك عن حديث، وهو يمشي، فقال: هذا ليس من توقير العلم. قال بشر: فاستحسنته جدًّا^(٣).

وسأل بعضهم ابن المبارك فقال: إنا نقرأ بهذه الألحان! فقال: إنّما كره لكم منها أنّا أدركنا القُرّاء وهم يُؤتُونَ تسمع قراءتهم، وأنتم تُدعون اليوم كما يُدعى المُغنون^(٤)!

(١) انظر: طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى (١٠٠/١)، تحقيق محمد حامد الفقي، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٩/٨).

(٣) المصدر السابق (١٦٦/٨).

(٤) المصدر السابق (١٦٩/٨).

فزجرهم إلا أن يعطوا القرآن حقه من التعظيم والتوقير. فكيف لو رأى زماننا؟!

٨ - الفقه في الدين وطلب العلم وبثه:

ومن معالم طريقته: الفقه في الدين، سعيًا إليه وطلبًا له، استجابة لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]. وتحصيلًا لما بشر به رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»^(١). ثم نشره بعد ذلك وتعليمه للناس، والسعي في طلب العلم، والتفقه فيه، وفي طلب الحديث، وقد رحل في سبيل ذلك إلى أقطار شتى، ليلتقي الشيوخ ويأخذ عنهم، حتى إنه قال: حملتُ العلم عن أربعة آلاف شيخ، ثم رويتُ عن ألف منهم. قال العباس بن مصعب: وقع لي من شيوخه ثمانمائة^(٢).

وقال أصحابه: ما رأينا أطلبَ للعلم منه. وكان يكثر الجلوس في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي وأصحابه^(٣)؟!

وقال علي بن الحسين بن شقيق: قمتُ لأخرج مع ابن المبارك في ليلة باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث، أو ذاكرته، فما زلنا نتذاكر، حتى جاء المؤذن للصبح^(٤).

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٧١)، ومسلم في الزكاة (١٠٣٧)، عن معاوية.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام (٢٢٤/١٢).

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (٣٨٨/١١).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٠٤/٨).

وكان يكتب ما يسمعه، برغم قوة حفظه، وقد قيل: العلم صيد، والكتابة قيد. وكتب عمن هو أصغر منه.

ومما روي عنه: أنه كان في الطريق، فسمع سكران يُنشد:
أذَلَّنِي الْهَوَىٰ فَأَنَا الذَّلِيلُ وليس إلى الذي أهوى سَبِيلُ
فأخرج عبد الله كراسته ليكتب البيت، فقيل له: تكتب عن سكران؟
فقال: أما سمعت المثل القائل: رُبَّ جوهرة في مزبلة! فهذه جوهرة
خرجت من هذه المزبلة^(١).

وقد كان يطلب الحديث، والسيرة، ويطلب الفقه، ويطلب اللغة
والأدب والتاريخ وأيام الناس.

قال الذهبي: حدّث عنه خَلْقٌ لا يُحْصُونَ، من أهل الأقاليم، فإنّه من
صباه ما فتر عن السفر^(٢).

وقد ظل مستمراً في طلب العلم، ولم تمنعه مكانته في الناس أن
يطلب العلم، وقد سئل: إلى متى تطلب العلم، فقال: لعل الكلمة التي
أنتفع بها لم أكتبها بعد^(٣).

تفقه بفقه أبي حنيفة:

وقد تفقه بفقه أبي حنيفة، وهو يُعَدُّ من تلاميذه. وروي عنه قوله: أبو
حنيفة أفقه الناس^(٤).

(١) انظر: العقد الفريد (١٣٥/٦، ١٣٦)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.

(٢) انظر: تذكرة الحفاظ (٢٠٢/١).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢٨٠/١).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٠٣/٦).

روى الطحاوي بسنده إلى ابن المبارك قال: سألتُ أبا حنيفة رضي الله عنه عن الرجل يبعث بزكاة بلده إلى بلد آخر! فقال: لا بأس أن يبعثها من بلده إلى بلد آخر لذي قرابة. فحدثتُ بهذا محمد بن الحسن، فقال: هذا حسن، وهذا قول أبي حنيفة، وليس لنا في هذا سماع عن أبي حنيفة. قال: فكتبه عني: محمد بن الحسن عن ابن المبارك عن أبي حنيفة.

وقال ابن المبارك: كان أبو حنيفة يكره بيع المصحف^(١).

وقال ابن المبارك: لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم^(٢).

طلب العلم الذي يُعين على فهم القرآن أولى:

ومن فقهه: أن رجلاً سأله: في أي شيء أجعل فضل يومي: في تعلم القرآن أو في طلب العلم؟ فقال: هل تقرأ من القرآن ما تُقيم به صلاتك؟ قال: نعم. قال: فاجعله في طلب العلم الذي يُعرف به القرآن^(٣).

الجمع بين الأثر والرأي:

ورغم أنه تفقه على إمام مدرسة الرأي أبي حنيفة، كان يؤثر الجمع بين الأثر والرأي، فقال: ليكن الذي يعتمدون عليه هذا الأثر، وخذوا من الرأي ما يفسر لكم الحديث^(٤).

وهو ما انتهى إليه صاحبنا أبي حنيفة: أبو يوسف ومحمد، فقد جمعا

(١) انظر: الجواهر المضية لعبد القادر القرشي (٢٨٢/١)، نشر مير محمد كتب خانة، كراتشي، باكستان.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٦٢٦).

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٥/٨).

(٤) المصدر السابق نفسه.

الأثر إلى الرأي، ورجعا عن كثير من آراء إمامهما الأعظم، لِمَا تبين لهم من الحديث والأثر.

على أن الأثر يشمل أقوال الصحابة والتابعين، وهي لا تخلو من دخول الرأي والاجتهاد فيها.

مذهبه في الحديث:

كان ابن المبارك إمامًا في الحديث، باعتراف أئمة المعدودين، كما ذكرنا. وكان له رؤيته ومذهبه في الحديث، قبل أن يوضع علم مصطلح الحديث أو أصول الحديث.

فكان لا يقبل إلا الحديث المُتَّصِلُ الإسناد من مبدئه إلى منتهاه، روى مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي إسحاق الطالقاني، قال: سألت ابن المبارك عن الرجل يصلِّي عن أبيه. فقال: مَنْ يرويهِ؟ قلتُ: شهاب بن خِرَاش. قال: ثقة. عمَّن؟ قلتُ: عن الحجاج بن دينار. قال: ثقة، عمَّن؟ قلتُ: عن النبي ﷺ. قال: بينه وبين النبي ﷺ مَفَاوِزُ تنقطع فيها أعناق الإبل^(١)!

وهو لا يكتفي بالاتصال، بل لا بدَّ أن يكون ثقة عن ثقة. روى المسيب بن واضح: أنه سمع ابن المبارك، وسأله رجل عمَّن يأخذ، فقال: قد يلقي الرجلُ ثقةً، وهو يحدث عن غير ثقة، وقد يلقي الرجلُ غير ثقة يحدث عن ثقة، ولكن ينبغي أن يكون: ثقة عن ثقة^(٢).

(١) ذكره مسلم في مقدمة صحيحه (١٦/١)، والمفاوز جمع مفازة: الأرض القفر البعيدة عن العمارة، وعن الماء التي يخاف الهلاك فيها.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٠٤/٨).

اعتماده على الكتابة أكثر من اعتماده على الحفظ:

وكان يعتمد على الكتاب أكثر مما يعتمد على الحفظ، وإن كان من أحفظ الناس، وتروى عنه عجائب في الحفظ من صغره، حتّى إنه سمع خطبة فحفظها، ثم أعادها كما سمعها!

ولما سئل عن كتابة العلم، قال: لولا الكتاب ما حفظنا^(١).

وكان يقول: الحبر في الثوب خلوق العلماء (أي هو طيب كالمسك لهم)^(٢).

وقال الإمام أحمد: كان ابن المبارك يحدث من الكتاب، فلم يكن له سقط كثير، وكان وكيع يحدث من حفظه، فكان يكون له سقط^(٣).

إنكاره التدليس في الحديث:

وكان ينكر التدليس في الحديث^(٤)، قال عبدان: قال ابن المبارك، وذكر التدليس، فقال فيه قولاً شديداً^(٥)، ثم أنشد:
دلس للناس أحاديثه والله لا يقبل تدليسا

(١) رواه الخطيب في تقييد العلم ص ١١٤، نشر إحياء السنة النبوية، بيروت.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٠٩/٨).

(٣) المصدر السابق (٤٢١/٨).

(٤) رواه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٤٤٣/٣٢).

(٥) التدليس: أن يروي الراوي عن عاصره ما لم يسمع منه بصيغة لا تقتضي السماع، أو يصف الشيخ الذي روى عنه بأوصاف لا تعرف، وهو مذموم على الإطلاق، حتى بالغ إمام الجرح والتعديل شعبة بن الحجاج، فقال: لأن أرنبي أحب إليّ من أن أدلس. وقال: التدليس أخو الكذب. والصحيح الذي رجّحه أئمة الحديث وجهابذته: أن ما رواه الموصوف بالتدليس بلفظ محتمل لم يصرح فيه بالسماع لا يقبل، وما صرح فيه بالسماع يقبل، وهذا إذا كان المدلس ثقة في روايته.



في صحيح الحديث شغل عن سقيمه:

وكان يقول: في صحيح الحديث شغل عن سقيمه^(١).

وهذا منهج قويم، فعندنا من صحاح الأحاديث وحسانها ثروة هائلة، تغنينا عن رواية الأحاديث الضعيفة، ولو في الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال. وقد تحدثتُ عن هذا الموضوع بتفصيل في مقدمة كتابي «المنتقى من الترغيب والترهيب»، وهو مذهب يحيى بن معين والبخاري وغيرهما.

وإن كان الحق يقال: إن ابن المبارك في باب الزُّهد والرقائق روى الضعيف أيضًا كغيره.

أمَّا الأحاديث المنكرة والموضوعة، فهو لها بالمرصاد.

قيل له يومًا: هذه الأحاديث الموضوعة! (يشكون من انتشارها) قال: تعيش لها الجهابذة^(٢)! وهو قطعًا واحد منهم، الذين يستطيعون أن يفرزوا الخبيث من الطيب، والصحيح من المغشوش.

فقهاء للأولويات:

وخرج مرّة إلى الحج، فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر معهم، فأمر بإلقائه على مزبلة، وسار أصحابه أمامه وتخلّف هو وراءهم، فلما مرّ بالمزبلة إذا جارية، قد خرجتُ من دار قريبة منها، فأخذت ذلك الطائر الميت، فكشف عن أمرها وفحص، حتّى سألها، فقالت: أنا وأختي

(١) تاريخ دمشق (٤٤١/٣٢).

(٢) رواه الخطيب البغدادي في الكفاية في علم الرواية ص ٣٦، تحقيق أبي عبد الله السورقي وإبراهيم حمدي المدني، نشر المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

هاهنا، ليس لنا شيء إلا هذا الإزار، وقد حلت لنا الميتة، وكان أبونا له مال عظيم، فظلم وأخذ ماله وقتل. فأمر ابن المبارك برد الأحمال، وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ فقال: ألف دينار. فقال: عدّ منها عشرين دينارًا تكفينا إلى مَرُو، وأعطها الباقي، فهذا أفضل من حجنا في هذا العام. ثم رجع^(١).

فهذا هو الفقه حقًا، فقه مراتب الأعمال، أو الترتيب بين الخيرات بعضها وبعض، أو ما سمّيته (فقه الأولويات). ولت المسلمون في عصرنا يتعلمون منه هذا الدرس: أن تفريج كربة مسلم، أو حل مشكلة أسرة، أفضل في ميزان الإسلام من حج التطوع، على ما له من فضل.

إيثاره للخلوّة والخمول:

وكان ابن المبارك، رغم اشتغاره في الناس، وعلو مقامه بين الفقهاء والمحدثين والأسخياء والمجاهدين، وشهادة الجميع له بالإمامة، والتقدم على الأقران، مما فصلنا بعضه قبل ذلك.. يودُّ لو اعتزل هذه الحياة، وعاش خاملًا في النَّاس بحيث لا يُعرف إذا حضر، ولا يُفتقد إذا غاب.

روى ابن الجوزي عن الحسن أنه قال: كانت دار ابن المبارك بمرور كبيرة، صحن الدار نحو خمسين ذراعًا في خمسين ذراعًا، فكنت لا تحب أن ترى في داره صاحب علم أو صاحب عبادة، أو رجلاً له مروءة وقدر بمرور إلا رأيتَه في داره، يجتمعون في كل يوم خلقًا يتذكرون، حتّى إذا خرج ابن المبارك انضموا إليه. فلما صار ابن المبارك بالكوفة نزل في

(١) البداية والنهاية (٦١١/١٣).

دار صغيرة، وكان يخرج إلى الصلاة ثم يرجع إلى منزله، لا يكاد يخرج منه، ولا يأتيه كثير أحد، فقلت له: يا أبا عبد الرحمن، ألا تستوحش هاهنا مع الذي كنت فيه بمرور؟ فقال: إنَّما فررتُ من مرو من الذي تراك تحبه، وأحببت ما هاهنا للذي أراك تكرهه لي، فكنت بمرور لا يكون يوم إلا أتوني فيه، ولا مسألة إلا قالوا: اسألوا ابن المبارك، وأنا هاهنا في عافية من ذلك^(١).

مجالسة الصحابة والتابعين أولى من الجلوس مع الناس:

ومن فهمه للأولويات: ما رواه شقيق البلخي، قال: قيل لابن المبارك: إذا صليتَ معنا لم لا تجلس معنا؟ قال: أذهب مع الصحابة والتابعين! قلنا له: ومن أين الصحابة والتابعون؟ قال: أذهب فأنظر في علمي (في كتبني) فأدرك آثارهم وأعمالهم، فما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس^(٢). قال: وكنتُ مع ابن المبارك يوماً، فأتينا على سقاية والناس يشربون منها، فدنا منها ليشرب ولم يعرفه الناس، فزحموه ودفعوه، فلما خرج قال لي: ما العيش إلا هكذا. يعني حيث لم نعرف ولم نُوقر^(٣).

وحكى المَرْوَزِي راوي كتاب الزُّهد عنه، أنه قال: كن محبًّا للخمول كراهية الشهرة، ولا تُظهر من نفسك أنك تحب الخمول، فترفع نفسك، فإن دعواك الزُّهد من نفسك هو خروجك من الزهد؛ لأنك تجرّ على نفسك الثناء والمدحة^(٤).

(١) انظر: صفة الصفوة (٣٢٣/٢).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٤/٨، ١٦٥).

(٣) انظر: صفة الصفوة (٣٢٣/٢).

(٤) المصدر السابق (٣٢٥/٢).

فانظر إليه كيف يغوص في أعماق النفس ويحللها، ويحذر من آفاتها التي قد تُخدع عنها.

٩ - اعتزاله أصحاب البدع ورجال السلطان:

وكان يخالط المجتمع، ويعمل لخيريه بعلمه وماله وجهده، ولكنه كان يتعد عن صنفين من الناس:

الأول: أصحاب «البدع» ويعني بها: البدع الاعتقادية والفكرية، التي نشأت من التأثر بالملل والنحل المختلفة، من وثنية وكتابية محرّفة، وهو يبتغي الإسلام صافيًا من كل شائبة.

ومن قوله: ليكن مجلسك مع المساكين، واحذر أن تجلس مع صاحب بدعة^(١).

وقال الحارث من أصحابه: أكلتُ يومًا عند صاحب بدعة أكلة، فبلغ ذلك ابن المبارك، فقال: لا كلمتك ثلاثين يومًا^(٢).

وذكرَ عنده يومًا جهم بن صفوان، صاحب البدع الاعتقادية الثقيلة المعروفة، فأنشد يقول:

عجبت لشيطان أتى النَّاسَ داعيًا إلى النار، وانشق اسمه من جهنم^(٣)!

وعن أحمد بن يونس، قال: سمعتُ ابن المبارك قرأ شيئًا من القرآن، ثم قال: من زعم أن هذا مخلوق، فقد كفر بالله العظيم^(٤).

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩٠٣٦).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٨/٨).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٤١١/٨).

(٤) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٤١٠/٣٢).

واحتج ابن المبارك على أهل الإرجاء، الذين يقولون: إن الإيمان لا يتفاوت، بما روى بسنده عن عمر قال: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض، لرجح^(١).

قال الذهبي: مراد عمر رضي الله عنه أهل أرض زمانه^(٢).

قال عمر ذلك بمناسبة موقف أبي بكر يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وارتداد العرب ومنعهم الزكاة، وإصراره على أن يقاتلهم حتى يؤدوا حق الله.

والصنف الثاني: رجال السلطان، فهو يتجنبهم، ويحذر من مخالطتهم، ومعاونتهم على ما هم فيه من ظلم.

وقال الحمّادان: كان ابن المبارك يتجر، ويقول: لولا خمسة ما اتّجرت: السفينان، وفُضَيْل، وابن السّمّاك، وابن عُليّة. فيصلهم، فقدم سنة، فقيل له: قد ولي ابن عُليّة القضاء، فلم يأتَه ولم يصله، فركب ابن عُليّة إليه، فلم يرفع به رأسًا، فانصرف، فلما كان من غد كتب إليه رقعة، يقول: قد كنتُ منتظرًا لبرّك، وجئتك فلم تكلمني، فما رأيتَه مني؟ فقال ابن المبارك: يابى هذا الرجل إلا أن تقشع له العصا، ثم كتب إليه:

| | |
|-------------------------|----------------------|
| يا جاعل الدّين له بازيا | يصطاد أموال المساكين |
| احتلت للدنيا ولذاتها | حيلة تذهب بالدين |
| فصرت مجنونًا بها بعدما | كنت دواء للمجانين |
| أين رواياتك في سردها | لترك أبواب السلاطين؟ |

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٥).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٤٠٨/٨).

أين رواياتك في سردها عن ابن عون وابن سيرين؟
 إن قلت: أكرهت فذا باطل زل حمار العلم في الطين
 فلما وقف على هذه الأبيات قام من مجلس القضاء، فوطئ بساط
 الرشيد، وقال: الله الله، ارحم شيبتي، فإني لا أصبر على القضاء. قال:
 لعل هذا المجنون أغراك! ثم أعفاه، فوجه إليه ابن المبارك بالبصرة^(١).
 وقيل: إن ابن المبارك إنما كتب إليه بهذه الأبيات لما ولي صدقات
 البصرة، وهو الصحيح^(٢).

وقال الحسن بن الربيع: لما احتضر ابن المبارك في السفر قال:
 أشتهي سويقًا، فلم نجده إلا عند رجل كان يعمل للسلطان، وكان معنا
 في السفينة، فذكرنا ذلك لعبد الله، فقال: دعوه. فمات، ولم يشربه^(٣).
 وقال أبو نعيم في الحلية: سئل ابن المبارك: من الناس؟ فقال:
 العلماء. قيل: فمن الملوک؟ قال: الزُّهَّاد. قيل: فمن الغوغاء؟ قال: خزيمة
 وأصحابه (يشير إلى أحد الأمراء الذين يعملون للظلمة). قيل: فمن
 السَّفِلة؟ قال: الذين يأكلون بدينهم^(٤)!

وقال داود بن رشيد: كان ابن المبارك عند أبي الأحوص، فجاء
 رسول فلان الهاشمي - بعض الولاة - فقال: فلان يقرئك السلام،
 ويقول: يا أبا الأحوص، هذا شهر رمضان، وقد وسَّعنا على عيالنا،
 وهذه ألف درهم توسَّع بها عليهم في هذا الشهر. قال أبو الأحوص:

(١) رواه الخطيب في تاريخ بغداد (١٩٦/٧).

(٢) انظر: تهذيب التهذيب (٢٧٨/١).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٤١١/٨).

(٤) رواه أبو نعيم في الحلية (١٦٧/٨، ١٦٨).

فعل الله به وفعل. وقال: قل له يدعها عنده حتى إذا احتجنا إليها بعثنا فأخذناها.

قال: وانسل ابن المبارك إلى منزله فجاء بألف، فقال: يا أبا الأحوص، هذه الألف تنفقها، فإني لا آمن أن يكون قد بلغ أهلك فيخاصمونك، وهذه من وجه أرجو أن تكون أطيب، فقبلها^(١).

زجره عن أخذ الأموال من الأمراء:

قال الكدّيمي، حدثنا عبدة بن عبد الرحيم قال: كنت عند الفضيل بن عياض وعنده ابن المبارك، فقال قائل: إن أهلك وعيالك قد احتاجوا مجهودين محتاجين إلى هذا المال، فاتق الله وخذ من هؤلاء القوم! فزجره ابن المبارك وأنشأ يقول:

خذ من الجاروش والرزّ ومن خبز الشعير
واجعلن ذاك حلالا تنج من حر السعير
وانأ ما استطعت هداك الله عن دار الأمير
ازدريها واجتنبها إنهابا شر مزور
توهن الدين وتدني ك من الحوب الكبير
قبل أن تسقط يا مغ رور في حفرة بير
وارض يا ويحك من دن ياك بالقوت اليسير
إنهابا دار بلاء وزوال وغرور
ما ترى قد صرعت قبلك أصحاب القصور^(٢)

(١) انظر: صفة الصفوة (٢/٣٣٠).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/٤١٥).



امتناعه عن لقاء الرشيد:

عن إبراهيم بن نوح الموصلي، قال: لما قدم الرشيد عَيْن زُرْبَةَ، طلب ابن المبارك، قال أبو سليمان: فذكرت، وقلت: إِنَّ ابن المبارك رجل خراساني، لا آمن أن يجيب أمير المؤمنين بما يكره، فيقتله، فأكون قد أهلكت أمير المؤمنين، وأهلكت ابن المبارك، وأهلكت نفسي! فأمسك عنه، ثم عاود فطلبه، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن ابن المبارك رجل جلف غليظ الطباع... فأمسك هارون، وكان ابن المبارك علم بطلب الرشيد، فاختمني، ثم ظهر بعد ثلاث، فقيل له: تخفّيت ثم ظهرت؟ قال: أردت نفسي على الموت، فأبت عليّ، فلما أجابني ظهرت^(١).

وإنما أراد نفسه على الموت؛ لأنّه خشي أن يطلب منه الرشيد شيئاً ولا يقبله، مثل تولّي القضاء ونحوه.

* * *

(١) انظر: تذكرة الحفاظ (١/٢٠٣، ٢٠٤).

الخاتمة

بعد هذه الجولة في رياض القرآن والسُّنَّة، وهدى الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان، بين هاتين المنزلتين من منازل السالكين إلى الله: «الورع والزهد»، تعرفنا على أهداف النَّاس في الحياة الدُّنيا، وبيَّنا الفرق بين الورع والزهد، وأنهما يدخلان في باب الترك والاجتناب، وحرصنا على تخليص مفهوم الورع والزهد مما لحقه من الشوائب والمحدثات.

١ - ففي الفصل الأول من الباب الأول: عرَّفنا الورع لغة واصطلاحًا، ونقلنا أقوالاً رائعة للسلف في تعريفه.

٢ - وفي الفصل الثاني: تكلمنا عن درجات الورع ومراتبه، وبيَّنا أن أدنى مراتب الورع: الورع عن ارتكاب الكبائر، وعرفتُ الكبيرة، وحدَّرت من كثير من كبائر الآثام التي يغفل عنها كثير من الناس، وبيَّنت أن كبائر ترك المأمورات أشدَّ خطرًا من كبائر فعل المحظورات.

٣ - ثم تكلمت عن المرتبة الثانية من مراتب الورع: وهي اجتناب صغائر المحرَّمات المقطوع بتحريمها، ونبَّهت على كثير من المحرمات المنتشرة في حياة الناس، وحدَّرت من خطورة الإصرار على الصغائر والإكثار منها، وهاتان المرتبتان: الورع عن الكبائر والصغائر هما «ورع العدول» كما يسمِّيه الغزالي.

٤ - وأما المرتبة الثالثة، فهي ترك الشُّبهات، وهي «ورع الصالحين» كما يسميها الغزالي أيضًا. ومما يدخل في هذه المرتبة: التورع عن المكروه تحريمًا.

٥ - وأما المرتبة الرابعة، فهي الورع عن بعض الحلال، وهي التي سمّاها الغزالي «مرتبة المُتَّقِين»، ويدخل في هذه المرتبة: التورع عن المكروهات التنزيهية وخلاف الأولى. وأوردت نماذج للسلف في التحقق بهذه المرتبة الرفيعة.

٦ - وأما المرتبة الخامسة، فهي الإعراض عن كل ما يشغل عن الله والدار الآخرة، وهي «مرتبة الصّديّقين».

٧ - وفي الباب الثاني من أبواب الكتاب، وهو: الزُّهد، مهّدت له بتمهيد مهم، بينت فيه عدم ورود كلمة الزُّهد في القرآن والسُّنة الصحيحة، رغم شيوع هذا المصطلح وكثرة الكتب المؤلفة فيه، وإطلاق هذا الوصف على جماعة من السلف. وأكدت على جواز استخدام هذا المصطلح بمعناه المعروف عند علماء السلوك؛ لأنّ مضمون هذا المصطلح، وإن لم يرد بهذا اللفظ في القرآن وصحيح السنة، فإنّ القرآن والسُّنة حافلان بالتزهد في الدُّنيا، والترغيب في الآخرة. وعقدت بعد هذا التمهيد أحد عشر فصلًا.

٨ - أمّا الفصل الأول، ففي تحذير القرآن من الدُّنيا، وتحذير السنة النبوية، وأوردت أكثر من خمسين حديثًا صحيحًا مما انتقته من كتابي: «المنتقى من الترغيب والترهيب» للمنذري.

٩ - وفي الفصل الثاني: حرّرت المراد بالدنيا المذمومة في القرآن

والسُّنَّة، وأن ذلك لا يرجع إلى زمان الدُّنيا ومكانها وما فيها، وإنَّما الذَّم راجع إلى أفعال بني آدم الواقعة فيها.

وركزت على أنَّ الدُّنيا وإنَّ اعتبرت متاعًا قليلًا وزائلًا، فإنَّها دار لها أهميتها العظمى باعتبارها مزرعة الآخرة، ونقلت من أقوال أهل البصيرة ما يُذمُّ من الدُّنيا وما يُمدح فيها.

١٠ - وفي الفصل الثالث: أوضحت ما ينكر الإسلام من الدنيا: من شدَّة حبها، والحرص عليها، وتقديمها على الدين عند تعارضه مع الدُّنيا، وتقويم النَّاس على أساس الدُّنيا، واتِّخاذ أعمال الآخرة وسيلة لكسب الدنيا.

١١ - وفي الفصل الرابع: عرَّفْتُ اصطلاح الزُّهد عند علماء السلوك، واختلافهم في تعريفه وتحديد مفهومه، ونقلت عددًا من التعريفات عن السلف التي يعبّر كل منهم عن عنصر من عناصر الزُّهد، والتي تتكون من مجموعها الحقيقة الإيمانية المنشودة.

١٢ - وأوضحت أمرًا يلتبس على الكثيرين، وهو: أنَّ الزُّهد في لقاء النَّاس الذي نقل عن بعض السلف، لا يعني العزلة عنهم، فالإسلام دين اجتماعي، يربِّي المسلم على أن يحيا في جماعة، ويعمل في جماعة، وأن العمل لنصرة الإسلام لا يتحقق إلا إذا كان عملاً جماعيًا. والمقصود بالزهد في الناس: الزُّهد في الشهرة والثناء والمدح.

١٣ - وتعقبتُ ما نُقل عن عامر بن عبد قيس في زهده في المال والنساء واستغنائه عنهما، وهما موجَّب الفطرة البشريَّة، وناقشت قول أبي سليمان الداراني في اعتباره التزوُّج والسفر وكتابة الحديث ركونًا إلى الدنيا.

١٤ - وأجبت في آخر هذا الفصل عن سؤال طرحه أهل السلوك، وهو: هل الزُّهد ممكن هذه الأزمنة في القرن الرابع والخامس وما بعدها؟ ونقلت تحقيق ابن القيم في وجود الحلال في الدنيا.

١٥ - ورددتُ عَمَّنْ فَضَّلَ تَرْكَ الدُّنْيَا ورفضها عَمَّنْ أدركها وَوَصَلَ بِهَا رَحْمَهُ، وَبَيَّنْتُ أَنَّ المَدَارَ يَقُومُ عَلَى شُكْرِ النِّعْمَةِ أَوْ كُفْرَانِهَا، وَأُورِدْتُ أَحَادِيثَ لَهَا دَلَالَةٌ فِي هَذَا المَوْضُوعِ.

١٦ - وفي الفصل الخامس: بَيَّنْتُ حَقِيقَةَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَمَكُونَاتِهِ. وَأَنَّهُ فِي أَمْرَيْنِ أَسَاسِيَيْنِ اثْنَيْنِ:

الأول: إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا.

والثاني: الإعراض عن اتباع الشهوات.

وعند كلامي عن الأساس الأول من مكوّنات الزُّهد، بَيَّنْتُ الآثارَ الخطيرةَ لِحُبِّ الدُّنْيَا وإيثارها على الآخرة، ومن ذلك: اضطراب المعايير، وانقلاب الموازين في تقويم الناس، وضعف الأمة وإدخال الوهن عليها.

١٧ - والأمر الثاني من مكوّنات الزُّهد المشروع: الإعراض عن اتباع شهوات الدُّنيا، فلا تكون شهواتها أكبر همّ، ومبلغ علمه، وتستعبده شهوة البطن أو الفرج أو الشهرة، وحذرت من شهوات الدُّنيا الحسية والمعنوية، وهي المهلكات للفرد والأمة.

١٨ - وفي الفصل السادس: تكلمت عن موقف النَّاسِ مِنَ الزُّهْدِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَقَدَّمْتُ لِهَذَا الفِصْلِ بَأَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ مَذْمُومَةٌ لذَاتِهَا؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَهَا لِعِبَادِهِ وَسَخَّرَهَا لِمَنْفَعَتِهِمْ، وَطَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَعْمُرُوهَا.

ونقلت عن الإمام الغزالي مواقف الناس من الدنيا، ثم بيّنت موقفهم منها، وأنهم قسمان:

أحدهما: منكر الآخرة.

والقسم الثاني: المؤمنون بالآخرة.

وأنهم متفاوتون في فهم حقيقة الدنيا والتعامل معها، فمنهم: الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله، والسابقون صنفان:

منهم من يقتصد من الدنيا على قدر ما يسد الرّمق، ومنهم من يفسح لنفسه أحياناً في تناول شهواتها المباحة.

ثم نقلت عن الحافظ ابن رجب المشاهد التي يشهدها الزاهدون في الدنيا، وأن خواصهم يخشون أن تشغلهم الدنيا عن الله.

١٩ - وفي الفصل السابع: حدّرت من العقبات التي تمنع الإنسان من الزُّهد في الدنيا، والتي تحول بينه وبين الإقبال على الآخرة، وتحدثت عن أربع عقبات أساسية، وهي: الغفلة عن الله، وعن الموت وما بعد الموت، وعن مصاير الغابرين. والعقبة الثانية: طول الأمل. والعقبة الثالثة: سيادة القيم المادية. والعقبة الرابعة: افتقاد القدوة. وأظهرت جوانب من زهد الرسول وأصحابه، والتابعين لهم، وتكلّمت عن أثر صحبة المريّين الربانيين من الزاهدين.

٢٠ - وفي الفصل الثامن: أوضحت البواعث التي تحفّز على الزُّهد، واقتصرت على أربعة بواعث أساسية، وهي:

أ - ذكر الموت، وبيّنت طريق الانتفاع بذكره.

ب - والباعث الثاني: الاعتبار بمصاير أهل الدنيا وعشاقها، واخترت قصة قارون ومصيره الذي صار إليه، وأشارت إلى نماذج من مصاير الذين غرتهم الدنيا.

ج - والباعث الثالث: استحضار الآخرة ومواقفها وأحوالها.

د - والباعث الرابع: معرفة قيمة الدنيا التي يتهافت عليها الناس، وذكرت أهم أوصافها، فهي متاع قليل، ومتاع زائل، وهي سريعة التقلب، ودار عناء وتعب: أولها بكاء، وأوسطها عناء، وآخرها فناء. وأن لذاتها ممزوجة بالآلام، وخيراتها مخلوطة بالشرور.

٢١ - وقارنت بين قيمة الدنيا والآخرة، وأبنت أن متاعها قليل بالنسبة للزمان، وقليل بالنسبة للمكان.

٢٢ - وفي الفصل التاسع كشفت عن أمور يعدها بعض الناس من أساسيات الزهد، ولكنها ليست من حقيقة الزهد، ولا من ضروراته مثل: الإعراض عن الزواج، والعزلة عن المجتمع، والبعد عن أنشطته الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، والإعراض عن العمل للكسب وامتلاك المال، وأن يعيش المسلم فقيرًا، وأن يُعرض عن الحياة الطيبة.

٢٣ - وفي هذا الفصل صحّحت الكثير من المفاهيم المغلوطة، ومن ذلك: موقف الإسلام من المرأة، بعدّها نعمة من نعم الدنيا، وطيبة من طيبات هذه الحياة، وأنّ المحذور من جهة المرأة أمران: الاستمتاع الحرام، والانشغال بالمرأة عن واجب الدين والأمة.

٢٤ - ومن ذلك أيضًا: العمل لكسب العيش، وأنّ العمل المشروع

المباح ضرب من العبادة والجهاد إذا توفرت فيه النية الصحيحة، وإحسان العمل وإتقانه، والتزام حدود الله ورعاية حقوق الناس، وألا يلهيه عمل دنياه عن عمل دينه، ولا حطُّ نفسه عن حق ربه.

٢٥ - ومن ذلك أيضًا: الغنى وامتلاك الدنيا، وأنه لا يناقض الصلاح والتقوى، ونقلت كلام ابن الجوزي في رده على الذين ذموا الغنى، واعتبروا المال شرًا.

٢٦ - وناقشت الإمام الغزالي الذي استدلَّ لفضل الفقر في كتاب «الزهد» بآيتين، هما قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وقوله في سورة البقرة: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وبيّنت بعده عن الفهم الدقيق للآيتين الكريمتين، وأن الآية الأولى ليست إلا بيانًا لموضع الفيء من الناس، وبيان الصفة التي استحقوا بها هذا، وهي الفقر، مع بيان العلة التي أدت إلى هذا الفقر، وهي هجرتهم وإخراجهم من ديارهم وأموالهم بغير حق.

والآية الثانية بيان لأحقّ النَّاس بالصدقة والإنفاق الذي يحبه الله، وهم الفقراء الذين تحقّقوا بخمس صفات: أولاها: الفقر، وثانيها: الإحصار في سبيل الله، ودل على هذا المعنى ختام الآية بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَأَبَتْ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، إلى آخر هذه الصفات المذكورة في الآية.

٢٧ - وإنما يكون المال شرًا إذا أصبح حب جمعه وتنميته هو الشغل

الشَاغِل لصاحبه، ولا يبالي من أين جاء: أمن خبيث أم طيب؟ ويكون شرًّا إذا أدّى بمالكه إلى الغرور به والطغيان والبغي على غيره، وإذا أنسى صاحبه الآخرة، أو إذا أنفق في غير محلّه، وبخل به عن حقه وموضعه، وإذا شغل صاحبه عن واجب دينه، وإذا أصبح مقياسَ عظمة النَّاس وتقديرهم في الدنيا.

٢٨ - وكلُّ الذي يطلب من الغنيِّ من واجبات تحدّد علاقته بالله وبالآخرة وبالنَّاس والحياة، ما جاء على لسان المؤمنين من قوم موسى في الوصايا الخمس، التي نصحوا بها قارون، والتي جاءت في الآيتين: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧].

٢٩ - وصححتُ في هذا الفصل أيضًا توهم المعرضين عن الاستمتاع بالطيبات ظنًّا منهم أنّ ذلك من الزُّهد الذي يدعو إليه الإسلام، وأوردت الآيات التي تنكر على الذين حرّموا على أنفسهم الطيبات، وبينتُ قيود الاستمتاع بما رزق الله من الطيبات، وكشفت عن موقف خصوم الإسلام من الحديث عن الحياة الطيبة، وعن تخوُّف بعض المسلمين من الدعوة إلى الحياة الإسلامية الحقّة، جاهلين أنّ الإسلام دين الحياة، وذكرت أنّ التمتع بالطيبات من مقتضى الفطرة، وموجب الطبيعة الإنسانيّة.

٣٠ - وأمّا الفصل العاشر، فقد ذكرتُ فيه حدود الزُّهد المطلوب - في نظر الإمام الغزالي - في ضروريات الحياة الدُّنيا، من أرباب السلوك، وتعرض فيه لضروريات الحياة الستة المهمة من: مطعم، وملبس، ومسكن، ومنكح، ومال، وجاه. وقد ضيَّق الإمام الغزالي في هذه

الضروريات بحيث لا يتسع الزُهد فيها إلا لأناس متفرغين للتعبُد، أو لأناس أوتوا من العزائم والقوة ما لم يُؤت غيرهم.

٣١ - ووقفتُ في الفصل الأخير من هذا الباب وقفات نقدية مع الإمام أبي حامد الغزالي، أكدت فيها ما ذكرته من قبل أن مصطلح الزُهد والزهاد ليس مصطلحاً قرآنيًا ولا نبويًا، وإن أصبح مصطلحًا إسلاميًا معروفًا عند علماء السلوك، ثم استعرضت المفاهيم والمصطلحات القرآنية التي تكررت في القرآن، ومن ذلك أوصاف المؤمنين، والمُتقين، والأبرار، والمحسنين، وعباد الرحمن، وأولي الألباب، وأوضحت بعد ذلك أنه ليس كل ما يروى عن الزهاد معقولًا. وأن الأمة تحتاج أن تأخذ نفسها بالتقشف من أجل الجهاد والقيام بالأعمال الإنسانية الكبرى، وأن الإسلام يحارب الترف والنعومة والإفراط في الشَّبَع.

٣٢ - وأكدت في هذا الفصل على أن الصور التفصيلية لحياة الزُهد والزهاد في الأزمنة الماضية لم تعد تصلح للتطبيق في عصرنا، وذكرت مواصفات الطعام الصحي اللازم للإنسان، وارتقاء نوع اللباس والبيوت السكنية في عصرنا، وضرورة العناية بالأسرة والأولاد في مسكنهم وتعليمهم.

٣٣ - وانتقدتُ منهج الإمام الغزالي رحمته الله تعالى من وجهين:

- من جهة غلو الصوفية وشطحاتهم وتجاوزاتهم، من غير استناد إلى أصل شرعي.

- ومن جهة اعتماده في كثير من استدلالاته على الأحاديث الضعيفة جدًا، والمنكرة والواهية، بل الموضوعة المكذوبة. ولم يلتفت إلى السُّنة الثابتة التي تخالف ما دعا إليه من المبالغة في التقشف والتبذل والحرمان.

٣٤ - على أننا نجد أبا حامد كثيرًا ما يرجع إلى المنهج الوسط، ومن ذلك وسطيته في رياضة الطباع والأخلاق، وما بيّنه في تصنيفه الناس بالنسبة إلى الصراط المستقيم.

٣٥ - وفي ختام هذا الفصل النقدي الهام أكدت أن الإسلام لا يعادي الحياة، وأن الرسول ﷺ دعا إلى الحياة، وأن الكون مسخر لخدمة الإنسان. وأوضحت نظرة الإسلام إلى المال والغنى وطيب الحياة، ودعوته إلى عمارة الأرض حتى آخر لحظة في الحياة، وفضيلة الطموح الموجّه إلى الخير، وهو ما أقام حضارة الإسلام التي تجمع بين العلم والإيمان، وبين السمو الروحي والأخلاقي والإبداع المادي والعمراني. وهو ما اعترف به مؤرخو الغرب، عندما قارنوا بين مدينة أوربا في ذلك العهد ومدينة العرب.

٣٦ - وأمّا الباب الثالث والأخير من هذا الكتاب «الورع والزهد» من سلسلة «في الطريق إلى الله»، وتيسير فقه السلوك، فقد أوردت نماذج من زهد الخلفاء والعلماء وورعهم. واقتصر على ثلاثة من الخلفاء، وهم: عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب من الصحابة، وعمر بن عبد العزيز ممن بعدهم.

٣٧ - واخترت بعد الخلفاء نموذجين إسلاميين من الزهاد الأوائل، وهذان النموذجان هما: إبراهيم بن أدهم، وعبد الله بن المبارك. وخصصتُ كلًّا منهما بحديث يليق به، ويجلي زهده وورعه.

أسأل الله سبحانه أن يتقبّل مني هذا العمل، وأن ينفع به، وأن يجعله سبيلًا مقربًا إلى الله سبحانه، ومصححًا للأفكار والمفاهيم، ومقومًا



للأخلاق والسلوك، وأن يجعلنا من عباده الورعين الزاهدين، الذين يتحققون بمراتب الورع، ويرتقون في مدارج الزُهد، حتّى لا تشغلهم الدُّنيا عن الله وَعَلَى، وأن يعلق قلوبنا بالآخرة، وأن يجعلنا ممن يزهدون بما في أيدي النَّاسِ، ويجعل غنانا في أنفسنا، ويملاً صدورنا غنى، ويرزقنا لسانا ذاكرًا، وقلبًا شاكراً، وبدناً على البلاء صابراً.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

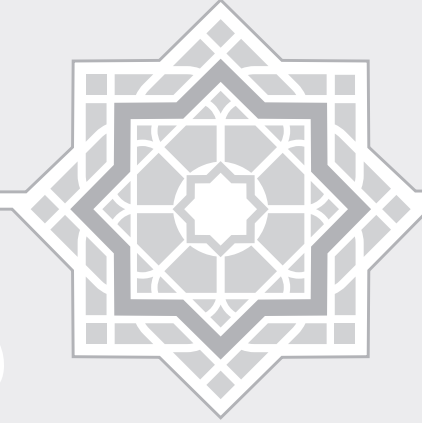




مَوْسُوعَةُ الْأَعْمَالِ الْكَامِلَةِ

لِسَمَاحَةِ الْإِمَامِ

يُوسُفَ الْقُرْطُبِيَّيْنِ



الفهارس العامة



- فهرس الآيات القرآنية الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشريفة.
- فهرس الموضوعات.



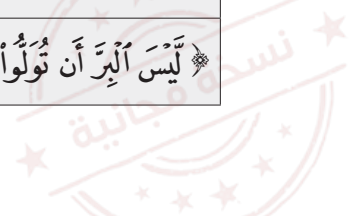




فهرس الآيات القرآنية الكريمة



| رقم الآية | رقم الصفحة | الآية |
|---------------------|------------|--|
| سورة الفاتحة | | |
| ٦، ٥ | ١١٩ | ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ |
| سورة البقرة | | |
| ٥ - ٢ | ٢٨٦ | ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥﴾﴾ |
| ١٦ | ١٨٩ | ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ |
| ٢٩ | ١٥٧ | ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿٢٩﴾﴾ |
| ٣٠ | ١٨، ٧ | ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴿٧﴾﴾ |
| ٣٦ | ١٠١ | ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ |
| ٨٤ - ٨٦ | ٧٧ | ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ ﴿٨٤﴾﴾ |
| ١٢٨ | ١٣ | ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴿١٢٨﴾﴾ |
| ١٧٢ | ٣٣١، ٣٢٦ | ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ ﴿١٧٢﴾﴾ |
| ١٧٣ | ١٥٤ | ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ ﴿١٧٣﴾﴾ |
| ١٧٤ | ١٠٧، ٧٧ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴿١٧٤﴾﴾ |
| ١٧٧ | ٢٨٧ | ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴿١٧٧﴾﴾ |



| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|----------------------|-----------|--|
| ٢٤٦ | ١٨٠ | ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا...﴾ |
| ٢٣٤ | ١٨٣ | ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ |
| ٢١٦ | ١٨٧ | ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ |
| ٢٤٩ | ١٨٨ | ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ |
| ٣١٢، ٢٣٢ | ١٩٨ | ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ |
| ٣٠٩ | ٢٠٠ | ﴿فَمَنْ الْكَاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ |
| ٣٠٩ | ٢٠١ | ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ |
| ٣٨ | ٢٠٨ | ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ |
| ٣١٥ | ٢١٥ | ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ﴾ |
| ٤٤، ٢٩ | ٢١٩ | ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ |
| ٢١٦ | ٢٢٢ | ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى﴾ |
| ٢١٦ | ٢٢٣ | ﴿نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حُرَّتَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ |
| ٢٤٧ | ٢٧٢ | ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ |
| ٤٢١، ٢٤٨، ٢٤٧ | ٢٧٣ | ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ |
| ٢٤٩ | ٢٧٥ | ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ﴾ |
| ١٩٧ | ٢٨١ | ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ﴾ |
| سورة آل عمران | | |
| ١٨٥، ١٥٣ | ١٤ | ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ﴾ |
| ١٨٥، ١٥٣ | ١٥ | ﴿قُلْ أَوْبَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ﴾ |
| ١٥٣ | ١٦ | ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أُمَّمٌ مُعْتَدِلَةٌ فَلَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لَنَا وَلَا تَفْرِقْنَا﴾ |



| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|-----------------------|-----------|---|
| ١٥٣ | ١٧ | ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ ﴾ |
| ٢١ | ١٠١ | ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ |
| ١٢٠ | ١٠٣ | ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ |
| ٢٨٧ ، ٢٨٤ ، ٢١٣ | ١٣٣ | ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ ﴾ |
| ٢٨٧ | ١٣٤ | ﴿ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ ﴾ |
| ٤١ ، ٤ ٢٨٨ ، ٢٨٧ | ١٣٥ | ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾ |
| ٢٨٧ ، ٤١ ، ٤ | ١٣٦ | ﴿ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ |
| ٢٠٧ ، ١٨١ | ١٤٠ | ﴿ إِن يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ |
| ١٤٤ | ١٤٥ | ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُوِّتْهُ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ |
| ٢٣٦ | ١٤٨ | ﴿ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ |
| ١٤٤ | ١٥٢ | ﴿ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ |
| ٦٨ | ١٦٩ | ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ |
| ٣٤ | ١٨٠ | ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ |
| ١٨١ ، ٧٥ ٢٠٥ ، ١٩١ | ١٨٥ | ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ ﴾ |
| ٣١٣ ، ٩٩ | ١٩٠ | ﴿ إِنَّا فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ |
| ٢٨٩ ، ٢٨٨ | ١٩٤ - ١٩١ | ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾ |
| ١٠٨ | ١٩٧ ، ١٩٦ | ﴿ لَا يَغْرَبَنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَّعٌ قَلِيلٌ ﴾ |
| ٧٧ | ١٩٩ | ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ |



| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|--------------------|-----------|---|
| سورة النساء | | |
| ٢٤٩ | ٢ | ﴿ وَءَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْأَسْفَلِ ۚ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ ۖ ﴾ |
| ٢١٦ | ٣ | ﴿ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ ۚ ﴾ |
| ٣١٥ ، ٢٤٠ | ٥ | ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا ۚ ﴾ |
| ٢٤٠ | ٦ | ﴿ فَإِنْ عَانَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۚ ﴾ |
| ٢٤٩ | ١٠ | ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ ۖ ﴾ |
| ٢٢٦ | ٢٦ | ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بِيَدِكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ۚ ﴾ |
| ٢٢٦ ، ١٥٢ | ٢٧ | ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ ۖ ﴾ |
| ٢٢٦ | ٢٨ | ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ۚ ﴾ |
| ١٥٤ | ٢٩ | ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ ۚ ﴾ |
| ٣١ | ٣١ | ﴿ إِنْ بَحْتَبُونَا كَبَائِرَ مَا نَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَعْيَاتِكُمْ ۚ ﴾ |
| ٢٥٠ | ٣٧ ، ٣٦ | ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۚ ﴾ |
| ٢٥٠ | ٣٨ | ﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۚ ﴾ |
| ٢٠١ | ٤٠ | ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۚ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا ۚ ﴾ |
| ٤٤ | ٤٣ | ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ ۚ ﴾ |
| ٢٠٣ ، ١٠٧ ، ٧٥ | ٧٧ | ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ۚ ﴾ |
| ١٩٢ ، ٧٥ | ٧٨ | ﴿ أَيْتِمَانًا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ۚ ﴾ |
| ٧٩ | ٩٤ | ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا ۚ ﴾ |
| ١٩ | ١٢٥ | ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ۚ ﴾ |



| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|---------------------|-----------|---|
| ٣٦ | ١٤٠ | ﴿ وَفَدَّ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِنْدِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا ﴾ |
| ٣٢ | ١٤٢ | ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ |
| ٢٥٨ | ١٦١ ، ١٦٠ | ﴿ فَيُظَلِّمَنَّ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمَنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَتِ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ |
| سورة المائدة | | |
| ١٢٠ | ٢ | ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ |
| ١٤٢ | ١٦ ، ١٥ | ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا ﴾ |
| ١١٦ | ٥٤ | ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ﴾ |
| ٣١٥ | ٦٦ | ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ رَّبِّهِمْ ﴾ |
| ٢٥٨ ، ٢٩١ | ٨٧ | ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ |
| ٢٥٩ ، ٢٥٨ | ٨٨ | ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ |
| ١٥٤ ، ٤٤ | ٩٠ | ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ ﴾ |
| سورة الأنعام | | |
| ٢٠٢ | ١٦ ، ١٥ | ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ |
| ٧٦ | ٣٢ | ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُ ﴾ |
| ٣٧ | ٦٨ | ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ |
| ٢٠ ، ٤ | ١٢٠ | ﴿ وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ ﴾ |
| ٧٦ | ١٣٠ | ﴿ يَمْعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُونَ عَلَيْكُمْ ﴾ |
| ١٧٩ ، ١٥٣ ، ١٢٩ | ١٦٢ | ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ |
| ١٧٩ | ١٦٣ | ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ |

| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|---------------------|-----------|--|
| سورة الأعراف | | |
| ٢٣١، ١٨ | ١٠ | ﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا ﴾ |
| ٨ | ١٧، ١٦ | ﴿ فِيمَا أَعْوَيْنِي لَا أَقْدُنْ لَهُمْ صِرْطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَنهَهُمُ ﴿١٧﴾ |
| ٢٩٥، ٢٥٩، ٢٥٧ | ٣١ | ﴿ يَبْنِيْءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴿٣١﴾ |
| ٣٣١، ٢٥٧ | ٣٢ | ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿٣٢﴾ |
| ١٩٢ | ٣٤ | ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ |
| ٧٦ | ٥١ | ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلِعِبَابًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴿٥١﴾ |
| ١٨ | ٥٦ | ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ |
| ١٥٤ | ٨١، ٨٠ | ﴿ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا ﴾ |
| ٣١٥، ٢٣٦ | ٩٦ | ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ ﴾ |
| ٢٥٧ | ١٥٧ | ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا ﴾ |
| ١٧٦ | ١٧٩ | ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ ﴾ |
| ١٨٩ | ١٨١ | ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ |
| ٣١٦، ٢٠٤ | ١٨٧ | ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ |
| ٢٨٧ | ٢٠١ | ﴿ إِنَّكَ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ﴾ |
| ١٧٧ | ٢٠٥ | ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ |
| سورة الأنفال | | |
| ٢٨٥ | ٢ - ٤ | ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ ﴾ |
| ٣١٢ | ٢٤ | ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ |



| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|--------------------|-----------|---|
| ٣١٥ ، ٢٥٨ | ٢٦ | ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ﴾ |
| ٧٨ | ٦٧ | ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ لَهُ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ |
| سورة التوبة | | |
| ٣٣ | ٥ | ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ |
| ٣٣ | ١١ | ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ |
| ٢٥٠ | ٣٥ ، ٣٤ | ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا ينفِقُونَهَا﴾ |
| ٢١٢ ، ٢٠٣ | ٣٨ | ﴿أَرْضِيئُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ﴾ |
| ١٠٧ | ٣٨ | ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا﴾ |
| ١٠٨ | ٥٥ | ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا﴾ |
| ١٨٨ | ١٠٠ | ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ |
| ٤٠٢ | ١٢٢ | ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ |
| سورة يونس | | |
| ٣١٤ | ٥ | ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ |
| ١٧٧ ، ١٦٣ | ٨ ، ٧ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ |
| ٧٤ | ٢٤ | ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ |
| ١٤٢ | ٥٧ | ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ﴾ |
| ٢٥٣ | ٥٨ | ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرِحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ |
| سورة هود | | |
| ٢٣١ ، ١١٣ | ٥ | ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ |

| رقم الآية | رقم الصفحة | الآية |
|-------------------|------------|--|
| ٧ | ١٦٧ | ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ |
| ١٦، ١٥ | ١٤٣، ٧٦ | ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا ﴾ |
| ٤٥ | ٣٨٨ | ﴿ رَبِّ إِنِّي أَنبِئُكَ بِمَا تَعْمَلُ ﴾ |
| ٤٦ | ٣٨٨ | ﴿ إِنِّي أَعْطِكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ |
| ٦١ | ١٥٧، ١٨ | ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ |
| سورة يوسف | | |
| ١٩ | ٦٧ | ﴿ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةَ ﴾ |
| ٢٠ | ٦٧ | ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ ﴾ |
| ٢١ | ٦٧ | ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ﴾ |
| ٥٥ | ٣١٧ | ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴾ |
| ٥٦ | ٢٣٨ | ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ |
| ٦٥ | ٢٤٢ | ﴿ وَنَزَدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ |
| ٩٩ | ١٧٩ | ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ |
| ١٠١ | ٢٥٣، ١٧٩ | ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ |
| ١١١ | ٢٥١ | ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ |
| سورة الرعد | | |
| ٢٠ | ٢٨٩ | ﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ |
| ٢٠ | ٢٨٩ | ﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ |
| ٢١ | ٢٨٩ | ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ ﴾ |



| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|---------------------|-----------|--|
| ٢٨٩ | ٢٢ | ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ |
| ٢٨٩ | ٢٢ | ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ |
| ٢٨٩ | ٢٣ | ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِن ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ |
| ٢٨٩ ، ٨٢ | ٢٤ | ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ |
| ٢٠٣ | ٢٦ | ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ ﴾ |
| ١٥ | ٢٨ | ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ |
| ٢١٦ ، ١٣٢ | ٣٨ | ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ |
| ١٤٦ | ٣ ، ٢ | ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ |
| سورة إبراهيم | | |
| ١٤٠ | ٧ | ﴿ لِّئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلِئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ |
| ٣١٣ ، ١٠١ | ٣٢ | ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ |
| ٣١٣ ، ١٠١ ، ٩٩ | ٣٣ | ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ |
| ٣١٣ ، ١٠١ | ٣٤ | ﴿ وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ ﴾ |
| ١٢٥ | ٣٥ | ﴿ وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ |
| ١٣ | ٤١ ، ٤٠ | ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴾ |
| سورة النحل | | |
| ٢١٥ ، ١٣٢ | ٧٢ | ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ |
| ٢٠٤ | ٧٧ | ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ |
| ٢٣٦ | ٧٩ | ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ ﴾ |

| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|---------------------|-----------|---|
| ٧٥ | ٩٦ | ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ |
| ١٥، ٤ | ٩٧ | ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ ۙ ﴾ |
| ١٤٦ | ١٠٧ | ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ ﴾ |
| ٣٥٦ | ١١١ | ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ |
| ٢٥٩ | ١٧٢ | ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ |
| سورة الإسراء | | |
| ١٩٨ | ١٣ | ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلزَمْنَاهُ طَئِيرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ |
| ١٥٨، ١٤٣، ٧٦ | ١٨ | ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ |
| ١٥٨، ١٤٣، ٧٦ | ١٩ | ﴿ وَمَن أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ |
| ٢٢٥، ١٥٤، ٢٩ | ٣٢ | ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ |
| ٢٥٦ | ٧٠ | ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُم فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم ﴾ |
| سورة الكهف | | |
| ٢٠٤، ١٦٧، ٧٥ | ٧ | ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ |
| ٢٠٤، ١٦٧، ٧٥ | ٨ | ﴿ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ﴾ |
| ١٧٧، ٧٥ | ٢٨ | ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ |
| ١٠٨ | ٣٢ - ٤٤ | ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِّنْ أَعْنَبٍ ﴾ |
| ٢٤٩ | ٣٤ | ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ |
| ٢٤٩ | ٣٥ | ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ ۖ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ |
| ٧٥ | ٤٥ | ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ |
| ١٨٥، ٧٥ | ٤٦ | ﴿ الْمَالِ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ ﴾ |



| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|----------------|-----------|---|
| ١٩٨ | ٤٩ | ﴿ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَفَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ |
| ٢٤٦ | ٨٢ | ﴿ وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ |
| سورة مريم | | |
| ١٥٢ | ٥٩ | ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ﴾ |
| سورة طه | | |
| ٣١٣ | ٥٠ | ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ |
| ١٨٥ ، ١٠٨ ، ٧٥ | ١٣١ | ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ |
| سورة الأنبياء | | |
| ٢٦٣ | ٨ | ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ |
| ٢٠٤ ، ١٩١ | ٣٤ | ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّن مَّتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ |
| ١٩١ | ٣٥ | ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ |
| ١٩٨ | ٤٧ | ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ |
| ٣١٠ | ٩٠ | ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِالشَّرَابِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا ﴾ |
| سورة المؤمنون | | |
| ٢٨٦ | ١١ - ١ | ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ |
| ٣٦ | ٣ | ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ |
| ٢٠١ | ١٦ - ١٢ | ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ |
| ٣٣٢ ، ٣٢٦ | ٥١ | ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ |
| ١٩٩ | ١٠٤ - ١٠١ | ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ |

| رقم الآية | رقم الصفحة | الآية |
|-----------------------|------------|---|
| سورة النور | | |
| ٤٠ | ١٥ | ﴿إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِآلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ |
| ١٩٩ | ٢٤ | ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ |
| ١٥٥ | ٣٠، ٢٩ | ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ |
| ٢١٦ | ٣٢ | ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ |
| ٢٠٢، ٢٣٢، ٣١٧، ٣٨٩ | ٣٧ | ﴿رِجَالٌ لَا نُلْهِمِهِمُ بَحْرَةَ وَلَا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ |
| ٢٨٦ | ٥١ | ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ |
| سورة الفرقان | | |
| ٣١٣ | ٢ | ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ |
| ٢٦٣ | ٧ | ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ |
| ٢٦٣ | ٢٠ | ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ |
| ١٠٠ | ٦٢ | ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكَرَ﴾ |
| ٢٨٨ | ٦٣ - ٧٦ | ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ |
| ٣١٧ | ٧٤ | ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ |
| سورة الشعراء | | |
| ٩ | ٨٨ | ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ |
| ٩، ١٣٢ | ٨٩ | ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ |
| ١٧٦ | ٢٠٧، ٢٠٦ | ﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾ |



| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|---|-----------|--|
| سورة النمل | | |
| ٢٣٨ | ١٥ | ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا ﴾ |
| ٢٥٣ | ١٩ | ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ ﴾ |
| ٣١٣ | ٨٨ | ﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ |
| سورة القصص | | |
| ٢٤٢ | ٢٣ | ﴿ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ |
| ٢٤٢ | ٢٧ | ﴿ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ |
| ١٨ | ٥٠ | ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ﴾ |
| ٣٦ | ٥٥ | ﴿ وَإِذَا سَكَعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ ﴾ |
| ١٨٥ | ٦٠ | ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ |
| ٣١٤ ، ٢٩٠ | ٧٣ - ٧١ | ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ |
| ١٣٩ ، ١٩٤ ، ٢٤٩ ، ٤٢٢ ، ٢٥٢ | ٧٦ | ﴿ إِنْ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ﴾ |
| ١٣٩ ، ١٩٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٣ ، ٤٢٢ ، ٢٥٦ | ٧٧ | ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ ﴾ |
| ١٣٩ ، ١٩٤ ، ٢٥٢ ، ١٩٦ | ٧٨ | ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۗ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ ۗ ﴾ |
| ١٠٨ ، ١٤٨ ، ١٨٥ ، ١٩٦ ، ١٩٤ | ٧٩ | ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ |
| ١٤٨ ، ١٨٥ ، ١٩٤ | ٨٠ | ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ ﴾ |
| ١٩٤ | ٨١ | ﴿ فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ ۗ ﴾ |

| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|----------------------|-----------|---|
| ١٩٤ | ٨٢ | ﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ ﴾ |
| ١٩٤، ١٩٦، ٣٣٦ | ٨٣ | ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ^٤ ﴾ |
| سورة العنكبوت | | |
| ١١٣ | ١٧ | ﴿ فَأَبْغَوْا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ ﴾ |
| ١٩٧ | ٤٠ | ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾ |
| ١٩١ | ٥٧ | ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ |
| ٧٦، ٧٣ | ٦٤ | ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ |
| ٢٧ | ٦٩ | ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ |
| سورة الروم | | |
| ١٨٠ | ٤، ٣ | ﴿ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَعْلَبُونَ ﴾ |
| ١٧٧ | ٦ | ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ |
| ١٨٩، ١٧٧ | ٧ | ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ |
| ٢٢٣، ٢١٥، ١٣٢ | ٢١ | ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ |
| سورة لقمان | | |
| ١٥٧ | ٢٠ | ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ |
| ١٩ | ٢٢ | ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ |
| ١٩٧، ٧٨ | ٣٣ | ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ |
| سورة السجدة | | |
| ٣١٣ | ٧ | ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ |
| ٢١٤ | ١٧ | ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ |



| رقم الآية | رقم الصفحة | الآية |
|---------------------|------------|--|
| سورة الأحزاب | | |
| ٢١ | ١٨٦ | ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ ﴾ |
| ٢٨ - ٢٩ | ٢١٩ | ﴿ يَتَأَيَّمُوا النَّبِيَّ قُلًّا لِأَرْوِجَكَ إِن كُنْتَن تَرِدُنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ﴾ |
| ٣٦ | ٢٨٦ | ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمُؤِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا ﴾ |
| ٧٣ ، ٧٢ | ٧ | ﴿ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبِينَّ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ |
| سورة سبأ | | |
| ١٠ ، ١١ | ٢٣٢ | ﴿ وَالنَّالَةَ الْحَدِيدَ * أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ ﴾ |
| ١٥ | ١٤٠ | ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ |
| ١٦ | ١٤٠ | ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ |
| ٣٤ | ٢٤٩ | ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ |
| ٣٥ | ٢٤٩ | ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ |
| ٣٦ | ٢٥٠ ، ٢٤٩ | ﴿ قُلْ إِن رَّبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ |
| ٣٧ | ٢٥١ ، ٢٥٠ | ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ |
| سورة فاطر | | |
| ٥ | ٧٨ | ﴿ يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ |
| ٦ | ٨ | ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ |
| ١١ | ١٩٢ | ﴿ وَمَا يَعْمُرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ |
| ١٢ | ٣٣١ | ﴿ وَمِنْ كُلِّ تَآكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبِيَّةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ |
| ٢٩ ، ٣٠ | ٣٨٩ | ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ |
| ٣٢ | ١٥ | ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ ﴾ |

| رقم الآية | رقم الصفحة | الآية |
|---------------------|------------|--|
| سورة يس | | |
| ٣١٤ | ٣٣ - ٣٥ | ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾ |
| ٣١٣ | ٤٠ | ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ |
| ٨ | ٦٠ ، ٦١ | ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ |
| ١٩٩ | ٦٥ | ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ﴾ |
| سورة الصافات | | |
| ٣٤٠ | ٢٤ | ﴿ وَقَفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ |
| سورة ص | | |
| ١٤٠ | ٢٥ | ﴿ وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ |
| ٢٠٠ | ٢٧ ، ٢٨ | ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ |
| ١٤٠ | ٣٠ | ﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ |
| ٣١٥ | ٣٢ | ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي ﴾ |
| ٣١٧ | ٣٥ | ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي ﴾ |
| ١٤٠ | ٤٠ | ﴿ وَإِنَّ لَهُ، عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ |
| سورة الزمر | | |
| ١٠٨ | ٩ | ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ |
| ٢٨٩ | ١٧ ، ١٨ | ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ |
| ١٥٣ ، ١٣٠ | ٢٩ | ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾ |
| ٢٠٤ ، ١٩١ | ٣٠ | ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَّيِّتُونَ ﴾ |



| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|--------------------|-----------|---|
| سورة خافر | | |
| ١٩٩ | ١٧ | ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ |
| ٧٨ | ٣٩ ، ٣٨ | ﴿يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَقَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ﴾ |
| ٣٦٨ | ٦٠ | ﴿أَدْعُوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ |
| ٢٥٦ | ٦٤ | ﴿اللّٰهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ |
| ٢٥٣ | ٧٥ | ﴿ذٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُوْنَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ |
| سورة فصلت | | |
| ٢٣١ | ١٠ | ﴿وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ |
| سورة الشورى | | |
| ١٤٤ ، ٧٦ | ٢٠ | ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ |
| ٣١ | ٣٧ | ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كِبْرَ الْأَيْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ |
| سورة الزخرف | | |
| ٢٦٠ | ١٢ - ١٤ | ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ﴾ |
| ٢٥١ | ٣١ | ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْبَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ |
| ١٦٦ ، ٧٥ | ٣٣ - ٣٥ | ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ﴾ |
| ٢١٤ | ٧١ | ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ |
| ١٩٩ | ٨٠ | ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْفُرُونَ﴾ |
| سورة الدخان | | |
| ٣١٣ | ٣٩ ، ٣٨ | ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ |

| رقم الآية | رقم الصفحة | الآية |
|---------------------|--------------|--|
| سورة الجاثية | | |
| ١٣ | ١٥٧ | ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ |
| ٢٢، ٢١ | ٢٠٠ | ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ |
| ٢٩ | ١٩٩ | ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ |
| سورة الأحقاف | | |
| ٢٠ | ٢٢٩، ٢٩٦ | ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ﴾ |
| ٢٠ | ١٦٥ | ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ |
| سورة محمد | | |
| ١٢ | ٢٢٨، ١٦٤، ١٤ | ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ |
| ٢٣، ٢٢ | ٣٠ | ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ |
| سورة الفتح | | |
| ٤ | ١٥ | ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ |
| ٢٩ | ٢٣٢ | ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ ﴾ |
| سورة الحجرات | | |
| ١٢، ١١ | ٣٦ | ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَنَّ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ |
| ١٣ | ١٠٨ | ﴿ إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ ﴾ |
| ١٥ | ٢٨٦ | ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ |
| سورة ق | | |
| ٣٢ - ٣٤ | ٩، ٤ | ﴿ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ ﴾ |



| رقم الآية | رقم الصفحة | الآية |
|----------------------|------------------------|--|
| سورة الذاريات | | |
| ١٦ - ١٩ | ٢٨٨ | ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ |
| ٢٢ | ١١٣ | ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ |
| ٥٦ | ١٧٣ ، ١٧ | ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ |
| سورة النجم | | |
| ٤ | ٢١ | ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ |
| ٢٩ | ١٥٨ ، ١٤٥ | ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمَّا يَرِدِ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ |
| ٣٠ | ١٥٨ | ﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ |
| ٣١ | ٢٠٠ | ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ |
| ٣٢ | ٣١ | ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ |
| سورة القمر | | |
| ٤٥ | ١٨١ | ﴿ سِيرَهُمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ |
| سورة الرحمن | | |
| ١٩ - ٢٢ | ٣٣١ | ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴾ |
| سورة الحديد | | |
| ٢٠ | ٤٤ ، ٧٤ ، ١٠٢ ، ٢٠٦ | ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ﴿ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ ﴿ |
| ٢١ | ٢١٣ | ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ |
| ٢٣ | ١١٦ ، ١٨٢ | ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ |

| رقم الآية | رقم الصفحة | الآية |
|-----------------------|----------------------------|---|
| سورة المجادلة | | |
| ١١ | ١٠٨ | ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ |
| سورة الحشر | | |
| ٧ | ٢٤٧ | ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ |
| ٨ | ٤٢١، ٢٤٦ | ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ |
| سورة الصف | | |
| ١١، ١٠ | ٣٨٩ | ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَى تَجْرَقٍ يُسْجِكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ﴾ |
| سورة الجمعة | | |
| ٨ | ١٩٢ | ﴿قُلْ إِنْ أَمُوتَ الَّذِي تَقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَلْئِكُمْ﴾ |
| ١٠ | ٣١٢ | ﴿فَإِذَا فُضِّبَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ |
| سورة المنافقون | | |
| ٩ | ٢٠٥، ٢١٩، ٢٣٥، ٣١٧، ٢٥٠ | ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ﴾ |
| ١٠ | ٢٠٥ | ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ |
| ١١ | ٢٠٥، ١٩٢ | ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ |
| سورة التغابن | | |
| ١٤ | ٢٢٧، ٢١٩ | ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا﴾ |
| سورة الطلاق | | |
| ٢ | ٢٣٦، ٤٢ | ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ ... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ |
| ٣ | ٢٣٦ | ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ |



| رقم الصفحة | رقم الآية | الآية |
|-----------------------|-----------|---|
| ٢٩٥ | ٧ | ﴿ لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴾ |
| ٣١٣ | ١٢ | ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾ |
| سورة الملك | | |
| ١٦٧ | ٢ | ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ |
| ٣١٣ | ٣ | ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ﴾ |
| ٣١٤ ، ١٨ | ١٥ | ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ |
| سورة الحاقة | | |
| ٢٠٥ | ٢٩ ، ٢٨ | ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴾ * هَلَاك عَنِّي سُلْطَانِيهِ ﴾ |
| سورة المعارج | | |
| ١٩٨ | ٤ | ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ |
| سورة نوح | | |
| ٣١٥ ، ٢٣٦ | ١٠ | ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ |
| ٣١٥ ، ٢٣٦ | ١١ | ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ |
| ٣١٥ ، ٢٤٦ ، ٢٣٦ | ١٢ | ﴿ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ |
| ١٠١ | ٢٠ ، ١٩ | ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ * لِيَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ |
| سورة الجن | | |
| ٣١٥ | ١٦ | ﴿ وَالْوَالِدُ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴾ |
| سورة المزمل | | |
| ٣١٦ | ١٨ ، ١٧ | ﴿ فَكَيْفَ تَنفُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴾ |
| ٣١٢ ، ٢٣١ ، ١٨١ ، ١٣٢ | ٢٠ | ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ |

| رقم الآية | رقم الصفحة | الآية |
|---------------|------------|---|
| سورة المدثر | | |
| ٤٢ - ٤٤ | ٣٢ | ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَوْلَا لَرْنَاكَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ |
| سورة القيامة | | |
| ٢٠ ، ٢١ | ١٤٣ ، ١٤٦ | ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذُرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ ﴾ |
| سورة الإنسان | | |
| ٢ | ٢١٠ ، ٧ | ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴿٢﴾ ﴾ |
| ٧ - ١٢ | ٢٨٨ ، ٢٠٢ | ﴿ يُؤْفُونَ بِالَّذِئِرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ﴿٨﴾ ﴾ |
| سورة المرسلات | | |
| ٤٨ | ٣٢ | ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اذْكُرُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ |
| سورة النبأ | | |
| ٦ | ٣١٤ ، ١٠١ | ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴿٦﴾ ﴾ |
| ٧ | ٣١٤ ، ١٠١ | ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ |
| ٨ | ٣١٤ | ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَرْوَاجًا ﴿٨﴾ ﴾ |
| ٩ | ٣١٤ | ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ |
| ١٠ | ٣١٤ ، ٢٩٠ | ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ ﴾ |
| ١١ | ٣١٤ ، ٢٩٠ | ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ ﴾ |
| ١٢ | ٣١٤ | ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ |
| ١٣ | ٣١٤ | ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ ﴾ |
| ١٤ | ٣١٤ | ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً نَجَّاجًا ﴿١٤﴾ ﴾ |



| رقم الآية | رقم الصفحة | الآية |
|---------------|---------------|---|
| ١٥ | ٣١٤ | ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ |
| ١٦ | ٣١٤ | ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ |
| سورة النازعات | | |
| ٣٥ - ٤٠ | ١٤٥ | ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى * وَوَرِثَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ |
| سورة عبس | | |
| ١٧ - ٢٢ | ٢٠١ | ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ﴾ |
| ٣٤ - ٣٧ | ١٩٨ | ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَجْبَتِيهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ﴾ |
| سورة المطففين | | |
| ١ - ٦ | ٣١٦، ٢٣٥، ١٩٨ | ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ |
| سورة الأعلى | | |
| ١٦، ١٧ | ١٤٥، ٧٥ | ﴿بَلِّغْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ |
| سورة الفجر | | |
| ١٩، ٢٠ | ١٤٦ | ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ |
| سورة البلد | | |
| ٤ | ٢١٠، ٢١٠، ٢١١ | ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ |
| سورة الضحى | | |
| ٨ | ١٣٠، ٢٣٦، ٣١٥ | ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ |
| ١١ | ٣٣١ | ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ |

| رقم الآية | رقم الصفحة | الآية |
|---------------|------------|---|
| سورة العلق | | |
| ٧، ٦ | ٢٤٩ | ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظِرٌ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَضَ ﴿٧﴾ ﴾ |
| سورة الزلزلة | | |
| ٨، ٧ | ٢٠٠ | ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ ﴾ |
| سورة العاديات | | |
| ٨ | ٣١٥ | ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ |
| سورة التكاثر | | |
| ١ | ٣٩٠، ٩١ | ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾ |
| سورة العصر | | |
| ٣ | ١٢٠ | ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ |
| سورة الهمزة | | |
| ٣ - ١ | ٢٤٩ | ﴿ وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُحْمَةً ﴿١﴾ أَلَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٣﴾ ﴾ |
| سورة قريش | | |
| ٤ - ١ | ٣١٥ | ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٤﴾ ﴾ |
| سورة الماعون | | |
| ٥، ٤ | ٣٢ | ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ |

* * *





فهرس الأحاديث النبوية الشريفة



| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|--|
| | أ |
| ٢٤٤ | اتَّخِذُوا الْغَنَمَ؛ فَإِنَّهَا بَرَكَةٌ |
| ٢٠ | اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ |
| ٢٢١ | اتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ |
| ٤٣ | الإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الصُّدْرِ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ |
| ٨٧ | اِثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ: الْمَوْتُ، وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قَلَّةَ الْمَالِ |
| ٢٨ | اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمَوْبِقَاتِ. قِيلَ: وَمَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ |
| ٤٧ | اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْحَرَامِ سُتْرَةً مِنَ الْحَلَالِ |
| ٢٥٢ | أَحِبَّ الْأَعْمَالَ إِلَى اللَّهِ سُرُورَ تَدْخُلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ |
| ٨٥ | احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ |
| ٨١ | إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا وَجَعَلَ عِبْدًا حِمَاهُ الدُّنْيَا، كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءِ |
| ٢٧٧ | إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بَعْدَ شَرِّ، أَهْلَكَ مَالَهُ فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ |
| ١٦٨ | إِذَا أَرَدْتَ اللَّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكَ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّابِّ |
| ٢٢٦ | إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ |
| ١٠٣ | إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ |

| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|---|
| ٦٩ | إذا رأيتم الرجلَ قد أُعْطِيَ زُهْدًا في الدُّنيا، وقَلَّةَ مَنْطِقٍ، فاقْتربوا منه |
| ٣١٦ | إذا قامت الساعةُ وفي يد أحدكم فسيلةٌ |
| ٢٢٣ | أربعٌ مَنْ أُعْطِيَهُنَّ فقد أُعْطِيَ خَيْرَ الدُّنيا والآخرة: قلبٌ شاكِر، ولسانٌ ذاكِر |
| ٢١٧ | أربعٌ من السعادة: المرأةُ الصَّالحة، والمسكنُ الواسع، والجارُ الصالح |
| ٦٧ | ازهد في الدُّنيا يحبُّك اللهُ، وازهد فيما في أيدي النَّاسِ يحبُّك النَّاسُ |
| ٩٤ | أظنُّكم سمعتم أنَّ أبا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بشيءٍ من البحرين؟ |
| ٢٤٢ | أعطوه حيثُ بلغ السَّوْطَ |
| ٣٩٣، ٣٠٨ | أفضل الصوم: صوم داود |
| ٢٥٤ | أكثرهم للموتِ ذكراً، وأشدُّهم له استعداداً |
| ١٩١ | أكثروا ذكراً هاذم اللذات: الموت |
| ٩٧ | الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلا مَنْ قال هكذا وهكذا، وكَسَبَهُ من طيِّبٍ |
| ٨٥ | ألا أُخْبِرُكم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيفٍ مُستضعفٍ، لو يقسم على الله لأبره |
| ٢٩ | ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالوا: بلى، يا رسول الله |
| ١٢٧ | ألا إنَّ سلعة الله غالية، ألا إنَّ سلعة الله الجنة |
| ٩ | ألا إنَّ في الجسدِ مُضْغَةً، إذا صَلَّحت صَلَّحَ الجسدُ كُلُّهُ |
| ٣٠٠ | اللهمَّ اجعلْ حبَّكَ أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي، ومن الماء البارد |
| ٩٠ | اللهمَّ اجعلْ رزقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوَّةً. وفي رواية: كَفَافًا |
| ٨٤ | اللهمَّ أحييني مسكينًا، وتوفِّني مسكينًا، واحشرنِي في زمرة المساكين |
| ١١٥ | اللهمَّ اقسِمْ لنا من خشيتك ما تحولُ به بيننا وبين معاصيك |
| ٢٤٠ | اللهمَّ أكثِرْ مالَه وولده، وباركْ له |
| ٢٣٧ | اللهمَّ إنِّي أسألك الهدى والتُّقى والعفاف والغنى |



| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|---|
| ٢٣٧ | اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ الْقَبْرِ |
| ٢٥٢ | اللهمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ |
| ١٨٤ | اللهمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ |
| ٢٦٠ | اللهمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ كَسَوْتَنِيهِ، أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهِ وَخَيْرِ مَا صَنَعَ لَهُ |
| ٢٦٧ | أَمَا يَجِدُ هَذَا مَا يُسَكِّنُ بِهِ رَأْسَهُ؟. وَرَأَى رَجُلًا عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ |
| ٢٤١ | أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ |
| ١٦٦ | إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَمَاهُ عَنِ الدُّنْيَا، كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَةَ الْمَاءِ |
| ٨١ | إِنَّ اللَّهَ ﷻ لِيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يَحِبُّهُ |
| ٢٩٩ | إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ |
| ٢٣٤ | إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ |
| ٣٦٩ | إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ |
| ٢٦٠ | إِنَّ اللَّهَ لِيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا |
| ٢٣٤ | إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ إِذَا عَمَلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتَّقَنَهُ |
| ١٢٤ | إِنَّ أَمَامَكُمْ عَقِبَةً كَوْوَدًا، لَا يَجُوزُهَا الْمُثْقَلُونَ |
| ٢٩٧ | إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمِنُونَ وَيَشْهَدُونَ وَلَا يَسْتَشْهَدُونَ |
| ٤١ | إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلْمَأ؟! |
| ٤٢ | إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ |
| ٨٢ | إِنَّ حَوْضِي مَا بَيْنَ عَدَنَ إِلَى عَمَّانَ، أَكْوَابُهُ عِدَدُ النُّجُومِ |
| ١٨٣، ٨٨ | إِنَّ الدُّنْيَا حَلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا |
| ٩٢ | إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ، وَمَا وَالَاهُ، وَعَالَمٌ أَوْ مَتَعَلِّمٌ |
| ٨٣ | إِنَّ فُقَرَاءَ أُمَّتِي الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا |

| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|---|
| ٣١٢ | إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صَغَارًا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ! |
| ٣٠٠ | إِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ مَاءٌ بَاتَ فِي شِنَّةٍ، وَإِلَّا كَرَعْنَا |
| ٢٩٩ | إِنَّ لَجْسِدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا |
| ١٨٤، ٩٣ | إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ |
| ٢٧٦ | إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَادًا لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ |
| ٩٢ | إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مِثْلًا لِلدُّنْيَا، وَإِنْ قَزَحَهُ وَمَلَحَهُ، فَانظُرْ إِلَى مَا يَصِيرُ |
| ١٨٣، ٩٥ | إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي: مَا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزَيْتَتِهَا |
| ٨٨ | إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ جَاءَ أَحَدَكُمْ يَسْأَلُهُ دِينَارًا لَمْ يَعْطِهِ، وَلَوْ سَأَلَهُ دَرَاهِمًا لَمْ يَعْطِهِ |
| ٨٠ | إِنَّ وِرَاءَكُمْ عَقِبَةٌ كَوْوِدًا لَا يَجُوزُهَا الْمُثْقَلُونَ |
| ٧٣ | الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ |
| ٢١٩ | أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى آيَةَ التَّخْيِيرِ فَبَدَأَ بِي أُولِ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ فَاخْتَرْتَهُ |
| ٨٦ | انظُرْ أَرْفَعَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ. قَالَ: فَانظُرْتُ، فَإِذَا رَجُلٌ عَلَيْهِ حُلَّةٌ |
| ٢٤٤ | إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ |
| ٢٢٨ | إِنَّكَ لَتَوْجِرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى اللَّقْمَةَ تَضَعُهَا فِي فَمِ امْرَأَتِكَ |
| ١٣٢، ١١٠ | إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى |
| ٢٧٢ | إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، أَكُلُّ كَمَا تَأْكُلُ الْعَبِيدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا تَجْلِسُ الْعَبِيدُ |
| ٩٥ | إِنَّمَا أَهْلُكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَمُ الدِّينَارُ وَالدَّرَاهِمُ، وَهَمَا مُهْلِكَاكُمْ |
| ٨٧ | إِنَّمَا تُنصِرُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بضعيفها: بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم |
| ١٤١ | إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ رِزْقًا مَالًا وَعِلْمًا، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ |
| ٢٩١ | إِنَّمَا هَلِكُ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالتَّشْدِيدِ، شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ |



| رقم الصفحة | الحديث |
|---------------|---|
| ٨٥ | إِنَّه لِيَأْتِي الرَّجُلَ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ |
| ٤١ | إِنِّي لِأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ |
| ٨٤ | أَوْصَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِخِصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ |
| ٨٩ | أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ أُصِحِّحْ لَكَ جِسْمَكَ |
| ٢٣٩ | أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ |
| ٢٩٧ | إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ، فَإِنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ |
| ٣٠ | إِيَّاكُمْ وَالتُّظْلَمَ، فَإِنَّ التُّظْلَمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالفَحْشَ |
| ٢٩١ | إِيَّاكُمْ وَالعُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْعُلُوِّ فِي الدِّينِ |
| ٣٨ | إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا |
| ٣٨، ٥ | إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهِنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكُنَّهُ |
| ٩١ | أَيُّكُمْ يَحِبُّ أَنْ هَذَا لَهُ بَدْرَهُمْ؟ فَقَالُوا: مَا نَحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ |
| ب | |
| ١٨٣ | بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ |
| ٣٣ | بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشُّرْكِ - أَوْ الْكُفْرِ - تَرْكُ الصَّلَاةِ |
| ت | |
| ٢٣٣ | التَّاجِرُ الصَّدُوقُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ |
| ١٥٣، ١٢٥، ١٠٩ | تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْقَطِيفَةِ |
| ٢٢٤، ٢١٧ | تُنَكِّحُ الْمَرْأَةَ لِأَرْبَعٍ: لِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِمَالِهَا، وَلِدِينِهَا |
| ث | |
| ٣٠ | ثَلَاثُ مَهْلِكَاتٍ: شَحٌّ مَطَاعٌ، وَهَوَى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِرَأْيِهِ |
| ١٨٦ | ثَلَاثَةُ أَهْلَةٍ فِي شَهْرَيْنِ وَمَا أَوْقَدَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ نَارَ |

| رقم الصفحة | الحديث |
|---------------------------------|---|
| ح | |
| ١٣٠، ٢٢٤، ٣٥٣، ١٦٨، ١٧١، ٢١٧ | حُبُّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ: النَّسَاءُ وَالطَّيِّبُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ |
| ١٠٧، ١٤٦ | حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَّةُ الآخِرَةِ |
| ٢٢٤ | حديث أم زرع |
| ٩٣ | حُلُوَّةُ الدُّنْيَا مَرَّةً الآخِرَةِ، وَمَرَّةً الدُّنْيَا حُلُوَّةُ الآخِرَةِ |
| ٢٦٠ | الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه |
| خ | |
| ٢٤٠ | خُذْ عَلَيْكَ ثِيَابَكَ وَسِلَاحَكَ، ثُمَّ اتَّعْنِي |
| ٢٢٦ | خَيْرُ الصَّدَاقِ أَيْسَرُهُ |
| ٢٢٤ | خَيْرُ النَّسَاءِ مَنْ تَسَرَّتْ إِذَا نَظَرَ، وَتَطِيعُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تَخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ |
| د | |
| ٤٣، ٥٢ | دَعِ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ |
| ٨٨ | الدُّنْيَا حُلُوَّةُ خَضِرَةٍ، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا |
| ٩٤ | الدُّنْيَا دَارٌ مَنْ لَا دَارَ لَهُ، وَلَهَا يَجْمَعُ مَنْ لَا عَقْلَ لَهُ |
| ١٦٧ | الدُّنْيَا سَجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ |
| ١٣١، ٢١٧، ٢٥٣، ٢٢٤ | الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ |
| ١٧٢ | الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذَكَرَ اللَّهَ وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا أَوْ مَتَعَلِّمًا |
| ١٧٢ | الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا ابْتِغِيَ بِهِ وَجْهَ اللَّهِ |



| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|---|
| ر | |
| ١٠٩، ٨٧ | رُبَّ أشعثٍ أغبر ذي طَمْرِين لا يُؤْبِه له، لو أقسم على الله لأبره |
| ٢١٧ | ردّ رسول الله على عثمان بن مظعون التبتل |
| ٢٦٦ | رِقَّةُ الثِّيَابِ وَغِلْظُهَا، وَلِيْنُهَا وَخَشُونَتُهَا، وَطَوْلُهَا وَقَصْرُهَا |
| ٦٨ | الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، وَلَا إِضَاعَةِ الْمَالِ |
| س | |
| ٢١٣ | سأل موسى ربه فقال: يا رب، ما أدنى أهل الجنة منزلةً؟ |
| ش | |
| ٢٧٤ | شغلني هذا عنكم، نظرةٌ إليه، ونظرةٌ إليكم |
| ١٢١ | الشیطانُ مع الواحد، وهو من الاثنين أبعدُ |
| ص | |
| ٣٢ | الصلواتُ الخمس، والجمعةُ إلى الجمعة، ورمضانُ إلى رمضان |
| ط | |
| ٨٣ | طوبى لعبدٍ أخذ بعنان فرسه في سبيل الله |
| ع | |
| ١٩٢ | عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقُه |
| ١٦٨ | عهد إلينا أن يكون بلغة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب |
| ٣٢ | العهدُ الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر |
| غ | |
| ٩٦ | غير ذلك أخوفُ عليكم، حين تُصَبُّ عليكم الدنيا صبًّا |

| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|--|
| ف | |
| ١٢١ | فإنَّما يأكلُ الذَّبُّ من الغنمِ القاصيةَ |
| ١٨٦ | فحمد الله وسمي وشرب الفضلة |
| ٣٠٣ | فراشٌ للرجل، وفراشٌ لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان |
| ٣٠٣ | فرَّقوا بينهم في المضاجع |
| ٣٤٤ | فمَن اتَّقَى الشُّبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه |
| ١٨٦ | فوجدته قد وضع حجراً بينه وبين إزاره |
| ١٨٣ | فوالله ما الفقرُ أخشى عليكم، ولكنْ أخشى أن تُبْسَطَ عليكم الدنيا |
| ق | |
| ٢١٤ | قال تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحينَ في الجنةِ ما لا عينٌ رأت |
| ٩٥ | قال الشيطانُ لعنه الله: لن يسلمَ مِنِّي صاحبُ المالِ |
| ١٧٦ | القبرِ أوَّلِ منازلِ الآخرةِ |
| ٢٧٤ | قبض رسول الله ﷺ في هذين |
| ٩٠ | قد أفلح من أسلم، ورزقَ كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه |
| ٨٣ | قمتُ على باب الجنةِ، فكان عامَّةٌ من دخلها المساكينُ |
| ك | |
| ٢٤٦ | كاد الفقرُ أن يكونَ كُفراً |
| ٢٢٠ | كان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن منه |
| ٢٨٠ | كان ضجاع رسول الله ﷺ الذي ينام عليه وسادة من آدم |
| ٢٢١ | كان لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندهن |
| ٢٦٧ | كان لرسول الله ﷺ بُرد يمنية، وإزار من نسج عُمان |



| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|--|
| ٣٠٠ | كان له يستقى له الماء العذب من بئر السُّقيا |
| ٢٩٥ | كُفَّ عنا جُشاءك، فإنَّ أكثرهم شَبَعًا في الدُّنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة |
| ٦٩ | كفى بالموتِ مُزهدًا في الدُّنيا، ومُرغَّبًا في الآخرة |
| ٤٠ | كلُّ أمتي معافى إلا المجاهرين |
| ٢٧٨ | كلُّ نفقةٍ في الأرض يؤجرُ عليها، إلا ما أنفقه في التراب |
| ٣٢٨ | كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيته |
| ٢٩٥ | كُلُوا واشربوا وتصدَّقوا، ما لم يخالطه إسرافٌ ولا مَخيلة |
| ١٧٨ ، ١٦٨ | كُن في الدُّنيا كأنك غريبٌ أو عابرٌ سبيلٍ |
| ٢٠ | كن ورعًا تكنُ أعبدَ الناس |
| ٦٩ | كنتُ نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها، فإنها تُزهدُ في الدُّنيا وتُذكِّرُ الآخرة |
| ٢٤٤ ، ٢٤٣ | كَيِّتان |
| ٣٩١ | الكَيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت |
| ل | |
| ٣٤٨ | لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي |
| ١٨٩ | لا تزال طائفةٌ من أمتي قائمةً بأمر الله |
| ١٤١ | لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه |
| ٦٩ | لا تسبَّنَّ أحدًا، ولا تزهدُ في معروفٍ |
| ٩٥ | لا تُفتح الدُّنيا على أحدٍ إلا ألقى الله رِجْلَهُ بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة |
| ٢٢٩ | لا تفعل، فإن مقامَ أحدكم في سبيلِ الله أفضلُ من صلواته في بيته |
| ١٦٦ | لا تلبسوا الحريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تشربوا في آنيةِ الذهبِ والفضَّة |
| ١٤٠ | لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل أتاه الله مالًا، فسلَّطه على هلكته في الحقِّ |

| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|---|
| ١٠٨ | لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى |
| ٥٣، ٤٦ | لا يبلغ العبد أن يكون من الممتقين حتى يدع ما لا بأس به حذرًا لما به البأس |
| ١٥٥ | لا يخلون رجلًا بامرأة إلا مع ذي محرم |
| ٣٠ | لا يدخل الجنة قاطع |
| ٣٠ | لا يدخل الجنة قتات |
| ٣٠ | لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر |
| ١٥٥ | لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها |
| ٢٤٠ | لأن تترك ورثتك أغنياء، خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس |
| ١٥٥ | لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة |
| ٦٨ | لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر |
| ٦٩ | لو أنكم تكونون إذا خرجتم من عندي كنتم على حالكم ذلك |
| ٢٩٧ | لو كان هذا في غير هذا لكان خيرًا لك |
| ٩٢ | لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء |
| | م |
| ٢٢٤ | ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيرًا له من زوجة صالحة |
| ٩٤ | ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر |
| ٣٤٧، ٢٣٣ | ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده... |
| ٢٨٠ | ما الذي أبكاك يا ابن الخطاب؟ قال: ذكرت كسرى وقيصر |
| ٢٢١ | ما تركت بعدي فتنة أضرت على الرجال من النساء |
| ٢١٢، ٩٣ | ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم يرجع! |
| ١٨٤، ٩٣ | ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال |



| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|--|
| ٣٩١ | ما رأيتُ مثلَ الجنةِ نامِ طالبُها، وما رأيتُ مثلَ النارِ نامِ هاربُها |
| ٨٥ | ما رأيك في هذا؟. قال: رجلٌ من أشرفِ النَّاسِ |
| ٢٩٦، ٢٧٢ | ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة، من طعام البر ثلاث ليال تباعاً، حتى قبض |
| ٢٦٧ | ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوب مهنته؟! |
| ١٦٨ | ما لي وللدنيا؟ إنَّما مثلي ومثُلُ الدنيا كراكب قال (نام القيلولة) |
| ٣١٦ | ما المسؤولُ عنها بأعلم من السائل |
| ٢٩٥ | ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمن صلبه |
| ٩١ | ما من عبدٍ ولا أمةٍ إلا وله ثلاثةُ أخلاء: فخليلٌ يقول: أنا معك |
| ٢٣٢ | ما من مسلمٍ يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طيرٌ أو إنسانٌ |
| ٢٤٠، ٢٣٧ | ما نفعني مالٌ كمال أبي بكر |
| ٢٧٨ | ما هذا؟. قلنا: خُصَّ لنا قد وهى. فقال: أرى الأمرَ أعجلُ من ذلك |
| ٩٧ | ما يُنيك، يا ابن الخطاب؟. قلتُ: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي |
| ٣٤ | مَنْ آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته، مُثِّل له يومَ القيامةِ شجاعاً أقرعَ |
| ٢٦٦ | من أيِّ المال؟. قلتُ: من كلِّ المالِ قد آتانا اللهُ رِزقاً: من الإبل |
| ١٢٨ | مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ |
| ٥ | مَنْ خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنَّ سلعةَ الله غالية |
| ١٦٨ | من رأى من فضل عليه في الخلق والرزق فليُنظر إلى من هو أسفل منه |
| ١٦٦ | مَنْ شرب الخمرَ في الدنيا لم يشربها في الآخرة |
| ٣٤٩ | مَنْ صمت نجاً |
| ١١٠ | مَنْ طلب العلمَ لِيُجَارِيَ به العلماء، أو لِيُمارِيَ به السفهاء |
| ١٣٠ | من كانت الدنيا همَّه، فرَّق اللهُ عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه |

| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|---|
| ١٢٣ | مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ، فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ |
| ٥ | مَنْ كَانَ هُمُّهُ الْآخِرَةُ، جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ |
| ٣٠١ | مَنْ لَبَسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا، أَلْبَسَهُ اللَّهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ |
| ١٦٦ | مَنْ لَبَسَ الْحَرِيرَ فِي الدُّنْيَا، لَمْ يَلْبَسْهُ فِي الْآخِرَةِ |
| ٤٠٢ | مَنْ يَرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ |
| ١٥٤ | مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَتَيْهِ (يَعْنِي الْفَمَ) وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ (يَعْنِي الْفَرْجَ) |
| ١٢٠ | الْمُؤْمِنُ الَّذِي يَخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهِمَ |
| ١٢١ | الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا |
| ١٢١ | الْمُؤْمِنُ مَرَأَةٌ أَخِيهِ |
| ٣٩ | الْمُؤْمِنُ يَرَى ذَنْبَهُ كَالْجِبَلِ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ |
| ن | |
| ١٦٣ | النَّاجِي مِنْهَا وَاحِدَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ هِيَ؟ قَالَ: مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي |
| ٢٦٨ | نَعَمْ، إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى إِخْوَانِهِ، فَلْيَهَيِّئْ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ |
| ٢٤٦، ١٣٠ | نِعَمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ |
| ١٠٣ | نَعِمْتَ الدَّارُ الدُّنْيَا لِمَنْ تَزَوَّدَ مِنْهَا لِآخِرَتِهِ حَتَّى يُرْضِيَ رَبَّهُ |
| ٢٤٠ | نَهَى عَنِ إِضَاعَةِ الْمَالِ |
| هـ | |
| ١٠٩ | هَذَا خَيْرٌ مِنْ مَلءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا |
| ٢٢٥ | هَذِهِ بِتِلْكَ |
| ٨١ | هَلْ تَدْرُونَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ﷻ؟ |
| ٨٧ | هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضِعْفَائِكُمْ؟ |



| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|--|
| ٩٦ | هم الأخسرون، ورب الكعبة |
| ٩٧ | هم الأكثرون أموالاً، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا - من بين يديه |
| و | |
| ٢٦٨ | وأي شيء فعلت؟ نظرت في ظل الماء، فهيتأت من لحيتي ورأسي |
| ٢٢٧ | وفي بضع أحدكم صدقة. قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته |
| ١٤٤ | ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا |
| ١٢٤ | وليكن بُلغَةُ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب، حتى يلقاني |
| ٢٤٤ | وما أبقيت لأهلك |
| ٤٦ | ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام |
| ٣٤٩ | وهل يكبُ النَّاسُ في النَّارِ على وجوههم - أو قال: على مناخرهم - |
| ي | |
| ٨٤ | يا أبا بكر، لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك |
| ٩٦ | يا أبا ذر. قلت: لبيك، يا رسول الله. قال: ما يسرني أن عندي مثل أحدٍ |
| ٥ | يا أبا هريرة، كن ورعاً، تكن أعبد الناس، وكن قيعاً، تكن أشكر الناس |
| ٢٦٠ | يا غلام سم الله وكل بيمينك |
| ٢٢٥، ٢١٧ | يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر |
| ٩٠ | يتبع الميِّت ثلاث: أهله، وماله، وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد |
| ١٨٠ | يحبس لأهله قوت سنتهم |
| ١٩٨ | يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرُلًا |
| ١٢١ | يدُ الله مع الجماعة |
| ٨٣ | يدخل فقراء أممي الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً. فقيل: صفهم لنا؟ |

| رقم الصفحة | الحديث |
|------------|--|
| ٢٤٣ | يدخلُ الفقراءُ الجنةَ قبلَ الأغنياءِ بخمسمائةِ عامٍ |
| ٢٣٩ ، ٢٣٧ | اليَدُ العليا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفلى |
| ٨٣ | يُعْطونَ كُلَّ الذي عليهم، ولا يُعْطونَ كُلَّ الذي لهم |
| ٩١ | يقولُ ابنُ آدمَ: مالي مالي! وهل لك يا ابنَ آدمَ من مالِك |
| ١٧٢ | يُؤْتى بالدينا يومَ القيامةِ، فيقال: ميّزوا منها ما كان لله وَحْدَكَ |
| ١٥٠ ، ٩٧ | يوشكُ الأممُ أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلةُ إلى قَصْعَتِها |

* * *



فهرس الموضوعات

- ٤ ❖ من الدستور الإلهي للبشرية
- ٥ ❖ من مشكاة النبوة الخاتمة
- ٧ • مقدمة
- ١٤ ❖ تمهيد: أهداف النَّاس في هذه الدنيا
- ١٤ للناس في هذه الدنيا أهداف شتى، فهم بالنَّظر إليها أنواع
- ١٦ الفرق بين الورع والزهد
- ١٧ أهمية الورع والزهد
- ١٧ لماذا خلقنا الله وَعَلَيْكُمْ ؟
- ١٨ كيف نحقق العبودية لله سبحانه؟
- ١٩ حقيقة الدين
- ١٩ ابتلاء الله عباده بالتكليف
- ١٩ التكليف فعل وترك
- ١٩ الورع والزهد يدخلان في جانب الترك
- ٢١ الميزان الذي لا يميل والمعيار الذي لا يضلُّ
- ٢١ الورع سابق على الزهد



• الباب الأول: الورع ٢٣

❖ الفصل الأول: تعريف الورع وحقيقته ٢٥

تعريف الورع لغة واصطلاحًا ٢٥

من أقوال السلف في تعريف الورع ٢٦

❖ الفصل الثاني: درجات الورع ومراتبه ٢٧

المرتبة الأولى: الورع عن اقتراف الكبائر ٢٨

تعريف الكبيرة ٢٨

الكبائر التي يغفل عنها كثير من الناس ٢٩

اجتناب كبائر الإثم ٣١

تفسير اللّم ٣١

ترك الكبائر مكفر للصغائر ٣١

كبائر ترك المأمورات أشد من كبائر فعل المحظورات ٣٢

كبيرة ترك الصلاة ٣٢

كبيرة ترك الزكاة ٣٣

كبائر الإثم والفواحش في عصرنا ٣٤

المرتبة الثانية: الورع عن ارتكاب الصغائر ٣٥

لغو الحديث والخوض في الباطل ٣٦

فاكهة المجالس: الغيبة والاستماع إليها ٣٦

الاستماع إلى الأغاني الخليعة ٣٧

هل في الصغائر من خطر؟ ٣٧

خطورة الإصرار على الصغائر والإكثار منها ٣٨

إحساس أصحاب القلوب الحية بخطر الذنوب ٣٩



- ٤٠ الأسباب التي تجعل الصغيرة كبيرة
- ٤٠ خطر الغفلة عن المعصية ونسيان الاستغفار
- ٤١ ورع العدول
- ٤٣ من أين تأتي الشبهة؟
- ٤٤ التورع عن المكروه التحريمي
- ٤٥ من أقوال السلف في اجتناب الشُّبهات
- ٤٥ الورع عن بعض الحلال
- ٤٦ الورع عن المكروهات التنزيهية
- ٤٨ نماذج من ورع المتقدمين
- ٤٨ ورع أخت بشر الحافي
- ٤٨ ورع السيدة بديعة الإيجية ووالدها
- ٤٩ ورع والد الحافظ ابن عُقدة
- ٤٩ ورع الإمام أبي إسحاق الشيرازي
- ٥٠ المرتبة الخامسة: ترك كل ما يشغل عن الله والآخرة
- ٥١ أمثلة الدرجات الأربع في الورع وشواهدا
- ٥١ ورع العدول
- ٥٢ ورع الصالحين
- ٥٣ ورع المُتَّقِينَ
- ٥٣ الاحتراز عما يتسامح به الناس
- ٥٥ التورع عن الزينة خشية أن تدعوَ إلى غيرها
- ٥٦ الأخذ من المباحات قدر الحاجة
- ٥٧ ورع الصَّديقين
- ٥٨ دقائق الورع عند الصديقين

- أول الورع وغايته ٥٩
- معالجة الورع صعوبة ويُسرًا ٦٠
- كمال الورع في تحقيق ابن تيمية ٦٠
- القدوات يُعلِّمون الورع ٦١

• الباب الثاني: الزهد ٦٥

- ❖ تمهيد ٦٧
- كلمة الزُّهد في القرآن والسُّنة ٦٧
- شروع مصطلح الزُّهد والكتب المؤلفة فيه ٧٠
- إطلاق وصف الزُّهاد على جماعة من السلف ٧٠
- هل يجوز استخدام كلمة «الزهد»؟ ٧١
- التحذير من التجاوزات والتطرفات ٧١
- حكم الزهد ٧١
- مكونات حقيقة الزهد ٧٢
- أثر العنصر الوجداني الشعوري في العنصر العملي السلوكي ٧٣

❖ الفصل الأول: التحذير من فتنه الدنيا ٧٤

- أولاً: تحذير القرآن من الدنيا ٧٤
- إيثار الدنيا على الآخرة من أسباب الانحراف عن الحق ٧٧
- الدنيا ثمن قليل ٧٧
- التحذير من الانخداع بغرور الدنيا والشيطان ٧٨
- عَرَض الدنيا ٧٨
- ثانياً: التحذير من الدنيا في السنة النبوية ٨٠



❖ الفصل الثاني: المراد بالدُّنيا المذمومة في القرآن والسُّنَّة ٩٩

٩٩ ليس المذموم زمان الدنيا

٩٩ تعاقب الليل والنهار من نعم الله على الإنسان

١٠١ ليس المذموم مكان الدُّنيا ولا ما فيها

١٠٢ ليس من الدُّنيا المذمومة

١٠٢ تمييز أهل البصيرة بين ما يُدْم من الدُّنيا وما يُمدَح فيها

❖ الفصل الثالث: ما ينكره الإسلام من الدنيا ١٠٦

١٠٦ حبُّ الدُّنيا والحرص عليها

١٠٦ تقديم الدِّين على الدُّنيا عند تعارضهما

١٠٧ حقيقة الضعف في الأُمَّة ومنابعه

١٠٩ اتخاذ أعمال الآخرة وسيلة لكسب الدنيا

❖ الفصل الرابع: تعريف الزُّهد عند علماء السلوك ١١١

١١١ عناية علماء السلوك بالزهد

١١١ الاختلاف في تعريف الزُّهد وتحديد مفهومه

١١٢ الزهد في الدُّنيا بثلاثة أشياء من أعمال القلوب

١١٣ شرح الحافظ ابن رجب لمعنى هذا الأثر

١١٣ الثقة بما عند الله

١١٥ الرغبة في ثواب الله

١١٥ استواء الحمد والذم في الحق

١١٦ لا فرح بالموجود ولا أسى على المفقود

١١٦ قصر الأمل في الحياة

١١٧ التواضع للخلق

- ١١٧..... الصبر عن الحرام والشكر على الحلال
- ١١٨..... الشكر في الرخاء والصبر في البلاء
- ١١٨..... زهد الفرض والفضل والسلامة
- ١١٨..... الزهد في النَّاس وفي النفس
- ١١٩..... الإسلام دين اجتماعي
- ١٢٠..... العمل لنصرة الإسلام
- ١٢١..... المقصود بالزهد في الناس
- ١٢٢..... الورع أول الزهد
- ١٢٢..... أهمية الحرص على الحلال الطيب
- ١٢٣..... الزهد إنما هو في الحلال
- ١٢٣..... ترك فضول الدنيا
- ١٢٤..... تقلُّ زهَّاد الصحابة من الدنيا
- ١٢٥..... الإعراض عن حبِّ الدرهم والدينار
- ١٢٧..... تحرِّي رضا الله في كلِّ ما يعمل
- ١٢٧..... ترك ما لا يعني
- ١٢٨..... الزهد استصغار الدنيا
- ١٢٨..... جعل الهموم المتشعبة همًّا واحدًا
- ١٣٠..... مناقشة قول عامر بن عبد قيس بعدم الحاجة إلى المال والنساء
- ١٣١..... ترك كل ما يشغل عن الله
- ١٣٢..... مناقشة قول الداراني في اعتباره التزوُّج والسفر وكتابة الحديث ركونًا إلى الدنيا
- ١٣٣..... الزهد عند ابن الأعرابي
- ١٣٤..... أعلى مراتب الزهد
- ١٣٦..... الزهد عند الإمام أحمد



- ١٣٦..... الزهد سفر القلب من الدنيا إلى الآخرة
- ١٣٧..... هل الزُّهد ممكن في هذه الأزمنة؟
- ١٣٨..... تحقيق ابن القيم في وجود الحلال في الدنيا
- ١٣٩..... ذم قارون لعدم قيامه بحق الله في المال
- ١٤٠..... ثناء الله تعالى على يوسف وداود وسليمان
- ١٤٠..... قوم سباً بين الشكر والكفر
- ١٤٠..... أحاديث لها دلالة

❖ الفصل الخامس: حقيقة الزُّهد في الدنيا ومكوناته..... ١٤٢

- ١٤٣..... الأول: إرادة الآخرة وإيثارها على الدنيا
- ١٤٧..... الآثار الخطيرة لحبِّ الدنيا وإيثارها على الآخرة
- ١٤٧..... اضطراب المعايير
- ١٤٩..... حُبُّ الدنيا وأثره في ضعف الأمة وإدخال الوهن عليها
- ١٥٢..... الثاني: الإعراض عن اتباع الشهوات
- ١٥٣..... تزيين الشهوات للناس
- ١٥٤..... التحذير من شهوات الدنيا الحسيّة والمعنويّة
- ١٥٤..... التحذير من شهوتي البطن والفرج
- ١٥٦..... أخطر الشهوات المعنوية

❖ الفصل السادس: موقف النَّاس من الحياة الدنيا..... ١٥٧

- ١٥٧..... ما الذي يُذمُّ في الدنيا؟
- ١٥٨..... طوائف أهل الدنيا الغافلون عن الآخرة
- ١٥٨..... الحريصون على كسب القوت والأكل
- ١٥٩..... الحريصون على شهوتي البطن والفرج

- الحريصون على الاستكثار من المال ١٥٩
- الحريصون على الثناء والمدح ١٥٩
- الحريصون على الجاه والمكانة ١٦٠
- المقصود من المطعم والملبس والمسكن ١٦٠
- طوائف المعرضين عن الدنيا ١٦١
- القاتلون أنفسهم ١٦١
- المشددون على أنفسهم ١٦١
- تاركو العبادة ١٦٢
- موقف الفرقة الناجية في التعامل مع الدنيا والشهوات ١٦٢
- منهج الصحابة الوسط ١٦٣
- تفاوت المؤمنين في فهم حقيقة الدنيا ١٦٤
- ١ - الظالم لنفسه ١٦٤
- ٢ - المقتصد ١٦٥
- ٣ - السابق بالخيرات ١٦٧
- السابقون صنفان ١٦٨
- تنوع مشاهد الزاهدين للزهد ١٦٩
- خشية الزهاد من الاشتغال بالدنيا عن الله ١٧١
- المقصود من الدنيا الملعونة ١٧٢
- ❖ الفصل السابع: عقبات في طريق الزهد ١٧٤
- أولاً: الغفلة ١٧٥
- الغفلة عن الموت ١٧٥
- الغفلة عما بعد الموت ١٧٥
- الغفلة عن مصاير الغابرين ١٧٦



- ١٧٦ الغفلة حجاب كثيف
- ١٧٧ أهمية يقظة القلب وبصيرته
- ١٧٧ ثانيًا: طول الأمل
- ١٧٨ من علامات الشقاوة
- ١٧٩ العناية بالتخطيط واستشراف المستقبل
- ١٧٩ تخطيط الرسول ﷺ لتأسيس الدولة
- ١٧٩ أهمية الأمل والتخطيط للمستقبل
- ١٨٠ سياسة الأمم تقوم على طول الأمل
- ١٨١ تربية الأفراد تربية إيمانية متوازنة
- ١٨٢ ثالثًا: سيادة القيم المادية
- ١٨٣ تحذير النبي ﷺ من فتنة الدنيا
- ١٨٤ المراد باتِّقاء الدُّنيا
- ١٨٤ التحذير من فتنة المال
- ١٨٤ المراد بفتنة المال
- ١٨٤ الثروة التي لا تنفذ والكنوز التي لا تفنى
- ١٨٦ رابعًا: افتقاد القدوة
- ١٨٦ المثل الأعلى في الزهد
- ١٨٧ أصحاب النبي ﷺ نماذج مشرفة في الزهد
- ١٨٨ تلاميذ الصحابة من التابعين
- ١٨٨ أثر صحبة الزاهدين
- ١٨٩ استمرار الخير في هذه الأمة
- ١٩٠ ❖ الفصل الثامن: بواعث الزهد
- ١٩٠ أولاً: ذكر الموت

- ١٩١ كيف ننتفع بذكر الموت؟
- ١٩٣ ثانيًا: الاعتبار بمصاير أهل الدنيا
- ١٩٤ قصة قارون
- ١٩٥ وقفات ونظرات في قصة قارون
- ١٩٦ نماذج من مصاير الذين غرتهم الدنيا
- ١٩٧ ثالثًا: استحضر الآخرة
- ١٩٨ وضع الكتب
- ١٩٨ الميزان
- ١٩٩ محكمة العدل الإلهية
- ١٩٩ شهادة الجوارح
- ٢٠٠ عدل الله وحكمته
- ٢٠٠ تكامل حلقات الوجود الإنساني
- ٢٠١ مراحل الوجود الإنساني
- ٢٠١ أثر استحضر الآخرة
- ٢٠٢ رابعًا: معرفة قيمة الدنيا
- ٢٠٣ صفات الدنيا الأساسية
- ٢٠٣ الدنيا متاع قليل
- ٢٠٤ الدنيا متاع زائل
- ٢٠٦ الدنيا سريعة التقلب
- ٢٠٨ حذر الزاهدين من غرور الدنيا
- ٢٠٩ الدنيا دار عناء ومتاعب
- ٢٠٩ أولها بكاء
- ٢٠٩ أوسطها عناء



- ٢١١ لذات الدنيا ممزوجة بالآلام
- ٢١٢ نسبة الدنيا إلى الآخرة
- ٢١٢ متاع الدنيا قليل بالنسبة للزمان
- ٢١٣ متاع الدنيا قليل بالنسبة للمكان والمساحة
- ٢١٥ ❖ الفصل التاسع: ليس من متطلّبات الزهد
- ٢١٥ أولاً: ليس من الزُّهد الإعراض عن الزواج
- ٢١٩ خطر الانشغال بالزوجة والأولاد عن حق الله تعالى
- ٢١٩ تخيير النبي ﷺ نساءه
- ٢١٩ هديه ﷺ في بيته ومع نسائه
- ٢٢٢ فتنة شعوب ومذاهب بجسد المرأة
- ٢٢٢ موقف رهبان المسيحية من المرأة
- ٢٢٣ وسطية الإسلام في موقفه من المرأة
- ٢٢٣ الترغيب في الزواج
- ٢٢٣ المرأة من نعم الله الكبرى
- ٢٢٤ العناية بجانب الجمال في المرأة
- ٢٢٤ سيرة النبي ﷺ مع زوجاته
- ٢٢٥ المحذور من جهة المرأة
- ٢٢٥ الاستمتاع الحرام بالمرأة
- ٢٢٦ تيسير سبل الزواج والاستمتاع الحلال
- ٢٢٦ الانشغال بالمرأة عن واجب الدين والأمة
- ٢٢٩ ثانياً: ليس من الزُّهد العزلة عن المجتمع
- ٢٣٠ مشاركة عبد الله بن المبارك في أنشطة الحياة المتنوعة
- ٢٣١ ثالثاً: العمل لكسب الدنيا ليس مذموماً ولا ينافي الزهد

- ٢٣١..... الأمر بالمشي في مناكب الأرض والتماس الرزق فيها
- ٢٣١..... سبب تخفيف صلاة الليل عن المسلمين
- ٢٣٢..... ابتغاء فضل الله في الحج
- ٢٣٢..... تعليم داود صناعة الحديد
- ٢٣٢..... صحاح الأحاديث تنوّه بالحِرَف والأعمال الدنيوية
- ٢٣٣..... الشروط التي تجعل العمل الاقتصادي عبادة لله وجهادًا في سبيله
- ٢٣٣..... النية الصحيحة
- ٢٣٤..... إحسان العمل وإتقانه
- ٢٣٤..... مشروعية العمل وإباحته
- ٢٣٤..... التزام حدود الله ورعاية حقوق الناس
- ٢٣٥..... الموازنة بين العمل للدين والدنيا
- ٢٣٥..... ٤ - ليس من ضرورة الزُّهد أن يعيش المسلم فقيرًا
- ٢٣٦..... سعة الرزق من ثمرات التقوى
- ٢٣٧..... من أدعيته ﷺ في شأن المال والغنى
- ٢٣٨..... ليس الغنى مناقضًا للصالح والتقوى
- ٢٣٩..... المفاضلة بين الغني الشاكر والفقير الصابر
- ٢٣٩..... ردُّ ابن الجوزي على الذين ذمُّوا الغنى
- ٢٤٠..... الغنى أداة خير للأخيار
- ٢٤١..... أثر المقصد في جمع المال
- ٢٤١..... مقاصد الصحابة في جمع المال والازدياد منه
- ٢٤٣..... سبب مجافاة بعض السلف للاستكثار من المال
- ٢٤٣..... الصبر على الفقر والشكر على الغنى
- ٢٤٣..... الرد على من كره أن يخلف الفقير شيئًا



- ٢٤٤ الردُّ على من زعم أن ليس للإنسان ادِّخار شيء لغده
- ٢٤٥ الردُّ على من خرج من ماله وتعرض للأوساخ والطلب من الناس
- ٢٤٦ عقد الغزالي كتابًا في ذمِّ حب المال
- ٢٤٦ استدلال الغزالي على فضيلة الفقر بآيتين
- ٢٤٧ بُعد الإمام الغزالي عن المعنى الدقيق للآيتين
- ٢٥٠ شُغل المال صاحبه عن واجب دينه
- ٢٥١ ميزان التفاضل عند الله
- ٢٥١ ماذا يُطلب من الغنيِّ ذي الثروة؟
- ٢٥٢ الوصايا الخمس على لسان المؤمنين من قوم موسى لقارون
- ٢٥٢ الوصية الأولى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾
- ٢٥٣ الوصية الثانية: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾
- ٢٥٤ كلام الغزالي في قصد سعادة الآخرة
- ٢٥٥ الوصية الثالثة: ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾
- ٢٥٥ الوصية الرابعة: ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾
- ٢٥٦ الوصية الخامسة: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾
- ٢٥٦ خامسًا: ليس من الزُّهد الإعراض عن الحياة الطيبة
- ٢٥٧ الإنكار على الذين حرّموا على أنفسهم الطيبات
- ٢٥٧ من أوصاف الرسول ﷺ الأساسية عند أهل الكتاب
- ٢٥٨ امتنان القرآن بالطيبات على المؤمنين
- ٢٥٨ موقف القرآن من المسلمين الذين أرادوا تحريم الطيبات
- ٢٥٨ المعاني التي وجّه إليها القرآن
- ٢٥٩ قيود الاستمتاع بالطيبات
- ٢٦٠ موقف خصوم الإسلام من الحديث عن الحياة الطيبة

٢٦١..... تخوُّف بعض المسلمين من الدعوة إلى الحياة الإسلامية الحقَّة.

٢٦٢..... سبب هذا الوهم العريض.

٢٦٢..... الحياة الإسلامية كما رسمها القرآن والسُّنة.

٢٦٢..... طبيعة الإنسان الماديَّة والروحيَّة.

٢٦٣..... لا تنافي بين الحكم والحكمة.

٢٦٣..... الإنكار على المتعجِّبين من بشرية الرسول.

٢٦٣..... التمتع بالطيبات من مقتضى الفطرة.

٢٦٣..... التمتع بطيبات الملابس.

٢٦٧..... رد ابن الجوزي على شبهة المتزمتين من المتصوِّفة.

❖ الفصل العاشر: حدود الزُّهد في ضروريات الحياة في نظر الإمام الغزالي..... ٢٦٩

٢٦٩..... بيان تفصيل الزُّهد فيما هو من ضروريات الحياة.

٢٧٠..... ضروريات الحياة الستة.

٢٧٠..... ١ - مهم المطعم.

٢٧٢..... أحوال الرسول والصحابة في زهدهم في المطاعم.

٢٧٣..... ٢ - مهم الملابس.

٢٧٣..... أحوال النبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم في زهدهم في الملابس.

٢٧٦..... ٣ - مُهمُّ المسكن.

٢٧٩..... ٤ - مهم الأثاث.

٢٨٠..... ٥ - مهم المنكح (الزواج).

٢٨٢..... ٦ - مُهمُّ المال والجاه.

❖ الفصل الحادي عشر: وقفات نقدية أمام الغلاة في الزهد..... ٢٨٤

٢٨٤..... اجتهاد الصوفية المخلصين في طاعة الله.



- أولاً: مصطلح الزُّهد والزهاد ليس مصطلحاً قرآنياً ولا نبوياً ٢٨٥
- من أوصاف المؤمنين في القرآن ٢٨٥
- من صفات المُتَّقِينَ في القرآن ٢٨٦
- صفات الأبرار والمحسنين ٢٨٨
- صفات عباد الرحمن ٢٨٨
- صفات أولي الألباب ٢٨٩
- ليس كل ما يروى عن الزهاد مقبولاً شرعاً ٢٩٠
- تحذيره ﷺ من الغلو في الدين ٢٩١
- بين أبي الدرداء وسلمان الفارسي ٢٩٢
- تصدّي ابن الجوزي للمنحرفين عن المنهج الوسط في كتابه «تلبيس إبليس» .. ٢٩٣
- النهي عن اتباع الشهوات والإسراف في الملذات ٢٩٥
- حاجة الأمة إلى التّقصّف من أجل الجهاد والأعمال الإنسانية الكبرى ٢٩٦
- محاربة الإسلام للترف والنعمومة والإفراط في الشّبّع ٢٩٧
- ثانياً: زهد العصور الماضية لا يصلح لعصرنا ٢٩٨
- مواصفات الطعام الصحي اللازم للإنسان ٢٩٩
- ضرورة المحافظة على النفس ٣٠٠
- قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» ٣٠٠
- اختلافات الأذواق والتوجهات ٣٠١
- ارتقاء نوع اللباس في عصرنا ٣٠١
- كلُّ لباس فيه شهرة فهو مكروه ٣٠٢
- البيوت السكنية في عصرنا ٣٠٢
- العناية بالأسرة والأولاد في مسكنهم وتعليمهم ٣٠٢
- ثالثاً: انتقاد منهج الإمام الغزالي ٣٠٤

- ٣٠٤ غلُّ الصوفية وشطحاتهم
- ٣٠٤ الاستدلال بالأحاديث الواهية
- ٣٠٥ شروط رواية الحديث الضعيف
- ٣٠٥ كثرة ما أورده الغزالي من أحاديث باطلة
- ٣٠٦ رجوعه كثيرًا إلى الوسط
- ٣٠٧ الوسطية في رياضة الطبائع
- ٣٠٧ الوسطية في الأخلاق
- ٣٠٩ أصناف النَّاس بالنسبة إلى الصراط المستقيم
- ٣١٠ الاقتداء بالفرقة الناجية
- ٣١٠ التوازن بين الخوف والرجاء
- ٣١١ رابعًا: الإسلام لا يعادي الحياة
- ٣١١ ماذا كان يسمع النَّاس من الأديان قبل الإسلام ورسول الإسلام؟
- ٣١٢ دعوة الرسول ﷺ إلى الحياة
- ٣١٢ ابتغاء فضل الله
- ٣١٣ العالم دليل على خالقه
- ٣١٣ تسخير الكون لخدمة الإنسان
- ٣١٥ نظرة الإسلام إلى المال والغنى وطيب الحياة
- ٣١٦ الحكمة من إخفاء وقت قيام الساعة
- ٣١٦ عمارة الأرض حتَّى آخر لحظة في الحياة
- ٣١٧ الصالحون لهم أموال وأولاد وتجارة
- ٣١٧ فضيلة الطُّمُوح الموجَّه إلى الخير
- ٣١٧ غلاة الصوفية لم يراعوا شأن الأمة
- ٣١٨ مقارنة «دريبر» الأمريكي بين مدينة أوروبا ومدينة العرب



• **الباب الثالث: زهد الخلفاء والعلماء وورعهم** ٣٢١

❖ **الفصل الأول: زهد عمر بن الخطاب وورعه (٢٣هـ)** ٣٢٣

..... ٣٢٣ طعام عمر

..... ٣٢٤ تشديده على أهله

..... ٣٢٤ ثياب عمر

..... ٣٢٥ كلمات في الورع والزهد لعمر

..... ٣٢٥ التزيّن للزوجة

..... ٣٢٦ إراحة المسلمين من تعبهم

..... ٣٢٧ معاملة عمر نفسه معاملة خاصة

..... ٣٢٨ الشعور بضخامة المسؤولية

❖ **الفصل الثاني: زهد علي بن أبي طالب وورعه (٤٠هـ)** ٣٣٠

..... ٣٣٠ تضييقه على نفسه وتوسعته على غيره

..... ٣٣١ موقفه من زهد عاصم بن زياد

..... ٣٣٢ الولاية أسوة للناس

..... ٣٣٢ شهادة معاوية وعمر بن عبد العزيز والحسن البصري

..... ٣٣٤ من أقوال وأفعال علي في الزهد

..... ٣٣٧ أئمة الهدى ومصايح العلم

..... ٣٣٧ أوصاف الزاهدين في الدنيا

❖ **الفصل الثالث: زهد عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ)** ٣٣٩

..... ٣٣٩ انشغاله بمسؤولية الخلافة عمّا يحبُّ

..... ٣٣٩ عظم مسؤولية الحاكم

..... ٣٤٠ إحساسه بواجبه وخشيته لربه

٣٤٠ زهده في اللباس

٣٤١ الأمة طالبة له مطلوبة منه

٣٤١ ابن أدهم وابن المبارك

٣٤٣ ❖ الفصل الرابع: إبراهيم بن أدهم «ت: ١٦٢هـ»

٣٤٣ معالم زهد ابن أدهم

٣٤٣ عزمه على تغيير منهج حياته

٣٤٤ من حياة الرغد إلى حياة العَمَّال الكادحين

٣٤٤ من كبار الزاهدين الأوائل

٣٤٥ ثناء الأئمة على إبراهيم بن أدهم

٣٤٦ كبر شأنه في الورع

٣٤٧ الزهد ثلاثة أصناف

٣٤٧ مقومات الزُّهد عند ابن أدهم

٣٤٧ ١ - تحري الحلال

٣٤٨ ٢ - الزُّهد في الشهرة وفي كلام الناس

٣٤٩ الكلام على أربعة أوجه

٣٥٠ ٣ - التقلُّل من الدُّنيا

٣٥٠ رفضه هبة إخوته وتصدُّقه بها

٣٥١ تنازله عن ميراث أبيه

٣٥٢ عدم قبوله الهدايا إلا بشروط

٣٥٣ امتناعه عن الزواج

٣٥٤ شدته على نفسه

٣٥٥ شدة مفارقة الوطن

٣٥٦ ٤ - خوف الله وحساب الآخرة



- ٣٥٧..... كيف يتم الورع
- ٣٥٨..... ٥ - سكينه النفس ورضاها بما قسم الله
- ٣٥٨..... رزق الله مضمون
- ٣٥٩..... لذة عيش ابن أدهم
- ٣٦٠..... ٦ - السخاء والإيثار
- ٣٦١..... ٧ - خدمة إخوانه وخدمة الناس
- ٣٦٣..... اشتراطه على رفقاءه الخدمة والأذان
- ٣٦٤..... مباسطته أصحابه
- ٣٦٥..... ٨ - الاهتمام بأمر الإسلام والمسلمين
- ٣٦٥..... مشاركته في الجهاد
- ٣٦٦..... جهاد الهوى
- ٣٦٦..... شجاعته وإيثاره
- ٣٦٧..... بُعده عن الجدل والخوض في الفتن
- ٣٦٧..... لماذا لا يستجاب الدعاء؟
- ٣٦٨..... ٩ - الابتعاد عن أهل السلطة
- ٣٦٩..... ١٠ - حبُّ الخمول والبعد عن الشهرة
- ٣٧١..... من الأتقياء الأخفياء
- ٣٧١..... اشتغاله بالعمل عن العلم
- ٣٧٢..... سبب تركه الحديث
- ٣٧٣..... ١١ - العبادة والعمل الصالح لله خالصًا
- ٣٧٤..... عبادته في رمضان
- ٣٧٦..... ❖ الفصل الخامس: عبد الله بن المبارك (١١٨ - ١٨١هـ)
- ٣٧٦..... نقاط الاتفاق والاختلاف بين شخصية ابن المبارك وابن أدهم
- ٣٧٧..... إمامته في عدة مجالات

- ٣٧٧ ترجمة الذهبي وابن كثير لابن المبارك
- ٣٧٨ أبواب الخير عند ابن المبارك
- ٣٧٩ منزلته بين العلماء
- ٣٨٤ معالم الزُّهد عند ابن المبارك
- ٣٨٥ ١ - تشدُّده في الورع
- ٣٨٥ تنازله عن بستان خصَّه به أبوه دون أخواته
- ٣٨٦ من عجائب ورعه
- ٣٨٧ ردّ ما فيه شبهة أعظم من الصدقة بأضعافه
- ٣٨٨ منهجه في الزهد
- ٣٨٨ تجارته وضربه في الأرض
- ٣٩٠ ٢ - الخوف من الله تعالى وحساب الآخرة
- ٣٩٢ ٣ - الاجتهاد في العبادة مع إخفائها
- ٣٩٣ ٤ - سخاؤه وتوسعته على إخوانه من أهل العلم
- ٣٩٥ ٥ - سخاؤه في الحج والجهاد
- ٣٩٦ ٦ - الحرص على الجهاد والرباط
- ٣٩٧ قتلته ستة من العلوج وحرصه على إخفاء العمل
- ٣٩٨ دعوته للفضيل بن عياض للحاق به في الجهاد
- ٣٩٩ ٧ - أدبه مع أصحابه وحُسن تربيته لتلاميذه
- ٣٩٩ أدبه مع حمّاد بن زيد
- ٤٠٠ في مجلس مالك بن أنس
- ٤٠١ حسن تربيته وتأديبه لتلاميذه
- ٤٠٢ ٨ - الفقه في الدين وطلب العلم وبثّه
- ٤٠٣ تفقّهه بفقه أبي حنيفة



- ٤٠٤ طلب العلم الذي يُعين على فهم القرآن أولى
- ٤٠٤ الجمع بين الأثر والرأي
- ٤٠٥ مذهبه في الحديث
- ٤٠٦ اعتماده على الكتابة أكثر من اعتماده على الحفظ
- ٤٠٦ إنكاره التديس في الحديث
- ٤٠٧ في صحيح الحديث شغل عن سقيمه
- ٤٠٧ فقهه للأولويات
- ٤٠٨ إيثاره للخلوة والخمول
- ٤٠٩ مجالسة الصحابة والتابعين أولى من الجلوس مع الناس
- ٤١٠ ٩ - اعتزاله أصحاب البدع ورجال السلطان
- ٤١٣ زجره عن أخذ الأموال من الأمراء
- ٤١٤ امتناعه عن لقاء الرشيد
- ٤١٥ ❖ الخاتمة
- ٤٢٩ • فهرس الآيات القرآنية الكريمة
- ٤٥٣ • فهرس الأحاديث النبوية الشريفة
- ٤٦٧ • فهرس الموضوعات

* * *



فهرس كتب المجلد

- ٥ ٨٠- التوبة إلى الله
- ٤١١ ٨١- الورع والزهد

* * *

غير مرخصة للطباعة

